المحجة البيضاء

في تهذيب الإحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله

محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني

المتوفى ١٠٩١ هـ

قدس سره

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري

الجزء الثامن

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص. ب: ٧١٢٠

كتاب المحبة والشوق والرضا والانس

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي نزّه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدّنيا و نضرته، وصفى سرائرهم عن ملاحظة غير حضرته، ثمّ استخلصها للعكوف على بساط عزّته، ثمّ تجلّى لها بأسمائه وصفاته حتّى أشرقت بأنوار معرفته، ثمّ كشف لها عن سبحات وجهه حتّى احترقت بنار محبّته، ثمّ احتجب عنها بكنه جلاله حتّى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فكلّما اهتزّت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدّهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته، و كلّما همّت بالانصراف عنه آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيّها الآئس عن نيل الحقّ بجهله وعجلته، فبقيت بين الردّ والقبول والصدّ والوصول غرقى في بحر معرفته، محترقة بنار محبّته، والصلاة على محمّد خاتم الأنبياء بكمال نبوّته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمّته، وقادة الحقّ و أزمّته و سلّم كثيراً.

أمّا بعد فإنّ المحبّة لله عزّ وجلّ هي الغاية القصوى من المقامات و الذّروة العليا من الدّرجات فما بعد إدراك المحبّة مقام إلّا و هو ثمرة من ثمراتها و تابع من توابعها كالشوق و الاُنس والرّضا و أخواتها، و لا قبل المحبّة مقام إلّا و هو مقدّمة من مقدّماتها كالتوبة و الصبر والزّهد وغيرها وسائر المقامات وإن عزّ وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، فأمّا محبّة الله عزّ وجلّ فقد عزّ الإيمان بها حتّى أنكر بعض العلماء إمكانها و قال: لامعنى لها إلّا المواظبة على طاعة الله عزّ و جلّ، و أمّا حقيقة المحبّة فمحال إلّا مع الجنس و المثال، و لمّا أنكروا

المحبّة أنكروا الأُنس والشوق ولذّة المناجاة وسائر لوازم الحبّ و توابعه و لابدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبّة ، ثمّ بيان حقيقتها و أسبابها ، ثمّ بيان أن لامستحقّ للمحبة إلّاالله عزّوجلّ ، ثمّ بيان أنّ أعظم اللّذات لذّة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثمّ بيان سبب زيادة لذّة النظر في الآخرة على المعرفة في الدّنيا ، ثمّ بيان الأسباب المقوّية لحبّ الله تعالى ثمّ بيان السبب في تفاوت الناس في الحبّ لله ، ثمّ بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله عزّوجلّ ، ثمّ بيان معنى الشوق ، ثمّ بيان محبّة الله عزّ و جلّ للعبد ، ثمّ القول في علامات محبّة العبدلله تعالى ، ثمّ بيان معنى الأُنس بالله تعالى ، ثمّ بيان معنى الانبساط في الأُنس ، ثمّ القول في معنى الرّضا وبيان فضيلته ، ثمّ بيان حقيقته ، ثمّ بيان أنّ الدّعاء و كراهة المعاصي لا تناقضه و كذا الفرار من المعاصي ، ثمّ بيان حكايات المحبّين و كلمات للمحبّين متفرّقة .

☼(بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى)☼

إعلم أنّ الأُمّة مجمعة على أنّ الحبّ لله عزّوجلّ ولرسوله فرض ولن يفترض ما لا وجود له و كيف يفسّر الحبّ بالطاعة و الطاعة تبع الحبّ و ثمرته فلابدّ أن يتقدّم الحبّ ثمّ بعد ذلك يطيع من أحبّ فمن شواهد الشرع في حبّ الله عزّوجلّ قوله : «يحبّهم ويحبّونه»[1] وقوله تعالى: «والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله» [2] وهودليل على إثبات الحبّ لله و إثبات التفاوت فيه ، و قد جعل النبيّ صلى الله عليه وآله الحبّ لله من شروط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : «أن يكون الله ورسوله أحبّ إليك ممّا سواهما »[3] وفي حديث آخر «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما »[4] وفي حديث آخر «لا يؤمن

(١) المائدة : ٥٩ . (٢) البقرة : ١٦٠ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ١١ في حديث .

(٤) أخرجه بمضمونه النسائي ج٨ ص٩٤ ، وأحمد في مسنده ج ٣ ص ١٧٢ ، والطبراني في الاوسط .

العبد حتّى أكون أحبّ إليه من ماله وأهله والناس أجمعين » [1] وفي رواية « ومن نفسه » .

كيف و قد قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم و أبناؤكم و إخوانكم - إلى قوله - أحبّ إليكم من الله ورسوله - الآية » [2] .

و إنّما ذلك جرى في معرض التهديد و الإنكار و قد أمر ﷺ بالمحبّة فقال : « أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبّوني لحبّ الله إيّاي » [3] .

و قد يروى أنّ رجلا قال : «يا رسول الله إنّي أُحبّك ، فقال: استعدّ للفقر ، فقال : إنّي أُحبّ الله ، فقال : استعدّ للبلاء » [4].

و عن عمر قال : نظر النبيّ ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً و عليه إهاب كبش قد تنطق به [5] فقال النبيّ ﷺ : «انظروا إلى هذا الرّجل الّذي قد نوّر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام و الشراب فدعاه حبّ الله و حبّ رسوله إلى ما ترون » [6].

و في الخبر المشهور «إنّ إبراهيم ﷺ قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله عزّ و جلّ إليه هل رأيت محبّاً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض » [7] و هذه لايجدها إلّا عبدٌ يحبّ الله عزّ وجلّ بكلّ قلبه فإذا علم أنّ الموت سبب اللّقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتّى يلتفت إليه و قد قال نبينا ﷺ في دعائه : « اللّهمّ ارزقني حبّك و حبّ

(١) أخرجه البخارى ج ١ ص١٢ من حديث أنس وأيضاً مسلم ج ١ ص ٤٩ بنحوه.

(٢) التوبة : ٢٤ .

(٣) أخرجه الترمذى ، والحاكم فى المستدرك ج ٣ ص ١٥٠ من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة و فيه « استعد للفاقة » دون آخر الحديث كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٧٤ .

(٥) أى شد وسطه به .

(٦) أخرجه أبو نعيم فى الحلية بسند حسن كما فى المغنى .

(٧) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

من يحبّك و حبّ مايقرّبني إلى حبّك واجعل حبّك أحبّ إليّ من الماء البارد»[١].

وجاء أعرابي إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: «يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: ماأعددت لها؟ فقال: ما أعددت لها كثير صلاة و صيام إلّا أنّي اُحبّ الله و رسوله فقال له: النبيّ عليه السلام: المرء مع من أحبّ» قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك[٢].

و قال بعض الصحابة: من ذاق من خالص محبّة الله عزّ وجلّ شغله ذلك عن طلب الدّنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال آخر: من عرف ربّه أحبّه، ومن عرف الدّنيا زهد فيها و أبغضها، والمؤمن لايلهو حتّى يغفل فإذا تفكّر حزن.

وقال أبوسليمان الدّاراني: إنّ من خلق الله تعالى خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدّنيا.

و يروى أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم و تغيّرت ألوانهم فقال لهم: ماالّذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حقّ على الله أن يؤمن الخائف، ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة اُخرى فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً فقال: ما الّذي بلغ بكم ماأرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنّة؟ قال: حقّ على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة اُخرى فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً كأنّ على وجوههم المرايا من النور فقال: ماالّذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حبّ الله عزّ وجلّ فقال: أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون.

و قال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم في الثلج فقلت له: أما تجد البرد؟ فقال: من شغله حبّ الله لم يجد البرد، عن سري السقطي أنّه قال: تدعى الاُمم يوم القيامة بأنبيائها فيقال: يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمّد غير المحبّين لله تعالى فإنّهم ينادون يا أولياء الله هلمّوا إلى الله سبحانه و تعالى فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً.

(١) تقدم عن الترمذي من حديث عبدالله بن يزيد الخطمي بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٢) رواه مسلم ج ٨ ص ٤٢، والطبراني والبزار كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٨٠.

و قال هرم بن حيّان : المؤمن إذا عرف ربّه عزّ وجلّ أحبّه وإذا أحبّه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدّنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الرّغبة وهو بجسده في الدّنيا وروحه في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذّنوب فكيف رضوانه ، و رضوانه يستغرق الآمال فكيف حبّه ، و حبّه يدهش العقول فكيف ودّه ، و ودّه ينسي ما دونه فكيف لطفه. و في بعض الكتب : عبدي أنا وحقّك لك محبّ فبحقّي عليك كن لي محبّاً . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحبّ أحبّ إلى الله من عبادة سبعين سنة بلا حبّ . وقال أيضاً : إلهي إنّي مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك صغيراً أخذتني إليك و سربلتني بقربك ، و شرّفتني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال، و قلبتني في الأعمال ستراً و توبة و زهداً و شوقاً ورضاً وحبّاً فسقيتني من حياضك ونعّمتني في رياضك ملازماً لأمرك ومشعوفاً بقولك ولما طرّ شاربي ولاح طائلي (1) فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً و قد اعتدت هذا منك صغيراً فلي ما بقيت حولك زمزمة وبالضراعة إليك همهمة ، لأنّي اُحبّك و كلّ حبيب بحبيبه مشعوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

أقول : و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : « حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل و كلّ ذكر سوى الله ، والمحبّ أخلص الناس سرّاً لله و أصدقهم قولاً و أوفاهم عهداً و أزكاهم عملاً وأصفاهم ذكراً و أعبدهم نفساً يتباهى به الملائكة عند مناجاته و تفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله تعالى بلاده وبكرامته يكرم الله عبادة ، يعطيهم إذا سألوه بحقّه ، و يدفع عنهم البلايا برحمته ، فلو علم الخلق ما محلّه عند الله و منزلته لديه ما تقرّبوا إلى الله إلّا بتراب قدميه . و قال أمير المؤمنين عليه السلام : « حبّ الله نارٌ لا يمرّ على شيء إلّا احترق ، و نور الله لا يطلع على شيء إلّا أضاء ، وسماء الله ما ظهر من تحته من شيء إلّا غطّاه ، وريح الله ما تهبّ في شيء إلّا حرّكته وماء الله يحيى به كلّ شيء ، وأرض الله ينبت منها كلّ شيء ، فمن أحبّ الله أعطاه كلّ شيء من الملك و الملك . قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « إذا أحبّ الله عبداً من اُمّتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته و سكّان عرشه محبّته ليحبّوه فذلك المحبّ حقّاً ،

(1) طر النبت : يبست ومنه طر شارب الغلام . والطائل الفضل والقدرة و الغنى .

طوبى له ثمّ طوبى له وله عندالله شفاعة يوم القيامة » [١] إلى هنا كلام الصادق عليه السلام .

قال أبوحامد : وقد ورد في حبّ الله من الأخبار و الآثار ما لا يدخل في حصر حاصر و ذلك أمرٌ ظاهر و إنّما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به .

✿(بيان حقيقة المحبة و اسبابها)✿
✿(وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)✿

إعلم أنّ المطلب من هذا الفصل لاينكشف إلّا بمعرفة حقيقة المحبّة في نفسها ثمّ معرفة شروطها وأسبابها ، ثمّ النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حقّ الله عزّ و جلّ ، فأوّل ما ينبغي أن يتحقّق أنّه لا يتصوّر محبّة إلّا بعد معرفة و إدراك إذ لا يحبّ الإنسان من لا يعرفه و لذلك لم يتصوّر أن يتّصف بالحبّ جمادٌ بل هو من خاصيّة الحيّ المدرك ثمّ المدركات في أنفسها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذّه وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه وإلى ما لايؤثّر فيه بإيلام و إلذاذ فكلّ ما في إدراكه لذّة و راحة فهو محبوب عند المدرك ، و ما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك ، و ما يخلو عن استعقاب ألم و لذّة فلا يوصف بكونه محبوباً و لا مكروهاً ، فإذن كلّ لذيذ محبوبٌ عند المتلذّذ به ، و معنى كونه محبوباً أنّ في الطبع ميلاً إليه ومعنى كونه مبغوضاً أنّ في الطبع نفرة عنه، فالحبّ عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذّ فإن تأكّد ذلك الميل و قوي سمّي عشقاً، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فإذا قوي سمّي مقتاً فهذا أصل في معنى حقيقة الحبّ لابدّ من معرفته .

الأصل الثاني أنّ الحبّ لمّا كان تابعاً للمعرفة و الإدراك انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات و الحواسّ فلكلّ حاسّة إدراك لنوع من المدركات ، ولكلّ واحدة منها لذّة في بعض المدركات ، و للطبع بسبب تلك اللّذّة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذّة العين في الإبصار و إدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة ، ولذّة الأذن في النغمات الطيّبة الموزونة ، ولذّة الشمّ في الرّوائح الطيّبة ، ولذّة الذوق في الطعوم ، ولذّة اللّمس في اللّين و النعومة ، ولمّا كانت هذه

---

(١) المصدر الباب السادس والتسعون .

المدركات بالحواسّ ملذّة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها حتّى قال : عَلَيْهِ السَّلَامُ « حبّب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب و النساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة »(١) فسمّى الطيب محبوباً و معلومٌ أن لاحظّ للعين و السمع فيه بل للشمّ فقطّ و سمّى النساء محبوبات و لاحظّ فيهنّ إلّا للبصر و اللّمس دون الشمّ و الذّوق و السمع و سمّى الصلاة قرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنّه ليس تحظى بها الحواسّ الخمس بل حسّ سادس مظنّته القلوب لايدركه إلّا من كان له قلبٌ ولذّات الحواسّ الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فإن كان الحبّ مقصوراً على مدركات الحواسّ الخمس حتّى يقال : إنّ الله تعالى لا يدرك بالحواسّ ولايمثّل في الخيال فلايحبّ فإذن قد بطلت خاصيّة الإنسان وماتميّز به من الحسّ السادس الّذي يعبّر عنه إمّا بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحّة فيها وهيهات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشدّ إدراكاً من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار فتكون لا محالة لذّة القلوب بما تدركه من الاُمور الشريفة الإلهيّة الّتي تجلّ عن أن تدركها الحواسّ أتمّ وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحبّ إلّا الميل إلى مافي إدراكه لذّة كما سيأتي تفصيله فلا ينكر إذن حبّ الله تعالى إلّا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواسّ أصلاً .

الأصل الثالث أنّ الإنسان لا يخفى أنّه يحبّ نفسه ولا يخفى أنّه قد يحبّ غيره لأجل نفسه وهل يتصوّر أن يحبّ غيره لذاته لا لأجل نفسه هذا ممّا قد يشكل على الضعفاء حتّى يظنّون أنّه لايتصوّر أن يحبّ الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظّ إلى المحبّ سوى إدراك ذاته و الحقّ أنّ ذلك متصوّر و موجود فلنبيّن أقسام المحبّة وأسبابها .

و بيانه أنّ المحبوب الأوّل عند كلّ حيّ نفسه وذاته ومعنى حبّه لنفسه أنّ في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأنّ المحبوب بالطبع هو

(١) تقدم كراراً .

الملائم للمحبّ وأي شيء أتمّ ملاءمة من نفسه و دوام وجوده وأيّ شيء أعظم مضادّة و منافرة له من عدمه و هلاكه ، فلذلك يحبّ الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت و القتل لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت و لا لمجرّد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم و تعب و أميت من غير ثواب و لا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك ولا يحبّ الموت والعدم المحض إلّا لمقاساة ألم في الحياة و مهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء ، فإن أحبّ العدم لم يحبّه لأنّه عدم بل لأنّ فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت و دوام الوجود محبوبٌ وكما أنّ دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضاً محبوبٌ لأنّ الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود ، و هو هلاك بالنسبة إليه و الهلاك و العدم ممقوت في الصفات و كمال الوجود كما أنّه ممقوت في أصل الذّات و وجود صفات الكمال محبوبٌ كما أنّ دوام أصل الوجود محبوبٌ وهذه غريزه في الطباع بحكم سنّة الله تعالى : «ولن تجد لسنّة الله تبديلاً » (١) فإذن المحبوب الأوّل للإنسان ذاته ثمّ سلامة أعضائه ، ثمّ ماله و ولده و عشيرته وأصدقاؤه ، فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأنّ كمال الوجود و دوام الوجود موقوفٌ عليها ، والمال محبوبٌ لأنّه أيضاً آلة في دوام الوجود وكماله و كذا سائر الأسباب ، فالإنسان يحبّ هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظّه في دوام الوجود وكماله بها حتّى أنّه ليحبّ ولده وإن كان لا يناله منه حظّ بل يتحمّل المشاقّ لأجله لأنّه يخلفه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له فلفرط حبّه لبقاء نفسه يحبّ بقاء من هو قائم مقامه ، وكأنّه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً نعم لو خيّر بين قتله و قتل ولده وكان طبعه باقياً على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده لأنّ بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاؤه المحقّق وكذلك حبّه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبّه لكمال نفسه فإنّه يرى نفسه كثيراً بهم قويّاً بسببهم متجمّلاً بكمالهم ، فإنّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان ، و كمال الوجود و دوامه محبوب بالطبع لا محالة فإذن المحبوب

(١) الفتح : ٢٣ .

الأوّل عند كلّ حيّ ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كلّه والمكروه عنده ضدّ ذلك فهذا هو أوّل الأسباب.

السبب الثاني الإحسان وإنّ الإنسان عبد الإحسان وقد جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اللّهمّ لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبّه قلبي»(١) أشار إلى أنّ حبّ القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلّة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحبّ الإنسان الأجنبيّ الّذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة، وهذا إذا حقّق رجع إلى السبب الأوّل فإنّ المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ الّتي بها يتهيّأ الوجود إلّا أنّ الفرق أنّ أعضاء الإنسان محبوبة لأنّ بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب، فأمّا المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطّبيب الّذي يكون سبباً في دوام صحّة الأعضاء ففرق بين حبّ الصحّة وبين حبّ الطبيب الّذي هو سبب الصحّة إذ الصحّة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنّه سبب للصحّة، وكذلك العلم محبوب والأُستاد محبوب ولكنّ العلم محبوب لذاته والأُستاد محبوب لكونه سبب العلم المحبوب، وكذلك الطعام والشراب محبوب والدّنانير محبوبة لكنّ الطعام محبوب لذاته والدّنانير محبوبة لأنّها وسيلة إلى الطعام فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرّتبة وإلّا فكلّ واحد يرجع إلى محبّة الإنسان نفسه فكلّ من أحبّ المحسن لإحسانه فما أحبّ ذاته تحقيقاً بل أحبّ إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال ذلك زال الحبّ مع بقاء ذاته تحقيقاً ولو نقص نقص الحبّ ولو زاد زاد ويتطرّق إليه الزّيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه.

السبب الثالث: أن يحبّ الشيء لذاته لا لحظّ ينال منه وراء ذاته، بل يكون ذاته عين حظّه وهذا هو الحبّ الحقيقي البالغ الّذي يوثق بدوامه وذلك كحبّ الجمال والحسن فإنّ كلّ جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال

(١) أخرجه أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وقد تقدم.

لأنّ إدراك الجمال فيه عين اللّذّة واللّذّة محبوبة، ولاتظنّن أنّ حبّ الصور الجميلة لا يتصوّر إلّا لأجل قضاء الشهوة فإنّ قضاء الشهوة لذّة اُخرى قد تحبّ الصور الجميلة لأجلها و إدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته و كيف ينكر ذلك، والخضرة و الماء الجاري محبوبان لاليشرب الماء أوتؤكل الخضرة أو ينال منها حظّ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله تعجبه الخضرة والماء الجاري [١] و الطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار [٢] و الأزهار و الأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتّى أنّ الانسان لتنفرج عنه الغموم بالنظر إليها لا لطلب حظّ وراء النظر، فهذه الأسباب ملذّة وكلّ لذيذ محبوب وكلّ حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذّة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع فإن ثبت أنّ الله تعالى جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله و جلاله كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال» [٣].

السبب الرابع في بيان معنى الحسن والجمال: إعلم أنّ المحبوس في مضيق الخيالات و المحسوسات ربّما يظنّ أنّه لا معنى للحسن و الجمال إلّا تناسب الخلقة و الشكل وحسن اللّون وكون البياض مشوباً بالحمرة و امتداد القامة إلى غير ذلك ممّا يوصف من جمال شخص الانسان فإنّ الحسّ الأغلب على الخلق حسّ الابصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظنّ أنّ ماليس مبصراً ولا متخيّلاً ولامتشكّلاً ولا متلوّناً متقدّراً فلايتصوّر حسنه، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذّة فلم يكن محبوباً، وهذا خطأ ظاهر فإنّ الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر، و

(١) رواه أبو نعيم فى كتاب طب النبى صلى الله عليه و آله من حديث ابن عباس بسند ضعيف كما فى المغنى.

(٢) جمع النور بالفتح مصدر واحدتها نورة ونور النبات زهرتها و بهجتها وغضارتها.

(٣) أخرجه البيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى سعيد الخدرى بسند ضعيف، و مسلم و الترمذى من حديث ابن مسعود، والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة وابن عساكر من حديث جابر وابن عمر بسند صحيح كما فى الجامع الصغير.

لا على تناسب الخلقة و امتزاج البياض بالحمرة ، فإنّا نقول هذا خطّ حسن وهذا صوت حسن بل نقول : هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأيّ معنى لحسن الصّوت و والخطّ وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلّا في الصورة و معلوم أنّ العين تستلذّ النظر إلى الخطّ الحسن و الأُذن تستلذّ استماع النغمات الحسنة الطيّبة و ما من شيء من المدركات إلّا و هي منقسمة إلى حسن وقبح فما معنى الحسن الّذي يشترك فيه هذه الأشياء ، فلابدّ من البحث عنه ، و هذا بحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرّح بالحقّ فنقول : كلّ شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال و هي غاية الكمال و إن كان الحاضر بعضها فله من الحسن و الجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الّذي جمع كلّ ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون و حسن عدو وتيسّر كرّ وفرّ عليه ، و الخطّ الحسن كلّ ما جمع ما يليق بالخطّ من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها و لكلّ شيء كمال يليق به و قد يليق بغيره ضدّه فحسن كلّ شيء في كماله الّذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخطّ بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأواني بما يحسن به الثياب و كذلك سائر الأشياء ، فإن قلت : فهذه الأشياء و إن لم يدرك جميعها بحسّ البصر مثل الأصوات والطعوم والأرائيح فإنّها لا تنفكّ عن إدراك الحواسّ لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن و الجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللّذّة بإدراك حسنها و إنّما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواسّ ، فاعلم أنّ الحسن و الجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال: هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، و هذه أخلاق جميلة و إنّما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة و الشجاعة والتقوى والكرم والمروّة وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواسّ الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة و كلّ هذه الخصال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبب بالطبع عند من عرف صفاته وآية أنّ الأمر كذلك أنّ الطباع مجبولة على حبّ الانبياء صلوات الله عليهم مع أنّهم لم يشاهدوهم بل على حبّ أرباب المذاهب

حتّى أنّ الرّجل قد يجاوز به حبّه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذّبّ عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه، فكم من دم اُريق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحبّ إمامه مثلا فلِمَ يحبّه؟ ولم يشاهد قطّ صورته ولو شاهده ربّما لم يستحسن صورته فاستحسانه الّذي حمله على إفراطه في الحبّ إنّما السيرته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً و إنّما يحبّه لصفاته الباطنة من الدّين و التقوى و غزارة العلم و الاحاطة بمدارك الدّين و انتهاضه لافاضة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم وهذه اُمور جميلة لا يدرك جمالها إلّا بنور البصيرة فأمّا الحواسّ فقاصرة عنها. و تلك الصفات الباطنة ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الاُمور و قدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير يتشعّب عن هذين الوصفين و هما غير مدركين بالحسّ و محلّهما من جملة البدن جزء لا يتجزّء فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الّذي لا يتجزّء صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتّى يكون محبوباً لأجله فإنّ الجمال موجود في السير و لو صدرت السيرة الجميلة من غير علم و بصيرة لم يوجب ذلك حبّاً فالمحبوب مصدر السير الجميلة وهي الأخلاق الحميدة و الفضائل الشريفة و ترجع جملتها إلى كمال العلم و القدرة و هو محبوب بالطبع و غير مدرك بالحواسّ حتّى أنّ الصبيّ المخلّى وطبعه إذا أردنا أن نحبّب إليه غائباً أو حاضراً حيّاً أو ميّتاً لم يكن لنا سبيل إلّا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة، فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه و لم يقدر أن لا يحبّه فهل غلب حبّ الصحابة و بغض أبي جهل و بغض إبليس لعنه الله إلّا بالاطناب في وصف المحاسن و المقابح الّتي لا تدرك بالحواسّ بل لمّا وصف الناس حاتماً بالسخاء ووصفوا رجلاً بالشجاعة أحبّتهم القلوب حبّاً ضروريّاً وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظّ يناله المحبّ منهم بل إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والاحسان وإفاضة الخير غلب حبّه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبّين لبعد المزار ونأي الدّيار، فإذن ليس حبّ الانسان مقصوراً على من أحسن إليه

بل المحسن في نفسه محبوبٌ و إن كان قد لا ينتهي قط إحسانه إلى المحبّ لأنّ كلّ جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر و الصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لايدركها ولايلتذّ بها . و لايحبّها و لا يميل إليها و من كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواسّ الظاهرة كان حبّه للمعاني الباطنة أكثر من حبّه للمعاني الظاهرة فشتّان بين من يحبّ نقشاً مصوّراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحبّ نبيّاً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس : المناسبة الخفيّة بين المحبّ والمحبوب إذ ربّ شخصين يتأكّد المحبّة بينهما لابسبب جمال أوحظّ ولكنّ بمجرّد تناسب الأرواح كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم «الأرواح جنود مجنّدة فماتعارف منهاائتلف وماتناكر منها اختلف»[1] وقد حقّقنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحبّ في الله تعالى فليطلب منه لأنّه أيضاً من عجائب أسباب الحبّ فإذن رجع أقسام الحبّ إلى خمسة أقسام وهو حبّ الإنسان وجود نفسه و كماله وبقائه وحبّه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه و دفع المهلكات عنه ، وحبّه من كان محسناً في نفسه إلى الناس و إن لم يكن محسناً إليه و حبّه لكلّ ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبّه لمن بينه و بينه مناسبة خفيّة في الباطن ، فلو اجتمعت هذه الأسباب كلّها في شخص واحد تضاعف الحبّ لامحالة كما لو كان للإنسان ولدٌ جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوباً لامحالة غاية الحبّ وتكون قوّة الحبّ بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوّة هذه الخلال في نفسها فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحبّ لامحالة في أعلى الدّرجات ، فلنبيّن الآن أنّ هذه الأسباب كلّها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلّا في حقّ الله فلا يستحقّ المحبّة في الحقيقة إلّا الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٨ ص ٤١ و قد تقدم .

(بيان ان المستحق للمحبة هو الله تعالى وحده)

و أنّ من أحبّ غير الله لامن حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحبّ الرّسول محمودٌ لانّه عين حبّ الله و كذا حبّ العلماء والأتقياء لأنّ محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحبّ المحبوب محبوب و كلّ ذلك يرجع إلى حبّ الأصل فلايجاوزه إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلّا الله و لامستحقّ للمحبّة سواه و إيضاحه بأن يرجع إلى الأسباب الخمسة الّتي ذكرناها و نبيّن أنّها مجتمعة في حقّ الله تعالى بجملتها ولا توجد في غيره إلّا آحادها و أنّها حقيقة في حقّ الله تعالى ووجودها في حقّ غيره وهم وتخيّل وهومجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكلّ ذي بصيرة ضدّ ما تخيّله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حبّ الله تعالى تحقيقاً وبان أنّ التحقيق يقتضي أن لايحبّ أحد غير الله تعالى .

أمّا السبب الأوّل : و هو حبّ الإنسان نفسه و بقاءه و كماله و دوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه و قواطع كماله فهذه جبلّة كلّ حيّ و لا يتصوّر أن ينفكّ عنها حيّ وهذا يقتضي غاية المحبّة لله تعالى فإنّ من عرف نفسه و عرف ربّه عرف قطعاً أنّه لا وجود له من ذاته و إنّما وجود ذاته و دوام وجوده و كمال وجوده من الله وبالله و إلى الله فهو المخترع الموجد له و هو المبقي له و هو المكمّل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب و إلّا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله عليه بالإيجاد و هو هالك عقيب وجوده لو لا فضل الله عليه بالإبقاء و هو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بتكميل خلقته ، و بالجملة فليس في الوجود شيءٌ له بنفسه قوامٌ إلاّ القيّوم الحيّ الدّائم الّذي هو قائم بذاته ، و كلّ ما سواه قائمٌ به فإن أحبّ العارف ذاته ووجود ذاته مستفادٌ من غيره فبالضرورة يحبّ المفيد لوجوده و المديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوّماً لغيره فإن كان لايحبّه فهو لجهله بنفسه و بربّه و المحبّة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوي بقوّتها و لذلك قيل : من عرف ربّه أحبّه و من عرف النّار

بعد عنها و من عرف الدّنيا زهدفيها فكيف يتصوّر أن يحبّ الإنسان نفسه ولا يحبّ ربّه الّذي به قوام نفسه و معلوم أنّ المبتلى بحرّ الشمس لمّا كان يحبّ الظلّ فيحبّ بالضرورة الأشجار الّتي بها قوام الظلّ وكلّ ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله عزّ وجلّ هو كالظلّ بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس ، فإنّ الكلّ من آثارقدرته و وجود الكلّ تابع لوجوده كما أنّ وجود النورتابع للشمس، و وجود الظلّ تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيّلوا أنّ النور أثرالشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أنّ النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس و بين الأجسام الكثيفة كما أنّ نور الشمس و عينها و شكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرةالله تعالى ولكنّ الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب منها الحقائق فإذن إن كان حبّ الإنسان نفسه ضروريّاً فحبّه لمن به قوامه أوّلاً و دوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه و جواهره و أعراضه أيضاً ضروريّ إن عرف ذلك كذلك و من خلا عن هذا الحبّ فلأنّه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربّه وخالقه فلم يعرفه حقّ معرفته وقصر نظره على شهواته و محسوساته و هو عالم الشهادة الّذي يشاركه البهائم في التنعّم به و الاتّساع فيه دون عالم الملكوت الّذي لا يطأ أرضه إلّا من يقرب في شكله من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ويقصرعنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

و أمّا السبب الثاني : وهو حبّه لمن أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته و انتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده و أقاربه فإنّه محبوب لا محالة عنده ، و هذا بعينه يقتضي أن لا يحبّ إلّا الله تعالى فإنّه لوعرف حقّ المعرفة لعلم أنّ المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأمّا أنواع إحسانه إلى كلّ عبيده فلست أعدّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى: « وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها »(١)

(١) ابراهيم : ٣٤ .

و لقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكنّا الآن نقتصر على بيان أنّ الإحسان من الناس غير متصوّر إلّا بالمجاز فإنّما المحسن هو الله عزّ وجلّ ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع أمواله ومكّنك منها لتتصرّف فيها كيف تشاء فإنّك تظنّ أنّ هذا الإحسان منه وهو غلط فإنّه إنّما تمّ إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الّذي أنعم بخلقه و خلق ماله و خلق قدرته و خلق إرادته وداعيته و من الّذي حبّبك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أنّ صلاح دينه و دنياه في الإحسان إليك ولولا كلّ ذلك لما أعطاك حبّة من ماله ومهما سلّط الله عليه الدّواعي و قرّر في نفسه أنّ صلاح دينه و دنياه في أن يسلّم إليك ماله كان مقهوراً مضطرّاً في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الّذي اضطرّه وسخّره لك وسلّط عليه الدّواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل و أمّا يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطرّ فيه اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو محسن بنفسه لا من حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فإنّه لا يتصوّر الإحسان من الإنسان إلّا إلى نفسه و أمّا الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنّه لا يبذل ماله إلّا لغرض له في البذل إمّا آجل و هو الثواب و إمّا عاجل وهو المنّة والاستسخار أو الثناء و الصيت والاشتهار بالسخاء و الكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة و المحبّة وكما أنّ الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان إلّا لغرض له فيه و ذلك الغرض هو مطلوبه و مقصوده ، و أمّا أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتّى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك في القبض للتوصّل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عمّا بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظّ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتّة ، فإذن هو غير مستحقّ للشكر والحبّ من وجهين أحدهما أنّه مضطرّ بتسليط الله الدّواعي عليه و لا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الأمير فإنّه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه لأنّه من جهة الأمير

مضطرّ إلى الطاعة و الامتثال لما يرسمه فلا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلّمه فكذلك كلّ محسن لوخلاه الله عزّ وجلّ ونفسه لم يبذل حبّة من ماله حتّى سلّط الله الدّواعي عليه و ألقى في نفسه أن حظّه ديناً و دنيا في بذله فبذله لذلك ، و الثاني أنّه معتاض عمّا بذله حظّاً هو أوفى عنده وأحبّ إليه عمّا بذله وكما لا يعدّ البايع محسناً لأنّه بذل بعوض هو أحبّ عنده ممّا بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد و الثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متموّلاً بل الحظوظ كلّها أعواض تستحقر الأموال و الأعيان بالإضافة إليها فالإحسان بالجود و الجود هو بذل المال من غير عوض وحظّ يرجع إلى الباذل و ذلك محال من غير الله عزّ وجلّ فهو الّذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم و لأجلهم لا لحظّ و غرض يرجع إليه فإنّه يتعالى عن الأغراض والحظوظ فلفظ الجود و الإحسان في حقّ غيره كذب أو مجاز ومعناه في حقّ غيره محال و ممتنع امتناع الجمع بين السّواد و البياض فهو المتفرّد بالجود والإحسان والطول والامتنان فإن كان في الطبع حبّ المحسن فينبغي أن لا يحبّ العارف إلّا الله عزّ و جلّ إذ الإحسان من غيره محال فهو المستحقّ لهذه المحبّة وحده و أمّا غيره فيستحقّ المحبّة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأمّا السبب الثالث : وهو حبّك المحسن في نفسه و إن لم يصل إليك إحسانه فهذا موجود في الطباع فإذا بلغك خبر ملك عالم عابد عادل رفيق بالناس متلطّف بهم متواضع لهم و هو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبّر فاسق متهتّك شرير وهو أيضاً بعيد عنك فإنّك تجد في القلب تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأوّل وهو الحبّ ونفرة عن الثاني وهو البغض مع أنّك آئس من خير الأوّل وآمن من شرّ الثاني لانقطاع طمعك عن الترحّل إلى بلادهما فهذا حبّ المحسن من حيث أنّه محسن في نفسه فقطّ لا من حيث أنّه محسن إليك و هذا أيضاً يقتضي حبّ الله تعالى بل يقتضي أن لا يحبّ غيره أصلاً إلّا من حيث يتعلّق منه بسبب فإنّ الله تعالى هو المحسن إلى الكافّة المتفضّل على جميع أصناف

الخلق أوّلاً بإيجادهم وثانياً بتكميلهم بالأعضاء و الأسباب الّتي هي من ضروراتهم وثالثاً بترفيههم و تنعيمهم بخلق الأسباب الّتي هي في مظانّ حاجاتهم و إن لم تكن في مظانّ الضرورة ، ورابعاً بتحميلهم بالزّوايد والمزايا الّتي هي في مظنّة زينتهم و هي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ، ومثال الضروريّ من الأعضاء الرّأس والقلب والكبد ، ومثال المحتاج إليه العين واليد والرّجل ، ومثال الزّينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوّن العينين إلى غير ذلك ممّا لو لم يكن لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ، ومثال الضروري من النعم الخارجة من بدن الإنسان الماء والغذاء ، ومثال الحاجة الدّواء و اللّحم و الفواكه ، ومثال المزايا و الزّوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار و الأزهار ولذائذ الفواكه و الأطعمة الّتي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكلّ حيوان بل لكلّ نبات بل لكلّ صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الثرى فإذن هو المحسن وكيف يكون غيره محسناً و ذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فإنّه خالق الخلق و خالق الحسن و خالق المحسن و خالق الإحسان و خالق أسباب الإحسان فالحبّ بهذه العلّة أيضاً لغيره جهل محض و من عرف ذلك لم يحبّ بهذه العلّة إلّا الله تعالى .

و أمّا السبب الرابع : و هو حبّ كلّ جميل لذات الجمال لا لحظّ ينال منه وراء إدراك الجمال فقد بيّنا أنّ ذلك مجبول في الطباع فإنّ الجمال ينقسم إلى جمال الصور الظاهرة المدركة بعين الرّأس و إلى جمال الصور الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، و الأوّل يدركه الصبيان و البهائم فضلاً عن غيرهم و الثاني يختصّ بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلّا ظاهراً من الحياة الدّنيا فكلّ جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب، ومثال هذا في المشاهدة حبّ الأنبياء والعلماء و ذوي المكارم السنّية والأخلاق الرّضيّة فإنّ ذلك متصوّر مع تشويه الوجه وسائر الأعضاء و هو المراد بحسن الصورة الباطنة و الحسّ لا يدركه ، نعم يدرك الحسّ آثاره الصادرة منه الدّالّة عليه حتّى إذا دلّ القلب عليه مال القلب إليه فأحبّه فمن يحبّ الرّسول أو الإمام أو وليّاً

من أولياء الله فلا يحبّهم إلّا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دلّ حسن أفعالهم على حسن الصفات الّتي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالّة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنّف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقّاش وبناء البنّاء انكشف له من هذه الأفعال صفاتهم الجميلة الباطنة الّتي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة فكلّما كان المعلوم أشرف وأتمّ جمالاً وجلالاً وعظمة كان العلم أشرف و أجل و كذا المقدور كلّما كان أعظم رتبة و أجلّ مرتبة كانت القدرة عليه أجلّ رتبة و أشرف قدراً، وأجلّ المعلومات هو الله فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله عزّ وجلّ و كذلك ما يقاربه فشرفه على قدر تعلّقه به فإذن جمال صفات الصديقين الّذين تحبّهم القلوب طبعاً يرجع إلى ثلاثة أُمور أحدها علمهم بالله عزّ وجلّ وملائكته و كتبه ورسله وشرائع الأنبياء، والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد و السياسة، والثالث تنزّههم عن الرّذائل و الخبائث و الشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشرّ وبمثل هذا يحبّ الأنبياء و العلماء فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى أمّا العلم فأين علم الأوّلين والآخرين من علم الله الّذي هو محيط بالكلّ إحاطة خارجة عن النهاية حتّى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات و لا في الأرض و قد خاطب الخلق كلّهم فقال: « و ما اوتيتم من العلم إلّا قليلاً »(١) ولو اجتمع أهل السماوات و الأرض على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلقة نملة أو بعوضة لم يطّلعوا على عشر عشيره ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء، و القدرة اليسير الّذي علمه الخلائق كلّهم فبتعليمه إيّاهم علموه كما قال تعالى: « خلق الإنسان ۞ علّمه البيان »(٢) فإن كان جمال العلم و شرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة و كمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحبّ بهذا السبب إلّا الله تعالى، فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحبّ بسبب العلم الأجهل و يترك الأعلم و إن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما بتفاصيل معيشته و

(١) الاسراء: ٨٨. (٢) الرحمن: ٣ و ٤.

التفاوت بين علم الله وعلم الخلائق أكثرمن التفاوت بين علم أعلم الخلق و أجهلهم لأنّ الأعلم لايفضل إلّا بعلوم معدودة متناهية يتصوّر في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب و الاجتهاد ، و فضل علم الله على علوم الخلائق كلّهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها و معلومات الخلق متناهية ، وأمّا صفة القدرة فهي أيضاً كمال و العجز نقص وكلّ كمال وبهاء وعظمة وقهر ومجد واستيلاء فإنّه محبوب وإدراكه لذيذ حتّى أنّ الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة عليّ وغيره من الشجعان وقدرتهما و استيلاءهما على الأقران فيصادف من قلبه اهتزازاً و فرحاً و ارتياحاً ضروريّاً بمجرّد السماع فضلاً عن المشاهدة و يورث ذلك حبّاً ضروريّاً للمتّصف به فإنّه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلّهم إلى قدرة الله عزّ وجلّ فأعظم الأشخاص قوّة و أوسعهم ملكاً و أقواهم بطشاً و أقهرهم للشهوات و أقمعهم لخبائث النفس و أجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره فإنّه ينتهي قدرته ، وإنّما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأُمور و هو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولاحياة ولا نشوراً ولانفعاً ولا ضرّاً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس و أُذنه من الصمم و بدنه من المرض و لا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره ممّا هو على الجملة متعلّق قدرته فضلاً عمّا لاتتعلّق به قدرته من ملكوت السماوات و أفلاكها و كواكبها و الأرض و جبالها و بحارها و رياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرّة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه و بنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكّن له من ذلك ، ولو سلّط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للعبد قدرة إلّا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملك من ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال : «إنّا مكّنّا له في الأرض» [1] فلم يكن جميع ملكه و سلطنته إلّا بتمكين الله عزّ وجلّ إيّاه في جزء من الأرض والأرض كلّها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم و جميع الولايات الّتي يحظى بها الناس من الأرض

---

(١) الكهف : ٨٤ .

غبرة من تلك المدرة ، ثمّ تلك الغبرة أيضاً من فضل الله وتمكينه فيستحيل أن يحبّ عبداً من عباد الله لقدرته وسياسته وتمكّنه واستيلائه وكمال قوّته ولا يحبّ الله تعالى لذلك ولا قويّ غيره ، فليس أحد قدرته من نفسه بل لا حول لأحد ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، فهو الجبّار القاهر والعليم القادر، السماوات مطويّات بيمينه والأرض و ما عليها في قبضته ، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرّة لم يعي بخلقها ولا يمسّه لغوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة و لا قادر إلّا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال و البهاء و العظمة و الكبرياء و القهر و استيلاء ، فإن كان يتصوّر أن يحبّ قادرٌ لكمال قدرته فلا يستحقّ الحبّ بكمال القدرة سواه أصلاً ، و أمّا صفة التنزّه عن العيوب و النقائص والتقدّس على الرّذائل و الخبائث فهو أحد موجبات الحبّ ومقتضيات الحسن و الجمال في الصور الباطنة والانبياء والصدّيقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب و الخبائث فلا يتصوّر كمال التقدس و التنزه إلّا لذي الجلال و الإكرام وأمّا كلّ مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخّراً مضطرّاً هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده فليس لغيره كمال إلّا بقدر ما أعطاه و ليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإنّ منتهى الكمال أقلّ درجاته أن لا يكون عبداً مسخّراً لغيره و قائماً بغيره وذلك محالٌ في حقّ الله فهو المتفرّد بالكمال المتنزّه عن النقص المقدّس عن العيوب و شرح ذلك التقديس و التنزيه في حقّه عن النقائص يطول و هو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره ، فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً فلا تتمّ حقيقته إلّا له و كمال غيره وتنزّهه لا يكون مطلقاً بل بالإضافة إلى ما هو أشدّ منه نقصاناً كما أنّ للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار ، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس ، وأصل النقص شامل للكلّ و إنّما يتفاوتون في درجات النقصان فإذن الجميل محبوبٌ والجميل المطلق هو الله الواحد الّذي لا ندّ له ، الفرد الّذي لا ضدّ له ، الصمد الّذي لا منازع له ، الغنيّ الّذي لا حاجة له ، القادر الّذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا رادّ لحكمه ولا معقّب

لقضائه، العالم الّذي لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولافي الأرض ، القاهر الّذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا تنفلت عن سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزليّ الّذي لأوّل لوجوده الأبديّ الّذي لآخر لبقائه ، الواجب الوجود الّذي لايحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الّذي يقوم بنفسه ويقوم كلّ موجود به ، جبّار الأرض والسماوات ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المتفرّد بالعزّة و الجبروت ، المتوحّد بالملك والملكوت ذوالفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الّذي تتحيّر في معرفة جلاله العقول و تخرس عن وصفه الألسنة الّذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته و منتهى نبوّة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيّد الأنبياء صلوات الله عليه و عليهم أجمعين « أنت كما أثنيت على نفسك لا اُحصي ثناء عليك » (١) .

أقول: و قال سيّد الأوصياء : «العجز عن درك الإدراك إدراك»(٢) وقال سيّد الساجدين«سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلّا بالعجز عن معرفته»(٣).

قال أبو حامد : فليت شعري من ينكر إمكان حبّ الله عزّ و جلّ تحقيقاً و يجعله مجازاً أينكر أنّ هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أن ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها، أو ينكر كون الجمال والجلال والكمال والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه ، فسبحان من احتجب عن أبصار العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطّلع عليه إلّا من سبقت له منه الحسنى الّذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات و شهوات البهائم يتردّدون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، فالحبّ بهذا السبب أقوى من الحبّ بالإحسان لأنّ الإحسان يزيد و ينقص و لذلك أوحى الله تعالى إلى داود أنّ أودّ الأودّاء إليّ من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الرّبوبيّة حقّها. و في الزّبور من أظلم

(١) تقدم كراراً عن الترمذي و غيره .

(٢) ماعثرت على أصل له . (٣) في مناجات العارفين من المناجات الخمسة عشر .

ممّن عبدني لجنّة أونار، لولم أخلق جنّة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن اُطاع. ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد قد نحلوا فقال: ماأنحلكم قالوا: نخاف النار و نرجو الجنّة فقال لهم: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم، و مرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا: نعبده حبّاً له وتعظيماً لجلاله، فقال: أنتم أولياء الله عزّ وجل حقّاً معكم اُمرت أن اُقيم. و في الخبر «لايكونن أحدكم كالعبدالسوء إن لم يخف لم يعمل و لا كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل»(١).

و أمّا السبب الخامس للحبّ فهو المناسبة و المشاكلة إذ شبه الشيء منجذب إليه و الشكل إلى الشكل أميل و لذلك ترى الصبي يألف الصبي و الكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه، واُنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وألف التاجر بالتاجر واُنسه به أكثر من اُنسه بالفلاّح وهذا أمر تشهد به التجربة و تشهد له الأخبار و الآثار كما استقصيناه في باب الاُخوّة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه، وإذا كانت المناسبة سبب المحبّة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي للصبي في معنى الصبى وقد تكون خفيّاً بحيث لايطّلع عليه كما ترى من الاتّحاد الّذي يتّفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار عليه السلام إليه إذ قال: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف»(٢) والتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين، و هذا السبب أيضاً يقتضي حبّ الله لمناسبة باطنة لاترجع إلى المشابهة في الصورة والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب و بعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتّى يعثر عليه السّالكون للطّريق إذا استكملوا شروط السّلوك فالّذي يذكر هو قرب العبد من الله عزّ و جلّ في الصفات الّتي اُمر فيها بالاقتداء و التخلّق بأخلاق الرّبوبيّة حتّى قيل: تخلّقوا بأخلاق الله، و ذلك في اكتساب محامد الصفات الّتي هي من صفات الإلهيّة من العلم و البرّ و الإحسان و

---

(١) قال العراقى: لم أجد له أصلا.

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٤١ و قد تقدم كراراً.

اللّطف وإفاضة الخير والرّحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحقّ و منعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكلّ ذلك يقرب إلى الله عزّ وجلّ لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات ، و أمّا ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصّة الّتي اختصّ بها الآدميّ فهي الّتي يومي إليها قوله تعالى : «و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي»(١) إذ بيّن أنّه أمر ربّانيّ خارج عن حدّ عقول الخلق ، ويشير إليه قوله تعالى : « إنّي جاعل في الأرض خليفة » (٢) إذ لم يستحقّ آدم خلافة الله إلّا بتلك المناسبة و إليه يرمز قوله عليه السلام «إنّ الله خلق آدم على صورته » (٣) حتّى ظنّ القاصرون أن لا صورة إلّا الصورة الظاهرة المدركة بالحواسّ فشبّهوا وجسّموا وصوّروا تعالى الله ربّ العالمين عمّا يقول الجاهلون علوّاً كبيراً و إليه الإشارة بقوله لبعض الأنبياء و في نسخة لموسى عليه السلام : « مرضت فلم تعدني فقال : يا ربّ و كيف ذلك ؟ قال : مرض فلانٌ فلم تعده ، و لو عدته لوجدتني عنده » (٤) و هذه المناسبة لا تظهر إلّا بالمواظبة على النوافل بعد أحكام الفرائض ، قال الله عزّ وجلّ : « و لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى اُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به ، وبصره الّذي يبصر به ، ولسانه الّذي ينطق به»(٥) وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزّب الناس فيه إلى قاصرين ما لوا إلى التشبيه الظاهر و إلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتّحاد وقالوا بالحلول حتّى قال بعضهم : أنا الحقّ. فضلّ النصارى في عيسى عليه السلام وقالوا هو الإله ، و قال آخرون منهم: تدرّع الناسوت باللّاهوت ، وقال آخرون: اتّحد به ، وأمّا الّذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الحلول و الاتّحاد و اتّضح لهم مع ذلك حقيقة السرّ فهم الأقلّون فهذه هي المعلومة من أسباب الحبّ وجملتها متظاهرة في حقّ الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً و في أعلى الدّرجات لا في أدناها فكان المعقول المقبول هو حبّ الله تعالى فقط عند ذوي -

(١) الاسراء : ٨٥ .　(٢) البقرة : ٢٩ .
(٣) تقدم غير مرة .　(٤) تقدم أيضاً .
(٥) تقدم عن البخاري في الصحيح و الكليني في الكافي ج ٢ ص ٣٥٢ .

البصائر كما أنّ المعقول الممكن عند العميان حبّ غير الله تعالى فقط، ثمّ كلّ من يحبّ واحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصوّر أن يحبّ غيره لمشاركته إيّاه في السبب والشركة نقصان في الحبّ وغضّ من كماله ولا يتفرّد أحدٌ بوصف محبوب إلّا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلّا في حقّ الله فإنّه موصوف بهذه الأوصاف الّتي هي غاية الجمال والكمال ولا شريك له فيه وجوداً ولا يتصوّر أن يكون ذلك إمكاناً فلا جرم لا يكون في حبّه شركة فلا يتطرّق النقصان إلى حبّه كما لا تتطرّق الشركة إلى صفاته فهو المستحقّ إذ الأصل المحبّة ولكمال المحبّة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

(بيان ان اجل اللذات واعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم)
(و انه لا يتصور ان يؤثر عليها لذة اخرى الا من حرم هذه اللذة)

إعلم أنّ اللّذات تابعة للإدراكات والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكلّ قوّة و غريزة لذّة و لذّتها في نيلها بمقتضى طبعها الّتي خلقت له فإنّ هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان هزلاً بل خلقت كلّ قوّة و غريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع، فغريزة الغضب خلقت للتشفّي و الانتقام، فلا جرم لذّتها في الغلبة والانتقام الّذي هو مقتضى طبعها، و غريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الّذي به القوام فلاجرم لذّتها في نيل الغذاء الّذي هو مقتضى طبعها و كذلك لذّة السمع و البصر و الشمّ في الابصار و الاستماع و الاستشمام فلا يخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم و لذّة بالإضافة إلى مدركاتها فكذلك في القلب غريزة تسمّى النور الإلهي لقوله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه»[1] و قد تسمّى العقل و قد تسمّى البصيرة الباطنة وقد تسمّى نور الإيمان و اليقين ولا معنى للاشتغال بالأسامي فإنّ الاصطلاحات مختلفة و الضعيف يظنّ أنّ الاختلاف واقع في المعاني لأنّ الضعيف أبداً يطلب المعاني من الألفاظ و هو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني الّتي ليست متخيّلة و لا

(١) الزمر: ٢٣.

محسوسة كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق مدبّر حكيم موصوف بصفات الإلهيّة ولنسمّ تلك الغريزة عقلاً بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة و المناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمّه من ذمّه وإلّا فالصّفة الّتي بها فارق الإنسان البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعزّ الصفات فلا ينبغي أن يذمّ و هذه الغريزة خلقت فيه ليعلم بها حقائق الأمور كلّها فمقتضي طبعها المعرفة والعلم و هي لذّتها كما أنّ مقتضى طبع سائر الغرائز هو لذّتها و ليس يخفى أنّ في العلم والمعرفة لذّة حتّى أنّ الّذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والّذي ينسب إلى الجهل و لو في شيء حقير يغتمّ به و حتّى أنّ الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدّي بالعلم والتمدّح به في الأشياء الحقيرة فالعالم باللّعب بالشطرنج على خسّة لا يطيق السكوت فيه عن التعليم و ينطق لسانه بذكر ما يعلمه وكلّ ذلك لفرط لذّة العلم وما يستشعره من كمال ذاته فإنّ العلم من أخصّ صفات الرّبوبيّة وهو منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا اُثني عليه بالذكاء و غزارة العلم لأنّه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته و كمال علمه فيعجب بنفسه و يلتذّ به ، ثمّ ليست لذّة العلم بالحراثة والحياكة و الخياطة كلذّة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ولا لذّة العلم بالنحو والشعر كلذّة العلم بالله تعالى وصفاته و ملائكته و ملكوت السماوات والأرض ، بل لذّة العلم بقدر شرف العلم و شرف العلم بقدر شرف المعلوم حتّى أنّ الّذي يعرف بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذّة و إن جهله يتقاضاه طبعه أن يتفحّص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذّ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلّاح أو حائك ، فإن اطّلع على أسرار الوزير و تدبيره و ما هو عازم عليه في أمر الوزارة فهي أشهى عنده و ألذّ من علمه بأسرار الرّئيس، و إن كان خبيراً بباطن أحوال الملك و السلطان الّذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده و ألذّ من علمه بباطن أمر الوزير وكان يمدحه بذلك و حرصه على البحث عنه أشدّ وحبّه له أكثر لأنّ لذّته فيه أعظم فبهذا يستبان أنّ ألذّ المعارف أشرفها و شرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان في المعلومات ما هو

الأجلّ و الأكمل و الأشرف و الأعظم فالعلم به ألذّ العلوم لا محالة و أشرفها و أطيبها، وليت شعري هل في الوجود شيء أجمل و أعلى و أشرف و أكمل من خالق الأشياء كلّها ومكمّلها ومزيّنها و مبدئها ومعيدها ومدبّرها و مرتّبها و هل يتصوّر أن تكون حضرة في الملك و الكمال و البهاء و الجمال و الجلال أعظم من الحضرة الرّبّانيّة الّتي لايحيط بمبادي جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فإن كنت لا تشكّ في ذلك فلا ينبغي أن تشكّ في أنّ الاطّلاع على أسرار الرّبوبيّة و العلم بترتّب الأمورالإلهيّة المحيطة بكلّ الموجودات هوأعلى أنواع المعارف والاطّلاعات و ألذّها و أطيبها و أشهاها و أحرى ما يشتهي النفوس الاتّصاف بكمالها و جلالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح و الاستبشار و بهذا يتبيّن أنّ العلم لذيذ و أنّ ألذّ العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرض. فينبغي أن يعلم أنّ لذّة المعرفة أقوى من سائر اللّذّات أعني لذّة الشهوة و الغضب و لذّة سائر الحواسّ الخمس فإنّ اللّذات مختلفة بالنوع أوّلاً كمخالفة لذّة الوقاع للذّةالسماع و لذّةالمعرفة للذّة الرّئاسة وهي مختلفةبالضعف و القوّة كمخالفة لذّة الشبق المغتلم من الجماع بالإضافة إلى لذّة الفاتر للشهوة وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال بالإضافة إلى ما دونه في الجمال، وإنّما تعرف أقوى اللّذّات بأن تكون مؤثّرة على غيرها فإنّ المخيّر بين النظر إلى صورة جميلة و التمتّع بمشاهدتها و بين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصور الملاح علم به أنّ الصور الجميلة عنده ألذّ من روائح الطيّبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل و استمرّ اللاّعب بالشطرنج على اللّعب و ترك الأكل فيعلم به أنّ لذّة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذّة الأكل، فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللّذّات فنعود ونقول: اللّذّات تنقسم إلى ظاهرة كلذّة الحواسّ الخمس وإلى باطنة كلذّةالرّياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللّذّات للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للّمس ولا للذّوق و المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللّذات الظاهرة فلو خيّر الرّجل بين لذّة الهريسة و

الدّجاج المسمن واللّوزينج و بين لذّة الرّئاسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخيّر خسيس الهمّة ميّت القلب شديد النهمة اختار الهريسة والحلاوة و إن كان عليّ الهمّة كامل العقل اختار الرّئاسة و هان عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أيّاماً كثيرة فاختياره للرّئاسة يدلّ على أنّها ألذّ عنده من الهريسة و المطعومات الطيّبة ، نعم الناقص الّذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبيّ أو كالّذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذّة المطعومات على لذّة الرّئاسة و كما أنّ لذّة الرّئاسة و الكرامة أغلب اللّذّات على من جاوز نقصان الصبى و العته فلذّة معرفة الله تعالى و مطالعة جمال الحضرة الرّبوبيّة و النظر إلى أسرار الأمور الالهيّة ألذّ من الرّئاسة الّتي هي أعلى اللّذّات الغالبة على الخلق ، و غاية العبارة عنه أن يقال : « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرّة أعين » و أنّه أعدّ لهم ما لا عين رأت و لا اُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، و هذا لا يعرفه إلّا من ذاق اللّذّتين جميعاً فإنّه لا محالة يؤثر التبتّل و التفرّد و الفكر و الذّكر ، وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرّئاسة ويستحقر الخلق الّذين يرأسهم لعلمه بفناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته وكونه مشوباً بالكدورات الّتي لا يتصوّر الخلوّ عنها وكونه مقطوعاً بالموت الّذي لابدّ من إتيانه مهما «أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا - الآية »(١) فيستعظم بالاضافة إليه لذّة معرفة الله تعالى و مطالعة صفاته و أفعاله و نظام مملكته من أعلى علّيّين إلى أسفل السافلين ، فإنّها خالية عن المزاحمات والمكدّرات ، متّسعة للمتواردين عليها ، لا يضيق عنهم بكثرتهم دائماً و إنّما عرضها من حيث التقدير السماوات و الأرض ، و إذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنّة عرضها السماوات و الأرض ، يرتع في رياضها و يكرع في حياضها و يقطف من ثمارها و هو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنّة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل هي أبديّة سرمديّة لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محلّ معرفة الله تعالى إذ محلّها الرّوح الّذي هو أمر ربّانيّ

(١) يونس : ٢٤ .

سماويّ و إنّما الموت يغيّر أحوالها ويقطع شواغلها و عوائقها و يخلّيها من حبسها فأمّا أن يعدمها فلا قال الله تعالى : «ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون؟ فرحين بما آتيهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية »(١) و لا تظننّ أنّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإنّ للعارف بكلّ نفس درجة ألف شهيد ، و في الخبر «إنّ الشهيد يتمنّى في الآخرة أن يردّ إلى الدّنيا فيقتل مرّة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة و أنّ الشهداء يتمنّون لو كانوا علماء لما يرون من علوّ درجة العلماء »(٢) فإذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ميدان للعارف يتبوّء منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك فيها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنّة عرضها السماوات والأرض وكلّ عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلّا أنّهم يتفاوتون في سعة متنزّهاتهم بقدر تفاوتهم في اتّساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أنّ لذّة الرّئاسة وهي باطنة أقوى عند ذوي الكمال من لذّات الحواسّ كلّها ، و أنّ هذه اللّذّة لا تكون لبهيمة ولا لصبيّ و لا لمعتوه و إنّ لذّة المحسوسات و الشهوات تكون لذوي الكمال مع لذّة الرّئاسة ولكن يؤثرون الرّئاسة فأمّا معنى كون معرفة الله وصفاته و أفعاله وملكوت سماواته و أسرار ملكه أعظم لذّة من الرّئاسة فهذا يختصّ بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأنّ القلب معدن هذه القوّة كما أنّه لا يثبت رجحان لذّة الوقاع على لذّة اللّعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذّة شمّ البنفسج عند العنّين لأنّه قد فقد الصفة الّتي بها تدرك هذه اللّذّة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسّة شمّه أدرك التفاوت بين اللّذّتين وعند هذا لا يبقى إلّا أن يقال : من ذاق عرف ، ولعمري أنّ طلّاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهيّة فقد استنشقوا رائحة هذه اللّذة عند انكشاف المشكلات و انحلال الشبهات

(١) آل عمران : ١٦٣ و ١٦٤ .

(٢) متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

الّتي قوي حرصهم على طلبها فإنّها أيضاً معارف و علوم و إن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهيّة فأمّا من طال فكره في معرفة الله سبحانه و قد انكشف له من أسرار ملك الله و لو الشيء اليسير فإنّه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجّب من نفسه في ثباته و احتماله لقوّة فرحه وسروره وهذا ممّا لا يدرك إلّا بالذّوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى ، فهذا القدر ينبّهك على أنّ معرفة الله سبحانه ألذّ الأشياء و أنّه لا لذّة فوقها ، و لذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه و من كان اليوم مشغولاً بربّه فهو غداً مشغولٌ بربّه . وقيل لرابعة : ما حقيقة إيمانك قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا رجاء لجنّته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبّاً له وشوقاً إليه ، و قالت في معنى المحبّة نظماً :

أُحبّك حبّين حبّ الهوى　✡　و حبّاً لأنّك أهل لذاكا
فأمّا الّذي هو حبّ الهوى　✡　فشغلي بذكرك عمّن سواكا
و أمّا الّذي أنت أهلٌ له　✡　فكشفك لي الحجب حتّى أراكا
فلا الحمد في ذا و لا ذاك لي　✡　و لكن لك الحمد في ذا وذاكا

و لعلّها أرادت بحبّ الهوى حبّ الله تعالى لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، و بحبّها لما هو أهل له الحبّ لجماله وجلاله الّذي انكشف لها و هو أعلى الحبّين و أقواهما و لذّة مطالعة جمال الرّبوبيّة هي الّتي عبّر عنها ﷺ حيث قال : حاكياً عن ربّه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا اُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[1] و قد يتعجّل بعض هذه اللّذات لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إنّي لأقول: يا ربّ يا الله فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال لأنّ النداء يكون من وراء حجاب و هل رأيت جليساً ينادي جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرّجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة. أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً و كفراً، فمقصد العارفين كلّهم وصله و لقاؤه

(١) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٤٣ من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

فهي قرّة العين الّتي لاتعلم نفس ماأُخفي لها منها ، و إذا حصلت انمحقت الهموم و الشهوات كلّها فصارالقلب مستغرقاً بنعيمها فلو اُلقي في النار لم يحسّ بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنّة لم يلتفت إليه، لكمال نعيمه و بلوغه الغاية الّتي ليس فوقها غاية ، وليت شعري من لا يفهم إلاّ حبّ المحسوسات كيف يؤمن بلذّة النظر إلى وجه الله تعالى ومالهشبه وصورة وشكل ، وأيّ معنى لوعدالله تعالى به عباده وذكره أنّه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أنّ اللّذّات المقرونة بالشهوات المختلفة كلّها تنطوي تحت هذه اللّذّة كما قال بعضهم :

كانت لقلبي أهواء مفرّقة ✩ فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ✩ فصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم و دينهم ✩ شغلاً بذكرك يا ديني و دنيائي

و لذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ، و وصله أطيب من جنّته . و ما أرادوا بهذا الإيثار لذّة القلب في معرفة الله تعالى على لذّة الأكل و الشرب والنكاح فإنّ الجنّة معدن تمتّع الحواسّ فأمّا القلب فلذّته في لقاء الله عزّ و جلّ فقط، ومثال أطوار الخلق في لذّاتهم ما نذكره و هو أنّ الصبيّ في أوّل حركته و تمييزه تظهر فيه غريزة بها يستلذّ اللّعب واللّهو حتّى يكون ذلك عنده ألذّ من سائرالأشياء ثمّ تظهر بعده لذّة الزّينة ولبس الثياب وركوب الدّوابّ فيستحقر معها لذّة اللّعب ثمّ تظهر بعده لذّة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثمّ تظهر له لذّة الرّئاسة و العلوّ والتكاثر و هي أحبّ لذّات الدّنيا و أغلبها و أقواها كما قال : « إعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ و زينة و تفاخر ـ الآية »[1] ثمّ بعد هذا تظهر غريزة اُخرى يدرك بها لذّة معرفة الله تعالى و معرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها وكلّ متأخّر فهو أقوى وهذا هوالأخير إذ يظهر حبّ اللّعب في سنّ الصبى و حبّ الزينة في سنّ التمييز و حبّ النساء في سنّ البلوغ و حبّ الرّئاسة بعد العشرين و حبّ العلوم بقرب الأربعين و هي الغاية العليا و كما أنّ

(١) الحديد : ٢٠ .

الصبيّ يضحك على من يترك اللّعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرّئاسة فكذلك الرّؤساء يضحكون على من يترك الرّئاسة و يشتغل بمعرفة الله تعالى و العارفون يقولون « إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون » .

(بيان السبب في زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا)

إعلم أنّ المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور المختلفة المتخيّلة و الأجسام المتلوّنة المتشكّلة في أشخاص الحيوان و النبات ، و إلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله سبحانه و كلّ ما ليس بجسم كالعلم و القدرة و الإرادة و غيرها و من رأي إنساناً ثمّ غضّ بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنّه ينظر إليها ولكن إذا فتح العين و أبصر أدرك تفرقة بينهما ولاترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأنّ الصورة المرئيّة تكون موافقة للمتخيّلة و إنّما الافتراق بمزيد الوضوح و الكشف فإنّ صورة المرئي صارت بالرّؤية أتمّ انكشافاً و وضوحاً وهو كشخص يرى في وقت الأسفار قبل انتشار ضوء النهار ثمّ رئي بعد تمام الضوء فإنّه لايفارق إحدى الحالتين الاُخرى إلّا في مزيد الانكشاف فإذن الخيال أوّل الإدراك و الرّويّة هي الاستكمال لإدراك الخيال وهي غاية الكشف وسمّي ذلك رؤية لأنّه غاية الكشف لا لأنّه في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلا استحقّ أن يسمّى رؤية ، و إذا فهمت هذا في المتخيّلات فاعلم أنّ المعلومات الّتي لاتتشكّل في الخيال أيضاً لمعرفتها وإدراكها درجتان إحداهما اُولى والثانية استكمال لها و بين الثانية والأولى من التفاوت في مزيد الكشف و الإيضاح ما بين المتخيّل و المرئي فيسمّى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأوّل مشاهدة ولقاء و رؤية و هذه التسمية حقّ لأنّ الرّؤية سمّيت رؤية لأنّها غاية الكشف و كما أنّ سنّة الله تعالى جارية بأنّ تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرّؤية و يكون حجاباً بين البصر و المرئي و لابدّ من ارتفاع الحجاب لحصول الرّؤية و ما لم يرتفع كان الإدراك الحاصل مجرّد التخيّل فكذلك مقتضى سنّة الله أنّ النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن و مقتضى الشهوات و ما غلب عليها من الصفات البشريّة فإنّها لا تنتهي إلى

المشاهدة و اللّقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولايليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام: «لن تراني»[١] وقال تعالى: «لاتدركه الأبصار »[٢] أي في الدّنيا . و الصحيح أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله «ما رأى الله عزّ وجلّ ليلة المعراج »[٣].

أقول: بل التحقيق أنّه لافرق في الرؤية بين الدّنيا والآخرة فكما أنّه لايجوز رؤيته سبحانه في الدّنيا بالعين والبصر فكذلك لايجوز رؤيته في الآخرة بالعين والبصر، و كما أنّه يجوز رؤيته في الآخرة بالقلب و البصيرة لأهل البصائر أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث يتأدّى إلى المشاهدة واللّقاء كذلك يجوز رؤيته في الدّنيا بهذا المعنى والحجاب بينه و بين خلقه ليس إلّا الجهل وقلّة المعرفة دون البدن ، فإنّ أولياء الله يشاهدونه في الدّنيا في جميع أحوالهم و متصرّفاتهم ليلهم ونهارهم كما قال تعالى : « والشهداء عند ربّهم »[٤] وقال : «شهدالله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة واولوالعلم »[٥] وقال : «إلّا من شهد بالحقّ وهم يعلمون»[٦] فسمّاهم شهداء لمشاهدتهم له في جميع أحوالهم كما ذكر بقوله : « فأينما تولّوا فثمّ وجه الله » [٧] و قال : « هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكلّ شيء عليم »[٨] و قال : « ما يكون من نجوى ثلاثة - الآية »[٩] و قال : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » [١٠] فلمّا تحقّق أولياء الله بمعاني هذه الآيات شاهدوه بأعين قلوبهم ، سئل أمير المؤمنين عليه السلام «هل رأيت ربّك حين عبدته ؟ فقال : ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره ، قيل : وكيف رأيته؟ قال : ويلك

(١) الاعراف : ١٤٠ . (٢) الانعام : ١٠٣.

(٣) قال العراقى : هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة ففى الصحيحين أنها قالت « من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب » .

(٤) الحديد : ١٩ . (٥) آل عمران : ١٦ .

(٦) الزخرف : ٨٦ . (٧) البقرة : ١١٠ .

(٨) الحديد : ٣. (٩) المجادلة : ٨ .

(١٠) ق : ١٦ .

لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان »[١] و قال ابنه الحسين سيّدالشهداء : « كيف يستدلّ عليك بما هوفي وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك و متى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك ، عميت عين لا تراك و لا تزال عليها رقيباً ، و خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً » وقال أيضاً « تعرّفت لكلّ شيء فماجهلك شيء » وقال : « تعرّفت إليّ في كلّ شيء »[٢] إلى غير ذلك ممّا ورد عنهم عليهم السلام في هذا المعنى ، نعم يمكن أن يزيد الانكشاف في الآخرة بقدر زيادة صفاء القلوب و زكائها .

قال أبو حامد : فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوّثة بكدورات الدّنيا غير منفكّة عنها بالكلّيّة و إن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليها الخبث و الصدأ فصار كالمرآة الّتي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح و التصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربّهم أبد الآباد نعوذ بالله منه ، ومنها مالم ينته إلى حدّ الرّين و الطبع و لم يخرج عن قبول التزكية و التصقيل فيعرض على النار عرضاً يقمع منها الخبث الّذي هو متدنّس به ويكون العرض على النّار بقدر الحاجة إلى التزكية و أقلّها لحظة خفيفة و أقصاها في حقّ المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ولم ترتحل نفس عن هذا العالم إلّا وتصحبها غبرة و كدورة مّا و إن قلّت ، و لذلك قال تعالى : « و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ✲ ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً »[٣] فكلّ نفس مستيقنة الورود على النار وغير مستيقنة الصدور عنها فإذا أكمل الله عزّ وجلّ تطهيرها و تزكيتها و بلغ الكتاب أجله و وقع الفراغ عن جملة ما ورد به الشرع من العرض و الحساب وغيره وكان له استحقاق الجنّة و ذلك وقت مبهم لم يطّلع الله عليه أحداً من خلقه

(١) الكافي ج ١ ص ٩٧ تحت رقم ٦ .
(٢) راجع دعاءه عليه السلام في يوم عرفة في كتاب اقبال الاعمال للسيد بن الطاووس (ره) .
(٣) مريم : ٧٢ و٧٣ .

فإنّه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يستشغل بصفائه و نقائه عن الكدورات حيث لا ترهق وجهه غبرة ولاقترة لأن يتجلّى فيه الحقّ سبحانه وتعالى فيتجلّى له تجلّياً يكون انكشاف تجلّيه بالإضافة إلى ماعلمه كانكشاف تجلّي المرآة بالإضافة إلى ما تخيّله و هذه المشاهدة والتجلّي هي الّتي تسمّى رؤية فإذن الرّؤية حقّ بشرط أن لا يفهم من الرّؤية استكمال الخيال في متخيّل متصوّر مخصوص بجهة و مكان فإنّ ذلك ممّا يتعالى عنه ربّ الأرباب علوّاً كبيراً بل كما عرفته في الدّنيا معرفة حقيقيّة تامّة من غير تخيّل وتصوّر و تقدير شكل و صورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول : المعرفة الحاصلة في الدّنيا بعينها هي الّتي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح و تنقلب مشاهدة و لايكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدّنيا اختلاف إلّا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا المثال في استكمال الخيال بالرّؤية فإذا لم يكن في معرفةالله إثبات صورة وجهة فلايكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقّيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضاً جهة وصورة لأنّها هي بعينها لاتفترق منها إلّا في زيادة الكشف كما أنّ الصورة المرئية هي المتخيّلة بعينها إلّا في زيادة الكشف ، و على الجملة فالله سبحانه بذاته و جميع صفاته كما وصفه في كتابه و أخبر عنه نبيّه منزّه مقدّس عن الشبه والمثل و مشاكلة رسوم الحدثان ، لا يشبه ذاته سائر الذّوات ولا صفاته جميع الصفات و أنّى يشبه ربّ أزليّ حيّ قيّوم أبديّ فرد وتر أحديّ لم يزل متّصفاً بصفاته العليا متسمّياً بأسمائه الحسنى إلهاً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً و من أين يماثل مخلوقاً عاجزاً محدثاً مكوّناً لم يكن في الأصل شيئاً فخلقه بقدرته و أنشأه كما شاء بحكمته ، و أحدث فيه صفات ناقصة متزلزلة غيرمستقيمة فوكّل به أنواع الآفات و فنون النقائص والعاهات من البلايا المتنوّعة والفتن والمحن المتفنّنة كالجوع والعطش والغلق والشبق والحيرة والضجر والقلق والأدواء والأمراض والعلل والأسقام إلى مالا يتناهى ثمّ أرهقه ورود مورد الممات وجرّعه مرارة كؤس الوفاة . وجعله على أثر ذلك رهين الجدث والتراب إلى وقت العرض والحساب ، ثمّ يبعثه في يوم يكلّ اللّسان عن وصف أحواله ، و يعجز

البيان دون حصر أحواله لمواقف ومقامات يفرغ عنها معشر الصدّيقين والأولياء بل خيار الرّسل والأنبياء ، وهلمّ جرّا إلى أن يسكنه بحبوحة الجنان مع الرّوح و الرّيحان والرّاحة والرّضوان أو يحبسه في حصير جهنّم و أركان النيران بالخزي والهوان و الشقاء و الخذلان ، فليت شعري من أين يتصوّرههنا مماثلة أو كيف يمكن بين خالق وصفناه و مخلوق ذكرناه مشاكلة عند غمر غافل وسفيه جاهل فضلاً عن ذوي العقول وأرباب الألباب تعالى الله عمّا يقول الظالمون و المشركون والمشبّهة و الممثّلة والمعطّلون علوّاً كبيراً .

نعم اقتضت الحكمة الأزليّة والإرادةالأحديّة الإيجاد والإبداع والإنشاء والاختراع فأنشأ أصناف الخليقة و أوجد أنواع البريّة على وفق مراده و مشيّته دون سابقة مثال في تكوين الكون و فطرته و قسّم إذ ذاك بني آدم من بينهم قسمين وذرأهم من قبل الطاعة والمعصية فرقتين أشقياء و سعداء و مهتدين و أغوياء فنوّر أهل السعادة في هذه الحياة بنور المعرفة و الإيمان و ترك أهل الشقاوة في غمرات ظلمة الكفر و الطغيان ثمّ غدا في دار البقاء و مقام الرّؤية و اللّقاء يتمّ لهم ذلك النور و الضياء و إليه الإشارة بقوله‌تعالى : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون‌ربّنا أتمم لنا نورنا » (١) إذ تمام النور لا يؤثر إلّا في زيادة الكشف و لهذا لا يفوز بدرجة الرّؤية والنظر إلّا العارفون في الدّنيا لأنّ المعرفة هي‌البذرالّتي تنقلب في‌الآخرة مشاهدة كماتنقلب النواة شجرة والبذر زرعاً ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل و من‌لم‌يزرع‌البذر كيف‌يحصل‌الزّرع و كذلك من لم‌يعرف‌الله عزّوجلّ في‌الدّنيافكيف يراه في‌الآخرة ، ولمّاكانت‌المعرفة على‌درجات متفاوتة كان التجلّي أيضاً على‌درجات متفاوتة فاختلاف التجلّي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى‌اختلاف‌البذرإذتختلف‌لامحالة بكثرتها وقلّتها وحسنها ورديّها وقوّتها وضعفها و كما أنّك ترى في الدّنيا من يؤثر لذّة الرّئاسة على المنكوح والمطعوم وترى من يؤثرلذّةالعلم وانكشاف‌مشكلات ملكوت‌السماوات والأرض وسائر الأمورالإلهيّة

(١) التحريم : ٨ .

على الرّئاسة وعلى المنكوح والمشروب جميعاً فكذلك يكون في الآخرة قومٌ يؤثرون لذّة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنّة إذ يرجع نعيمها إلى المنكوح والمطعوم و هؤلاء بعينهم هم الّذين حالهم في الدّنيا ماوصفنا من إيثار لذّة المعرفة والعلم والاطّلاع على أسرار الرّبوبيّة على لذّة المنكوح و المشروب و سائر الخلق مشغولون به ، و لذلك لمّا قيل لرابعة : ما تقولين في الجنّة ؟ فقالت : الجار ، ثمّ الدّار . فبيّنت أنّه ليس في قلبها إلتفات إلى الجنّة بل إلى ربّ الجنّة فكلّ من لم يعرف الله عزّ وجلّ في الدّنيا فلا يراه في الآخرة و كلّ من لم يجد لذّة المعرفة في الدّنيا فلا يجد لذّة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة مالم يصحبه في الدّنيا فلايحصد أحد إلّا ما زرع ولا يحشر المرء إلّا على مامات عليه ولا يموت إلّا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الّذي يتنعّم به بعينه فقطّ إلّا أنّه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللّذّة به كما تتضاعف لذّة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإنّ ذلك هو منتهى لذّته و إنّما طيبة الجنّة أنّ لكلّ واحد فيها مايشتهي فمن لا يشتهي إلّا لقاء الله عزّ وجلّ فلا لذّة له في غيره بل ربّما يتأذّى به فإذن نعيم الجنّة بقدر حبّ الله تعالى وحبّ الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هي المعرفة الّتي عبّر الشرع عنها بالإيمان ، فإن قلت: فلذّة الرّؤية إن كانت لها نسبة إلى لذّة المعرفة فهي قليلة وإن كانت أضعافها لأنّ لذّة المعرفة في الدّنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حدّ قريب لا ينتهي في القوّة إلى أن يستحقر في جنبه سائر لذّات الجنّة ، فاعلم أنّ هذا الاستحقار للذّة المعرفة مصدره الخلوّ عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذّتها و إن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدّنيا فكيف يدرك لذّتها فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم و مناجاتهم لله عزّ وجلّ لذّات لو عرضت عليهم الجنّة في الدّنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذّة الجنّة ثمّ هذه اللّذّة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذّة اللّقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذّة خيال المعشوق إلى رؤيته ولا للذّة استنشاق روائح الأطعمة الشهيّة إلى ذوقها ولا للذّة اللّمس باليد إلى لذّة الوقاع و إظهار عظم التفاوت بينهما لايمكن إلّا بضرب مثال فنقول: لذّة النظر إلى

وجه المعشوق في الدّنيا تتفاوت بأسباب أحدها جمال المعشوق و نقصانه فإنّ اللّذّة في النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة . والثاني كمال قوّة الحبّ والشّهوة و العشق فليست لذّة من اشتدّ عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبّه . والثالث كمال الإدراك فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بُعد كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضّوء ولا إدراك لذّة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرّد. والرّابع اندفاع العوائق المشوشّة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألّم أو المشغول قلبه بمهمّ من المهمّات فقدّر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب و زنابير تؤذيه وتلدغه و تشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو من لذّة مّا من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك به الستر وأشرق به الضّوء و اندفع عنه المؤذيات وبقي سليماً فارغاً وهجمت عليه الشهوة القويّة والعشق المفرط حتّى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللّذّة حتّى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتدّ بها، و كذلك فافهم نسبة لذّة النظر إلى لذّة المعرفة فالستر الرّقيق مثال للبدن والاشتغال به ، والعقارب والزّنابير مثال للشهوات المسلّطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغمّ والحزن ، وضعف الشهوة و الحبّ مثال لقصور النّفس في الدّنيا و نقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى و إلتفاتها إلى أسفل السافلين و هو مثل قصور الصّبي عن ملاحظة لذّة الرّئاسة وإلتفاته إلى اللّعب بالعصفور ، فالعارف إن قويت في الدّنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوّشات ولا يتصوّر أن يخلو عنها البتّة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلاجرم يلوح من جمال المعرفة ما يدهش العقل ويعظم لذّته بحيث يكاد القلب يتفطّر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف و قلّما يدوم بل يعرض من الشواغل والأفكار و الخواطر ما يشوّشه و ينغّصه و هذه الضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللّذّة منغّصة إلى الموت و إنّما الحيوة الطيّبة بعد الموت وإنّما العيش عيش الآخرة فإنّ «الدّار

الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» و كلّ من انتهى إلى هذه الرّتبة فإنّه يحبّ لقاء الله عزّ وجلّ فيحبّ الموت ولا يكرهه إلّا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإنّ المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له والإحاطة بكنه جلال الله محال و كلّما كثرت المعرفة بالله عزّ وجلّ وبصفاته و بأفعاله و بأسرار مملكته و قويت كثر النعيم في الآخرة و عظم كما أنّه كلّما كثر البذر و حسن كثر الزّرع وحسن ، و لايمكن تحصيل هذا البذر إلّا في الدّنيا و لا زرع إلّا في صعيد القلب ولاحصاد إلّا في الآخرة، ولذلك قال النبيّ ﷺ : «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله عزّ وجلّ»[1] لأنّ المعرفة إنّما تكمل و تكثر و تتّسع في العمر الطويل بمداومة الفكر و المواظبة على الذّكر و طول المجاهدة و الانقطاع عن علائق الدّنيا و التجرّد للطّلب و يستدعي ذلك زماناً لا محالة فمن أحبّ الموت أحبّه لا محالة لأنّه رأى نفسه واثقاً في المعرفة بالغاً إلى منتهى ما يسّر له و من كره الموت كرهه لأنّه كان يأمل مزيد معرفة يحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصّراً عمّا تحتمله قوّته لو عمّر فهذا سبب كراهة الموت و حبّه عند أهل المعرفة ، و أمّا سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدّنيا إن اتّسعت اختاروا البقاء وإن ضاقت تمنّوا الموت و كلّ ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل و الغفلة ، فالجهل والغفلة مغرس كلّ خطيئة و شقاوة ، و العلم والمعرفة أساس كلّ سعادة ، فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبّة ومعنى العشق فإنّه المحبّة المفرطة القويّة ، و معنى لذّة المعرفة ، و معنى الرؤية ، ومعنى كونها ألذّ من سائر اللّذّات عند ذوي العقول و الكمال و إن لم يكن كذلك عند ذوي النقصان كما لم تكن الرّئاسة ألذّ من المطعومات والملاعب عند الصبيان .

فإن قلت : فهذه الرّؤية محلّها العين أو القلب في الآخرة ، فاعلم أنّ النّاس اختلفوا فيه و أرباب البصائر لا يلتفتون إلى ذلك ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ومن يشتهي رؤية معشوقة يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى

(١) رواه القضاعي في الشهاب والديلمي في الفردوس من حديث ابن عمر ، هكذا « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله » و سنده حسن كما في الجامع الصغير.

أنّ رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرّؤية ولذّتها سواء بالعين أو غيرها فانّ العين محلّ وظرف لا نظر إليه ولا حكم له و الحقّ فيه أنّ القدرة الأزليّة واسعة فلا يحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين هذا في حكم الجواز ، وأمّا الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلّا بالسمع والحقّ ما ظهر لأهل السنّة والجماعة من شواهد الشرع أنّ ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرّؤية و النظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهرها إذ لا يجوز إزالة الظاهر إلّا بضرورة ، والله أعلم .

أقول: بل الحقّ فيهما أشرنا إليه وصحّت روايته عن أهل البيت عليهم السلام العارفين بأسرار النبوّة الّذين هم مهابط الوحي ومختلف الملائكة و هو أنّ ذلك إنّما يكون بالقلب فحسب دون العين و أنّ رؤية العين في حقّ الله تعالى محال سواء في الدّنيا و الآخرة ، روى شيخنا ثقة الاسلام محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله (١) وشيخنا الصدوق محمّد بن عليّ بن بابويه طاب ثراه (٢) باسنادهما الصحيح ، عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عمّا يروون من الرؤية فقال : « الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، و الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر ، فان كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب ».

و باسنادهما عن أحمد بن إسحاق قال : « كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية و ما اختلف فيه الناس ، فكتب «لا يجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي و المرئي هواء ينفذه البصر فاذا انقطع الهواء عن الرائي و المرئي لم تصحّ الرّؤية و كان في ذلك الاشتباه لأنّ الرّائي متى ساوى المرئيّ في السبب الموجب بينهما في الرّؤية وجب الاشتباه وكان ذلك التشبيه لأنّ الأسباب لا بدّ من اتّصالها بالمسبّبات».

و باسناد الصدوق رحمه الله - عن أبي بصير ، عن الصادق عليه السلام قال : قلت له : «أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم و قد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم : ألست بربّكم قالوا : بلى ، ثمّ سكت

(١) راجع الكافي ج ١ باب ابطال الرؤية .
(٢) راجع التوحيد باب ماجاء في الرؤية .

ساعة ، ثمّ قال : و إنّ المؤمنين ليرونه في الدّنيا قبل يوم القيامة ألست تراه في وقتك هذا ، قال أبو بصير : فقلت له : جعلت فداك فاُحدّث بهذا عنك ؟ فقال : لا فانّك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول ثمّ قدر أنّ ذلك تشبيه و كفر وليست الرّؤية بالقلب كالرّؤية بالعين تعالى الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون » .

(بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى)

إعلم أنّ أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حبّاً لله فانّ الآخرة معناها القدوم على الله عزّ و جلّ و درك سعادة لقائه و ما أعظم نعيم المحبّ إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكّن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغّص ومكدّر ومن غير رقيب و مزاحم و من غير خوف انقطاع إلّا أنّ هذا النعيم على قدر قوّة الحبّ فكلّما ازداد الحبّ ازدادت اللّذّة و إنّما يكتسب العبد حبّ الله عزّ و جلّ في الدّنيا وأصل الحبّ لاينفكّ عنه مؤمن لأنّه لاينفكّ عن أصل المعرفة و أمّا قوّة الحبّ و استيلاؤه حتّى ينتهي إلى الاستهتار الّذي يسمّى عشقاً فذلك ينفكّ عنه الأكثرون و إنّما يحصل ذلك بسببين أحدهما قطع علائق الدّنيا و إخراج حبّ غير الله من القلب فانّ القلب مثل الاناء الّذي لايتّسع للخلّ مثلاً مالم يخرج منه الماء «و ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» وكمال الحبّ في أن يحبّ الله عزّ و جلّ بكلّ قلبه وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حبّ الله وبقدر ما يبقى من الماء في الاناء ينقص من الخلّ المصبوب فيه و إلى هذا التفريد و التجريد الاشارة بقوله تعالى : « قل الله ثمّ ذرهم » (١) و بقوله « إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا» (٢) بل هو معنى قولك «لا إله إلّا الله» أي لا معبود ولا محبوب سواه ، وكلّ محبوب فانّه معبود فانّ العبد هو المتعبّد والمعبود هو المتعبّد له وكلّ محبّ فهو يعبد لما يحبّه و لذلك قال تعالى : « أفرأيت

---

(١) الانعام : ٩١ . (٢) فصلت : ٣٠ .

من اتّخذ إلهه هواه»(١) وقال عليه السلام: «أبغض إله عبد في الأرض الهوى»(٢) ولذلك قال عليه السلام: «من قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنّة»(٣) ومعنى الإخلاص أن يخلّص قلبه لله عزّ وجلّ فلا يبقى فيه شركة لغير الله فيكون الله محبوب قلبه و معبود قلبه و مقصود قلبه فقطّ ومن هذا حاله فالدّنيا سجنه لأنّها مانعة له عن مشاهدة محبوبه و موته خلاص من السجن و قدوم على المحبوب، فما حال من ليس له إلّا محبوبٌ واحدٌ و قدطال إليه شوقه و تمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكّن من المحبوب و روّح بالأُنس أبد الآباد، فإذن أحد أسباب ضعف حبّ الله في القلوب قوّة حبّ الدّنيا و منه حبّ الأهل و المال و الولد والأقارب و العقار و الدّواب و البساتين و المتنزّهات حتّى أنّ المتفرّج بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدّنيا و متعرّض لنقصان حبّ الله بسببه فبقدر ما أنس بالدّنيا ينقص اُنسه بالله فلا يؤتى أحدٌ شيئاً من الدّنيا إلّا و ينقص بقدره من الآخرة بالضرورة، كما أنّه لا يقرب الإنسان من المشرق إلّا و يبعد بالضرورة من المغرب بقدره، ولا يطيب قلب امرأة إلّا و يضيق به قلب ضرّتها فالدّنيا و الآخرة ضرّتان و هما كالمشرق و المغرب، وقدانكشف ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع حبّ الدّنيا من القلب سلوك طريق الزّهد و ملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف و الرّجاء فما ذكرناه من المقامات كالتوبة و الصبر و الزّهد و الخوف و الرّجاء هي مقدّمات ليكتسب بها أحد ركني المحبّة و هو تخلية القلب عن غير الله و أوّله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنّة والنار، ثمّ يتشعّب منه الخوف والرّجاء وينشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثمّ ينجرّ ذلك إلى الزّهد في الدّنيا و في المال و الجاه و كلّ حظوظ الدّنيا حتّى تحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقطّ حتّى يتّسع بعده لنزول معرفة الله عزّ وجلّ وحبّه فيه و كلّ ذلك مقدّمات تطهير

(١) الجاثية: ٢٢.

(٢) أخرجه الطبراني على مافي كنوز الحقائق هكذا «أبغض إله عبد عندالله في الارض الهوى».

(٣) رواه الصدوق في التوحيد باب ثواب الموحدين والعارفين.

القلب وهوأحد ركني المحبّة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «الطهورشطرالإيمان»[١] كما ذكرناه في أوّل كتاب الطهارة.

السبب الثاني: لقوّة المحبّة قوّة معرفة الله و اتّساعها و استيلاؤها على القلب، و ذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدّنيا و علائقها و ذلك يجري مجرى وضع البذرفي الأرض بعد تنقيتها من الحشيش و هو الشطر الثاني، ثمّ يتولّد من هذا البذر شجرة المحبّة و المعرفة وهي الكلمة الطيّبة الّتي ضرب الله بها مثلاً حيث قال: ومثل «كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء»[٢] وإليها الإشارة بقوله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيّب (أي المعرفة) والعمل الصّالح يرفعه»[٣] فالعمل الصالح كالحمّال لها و كالخادم و إنّما العمل الصّالح كلّه في تطهير القلب أوّلاً من الدّنيا ثمّ في إدامة طهارته، فلا يراد العمل إلّا لهذه المعرفة و أمّا العلم بكيفيّة العمل فيراد للعمل، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر و إنّما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب و طهارته ليتّضح فيه جليّة الحقّ ويتزيّن بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة و مهما حصلت هذه المعرفة تبعها المحبّة بالضرورة كما أنّ من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبّه ومال إليه ومهما أحبّه حصلت اللّذّة فاللّذّة تتبع المحبّة بالضرورة و المحبّة تتبع المعرفة بالضرورة و لا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدّنيا من القلب إلّا بالفكر الصافي والذّكر الدّائم والجدّ البالغ في الطلب والنظر المستمرّ في الله و في صفاته و ملكوت سماواته و سائر مخلوقاته، و الواصلون إلى هذه الرّتبة ينقسمون إلى أقوياء و يكون أوّل معرفتهم بالله تعالى ثمّ به يعرفون غيره و إلى ضعفاء فيكون أوّل معرفتهم بالأفعال ثمّ يترقّون منها إلى الفاعل وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى: «أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد»[٤] و بقوله:

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٤٠ وقد تقدم.

(٢) ابراهيم: ٢٩.

(٣) فاطر: ١١.

(٤) فصلت: ٥٣.

« شهد الله أنّه لا إله إلّا هو » (١) و منه نظر بعضهم حيث قيل له : بم عرفت ربّك؟ فقال : عرفت ربّي بربّي ، ولولا ربّي لما عرفت ربّي ، وإلى الثاني الإشارة بقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » (٢) وبقوله : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض » (٣) وبقوله : « قل انظروا ما ذا في السموات و الأرض » (٤) و بقوله : « الّذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ۞ ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » (٥) و هذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبّر والتذكّر والتفكّر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت : كلا الطريقين مشكلٌ فأوضح لنا منهما ما يتوصّل به إلى تحصيل المعرفة و التوصّل به إلى المحبّة . فاعلم أنّ الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحقّ سبحانه على سائر الخلق فهو غامضٌ والكلام فيه خارج عن حدّ فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيراده في الكتب وأمّا الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حدّ الافهام و إنّما قصرت الأفهام عنها لإعراضها عن التدبّر و اشتغالها بشهوات الدّنيا و حظوظ النفس و المانع من ذكر هذا اتّساعه و كثرته و انشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر و النهاية إذ ما من ذرّة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلّا وفيها عجائب و آيات تدلّ على كمال قدرة الله عزّ و جلّ و كمال حكمته و منتهى جلاله و عظمته و ذلك ممّا لا يتناهى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي » فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة فلا يمكن أن يتطفّل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرّمز إليه بمثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلّم فيها ولنترك الأعلى ، ثمّ

---

(١) آل عمران : ١٦ .
(٢) فصلت . ٥٣ .
(٣) الاعراف : ١٨٤ .
(٤) يونس : ١٠١ .
(٥) الملك : ٣ و ٤ .

الأفعال الإلهيّة كثيرة فنطلب أقلّها و أحقرها و أصغرها ولننظر في عجائبها فأقلّ المخلوقات هو الأرض و ما عليها أعني. بالإضافة إلى الملائكة و ملكوت السماوات فإنّك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيّفاً وستّين مرّة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إلى الشمس ثمّ انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الّذي هي مركوزة فيه فإنّه لا نسبة لها إليه و هي في السماء الرّابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السماوات ، ثمّ السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة و الكرسي في العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير و ما أحقر الأرض كلّها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار فقد قال عليه السلام : «الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض» (١) و مصداق ذلك عرف بالمشاهدة و التجربة .

و اعلم أنّ المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كلّ الأرض ثمّ انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الّذي هو جزء من الأرض و إلى سائر الحيوانات و إلى صغره بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل و ما يجري مجراهما فانظر في البعوض على صغر قدره و تأمّله بعقل حاضر وفكر صاف ، و انظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الّذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطوماً مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحيه وأخرج يديه و رجليه و شقّ سمعه و بصره و دبّر في باطنه من أعضاء الغذاء و آلاته ما دبّره في سائر الحيوانات و ركّب فيها من القوى الغاذية و الجاذبة والدّافعة والماسكة والهاضمة ما ركّب في سائر الحيوانات هذا في شكله و صفاته ، ثمّ انظر إلى هدايته كيف هداه الله إلى غذائه و عرّفه أنّ غذاءه دم الإنسان ثمّ انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان و كيف خلق له الخرطوم الطويل و هو محدّد الرّأس و كيف هداه إلى المصاص من مسام بشرة الإنسان حتّى يضع خرطومه

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

في واحد منها ، ثمّ كيف قوّاه حتّى يغرز فيه الخرطوم و كيف علّمه المصّ والتجرّع للدّم و كيف خلق الخرطوم مع دقّته مجوفاً حتّى يجري فيه الدّم الصافي الرقيق و ينتهي إلى باطنه و ينتشر في سائر أجزائه و معدته ، ثمّ كيف عرّفه أنّ الإنسان يقصده بيده فعلّمه حيلة الهرب و استعمال آلته ، و خلق له السمع الّذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المصّ ويهرب ، ثمّ إذا سكنت اليد عاد ثمّ انظر كيف خلق له حدقتين حتّى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه و انظر إلى أنّ حدقة كلّ حيوان صغير لمّا لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره و كانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى و الغبار خلق للبعوض و الذّباب يدين فتنظر إلى الذّباب فتراه على الدّوام يمسح حدقتيه بيديه وأمّا الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتّى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادّة فيجمع الغبار الّذي يلحق الحدقة و يرميها إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين و تعين على الإبصار و تحسن صورة العين و لتشبّكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب و اشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار ، و أمّا البعوض فخلق له حدقتين مصقلتين من غير أجفان و علّمه كيفيّة التصقيل باليدين و لأجل ضعف أبصارها تراه تتهافت على السراج لأنّ بصره ضعيف فهو يطلب ضوء النهار فإذا رأى المسكين ضوء السراج باللّيل ظنّ أنّه في بيت مظلم وأنّ السراج كوّة في البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء و يرمي بنفسه إلى الكوّة فإذا جاوزه و رأى الظلام ظنّ أنّه لم تصب الكوّة و لم يقصدها على السداد فيعود إليه مرّة اُخرى ، إلى أن يحترق فلعلّك تظنّ أن هذا لنقصانها و جهلها ، فاعلم أنّ جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدّنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ يلوح للآدمي أنوار الشهوات من الدّنيا من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أنّ تحتها السمّ الناقع القاتل فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها و يتقيّد بها و يهلك هلاكاً مؤبّداً فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فإنّها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلّصت في

الحال و الآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدّة مديدة ولذلك كان ينادي رسول الله صلّى الله عليه وآله الناس ويقول: «إنّكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم»(١) فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله عزّ وجلّ في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأوّلون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطّلعوا على اُمور جليّة من ظاهر صورته فأمّا خفايا معانيه فلا يطّلع عليه إلّا الله تعالى، ثمّ في كلّ حيوان و نبات اُعجوبة و عجائب تخصّها لا يشاركها غيرها فانظر إلى النحل وعجائبه فكيف أوحى الله عزّ و جلّ إليه حتّى اتّخذت من الجبال بيوتاً و من الشجر وممّا يعرشون، وكيف استخرج من لعابها الشمع و العسل وجعل أحدهما ضياء و الآخر شفاء، ثمّ لو تأمّلت عجائب أمرها في تناولها الأزهار و الأنوار و احترازها عن النجاسات و الأقذار و طاعتها لواحد من جملتهم هو أكبرهم شخصاً و هو أميرهم ثمّ ما سخّر الله لأميرهم من العدل و الإنصاف بينهم حتّى أنّه ليقتل على باب المنفذ كلّ ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجباً آخر العجب إن كنت بصيراً في نفسك و فارغاً من مهمّ بطنك و فرجك وشهوات نفسك و معاداة أقرانك وموالاة إخوانك، ثمّ دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع و اختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدّس فلاتبني بيتها مستديراً ولا مربّعاً ولا مخمّساً بل مسدّساً لخاصيّة في الشكل المسدّس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أنّ أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه فإنّ المربع يخرج منها زوايا ضائعة و شكل النحل مستدير مستطيل فترك المربّع حتّى لا يضيع الزّوايا فتبقى فارغة، ثمّ لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإنّ الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصّة ولا شكل في الأشكال ذوات الزّوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثمّ تتراصّ الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلّا المسدّس فهذه خاصيّة هذا الشكل، فانظر كيف ألهم الله عزّ وجلّ النحل على صغر جرمه و لطافة قدّه لطفاً به و عناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنّأ عيشه، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه و امتنانه،

---

(١) متفق عليه في الصحيحين باختلاف في اللفظ من حديث أبي هريرة وجابر وقد تقدم.

فاعتبر بهذه اللّمعة اليسيرة من محقّرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض و السماوات فإنّ القدر الّذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه و لا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به علم العلماء و الأنبياء ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلّهم إلى ما استأثر الله عزّ وجلّ بعلمه بل كلّ ما عرفه الخلق لا يستحقّ أن يسمّى علماً في جنب علم الله تعالى ، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين و بزيادة المعرفة يزداد المحبّة فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدّنيا وراء ظهرك و استغرق العمر في الفكر الدّائم والذّكر اللاّزم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك القدر اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له .

✿(بيان السبب في تفاوت الناس في الحب)✿

إعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل المحبّة لاشتراكهم في أصل الإيمان ولكنّهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة و في حبّ الدّنيا إذ الأشياء إنّما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلّا الصفات والأسماء الّتي قرعت أسماعهم فتلقّنوها وحفظوها وربّما تخيّلوا لها معاني يتعالى عنها ربّ الأرباب وربّما لم يطّلعوا على حقيقتها و لا تخيّلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم و تصديق و اشتغلوا بالعمل و تركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين و المتخيّلون هم الضالّون و العارفون بالحقائق هم المقرّبون وقد ذكر الله عزّ وجلّ حال الأصناف الثلاثة في قوله : « فأمّا إن كان من المقرّبين ✿ فروح و ريحان وجنّة نعيم - الآيات »(١) و إذا كنت لا تفهم الأمور إلّا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحبّ مثالاً فنقول : أصحاب إمام مثلاً يشتركون في حبّ ذلك الإمام ، العلماء منهم والعوام لأنّهم يشتركون في معرفة فضله و دينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكنّ العامّيّ يعرف علمه مجملاً و الفقيه يعرفه مفصّلاً فيكون معرفة الفقيه به أتمّ و إعجابه به وحبّه له أشدّ فمن رأى تصنيف مصنّف فاستحسنه و عرف به فضله أحبّه لا محالة و مال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه و أعجب تضاعف لا محالة حبّه و

(١) الواقعة : ٨٧ و ٨٩ .

مال إليه قلبه أكثر من ميله الأوّل لأنّه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرّجل في الشاعر أنّه حسن الشعر فيحبّه، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبّاً وكذا سائر الصناعات والفضائل فالعاميّ قد يسمع أنّ فلاناً مصنّف وأنّه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل، والبصير إذا فتّش عن التصانيف واطّلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبّه لا محالة لأنّ عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدلّ على كمال صفات الفاعل والمصنّف، والعالم بجملته صنع الله وتصنيفه والعاميّ يعلم ذلك ويعتقده، وأمّا البصير فإنّه يطالب تفصيل صنع الله تعالى فيه حتّى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه وما ينبهر به عقله ويتحيّر فيه لبّه فيزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حبّاً فكلّما ازداد على أعاجيب صنع الله اطّلاعاً استدلّ به على عظمة الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حبّاً وبحر هذه المعرفة أعني معرفة عجائب صنع الله لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحبّ لا حصر له وممّا يتفاوت بسببه الحبّ أيضاً اختلاف الأسباب الخمسة الّتي ذكرناها للحبّ فإنّ من يحبّ الله مثلاً لكونه محسناً إليه ومنعماً عليه ولم يحبّه لذاته ضعفت محبّته إذ تتغيّر بتغيّر الإحسان فلا يكون حبّه في حالة البلاء كحبّه في حالة الرّجاء والنعماء، وأمّا من يحبّه لذاته أو لأنّه مستحقّ للحبّ بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنّه لا يتفاوت حبّه بتفاوت الإحسان إليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبّة والتفاوت في المحبّة هو سبب التفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى: «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً»(١).

❁(بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله عز وجل)❁

إعلم أنّ أظهر الموجودات وأجلاها هو الله عزّ وجلّ وكان هذا يقتضي أن يكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول وترى الأمر بالضدّ من ذلك فلا بدّ من بيان السبب فيه، وإنّما قلنا: إنّ أظهر الموجودات وأجلاها

(١) الاسراء: ٢١.

هو الله تعالى لمعنى لايفهمه إلّا بمثال و هو أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب أويخيط مثلاً كان كونه حيّاً عندنا من أظهر الموجودات فحياته و علمه وقدرته و إرادته للكتابة و الخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة و الباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته و غضبه وحلمه و صحّته و مرضه و كلّ ذلك لا نعرفه و صفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشكّ فيه كمقدار طوله و اختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمّا حياته و قدرته و إرادته و علمه وكونه حيواناً فإنّه جليّ عندنا من غير أن يتعلّق حسّ البصر بحياته و قدرته وإرادته فإنّ هذه الصفات لاتحسّ بشيء من الحواسّ الخمس ثمّ لايمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلّا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كلّ ما في العالم سواه لم نعرف به صفاته فما عليه إلّا دليل واحد وهو مع ذلك جليّ واضح و وجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كلّ ما نشاهده و ندركه بالحواسّ الظاهرة و الباطنة من حجر و مدر ونبات و شجر وحيوان وسماء و ماء و أرض و كوكب و برّ وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا و أجسامنا و أوصافنا و تقلّب أحوالنا و تغيّر قلوبنا و جميع أطوارنا في حركاتنا و سكناتنا و أشهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثمّ محسوساتنا بالحواسّ الخمس ثمّ مدركاتنا بالبصيرة و العقل وكلّ واحد من هذه المدركات لها مدرك واحد و شاهد واحد و دليل واحد ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة و أدلّة شاهدة بوجود خالقها ومدبّرها و مصرّفها ومحرّكها و دالّة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته و الموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا و ليس يشهد له إلّا شاهد واحد و هو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا من لا يتصوّر في الوجود شيء داخل نفوسنا و خارجها إلّا و هو شاهد عليه و على عظمته و جلاله إذ كلّ ذرّة فإنّها تنادي بلسان حالها أنّه ليس وجودها بنفسها ولاحركتها بذاتها وأنّها تحتاج إلى موجد و محرّك لها يشهد بذلك أوّلاً تركيب أعضائنا و ائتلاف عظامنا و لحومنا و أعصابنا و منابت شعورنا و تشكّل أطرافنا و سائر أجزائنا الظاهرة و الباطنة فإنّا نعلم أنّها لم تأتلف بنفسها كما نعلم أنّ يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها ولكن لمّا لم يبق

في الوجود مدركٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ وحاضر وغائبٌ إلاّ وهو شاهدٌ ومعرّفٌ فلوجوده وعظم ظهوره فانبهرت العقول و دهشت عن إدراكه فإذن ماتقصر عن فهمه عقولنا له سببان أحدهما خفاؤه في نفسه و غموضه و ذلك لا يخفى مثاله ، و الآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أنّ الخفّاش يبصر باللّيل ولا يبصر بالنهار لالخفاء النهار واستتاره ولكنّ لشدّة ظهوره فإنّ بصر الخفّاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فتكون قوّة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئاً إلّا إذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهيّة في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق و الشمول حتّى لم يشذّ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السماوات و الأرض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر و الأبصار بظهوره ، ولايتعجّب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإنّ الأشياء تستبان بأضدادها . وما عمّ وجوده حتّى أنّه لا ضدّ له عسر إدراكه فلو اختلف الأشياء فدلّ بعضها دون البعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدّلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، و مثاله نور الشمس المشرق على الأرض فإنّا نعلم أنّه عرض من الأعراض يحدث في الأرض و يزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنّا نظنّ أن لا هيئة في الأجسام إلّا ألوانها و هي السواد والبياض وغيرهما ، فإنّا لا نشاهد في الأسود إلّا السواد و في الأبيض إلّا البياض فأمّا الضوء فلاندركه وحده ولكن لمّا غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين فعلمنا أنّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتّصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه و ماكنّا نطّلع عليه لولا عدمه إلّا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام و النور ، هذا مع أنّ النور أظهر المحسوسات إذ به يدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضدّه ، فإنّ الربّ تعالى هو أظهر الأمور و به ظهرت الأشياء كلّها ، و لو كان له عدم أو غيبة أو تغيّر لانهدّت السماوات و الأرض وبطل الملك و الملكوت و لأدركت به التفرقة بين

الحالتين ، ولوكان بعض الأشياء موجوداً به و بعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدّلالة ولكن دلالته عامّة في الأشياء على نسق واحد و وجوده دائمٌ في الأحوال يستحيل خلافه ، فلاجرم أورثت شدّة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام ، و أمّا من قويت بصيرته ولم تضعف منّته فإنّه في حال اعتدال أمره لا يرى إلّا الله ولا يعرف غيره و يعلم أنّه ليس في الوجود إلّا الله و أفعاله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له فلا جرم لا وجود لها بالحقيقة دونه و إنّما الوجود الواحد الحقّ الّذي به وجود الأفعال كلّها ، و من هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلّا و يرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنّه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنّه صنع الواحد الحقّ ، فلا يكون نظره مجاوزاً إلى غيره ، كمن نظر في شعر إنسان أو خطّه أو تصنيفه و رأى آثاره من حيث إنّها آثاره لا من حيث إنّه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنّف ، فكلّ العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنّه فعل الله و عرفه من حيث إنّه فعل الله و أحبّه من حيث إنّه فعل الله لم يكن ناظراً إلّا في الله و لا عارفاً إلّا بالله ولا محبّاً إلّا له ، و كان هو الموحّد الحقّ الّذي لا يرى إلّا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنّه عبد الله فهذا هو الّذي يقال فيه إنّه فنى في التوحيد وأنّه فنى من نفسه وإليه الإشارة بقول من قال: كنّا بنا ففنينا عنّا فبقينا بلا نحن . فهذه اُمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت على ضعفاء الأفهام و إشكالها إمّا لضعف الأفهام أو لاشتغالهم بأنفسهم و اعتقادهم أنّ بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يعنيهم فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضمّ إليه أنّ المدركات كلّها الّتي هي شاهدة على الله إنّما يدركها الإنسان في الصبى عند فقد العقل ثمّ تبدو فيه غريزة العقل قليلاً و هو مستغرق الهمّ بشهواته ، وقد أنس بمدركاته و محسوساته و ألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال : سبحان الله ، وهو يرى طول النهار نفسه و أعضاءه و سائر الحيوانات المألوفة

وكلّهاشواهد قاطعة ولايحسّ بشهادتها لطول الأُنس بها ، ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ثمّ انقشعت غشاوة عن عينه فامتدّ بصره إلى السماء و الأرض و الأشجار و النبات و الحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة يخاف على عقله أن ينبهر لعظم تعجّبه من مشاهدة هذه العجائب على خالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هي الّتي سدّت على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة ، فالناس في طلبهم معرفة الله تعالى كالمدهوش الّذي يضرب به المثل إذ كان راكباً لحماره وهو يطلب حماره والجليّات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة[1] فهذا سرّ هذا الأمر فليتحقّق ولذلك قيل :

فقد ظهرت فلا تخفى على أحد ✿ إلّا على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ✿ وكيف يعرف من بالعرف قد سترا

✿(بيان معنى الشوق الى الله عز وجل)✿

إعلم أنّ من أنكر حقيقة المحبّة لله تعالى فلابدّ و أن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصوّر الشوق إلّا إلى محبوب و نحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطرّاً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أمّا الاعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحبّ وكلّ محبوب فهو مشتاق إليه في غيبته فإنّ الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإنّ الشوق طلب وتشوّف إلى نيل أمر ، والموجود لا يطلب و لكن بيانه أنّ الشوق لا يتصوّر إلّا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فأمّا ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه ، فمن لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصوّر أن يشتاق إليه و ما أدرك بكماله لا يشتاق إليه ، و كمال الإدراك بالرّؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصوّر أن يكون له شوق ، و لكن الشوق إنّما يتعلّق بما أدرك من وجه و لم يدرك من وجه و هو من وجهين : الأوّل هو أن يتّضح الشيء اتّضاحاً مّا ولكنّه يحتاج إلى استكمال ولا ينكشف إلّا بمثال من المشاهدات فمن غاب عنه معشوقه و بقي في قلبه

(١) اعتاص يعتاص اعتياصاً الامر عليه اشتد و امتنع والتاث عليه فلم يهتد الى وجه الصواب.

خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرُّؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتّى نسيه لم يتصوَّر أن يشتاق إليه ولو رآه لم يتصوَّر أن يشتاق إلى معرفته في وقت الرُّؤية فمعنى شوقه تشوُّف نفسه إلى استكمال خياله ، ولذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه ، والثاني أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره ولا سائر محاسنه مثلاً ولا سائر أعضائه فيشتاق إلى رؤيته ولو لم يرها قطُّ ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرُّؤية ولكنّه يعلم أنَّ له عضواً وأعضاء جميلة و لم يدرك تفصيل جمالها بالرُّؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قطُّ والوجهان جميعاً متصوَّران في حقِّ الله بل هما لازمان بالضرورة لكلِّ العارفين فإنَّ ما اتّضح للعارفين من الاُمور الإلهيّة و إن كان في غاية الوضوح فكأنّه من وراء ستر رقيق فلا يكون متّضحاً غاية الاتّضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيّلات فإنَّ الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل و المحاكاة لجميع المعلومات و هي مكدّرات للمعارف و منغّصات ، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدُّنيا فإنّما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلّي ولا يكون ذلك إلّا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنّه منتهى محبوب العارفين فهذا هو أحد نوعي الشوق و هو استكمال الوضوح فيما اتّضح اتّضاحاً مّا ، الثاني أنَّ الاُمور الإلهيّة لانهاية لها و إنّما ينكشف لكلِّ عبد من العباد بعضها و تبقى اُمور لانهاية لها غامضة ، و العارف يعلم وجودها و كونها معلومة لله ويعلم أنَّ ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر ممّا حضر فلا يزال متشوِّفاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له ممّا بقي من المعلومات الّتي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة و لا معرفة غامضة و الشوق الأوَّل ينتهي في الدّار الآخرة بالمعنى الّذي يسمّى رؤية و لقاء و مشاهدة ولا يتصوَّر أن يسكن في الدُّنيا و قد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات يوم : ياربِّ إن أعطيت أحداً من المحبّين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضرَّ بي القلق ، قال : فرأيت في النوم كأنّه أوقفني بين يديه وقال : يا إبراهيم أما استحييت منّي أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل

لقائي و هل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ، فقلت : يا ربّ تهت في حبّك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلّمني ما أقول فقال: قل : «اللّهمّ رضّني بقضائك وصبّرني على بلائك و أوزعني شكر نعمائك» فإذن هذا الشوق يسكن في الآخرة ، و أمّا الشوق الثاني فيشبه أن لا يكون له نهاية في الدّنيا و لا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله وصفاته وأحكامه وأفعاله ما هو معلوم لله و هو محال لأنّ ذلك لانهاية له ولايزال العبد عالماً بأنّه بقي من الجمال والجلال مالم يتضّح له فلايسكن قطّ شوقه لاسيّما من يرى فوق درجته درجات كثيرة لأنّه يتشوّف إلى استكمال الوضوح مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم و لا يبعد أن تكون ألطاف الكشف و النظر متوالية إلى غير نهاية فلايزال النعيم واللّذة متزايداً أبد الآباد و يكون لذّة ما يتجدّد من لطائف النعيم شاغلةً عن الإحساس بالشوق إلى مالم يحصل و هذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدّنيا أصلاً فإنّ ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفاً على حدّ لايتضاعف ولكن يكون مستمرّاً على الدّوام وقوله تعالى : «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا »(١) محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزوّد من الدّنيا أصل النور ، و يحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة إلى زيادة الاستكمال و الإشراق ليكون هذا هو المراد بتمامه، وقوله تعالى : «انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» (٢) يدلّ على أنّ الأنوار لابدّ أن يتزوّد أصلها في الدّنيا ثمّ يزداد في الآخرة إشراقاً ، فأمّا أن يتجدّد نور يتلألأ فلا و الحكم في هذا برجم الظنون مخطرٌ ، ولم ينكشف لنا بعد فيه ما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً ويرينا الحقّ حقّاً فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق و معانيه .

وأمّا شواهد الأخبار والآثار فهي أكثر من أن تحصى فمنها ما اشتهر من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه كان يقول : « اللّهمّ إنّي أسألك الرّضا بعد القضاء ، وبرد العيش

(١) التحريم : ٨ .

(٢) الحديد : ١٣ .

بعد الموت ، ولذّة النظر إلى وجهك الكريم ، و شوقاً إلى لقائك » [1] و قد قال أبو الدّرداء لكعب الأحبار : أخبرني عن أخصّ آية في التوراة فقال : يقول الله عزّ وجلّ : طال شوق الأبرار إلى لقائي و أنا إلى لقائهم لأشدّ شوقاً. قال : و مكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني و من طلب غيري لم يجدني ، فقال أبوالدّرداء : أشهد أنّي لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول هذا . و في أخبار داود عليه السلام « إنّ الله عزّ وجلّ قال : ياداود أبلغ أهل أرضي أنّي حبيبٌ لمن أحبّني ، وجليس لمن جالسني ، ومونس لمن أنس بذكري ، وصاحب لمن صاحبني ، ومختار لمن اختارني ، ومطيع لمن أطاعني ، ما أحبّني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلّا قبلته لنفسي و أحببته حبّاً لايتقدّمه أحدٌ من خلقي ، من طلبني بالحقّ وجدني ، و من طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي و مجالستي و ائنسوا بي أؤانسكم و أُسارع إلى محبّتكم فإنّي خلقت طينة أحبّائي من طينة إبراهيم خليلي من موسى كليمي [2] و محمّد صفيّي ، إنّي خلقت قلوب المشتاقين من نوري و نعّمتها بجلالي ، و روي عن بعض السلف إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الصدّيقين أنّ لي عباداً من عبادي يحبّونني وأُحبّهم ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم ويذكرونني و أذكرهم وينظرون إليّ وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك و إن عدلت عنهم مقتّك ، قال : يا ربّ و ما علامتهم ؟ قال عزّ وجلّ : يراعون الظلال بالنّهار كما يراعي الرّاعي الشفيق غنمه و يحنّون إلى غروب الشمس كما يحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنّهم اللّيل و اختلط الظلام و فرشت الفرش و نصبت الأسترة وخلا كلّ حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم وافترشوا لي وجوههم وناجوني بكلامي وتملّقوني بإنعامي ، فبين صارخ وباك و متأوّه و شاك ، وبين قائم وقاعد ، و بين راكع وساجد ، بعيني ما يتحمّلون من أجلي ، وبسمعي ما يشتكون من حبّي ،

(١) أخرجه أحمد والحاكم فى المستدرك ج ١ص ٥٢٤ فى دعاء من حديث عمار بن ياسر ـ رحمه‌الله ـ .

(٢) فى بعض النسخ [نجيى] .

أوّل ما أُعطيهم ثلاث أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنّي كما أُخبر عنهم ، و الثانية لو كانت السماوات والأرض و ما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم ، و الثالثة أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحدٌ ما أُريد أن أعطيه ؟.

و في أخبار داود عليه السلام إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليه : يا داود إلى كم تذكر الجنّة ولا تسألني الشوق إليّ قال : يا ربّ من المشتاقون إليك ؟ قال : إنّ المشتاقين إليّ الّذين صفّيتهم من كلّ كدر و أنبهتهم بالحذر و خرقت من قلوبهم إليّ خرقاً ينظرون إليّ ، وإنّي لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ثمّ أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول : إنّي لم أجمعكم لتسجدوا لي ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إليّ و أُباهي بكم أهل الشوق إليّ ، وإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض ، يا داود إنّي خلقت قلوب المشتاقين من رضواني و نعّمتها بنور وجهي واتّخذتهم لنفسي محدّثين و جعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض و قطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إليّ يزدادون في كلّ يوم شوقاً ، قال داود : يا ربّ أرني أهل محبّتك ، فقال : يا داود ائت جبل لبنان فإنّ فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبّان وفيهم كهول وفيهم مشايخ فإذا أتيتهم فأقرئهم منّي السلام وقل لهم : إنّ ربّكم يقرئكم السلام و يقول لكم : ألا تسألوني حاجة فإنّكم أحبّائي و أصفيائي و أوليائي ، أفرح لفرحكم و أُسارع إلى محبّتكم فأتاهم داود فوجدهم عند عين من العيون يتفكّرون في عظمة الله تعالى وملكوته فلمّا نظروا إلى داود نهضوا ليتفرّقوا عنه فقال لهم داود : إنّي رسول الله إليكم جئتكم لأُبلّغكم رسالة ربّكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنّي رسول الله إليكم وهو يقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة ألا تنادوني فأسمع صوتكم و كلامكم فإنّكم أحبّائي و أصفيائي و أوليائي أفرح لفرحكم و أُسارع إلى محبّتكم و أنظر إليكم في كلّ ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرّفيقة ، قال : فجرت الدّموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا ، و قال

الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك، وقال الآخر: سبحانك سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدّعاء وقد علمت أنّه لا حاجة لنا في شيء من أُمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنّة علينا، وقال الآخر: نحن مقصّرون في طلب رضاك فأعنّا عليه بجودك، وقال الآخر: ألا من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكّر في عظمتك أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكّر في جلالك وطلبتنا الدّنوّ من نورك، وقال الآخر: كلّت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة منّك على أهل محبّتك، وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك، وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنّما هي النظر إلى وجهك. وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيّده فإذا أمرتنا بالدّعاء بجودك فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات بين أطباق السماوات، وقال الآخر: ندعوك أن تقبل علينا وتديمه علينا، وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضّلت به علينا، وقال الآخر: لاحاجة لنا في شيء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك. وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدّنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة، وقال الآخر: قد عرفنا أنّك تباركت وتعاليت تحبّ أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كلّ شيء دونك، فأوحى الله تعالى إلى داود قل لهم: قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كلٌّ واحد منكم صاحبه وليتّخذ لنفسه سرباً فإنّي كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتّى تنظروا إلى نوري وجلالي، فقال داود: يا ربِّ بم نالوا منك هذا؟ قال بحسن الظنِّ والكفِّ عن الدّنيا وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي، وإنَّ هذا منزل لاينالُه إلّا من رفض الدّنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه فأفرغ نفسه له وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتّى ينظر إليَّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأُريه كرامتي في كلِّ ساعة وأُقرِّبه من نور وجهي، إن مرض مرَّضته كما تمرِّض الوالدة الشفيقة ولدها وإن

عطش أرويته و أذقته طعم ذكري فإذا فعلت ذلك به يا داود عزفت نفسه عن الدّنيا وأهلها و لم اُحبّبها إليه لئلاّ تصدّه عن الاشتغال بي يستعجلني بالقدوم عليّ و أنا أكره من أميته لأنّه موضع نظري من بين خلقي لا يري غيري و لا أرى غيره فلو رأيته يا داود و قد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشّمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري اُباهي به ملائكتي وأهل سماواتي تزداد خوفاً وعبادة ، و عزّتي و جلالي يا داودلأُقعدنّه فيالفردوس و لأشفينّ صدره من النظر إليّ حتّىيرضى وفوقالرضا .

وفيأخبارداود أيضاً قللعباديالمتوجّهين إليّ بمحبّتيماضرّكم إذا احتجبتم عن خلقي إذ رفعتالحجاب فيما بيني وبينكمحتّى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم، وما ضرّكم ما زويت عنكم من الدّنيا إذ بسطت ديني لكم، و ماضرّكم مسخطة الخلق إذا التمستم رضاي .

و في أخبار داود إنّ الله تعالى أوحى إليه : يا داود أنّك تزعم أنّك تحبّني فإن كنتتحبّنيفأخرج حبّالدّنيا عنقلبك فإنحبّي وحبّهالا يجتمعان فيقلب ، ياداودخالصمحبّتي مخالصة وخالط أهلالدّنيا مخالطة ودينك فقلّدنيه ولا تقلّد دينك الرّجال أمّاما استبان لكممّايوافقمحبّتيفتمسّكبه وأمّاما أشكل عليك فقلّدنيهحقّاً عليّ أن أتولّي سياستك و تقويمك و أكون قائدك و دليلك ، أعطيك من غير أن تسألني واُعينك علىالشدائد فإنّي قدآليت على نفسي ألّا اُثيب إلّا عبداً هرب عن طلبته و إرادته و ألقى نفسه بين يدي فإنّه لا غنى به عنّي فإذا كنت كذلك نزعت الوحشة والذلّة عنك و أسكنت الاُنس و الحلاوة قلبك فإنّي قد حلفت على نفسي أنّه لا يطمئنّ عبدٌ لي إلىنفسه ينظر إلى فعالها إلّا و كلته إليها أضف الأشياء إليّ لاتضادّ عملك فتكون متعنّتاً ولا ينتفع بكمن يصحبك ولا تحدّ لمعرفتي حدّاًفليس لها نهاية و متى طلبتمنّي الزّيادة أعطيك ، ولا تجد لزيادتك منّي حدّاً ، ثمّ أعلم بني إسرائيل أنّه ليسبيني وبين أحد من خلقينسب فلتعظم رغبتهم و إرادتهمعندي اُبيح لهم مالا عين رأت و لا اُذن سمعت و لاخطر على قلب بشر ، ضعني بين عينيك وانظر إليّ ببصر قلبك و لا تنظر بعينك الّتي في رأسك إلى الّذين حجبت عقولهم

عنّي فازجروها و سمحت بانقطاع ثوابي عنها فإنّي حلفت بعزّتي وجلالي لا اُبيح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة و التسويف تواضع لمن تعلّمه و لا تطاول على المريدين فلو علم أهل محبّتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها ، يا داود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهبذاً و من كتبته جهبذاً لا يكون عليه وحشة ولافاقة إلى المخلوقين ، يا داود تمسّك بكلامي و خذ من نفسك لنفسك ولا تؤمننّ منها فتحجب عن محبّتي لاتؤيس عبادي من رحمتي أقطع شهوتك لي فإنّما أبحت الشهوات لضعفة خلقي ، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنّها تنقص حلاوة مناجاتي و إنّما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب قلوبهم عنّي فإنّي لم أرض الدّنيا لحبيبي و نزهته عنها ، يا داود لا تجعل بيني و بينك عالماً يحجبك بسكره عن محبّتي أولئك قطّاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بادمان الصوم وإيّاك والتجربة في الإفطار فإنّي يعجبني من الصوم إدمانه ، يا داود تحبّب إليّ بمعاداة نفسك بمنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنّما اُداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت به عليك و إنّي اُخفيه عنك وأنت متمسّك بطاعتي. وأوحى الله إلى داود يا داود لو يعلم المدبرون عنّي كيف انتظاري لهم و رفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ و تقطّعت أوصالهم من محبّتي ، ياداود هذه إرادتي في المدبرين عنّي فكيف إرادتي في المقبلين عليّ ، يا داود أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عنّي و أرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عنّي وأجلّ ما يكون عبدي إذا رجع إليّ . فهذه الأخبار و نظائرها ممّا لايحصى تدلّ على إثبات المحبّة و الشوق والأنس و أمّا تحقيق معناها فينكشف بما سبق .

أقول : و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال: «المشتاق لايشتهي طعاماً ولايلتذّ شراباً ولا يستطيب رقاداً و لايأنس حميماً ولا يأوي داراً ولايسكن عمراناً ولا يلبس ليناً ولا يقرّ قراراً ، ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه و يناجيه بلسان شوقه معبّراً عمّا في سريرته كما أخبر الله عن موسى بن عمران عليه السلام

في ميعاد ربّه بقوله : « و عجلت إليك ربِّ لترضى» [١] وفسّر النبيُّ صلى الله عليه وآله عن حاله أنّه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه و مجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربّه ، فإذا دخلت ميدان الشوق فكبّر على نفسك ومرادك من الدُّنيا ودع المألوفات و احرم عن سوى مشوّقك ، ولبِّ بين حياتك و موتك لبّيك اللّهمَّ لبّيك وأعظم الله تعالى أجرك ، و مثل المشتاق مثل الغريق ليس له همّة إلّا خلاصه و قد نسي كلَّ شيء دونه» [٢].

❁(بيان محبة الله عز وجل للعبد ومعناها)❁

إعلم أنَّ شواهد القرآن متظاهرة على أنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ عبده فلابدَّ من معرفة معناه ولنقدِّم الشواهد على محبّته و قد قال تعالى : « يحبّهم و يحبّونه » [٣] وقال : «إنَّ الله يحبُّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً » [٤] وقد قال تعالى : «إنَّ الله يحبُّ التوّابين ويحبُّ المتطهّرين » [٥] ولذلك ردَّ سبحانه و تعالى على من ادَّعى أنّه حبيب الله فقال : « قل فلم يعذّبكم بذنوبكم » [٦].

و قد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : « إذا أحبَّ الله عبداً لم يضرّه ذنب ، و التائب من الذّنب كمن لا ذنب له ، ثمّ تلا : إنَّ الله يحبُّ التوّابين » [٧] ومعناه أنّه إذا أحبّه تاب عليه قبل الموت فلم تضرّه الذُّنوب الماضية و إن كثرت كما لا يضرُّ الكفر الماضي بعد الاسلام و قد اشترط الله للمحبّة غفران الذّنب فقال : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم» [٨].

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنَّ الله يعطي الدُّنيا من يحبُّ ومن لايحبُّ ولايعطي

---

(١) طه : ٨٦ .
(٢) المصدر الباب الثامن والتسعون .
(٣) المائدة ٥٩ .
(٤) الصف : ٤
(٥) البقرة :٢٢٢ .
(٦) المائدة : ٢١ .
(٧) رواه صاحب الفردوس و لم يخرجه ولده في مسنده كما في المغنى و روى ابن ماجه شطره الثانى من حديث ابن مسعود وقد تقدم .
(٨) آل عمران : ٢٩ .

الإيمان إلّا من يحبّ »[1].

و قال ﷺ : من تواضع لله رفعه الله و من تكبّر وضعه الله و من أكثر ذكر الله أحبّه الله »[2].

و قال عليه السلام إخباراً عن ربّه « لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به ـ الحديث »[3]. وقال زيد بن أسلم : إنّ الله ليحبّ العبد حتّى يبلغ من حبّه له أن يقول : إعمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من ألفاظ المحبّة خارج عن الحصر و قد ذكرنا أنّ محبّة العبد لله عزّ وجلّ حقيقة و ليست بمجاز إذ المحبّة في وضع اللّسان عبارة عن الميل إلى الشيء الموافق و العشق عبارة عن الميل المفرط الغالب ، وقد بيّنّا أنّ الإحسان موافق للنّفس و الجمال موافق أيضاً و إنّ الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة بالبصيرة ، و الحبّ يتبع كلّ واحد منهما فلا يختصّ بالبصر ، فأمّا حبّ الله تعالى للعبد فلا تدرك حقيقته بعقولنا و أفهامنا أصلاً فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ، بل الأسامي كلّها إذا اُطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق بمعنى واحد عليهما أصلاً حتّى أنّ اسم الوجود الّذي هو أعمّ الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق و الخلق على وجه واحد بل كلّ ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع ، وإنّما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم إذ معنى الجسم و حقيقته متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسميّة لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله عزّ وجلّ ولا لخلقه وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها فكلّ ذلك لا يشبه فيه الخلق الخالق فإنّ الخالق في ذاته وفي جميع صفاته منزّه مقدّس عن مشابهة مخلوق مّا من ذروة العرش إلى منتهى الفرش ، و واضع اللّغة

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج١ ص ٣٣ و ج ٤ ص ١٦٥ وقد تقدم .

(٢) أخرجه ابن ماجه وقد تقدم .

(٣) تقدم كراراً عن الكافى والبخارى ومسلم وغيرهم .

إنّما وضع هذه الأسامي أوّلاً للخلق فإنّ الخلق أسبق إلى العقول و الأفهام من الخالق وكان استعمالها في حقّ الخالق بطريق الاستعارة و التجوّز والنقل ، والمحبّة في وضع اللّسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم و هذا إنّما يتصوّر في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها و يستفيد بنيله كمالاً فتستلذّ بنيله وهذا محال على الله عزّ و جلّ ، فإنّ كلّ كمال وجمال وبهاء و جلال ممكن من الإلهيّة فهو حاضر وحاصل و واجب الحصول أبداً وأزلاً ولا يتصوّر تجدّده ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث أنّه غيره بل نظره إلى ذاته وإلى أفعاله فقطّ و ليس في الوجود إلّا ذاته و أفعاله ، ولذلك قال شيخ أبو سعيد الميهني - رحمه الله - لما قرىء عليه قوله تعالى : « يحبّهم و يحبّونه » فقال: بحقّ يحبّهم فإنّه ليس يحبّ إلّا نفسه على معنى أنّه الكلّ وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحبّ إلّا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبّه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلّقة بذاته ، فهو إذن لا يحبّ إلّا نفسه و ما ورد من الألفاظ في حبّه لعباده فهو مأوّل فيرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتّى يراه بقلبه وإلى تمكينه إيّاه من القرب منه و إلى إرادته ذلك به في الأزل و إلى تطهير باطنه من حلول الغير به و إلى تفريغه وتخليته عن علائق وعوائق تحول بينه و بين مولاه حتّى لا يسمع إلّا بالحقّ و من الحقّ و لا يبصر إلّا به و لا ينطق إلّا به كما قال ﷺ حكاية عن ربّه سبحانه «لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى اُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه - الحديث » فحبّه لمن أحبّه أزليّ مهما اُضيف إليه الإرادة الأزليّة الّتي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق القرب إذا اُضيف إلى فعله الّذي ينكشف به الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى : « لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى اُحبّه » فيكون تقرّبه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربّه و كلّ ذلك فضل الله عزّ وجلّ ولطفه به فهو معنى محبّته ولا يفهم هذا إلّا بمثال ، وهو أنّ الملك قد يقرّب عبده من نفسه ويأذن له في كلّ وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إمّا لينتصر بقوّته أو لتستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه

أو ليهيّء له أسباب شرابه وطعامه فيقال : إنّ الملك يحبّه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له وقد يقرّب عبداً ولا يمنعه من الدّخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به بل لكون العبد في نفسه موصوفاً بالأخلاق الرّضيّة والخصال الحميدة وما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظّ من قربه منه أنّ الملك لاغرض له فيه أصلاً فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبّه ، وإذا اكتسب من الخصال المحمودة ما اقتضى دفع الحجاب يقال قد توصّل إليه وحبّب نفسه إلى الملك فحبّ الله للعبد إنّما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعني الأوّل وإنّما يصحّ تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهم عبد دخول تغيّر عليه عند تجدّد القرب فانّ الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله تعالى في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلّق بمكارم الأخلاق الّتي هي الأخلاق الإلهيّة فهو قريب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغيّر فربما يظنّ بهذا أنّ القرب لمّا تجدّد فقد تغيّر وصف العبد والرّبّ جميعاً إذ صار قريباً بعد أن لم يكن و هو محالٌ في حقّ الله إذ التغيّر عليه محالٌ بل لايزال في نعوت الكمال والجمال على ما كان عليه في أزل الآزال ولا ينكشف هذا إلّا بمثال في القرب بين الأشخاص فانّ الشخصين قد يتقاربان بتحرّكهما جميعاً وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرّك الآخر فيحصل القرب بتغيّر في أحدهما من غير تغيّر في الآخر بل القرب في الصفات أيضاً كذلك فانّ التلميذ يطلب القرب من درجة اُستاده في كمال العلم وجماله والاستاد واقف في كمال علمه غير متحرّك بالنزول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرّك مترقّ من حضيض الجهل إلى يفاع العلم فلا يزال دائباً في التغيّر والترقّي إلى أن يقرب من اُستاده والاُستاد ثابت غير متغيّر فكذلك ينبغي أن يفهم ترقّي العبد في درجات القرب فكلّما صار أكمل صفة وأتمّ علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشياطين وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرّذايل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله تعالى وقرب كلّ واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الاُستاد وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حقّ الله تعالى محال فانّه لا نهاية لكماله وسلوك العبد في درجات

الكمال متناه ولا ينتهي إلّا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة ثمّ درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أصلاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فإذن محبّة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشّواغل والمعاصي عنه، و تطهير باطنه من كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتّى يشاهده كأنّه يراه بقلبه، وأمّا محبّة العبد لله تعالى فهو ميله إلى درك هذا الكمال الّذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق إلى مافاته وإذا أدرك منه شيئاً يلتذّ به، والشوق و المحبّة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

فإن قلت فمحبّة الله تعالى للعبد أمرٌ ملتبس فبم يعرف العبد أنّه حبيب الله فأقول: يستدلّ عليه بعلاماته وقد قال عليه السلام: «إذا أحبّ الله تعالى عبداً ابتلاه فإن أحبّه الحبّ البالغ اقتناه، قيل: وما اقتناؤه؟ قال: لم يترك له مالاً ولا أهلاً»[1] فعلامة محبّة الله تعالى للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه و بين غيره، وقيل لعيسى عليه السلام: ألا تشتري حماراً فتركبه؟ فقال: أنا أعزّ على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار، وفي الخبر «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه[2]» وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبّه ورأيته يبتليك فاعلم أنّه يريد أن يصافيك، وقال بعض المريدين لاُستاذه: قد طولعت بشيء من المحبّة فقال: يا بنيّ هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إيّاه؟ قال: لا قال: فلا تطمع في المحبّة فإنّه لا يعطيها عبداً حتّى يبلوه، وقال عليه السلام: «إذا أحبّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه»[3]. وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه»[4] وأخصّ علاماته حبّه لله فإنّ ذلك يدلّ على حبّ الله عزّ وجلّ له، وأمّا الفعل الدالّ على كونه محبوباً فهو أن يتولّى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سرّه وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبّر

---

(١) تقدم عن الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني.

(٢) ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٣) ذكره صاحب الفردوس من حديث ام سلمة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٤) رواه البيهقي في الشعب من حديث أنس عن محمد بن كعب مرسلا.

لأمره، والمزيّن لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه والمسدّد لظاهره وباطنه، والجاعل لهمومه همّاً واحداً، والمبغّض للدّنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمونس له بلذّة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته، فهذا وأمثاله هي علامة حبّ الله تعالى للعبد، و لنذكر الآن علامة محبّة الله تعالى فإنّها أيضاً علامات حبّ الله عزّ وجلّ للعبد.

✿(القول في علامات محبة العبد لله عزوجل)✿

إعلم أنّ المحبّة يدّعيها كلّ أحد وما أسهل الدّعوى و ما أعزّ المعنى فلا ينبغي أن يغترّ الإنسان بتلبيس الشيطان و خدع النفس مهما ادّعت محبّة الله عزّ و جلّ مالم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين و الأدلّة و المحبّة شجرة طيّبة أصلها ثابت و فرعها في السماء، و ثمارها تظهر على القلب و اللّسان و الجوارح وتدلّ تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبّة دلالة الدّخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار، فهي كثيرة فمنها حبّ لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، ولا يتصوّر أن يحبّ القلب محبوباً إلّا ويحبّ مشاهدته ولقاءه، و إذا علم أنّه لا وصول إلّا بالارتحال من الدّنيا بالموت فينبغي أن يكون محبّاً للموت غير فارّ منه، فإنّ المحبّ لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقرّ محبوبه ليتنعّم بمشاهدته و الموت مفتاح اللّقاء و باب الدّخول إلى المشاهدة، قال ﷺ: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه» (١).

فإن قلت: فمن لا يحبّ الموت فهل يتصوّر أن يكون محبّاً لله، فأقول: كراهة الموت قد تكون لحبّ الدّنيا و التأسّف على فراق الأهل والمال و الولد و هذا ينافي كمال حبّ الله تعالى لأنّ الحبّ الكامل هو الّذي يستغرق كلّ القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حبّ الأهل و الولد شائبة من حبّ الله تعالى ضعيفة فإنّ الناس متفاوتون في الحبّ فمنهم من لا يحبّ الله بكلّ قلبه فيحبّه و يحبّ غيره

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة راجع صحيح البخاري ج ٨ ص١٣٢.

أيضاً فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبّه و عذابه بفراق الدّنيا عند الموت على قدرحبّه لها .

و أمّا السبب الثاني للكراهة فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبّة فليس يكره الموت و إنّما يكره عجلته قبل أن يستعدّ للقاء الله فذلك لايدلّ على ضعف الحبّ و هو كالمحبّ الّذي وصل إليه الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحبّ أن يتأخّر قدومه ساعة لعمارة داره و تهيئة أسبابها فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحبّ أصلاً وعلامته الجدّ في العمل و استغراق الهمّ في الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبّه الله عزّ وجلّ على ما يحبّه في ظاهره وباطنه فيجتنب اتّباع الشهوات ويعرض عن دعة الكسل فلا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى و متقرّباً إليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدّرجات كما يطلب المحبّ مزيد القرب في قلب محبوبه و قد وصف الله تعالى المحبّين بالإيثار فقال : «يحبّون من هاجر إليهم و لا يجدون في صدورهم حاجة ممّا اُوتوا و يؤثرون على أنفسهم» (١) و من بقي مستمرّاً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحبّ هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

اُريد وصاله ويريد هجري ✡ فأترك ما اُريد لما يريد

بل الحبّ إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعّم بغير المحبوب ، فإذن من أحبّ الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصي الإله و أنت تظهر حبّه ✡ هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ✡ إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

وقيل :

و أترك ما أهوى لما قد هويته ✡ و أرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

و قال سهل : علامة المحبّ إيثاره من أحبّه على نفسه ، وليس كلّ من عمل

(١) الحشر : ٩.

بطاعة الله صار حبيباً وإنّما الحبيب من اجتنب المناهي وهو كماقال: لأنّ محبّته لله تعالى سبب محبّة الله له كما قال تعالى: «يحبّهم ويحبّونه»[١] وإذا أحبّه الله تعالى تولّاه ونصره على أعدائه وإنّما عدوّه نفسه وشهواته فلا يخذ له الله تعالى ولا يكله إلى نفسه وهواه وشهواته ولذلك قال تعالى: «والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً»[٢]

فان قلت: فالعصيان هل يضادّ أصل المحبّة؟ فأقول: لا إنّما يضادّ كمالها ولا يضادّ أصلها فكم من إنسان يحبّ نفسه وهو مريض وهو يحبّ الصحّة فيأكل ما يضرّه مع العلم بأنّه يضرّه وذلك لا يدلّ على عدم حبّه لنفسه ولكنّ المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحقّ المحبّة، ويدلّ عليه ما روي أنّ نعيمان الأنصاري كان يؤتى به رسول الله صلّى الله عليه وآله في كلّ قليل فيحدّه في معصية يرتكبها إلى أن اُتي به يوماً فحدّه فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال عليه السلام: «لا تلعنه فانّه يحبّ الله ورسوله»[٣] فلم يخرجه بالمعصية عن المحبّة، نعم تخرجه المعصية عن كمال الحبّ، وقد قال بعض العلماء: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحبّ الله تعالى حبّاً متوسّطاً، وإذا دخل سويداء القلب أحبّ الله الحبّ البالغ وترك المعاصي، وبالجملة في دعوى المحبّة خطر ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك أتحبّ الله فاسكت فانّك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم وليس وصفك وصف المحبّين فاحذر المقت، ولقد قال بعض العلماء: ليس في الجنّة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبّة، ولا في جهنّم عذاب أشدّ من عذاب من ادّعى المعرفة والمحبّة ولم يتحقّق بشيء من ذلك.

ومنها أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى لا يفترّ عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحبّ شيئاً أكثر بالضرورة ذكره وذكر ما يتعلّق به، فعلامة حبّ الله تعالى حبّ ذكره، وحبّ القرآن الّذي هو كلامه، وحبّ رسوله صلّى الله عليه وآله، وحبّ كلّ من

(١) المائدة: ٥٧. (٢) النساء: ٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص١٩٧ وكان اسم الرجل عبدالله وكان يلقب حماراً.

ينسب إليه ، فإنّ من يحبّ إنساناً يحبّ كلب حبيبه ، فالمحبّة إذا قويت تعدّت من المحبوب إلى كلّ ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به و يتعلّق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحبّ فإنّ من أحبّ رسول المحبوب لأنّه رسوله و كلامه لأنّه كلامه فلم يجاوز حبّه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبّه ، و من غلب حبّ الله على قلبه أحبّ جميع خلق الله لأنّهم خلقه فكيف لا يحبّ القرآن و الرّسول و عباد الله الصالحين ، و قد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب آداب الاُخوّة و الصحبة و لذلك قال الله تعالى : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله »[١] و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: « أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه و أحبّوني لله تعالى »[٢] وقيل : من أحبّ من يحبّ الله فإنّما أحبّ الله عزّ وجلّ ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنّما يكرم الله عزّ وجلّ .

و منها أن يكون اُنسه بالخلوة و مناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجّد و يغتنم هدء اللّيل و صفاء الوقت بانقطاع العوائق ، و أقلّ درجات الحبّ التلذّذ بالخلوة بالحبيب و التنعّم بمناجاته فمن كان النوم و الاشتغال بالحديث ألذّ عنده وأطيب من مناجاة الله عزّ و جلّ كيف تصحّ محبّته ، ومهما أنس بغير الله كان بقدر اُنسه بغير الله مستوحشاً من الله ساقطاً عن درجة محبّته وفي قصّة برخ وهو العبد الأسود الّذي استسقى به موسى عليه السلام إنّ الله عزّ و جلّ قال لموسى : إنّ برخاً نعم العبد هو لي إلّا أنّ فيه عيباً ، قال : يا ربّ و ما عيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه و من أحبّني لا يسكن إلى شيء .

وروي أنّ عابداً عبد الله في غيضة[٣] دهراً طويلاً فنظر يوماً إلى طائر وقد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها فقال : لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر ، ففعل فأوحى الله تعالى إلى نبيّ زمانه قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحطّنّك عن درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً. فعلامة المحبّة

---

(١) آل عمران : ٣٠ .
(٢) تقدم فى باب شواهد الشرع فى باب حب العبدلله تعالى .
(٣) الغيضة : الاجمة مجتمع الشجر فى مغيض الماء .

كمال الأُنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعّم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كلّ ماينغّص عليه الخلوة و يعوق عن لذّة المناجاة .

و علامة الأُنس بالله أن يصير العقل والفهم كلّه مستغرقاً بلذّة المناجاة كالّذي يخاطب معشوقه و يناجيه ، و قد انتهت هذه اللّذّة ببعضهم حتّى أنّه كان في صلاته و وقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علّة أصابته و هو في الصلاة فلم يشعر به ، و مهما غلب الحبّ والأُنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه تدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الأُنس والحبّ قلبه حتّى لايفهم أُمور الدّنيا ما لم تكرّر على سمعه مراراً مثل العاشق الولهان فإنّه يكلّم الناس بلسانه وأُنسه في الباطن بذكر حبيبه والمحبّ من لايطمئنّ إلّا إلى محبوبه و أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادّعى محبّتي إذا جنّه اللّيل نام عنّي أليس كلّ محبوب يحبّ لقاء حبيبه ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يا ربّ أين أنت فأقصدك ؟ فقال : إذا قصدتني فقد وصلت .

ومنها أن لايتأسّف على مايفوته ممّا سوى الله ويعظم تأسّفه على فوت كلّ ساعة خلت عن ذكر الله و طاعته فيكون رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف و الاستعتاب و الاستغفار والتوبة إليه قال بعض العارفين : إنّ لله عزّ وجلّ عباداً أحبّوه واطمأنّوا إليه فذهب عنهم التأسّف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظّ أنفسهم إذ كان قلبهم شاكراً راضياً ، وملك مليكهم تامّاً ، و ما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فلحسن تدبيره لهم ، وحقّ المحبّ إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه و يشتغل بالعتاب و يسأله ويقول : ياربّ بأيّ ذنب قطعت برّك عنّي و أبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعتي الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر و رقّة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سبباً لتجدّد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحبّ إلّا المحبوب ولم ير شيئاً إلّا منه لم يتأسّف و لم يشك واستقبل الكلّ بالرّضا وعلم أنّ المحبوب لم يقدر له إلّا ما فيه خيرته و يذكر قوله تعالى : « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم » (١) و منها أن يتنعّم بالطاعة ولا يستثقلها و يسقط

(١) البقرة : ٢١٣ .

عنه تعبها و كلّ هذا مثاله موجود في المشاهدات فإنّ العاشق لايستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذّ خدمته بقلبه و إن كان شاقّاً على بدنه و مهما عجز بدنه كان أحبّ الأشياء إليه أن تعاوده القدرة و أن يفارقه العجز حتّى يشتغل به فهكذا يكون حبّ الله عزّ وجلّ فإنّ كلّ حبّ صار غالباً قهر لامحالة ما دونه فمن كان محبوبه أحبّ إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته و من كان أحبّ إليه من المال ترك المال في حبّه . وقيل لبعض المحبّين و قد كان بذل ماله ونفسه حتّى لم يبق له شيء : ما كان سبب حالك هذه في المحبّة ؟ فقال : سمعت يوماً محبّاً ظفر بمحبوبه و هو يقول له : أناو الله اُحبّك بقلبي كلّه وأنت معرض عنّي بوجهك كلّه ، فقال له المحبوب : إن كنت تحبّني فأيش تنفقه عليّ ؟ فقال : يا سيدي اُملّكك ما أملك ، ثمّ أنفق عليك روحي حتّى تهلك ، فقلت : هذا حبّ خلق لخلق و عبد لعبد فكيف بعبد لمعبود ، فكلّ هذا بسببه .

و منها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على جميع أعداء الله و على كلّ من يقارف شيئاً ممّا يكرهه الله عزّ و جلّ كما قال الله تعالى : « أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم »(١) ولاتأخذه في الله لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، و به وصف الله تعالى أولياءه إذ قال في بعض الكتب : الّذين يكلّفون بحبّي كما يكلّف الصبيّ بالشيء و يأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد فإنّه لا يبالي قلّ الناس أم كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإنّ الصبيّ إذا كلّف بالشيء لم يفارقه أصلاً فإن أخذ منه لم يكن له شغل إلّا البكاء و الصياح حتّى يردّ إليه فإذا نام أخذه معه في ثيابه فإذا انتبه عاد و تمسّك به و مهما فارقه بكى و مهما وجده فرح وضحك ومن نازعه فيه أبغضه معه ومن أعطاه أحبّه ، وأمّا النمر فإنّه لايملك نفسه عند الغضب حتّى يبلغ من شدّة غضبه أن يهلك نفسه ، فهذه علامات المحبّة فمن تمّت فيه هذه العلامات فقد تمّت محبّته وخلص حبّه وصفا في الآخرة شرابه و عذب مشربه و من امتزج بحبّه

(١) الفتح : ٢٩ .

حبّ غير الله تنعّم في الآخرة بقدر حبّه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقرّبين كما قال تعالى في حقّ الأبرار : «إنّ الأبرار لفي نعيم ☆ على الأرائك ينظرون ☆ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ☆ يسقون من رحيق مختوم ☆ ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ☆ ومزاجه من تسنيم ☆ عيناً يشرب بها المقرّبون» (١) وإنّما طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الّذي هو للمقرّبين ، و الشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أنّ الكتاب عبّر به عن جميع الأعمال فقال : « إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين » (٢) ثمّ قال : « يشهده المقرّبون » (٣) فكانت أمارة علوّ كتابهم أنّه ارتفع إلى حيث يشهده المقرّبون ، و كما أنّ الأبرار يجدون المزيد في حالهم و معرفتهم بقربهم من المقرّبين و مشاهدتهم لهم كذلك يكون حالهم في الآخرة « ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة »(٤) و« كما بدأنا أوّل خلق نعيده »(٥) وقال : «جزاء وفاقاً»(٦) أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب و قوبل المشوب بالمشوب وشوب كلّ شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبّه و أعماله « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ☆ و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » (٧) و « إنّ الله لايغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» (٨) و «إنّ الله لايظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها»(٩) « إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين » (١٠) فمن كان حبّه في الدّنيا رجاؤه لنعيم الجنّة و الحور و القصور يمكّن في الجنّة ليتبوّء منها حيث يشاء فيكون مع الولدان و يتمتّع بالنسوان و من كان مقصده ربّ الأرباب ومالك الملك ولم يغلب عليه الأحبّة فالإخلاص والصدق ينزلانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فالأبرار يرتعون في البستان ويتنعّمون في الجنان مع الحور و الولدان و

---

(١) المطففين : ٢٢ - الى - ٢٩ .
(٢) المطففين : ١٨ .
(٣) المطففين : ٢١ :
(٤) لقمان ٢٨ .
(٥) الانبياء : ١٠٤ .
(٦) النباء : ٢٦ .
(٧) الزلزال : ٧و٨ :
(٨) الرعد : ١٢ .
(٩) النساء : ٤٢ .
(١٠) الانبياء : ٤٨ .

المقرّبون يلازمون الحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرّة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقوام آخرون و لذلك قال عليه السلام: «أكثر أهل الجنّة البله»(١) وعلّيّون لذوي الألباب ولماقصرت الأفهام عن إدراك معنى علّيّين عظم أمره فقال: «وما أدريك ما علّيّون»(٢) كما قال: «القارعة ✿ ما القارعة ✿ و ما أدريك ما القارعة»(٣).

و منها أن يكون في حبّه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة و التعظيم و قد يظنّ أنّ الخوف يضادّ الحبّ و ليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أنّ إدراك الجمال يوجب الحبّ ولخصوص المحبّين مخاوف في مقام المحبّة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض فأوّلها خوف الإعراض و أشدّ منه خوف الحجاب وأشدّ منه خوف الإبعاد وهذا المعنى في سورة هود هو الّذي شيّب سيّد المحبّين إذ سمع قوله: «ألا بعداً لعاد قوم هود»(٤)، «ألا بعداً لثمود»(٥) «ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود»(٦) و إنّما تعظيم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف الحبّ والقرب و ذاقه و تنعّم به فحديث البعد في حقّ المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب و لا يحنّ إلى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكّن من بساط القرب ثمّ خوف الوقوف وسلب المزيد فإنّا قدّمنا أنّ درجات القرب لا نهاية لها وحقّ العبد أن يجتهد في كلّ نفس حتّى يزداد فيه قرباً، ولذلك قال عليه السلام: «من استوى يوماه فهو مغبون و من كان يومه شرّاً من أمسه فهو ملعون»(٧) و كذلك قال عليه السلام: «إنّه ليغان على قلبي و إنّي لاستغفر الله في اليوم و اللّيلة سبعين مرّة»(٨) و إنّما كان استغفاره من القدم الأُولى فإنّها كانت بُعداً بالإضافة إلى القدم الثانية ويكون

---

(١) تقدم مراراً.

(٢) المطففين: ١٩. (٣) القارعة ١و٢ و٣.

(٤) و(٥) و(٦) السورة: ٦٣ و ٧١ و٩٧.

(٧) رواه الصدوق فى معانى الاخبارص ٢٤٢ من حديث الصادق عليه السلام.

(٨) تقدم كراراً من حديث الاغر.

ذلك عقوبة لهم على العثور في الطريق و الالتفات إلى غير المحبوب كما روي في بعض الكتب « إنّ الله يقول : إنّ أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوة الدّنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي »[1] فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، وأمّا الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرّد الدّعوى والعجب والرّكون إلى ما ظهر من مبادي اللّطف، وذلك هو المكر الخفيّ الّذي لا يقدر على الاحتراز منه إلّا ذووا الأقدام الرّاسخة في العلم ثمّ خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته ثمّ خوف السلوّ عنه فإنّ المحبّ يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد و لا يتسلّى إلّا بلطف جديد فإن تسلّى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته و السلوّ يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل الحبّ عليه من حيث لا يشعر فإنّ هذه التقلّبات في القلب لها أسباب خفيّة سماويّة ليس في قوّة البشر الاطّلاع عليها وإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلوّ فيقف مع الرّجاء و يغترّ بحسن الظنّ وبغلبة الغفلة و الهوى و النسيان و كلّ ذلك من جنود الشيطان الّتي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذّكر و الثبات ، و كما أنّ من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحبّ و هي أوصاف اللّطف و الرّحمة والحكمة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلوّ كأوصاف الجبريّة والعزّة والاستغناء ، وذلك من مقدّمات المكر والشقاء والحرمان ثمّ خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبّه إلى حبّ غيره ، وذلك هو المقت والسلوّ عنه مقدّمة هذا المقام و الإعراض و الحجاب مقدّمة السلوّ وضيق الصدر بالبرّ وانقباضه عن دوام الذكر و ملالته لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني و مقدّماتها فظهور هذه الأسباب دليلٌ على النقل من مقام الحبّ إلى مقام المقت ، نعوذ بالله منه ، و ملازمة الخوف لهذه الاُمور و شدّة الحذر منه بصفاء المراقبة دليل صدق الحبّ فإنّ من أحبّ شيئاً خاف لامحالة فقده ، فلا يخلو المحبّ عن خوف إذا كان المحبوب ممّا يمكن فواته ، و قد قال بعض العارفين : من عبد الله بمحض المحبّة من غير خوف هلك بالبسط و الإدلال و من عبده من طريق الخوف من غير محبّة انقطع عنه بالبعد و

(١) تقدم في المجلد الاول ص ١٣١ عن كتاب العلل للصدوق رحمه الله .

الاستيحاش و من عبده من طريق المحبّة و الخوف أحبّه الله فقرّبه و مكّنه و علّمه و المحبّ لايخلو من خوف والخائف لايخلو عن محبّة ولكنّ الّذي غلبت عليه المحبّة حتّى اتّسع فيها ولم يكن له من الخوف إلّا يسير يقال هو في مقام المحبّة ويعدّ من المحبّين وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحبّ فلو غلب الحبّ واستولت المعرفة لم تثبت لهاطاقة البشر فانّما الخوف يعدله ويخفّف وقعه على القلب ، وأمثال هذه المعارف الّتي إليها الإشارة لايجوز أن يشرك الناس فيها ولايجوز أن يظهرها من انكشف له شيء منها لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدّنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدّنيا بل لو أكل الناس كلّهم الحلال أربعين يوماً لخربت الدّنيا لزهدهم فيها وبطلت الأسواق والمعايش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة و الأقلام عن كثير ممّا انتشر من العلوم ولكنّ لله فيماهو شرّ في الظاهر أسرار وحكم كما أنّ له في الخير أسراراً و حكماً ولامنتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته .

و منها كتمان الحبّ واجتناب الدّعوى و التوقّي من إظهار الوجد والمحبّة تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيرة على سرّه فانّ الحبّ سرّ من أسرار الحبيب . و لأنّه قد يدخل في الدّعوى ما يتجاوز حدّ المعنى و يزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء و تعظم العقوبة عليه في العقبى و يتعجّل عليه البلوى في الدّنيا . نعم قد يكون للمحبّ سكرة في حبّه حتّى يدهش فيها وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبّه فان وقع ذلك من غير تمحّل أو اكتساب فهو معذور لأنّه مقهور وربما تشتعل من الحبّ نيرانه ، فلا يطاق سلطانه و قد يفيض القلب به فلايندفع فيضانه .

فان قلت : المحبّة منتهى المقامات و إظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر؟ فاعلم أنّ المحبّة محمودة وإظهارها أيضاً محمود وإنّما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدّعوى و الاستكبار، وحقّ المحبّ أن يتمّ على حبّه الخفي أحواله دون أقواله و أفعاله فان ظهر فينبغي أن يظهر حبّه من غير قصد منه إلى إظهار الحبّ ولا إلى إظهار الفعل الدّالّ على الحبّ بل ينبغي أن يكون قصد المحبّ اطّلاع الحبيب

فقط فأمّا إرادته اطّلاع غيره فشرك في الحبّ وقادح فيه كما ورد في الانجيل: إذا تصدّقت فتصدّق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك، فالّذي يرى الخفيّات يجزيك به علانية، و إذا صمت فاغسل وجهك وادّهن رأسك لئلاّ يعلم بذلك غير ربّك فإظهار القول والفعل كلّه مذموم إلاّ إذا غلب سكر الحبّ القلب فانطلق اللّسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه، ممّا يكره التظاهر بالحبّ بسببه أنّ المحبّ إن كان عارفاً و عرف أحوال الملائكة في حبّهم الدّائم و شوقهم اللاّزم الّذي به «يسبّحون اللّيل و النهار ولايفترون ولا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون مايؤمرون» لاستنكف من نفسه و من إظهار حبّه وعلم قطعاً أنّه أخسّ المحبّين في مملكته و إنّ حبّه أنقص من حبّ كلّ محبّ لله فهذه مجامع علامات الحبّ و ثمراته.

و منها الأنس و الرّضا كما سيأتي، و بالجملة جميع محاسن الدّين و مكارم الأخلاق ثمرة المحبّة ومالايثمره الحبّ فهو اتّباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق، نعم يحبّ الله لإحسانه إليه وقد يحبّه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه و المحبّون لايخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد: الناس في محبّة الله عامّ وخاصّ فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه و كثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أحبّوه إلاّ أنّه تقلّ محبّتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان، و أمّا الخاصّة فنالوا المحبّة بعظم القدر و القدرة و العلم و الحكمة و التفرّد بالملك، فلمّا عرفوا صفاته الكاملة و أسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبّوه إذ استحقّ عندهم بذلك المحبّة لأنّه أهل لها، ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم من الناس من يحبّ هواه وعدوّ الله إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور و الجهل و يظنّ أنّه محبّ لله و هو الّذي لا يجد من نفسه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقاً و رئاء وسمعة، و غرضه عاجل حظّ الدّنيا و هو يظهر من نفسه خلافه كعلماء السوء و قرّاء السوء اُولئك بغضاء الله في أرضه، و قد قال أبوالتراب النخشبي في علامات المحبّ أبياتاً:

لا تخدعنّ فللمحبّ دلائل ✩ و لديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعّمه بمرّ بلائه ✩ و سروره في كلّ ما هو فاعل

فالمنع منه عطيّة مبـذولة ✿ و الفقر إكرام و برّ عاجل
ومن الدّلائل أن يرى من عزمه ✿ طوع الحبيب و إن ألحّ العاذل
و من الدّلائل أن يرى متبسّماً ✿ و القلب فيه من الحبيب بلابل
و من الدّلائل أن يرى متفهّماً ✿ لكلام من يحظى لديه السائل
و من الدّلائل أن يرى متقشّفاً ✿ متحفّظاً من كلّ ما هو قائل

أقول: و ممّا يصحّ أن يجعل دليلاً ما نقله أبو حامد عن بعضهم في جملة ما تركناه في أواخر هذا الكتاب في معنى المحبّة: أنّها محو الإرادات و احتراق الصفات و الحاجات . ونقل من آخر: أنّ المحبّة معنى من المحبوب قاهر للقلوب تعجز القلوب عن إدراكه و تمنع الألسن عن عبارته فإنّ من يجد في قلبه ذلك لله فهو محبّ له .

✿(بيان معنى الانس بالله عز و جل)✿

قد ذكرنا أنّ الاُنس و الخوف و الشوق من آثار المحبّة إلّا أنّ هذه آثار مختلفة تختلف على المحبّ بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فإذا غلب عليه التطلّع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال و استشعر قصوره عن الاطّلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه فسمّيت هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمّى استبشاره اُنساً و إن كان نظره إلى صفات العزّ والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزّوال والبعد تألّم قلبه بهذا الاستشعار فيسمّى تألّمه خوفاً ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالاُنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتّى أنّه إذا غلب وتجرّد عن ملاحظة ماغاب عنه ومايتطرّق إليه من خطر الزّوال عظم نعيمه و لذّته ، و من هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق فقال : لا إنّما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق ؟ و هذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى مابقي في الإمكان من مزايا الألطاف، ومن

غلب عليه حال الأُنس لم تكن شهوته إلّا في الانفراد و الخلوة ، و ذلك لأنّ الأُنس بالله يلازمه التوحّش من غير الله تعالى ، بل كلّ ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب كما روي أنّ موسى عليه السلام لما كلّمه ربّه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الخلق إلّا أخذه الغشيان لأنّ الحبّ يوجب عذوبة كلام المحبوب و عذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه . وقال الله تعالى لداود عليه السلام : كن بي مستأنساً ومن سواي مستوحشاً . و قال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : ياراهب لقد أعجبتك الوحدة فقال : يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لا ستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة ، قلت : ياراهب ما أقلّ ما تجد في الخلوة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرّهم ، قلت : ياراهب متى يذوق العبد حلاوة الأُنس بالله عزّ وجلّ ؟ قال : إذا صفا الودّ وخلصت المعاملة ، قلت: ومتى يصفو الودّ؟ قال : إذا اجتمعت الهموم فصارت همّاً واحداً في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجباً للخلائق كيف أرادوا لك بدلاً ، عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك .

فإن قلت : فما علامة الأُنس بالله ؟ فاعلم أنّ علامته الخاصّة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق والتبرّم بهم واستهتاره بعذوبة الذّكر فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة و غريب في حضر وحاضر في سفر و شاهد في غيبة و غائب في حضور و مخالط بالبدن متفرّد بالقلب المستغرق بعذوبة الذكر ، قال عليّ عليه السلام في وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين و استلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدّنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى اُولئك خلفاء الله في أرضه و الدّعاة إلى دينه »(١) فهذا معنى الأُنس بالله و هذه علامته و هذه شواهده ، و قد ذهب بعض المتكلّمين إلى إنكار الأُنس و الحبّ والشوق لظنّه أنّ ذلك يدلّ على التشبيه وجهله بأنّ جمال المدركات بالبصائر أكمل لذّة من جمال المبصرات ولذّة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ، حتّى أنكر

(١) اورده الشريف الرضى فى النهج قسم الحكم والمواعظ تحت رقم ١٤٧ .

بعضهم مقام الرّضا و قال : ليس إلّا الصبر فأمّا الرّضا فغير متصوّر وهذا كلّه كلام ناقص قاصر لم يطّلع قائله من مقامات الدّين إلّا على القشور و ظنّ أنّه لا وجود إلّا للقشر ، فإنّ المحسوسات وكلّ ما يدخل في الخيال في طريق الدّين قشر مجرّد و وراءه اللّب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلّا إلى قشره يظنّ أنّ الجوز خشب كلّه و يستحال عنده خروج الدّهن منه لا محالة و هو معذور ولكن عذره غير مقبول ، و قد قيل :

الأُنس بالله لا يحويه بطّال ✿ و ليس يدركه بالحول محتال
و الآنسون رجال كلّهم نجب ✿ و كلّهم صفوة لله عمّال

✿(بيان معنى الانبساط و الادلال الذى تثمره غلبة الانس)✿

إعلم أنّ الأُنس إذا دام و غلب واستحكم ولم يشوّشه قلق الشوق ، ولم ينغّصه خوف البعد و الحجاب فإنّه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لمافيه من الجرأة و قلّة الهيبة ولكنّه محتمل ممّن اُقيم في مقام الأُنس و من لم يقم في ذلك المقام ويتشبّه بهم في الفعل و الكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الّذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى ليستسقي لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : كيف أستجيب لهم و قد أظلمت عليهم ذنوبهم، سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري ، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتّى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينا موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى بنور الله تعالى فسلّم عليه فقال : ما اسمك ؟ قال : اسمي برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين اُخرج فاستسق لنا ، فخرج فقال في كلامه : « ما هذا من فعالك ، ولا هذا من حلمك ، و ما الّذي بدالك أتعصّت عليك غيومك أم عاندت الرّياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم اشتدّ

غضبك على المذنبين ألست كنت غفّاراً قبل خلق الخطّائين خلقت الرّحمة و أمرت بالعطف أم ترينا أنّك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة» ؟ قال: فما برح حتّى اخضلّت بنو إسرائيل بالقطر و أنبت الله عزّ و جلّ العشب في نصف يوم حتّى بلغ الرّكب قال: فرجع برخ فاستقبله موسى فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربّي كيف أنصفني فهمّ موسى عليه السلام به فأوحى الله عزّ و جلّ إليه أنّ برخاً يضحكني كلّ يوم ثلاث مرّات.

و عن الحسن قال: احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خصّ لم يحترق و أبو موسى الأشعريّ يومئذ أمير البصرة فاُخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخصّ فاُتي بشيخ فقال: يا شيخ ما بال خصّك لم يحترق فقال: إنّي أقسمت على ربّي ألّا يحرقه، فقال أبو موسى: إنّي سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «يكون في اُمّتي قوم شعثة رؤوسهم، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرّهم»(١).

وقيل: وقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخوّاص فجعل يتخطّى النار فقال له أمير البصرة: انظر لا تحترق بالنار فقال: إنّي أقسمت على ربّي ألّا يحرقني بالنار، قال: فاعزم عليه أن تطفيء، قال: فعزم عليه فطفئت.

و كان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقيّ مدهوش فقال له أبو حفص: ما أصابك؟ فقال: ضلّ حماري ولا أملك غيره، قال: فوقف أبو حفص وقال: وعزّتك لا أخطو خطوة مالم تردّ عليه حماره، قال: فظهر الحمار في الوقت ومرّ أبو حفص. فهذا و أمثاله يجري لذوي الاُنس وليس لغيرهم أن يتشبّه بهم.

قال الجنيد: أهل الاُنس يقولون في كلامهم و مناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامّة و قال مرّة لو سمعها العوامّ لكفّروهم و هم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم و يليق بهم وإليه أشار القائل:

قومٌ يخالجهم زهوٌ لسيّدهم ✩ والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهو برؤيته عمّا سواه له ✩ ياحسن رؤيتهم في عزّ ما تاهو

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الاولياء و فيه انقطاع وجهالة كما في المغني.

وقال الشبلي :

إنّ المحبّة للرّحمن أسكرني ✿ و هل رأيت محبّاً غير سكران

ولا تستبعدنّ رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت لها وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتّى ينظروا إليها بعين الاعتبار وإنّما هي عند ذوي الاغترار من الأسمار فأوّل القصص قصّة آدم عليه السلام و إبليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية و المخالفة ثمّ تباينا في الاجتباء و العصمة أمّا إبليس فأبلس عن رحمة الله و قيل : إنّه من المبعدين ، و أمّا آدم فقيل فيه « و عصى آدم ربّه فغوى ✿ ثمّ اجتبيه ربّه فتاب عليه وهدى»[1] و لذلك الانبساط و الإدلال يحتمل من بعض العباد دون البعض فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام : «إنّ هي إلّا فتنتك تضلّ بها من تشاء و تهدي من تشاء »[2] و قوله في التعلّل و الاعتذار لمّا قيل له : « اذهب إلى فرعون إنّه طغى »[3] فقال : « و لهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون »[4] وقوله : « و يضيق صدري »[5] وقوله : « إنّنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى »[6] و هذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأنّ الّذي اُقيم مقام الاُنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لمّا اُقيم مقام القبض و الهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث فنودي عليه إلى يوم المحشر « لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء و هو مذموم»[7] ونهى نبيّنا عليه السلام أن يقتدي به فقال له : «فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم »[8].

و هذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل و التفاوت في القسمة بين العباد و قد قال تعالى : « و لقد فضّلنا بعض النبيّين على بعض »[9] وقال : «منهم من كلّم الله و رفع بعضهم درجات »[10] و كان

---

(١) طه : ١٢٠ و ١٢١ .
(٢) الاعراف : ١٥٤ .
(٣) طه : ٢٥ .
(٤) و(٥) الشعراء : ١٣ و ١٢ .
(٦) طه : ٤٦ .
(٧) و (٨) القلم : ٤٩ و ٤٨ .
(٩) الاسراء : ٥٧ .
(١٠) البقرة : ٢٥٤ .

عيسى عليه السلام من المفضّلين ولا دلاله سلّم على نفسه فقال: «و السلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم اُبعث حيّاً» (١) وهذا انبساط منه لما شاهد منه من اللّطف في مقام الاُنس، وأمّا يحيى بن زكريّا فإنّه اُقيم مقام الهيبة و الحياء فلم ينطق حتّى سلّم عليه خالقه فقال: «وسلامٌ عليه يوم ولد و يوم يموت ويوم يبعث حيّاً» (٢) و انظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوا بيوسف و قد قال بعض العلماء: قد عدّدت من أوّل قوله تعالى: «إذ قالوا ليوسف و أخوه أحبُّ إلى أبينا منّا» (٣) إلى رأس العشرين آية من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيّفاً وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض و قد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث و الأربع، فغفرلهم و عفا عنهم و لم يحتمل لعزير مسئلة واحدة سأل عنها في القدر حتّى قيل لئن عاد محي عن ديوان النبوّة، و كذلك بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدّنيا بالدّين فلم يحتمل له ذلك، وكان آصف من المسرفين و كانت معصيته في الجوارح فعفا عنه، و قد روي أنّ الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام يا رأس العابدين ويا موضح محجّة الزّاهدين إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف و أنا أحلم عليه مرّة بعد مرّة فوعزّتي و جلالي لئن أخذته غضبة من غضباني عليه لأتركنّه مثلة لمن معه و نكالاً لمن بعده، فلمّا دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتّى علا كثيباً من رمل، ثمّ رفع رأسه ومدّ يديه إلى السماء، وقال: إلهي وسيّدي أنت أنت و أنا أنا فكيف أتوب إن لم تتب عليّ؟ و كيف أستعصم إن لم تعصمني؟ أغثني و إلّا لأعودنّ و لأعودنّ و لأعودنّ، فأوحى الله تعالى إليه أن قد صدقتَ يا آصف أنا أنا وأنت أنت استقبل التوبة إليّ فقد تبت عليك وأنا التوّاب الرّحيم، وهذا كلام مدلّ به وهارب منه إليه وناظر به إليه. وفي الخبر إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن أشفى على الهلكة: يا عبدي كم من ذنب واجهتني به غفرته لك قد أهلكت بدونه اُمّة من الاُمم. فهذه سنّته في عباده بالتفضيل والتقديم و التأخير على ما سبقت به مشيّته

(١) مريم: ٣٤. (٢) مريم: ١٥.
(٣) يوسف: ٨.

الأزليّة و هذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنّة الله تعالى في عباده الّذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء إلّا وهو هدى ونور وتعرّف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يتعرّف إليهم بالتقديس فيقول: «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد» (١) و تارة يتعرّف إليهم بصفات جلاله فيقول: «الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر» (٢) و تارة يتعرّف إليهم بأفعاله المخوفة و المرجوّة فيتلو عليهم سنّته في أنبيائه وأعدائه فيقول: «ألم تر كيف فعل ربّك بعاد ✿ إرم ذات العماد» (٣) «ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل» (٤) ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الارشاد إلى معرفة ذات الله تعالى وتقديسه أو معرفة صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله وسنّته مع عباده ولمّا اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها النبيّ صلى الله عليه وآله بثلث القرآن فقال: «من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن» (٥) لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور لا يكون حاصلاً منه من هو من نوعه و شبهه و دلّ عليه قوله: «لم يلد»، و لا يكون حاصلاً ممّن هو نظيره و شبهه و دلّ عليه قوله: «و لم يولد» ولا يكون في درجته و إن لم يكن أصلاً له و لا فرعاً من هو مثله و دلّ عليه قوله: «ولم يكن له كفواً أحد» و يجمع جميع ذلك قوله: «قل هو الله أحد» وجملته تفصيل قولك: «لا إله إلّا الله» فهذه أسرار القرآن و لا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن فلا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين. و لذلك قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: ثوّروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأوّلين والآخرين» وهو كما قال ولا يعرفه إلّا من طال فكره في آحاد كلماته و صفا له فهمه حتّى تشهد له كلّ كلمة منه بأنّه كلام جبّار قاهر مليك مقتدر وأنّه خارج عن حدّ استطاعة البشر وأكثر

(١) تمام سورة الاخلاص. (٢) الحشر: ٢٣.
(٣) الفجر: ٥و٦. (٤) الفيل: ٢.
(٥) أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب والبخاري نحوه ج ٦ص ٢٣٢ من حديث أبي سعيد الخدري.

أسرار القرآن معبأة في طيّ القصص والأخبار فكن حريصاً على استنباطها لينكشف لك فيها من العجائب ما تستحقر معها العلوم المزخرفة الخارجة عنها فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس و الانبساط الّذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه .

(القول في معنى الرضا بقضاء الله و حقيقته وما ورد في فضيلته)

إعلم أنّ الرّضا ثمرة من ثمرات المحبّة و هو من أعلى مقامات المقرّبين و حقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه و الابهام غير منكشف إلّا لمن علّمه الله التأويل و فقّهه في الدّين فقد أنكر منكرون تصوّر الرّضا بما يخالف الهوى ثمّ قالوا : إن أمكن الرّضا بكلّ شيء لأنّه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر و المعاصي ، وانخدع به قوم فرأوا الرّضا بالفجور و الفسوق و ترك الاعتراض و الإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى و لو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا النبيّ صلّى الله عليه وآله لابن عبّاس - رضي الله عنه - حيث قال: «اللّهمّ فقّهه في الدّين و علّمه التأويل» (١) فلنبدأ أوّلاً ببيان فضيلة الرّضا ، ثمّ بحكايات أحوال الرّاضين ثمّ نذكر حقيقة الرّضا وكيفيّة تصوّره فيما يخالف الهوى ، ثمّ نذكر ما يظنّ أنّه من تمام الرّضا وليس منه كترك الدّعاء والسكوت على المعاصي .

(بيان فضيلة الرضا)

أمّا من الآيات فقوله تعالى : «رضي الله عنهم و رضوا عنه» (٢) وقد قال تعالى «هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان» (٣) و منتهى الإحسان رضا الله تعالى عن عبده و هو ثواب رضا العبد عنه وقد قال تعالى : «ومساكن طيّبة في جنّات عدن ورضوان من الله أكبر» (٤) فقد رفع الله الرّضا فوق جنّات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : «إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر» (٥) فكما أنّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده وقد تقدم في العلم .
(٢) المائدة : ١٢٠ . (٣) الرحمن : ٦٠ .
(٤) التوبة : ٧٣ . (٥) العنكبوت : ٤٥ .

مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان ربّ الجنّة أعلى من الجنّة بل هو غاية مطلب سكّان الجنان و في الحديث « إنّ الله عزّ و جلّ يتجلّى للمؤمنين فقال : سلوني فيقولون : رضاك يا ربّنا »[١] فسؤالهم الرّضا بعد النظر نهاية التفضيل فلا رتبة فوق النظر إليه و إنّما سألوه الرّضا لأنّه سبب دوام النظر فكأنّهم رأوه غاية الغايات و أقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر فلمّا اُمروا بالسؤال لم يسألوا إلّا دوامه و علموا أنّ الرّضا هو سبب دوام رفع الحجاب و قال تعالى : « و لدينا مزيد »[٢] و قال بعض المفسّرين فيه : يأتي أهل الجنّة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند ربّ العالمين ليس في الجنان مثلها إحداها هدية الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها و ذلك قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرة أعين » [٣] و الثانية السلام عليهم من ربّهم فيزيد ذلك على الهداية و هو قوله تعالى : « سلام قولاً من ربّ رحيم » [٤] و الثالثة يقول الله تعالى: إنّي عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهديّة والتسليم وذلك قوله تعالى : « ورضوان من الله أكبر » [٥] أي من النعيم الّذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد ومعناه يقرب ممّا ذكرناه في حبّ الله تعالى للعبد ويجوز أن ينكشف عن حقيقته لقصور أفهام الخلق عن دركه و من قوي عليه فيستقلّ بإدراكه من نفسه وأمّا رضا الخلق فسنذكر حقيقته .

وأمّا الأخبار في فضيلته فقد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « سأل طائفة من أصحابه ماأنتم؟ فقالوا: مؤمنون فقال : ما علامة إيمانكم؟ قالوا : نصبر عند البلاء ونشكر عند الرّخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال : مؤمنون وربّ الكعبة »[٦] وفي خبر آخر أنّه قال: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » [٧] و في الخبر « طوبى لمن هدي إلى الإسلام و كان رزقه كفافاً ، و رضي به » [٨] و قال عليه السلام : « من رضي من الله

(١) قال العراقي : أخرجه البزار والطبراني في الاوسط من حديث أنس بسند فيه لين.
(٢) ق : ٣٥ . (٣) السجدة : ١٧ .
(٤) يس : ٥٨ . (٥) التوبة : ٧٣ .
(٦) تقدم في كتاب الصبر والشكر ج ٧ ص ١٠٧ من حديث عطاء عن ابن عباس .
(٧) قد تقدم ايضاً . (٨) أخرجه الترمذى وقد تقدم .

عزّوجلّ بالقليل من الرّزق رضي الله عنه بالقليل من العمل »[١] و قال أيضاً : « إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه »[٢] وقال أيضاً : «إذاكان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من اُمّتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعّمون فيها كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً ، فتقولون : هل جزتم على الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطاً ، فتقولون لهم : هل رأيتم جهنّم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئاً ، فتقول لهم الملائكة: من اُمّة من أنتم ؟ فيقولون : من اُمّة محمّد ، فتقولون : ناشدناكم الله حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدّنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فتقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنّا إذا خلونا نستحيي أن نعصيه ، ونرضى باليسير ممّا قسّم لنا ، فتقول الملائكة : فحقّ لكم هذا »[٣].

وقال عليه السلام : «أعطوا الله الرّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلّا فلا»[٤].

و في أخبار موسى عليه السلام «إنّ بني إسرائيل لما قالوا له عليه السلام سل لنا ربّك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنّا ، فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ما قالوا ، فقال: يا موسى قل لهم : يرضون عنّي حتّى أرضى عنهم » و يشهد لهذا ما روي عن نبيّنا عليه السلام أنّه قال : « من أحبّ أن يعلم ماله عند الله عزّوجلّ فلينظر ما لله تعالى عنده فإنّ الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه »[٥] . و في أخبار داود عليه السلام : « مالأوليائي و الهمّ بالدّنيا إنّ الهمّ يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، ياداود إنّ محبّتي من أوليائي أن يكونوا روحانيّين لايغتمّون . و سئل عيسى عليه السلام ما أفضل الأعمال ؟ فقال : الرّضا عن الله و الحبّ له .

---

(١) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٣٧ باب القناعة .
(٢) تقدم آنفاً .
(٣) رواه ابن حبان في الضعفاء وأبوعبدالرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف .
(٤) قد تقدم .
(٥) أخرجه الحاكم من حديث جابر بأدنى اختلاف في اللفظ وصححه وقدتقدم .

و روي أنّ موسى عليه السلام قال : يا ربّ دلّني على أمر فيه رضاك حتّى أعمله فأوحى الله تعالى إليه : رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره ، فقال : يارب دلّني عليه ؟ فقال : إنّ رضاي في رضاك بقضائي. و في مناجاة موسى عليه السلام أي ربّ أيّ خلقك أحبّ إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سالمني ، قال : فأيّ خلقك أنت عليه ساخطٌ ، قال : من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له كره قضائي . وقد روي ماهو أشدّ منه وذلك أنّ الله تعالى قال : أنا الله لا إله إلّا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي ولم يشكر نعمائي فليتّخذ ربّاً سواي»[1] ومثله في الشدّة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال الله تعالى: قدّرت المقادير ودبّرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرّضا عنّي حتّى يلقاني ، ومن سخط فله السخط منّي حتّى يلقاني»[2] و في الخبر المشهور « يقول الله عزّ وجلّ : خلقت الخير والشرّ فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه و ويل لمن خلقته للشرّ وأجريت الشرّ على يديه ، و ويل ثمّ ويلٌ لمن قال : لمَ و كيف»[3] وفي الأخبار السالفة أنّ نبيّاً من الأنبياء شكا إلى الله عزّ وجلّ الجوع و الفقر والقمل عشر سنين فما أجيب له ، ثمّ أوحى الله تعالى إليه كم تشكوني و لست أهلاً للذّمّ و الشكوى و أنت أحقّ بالذّمّ و الشكوى، وهكذا كان بدؤك عندي في أُمّ الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك منّي وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدّنيا أتريد أن أُعيد خلق الدّنيا من أجلك أم تريد أن أبدّل ما قدّرته عليك فيكون ما تحبّ فوق ما أُحبّ و يكون ما تريد فوق ما أُريد ، وعزّتي وجلالي لئن اختلج هذا في صدرك مرّة أُخرى لأمحونّك من ديوان النبوّة .

و روي أنّ آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه و ينزلون

(١) قال العراقي : رواه الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الداري مقتصراً على قوله : «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليلتمس رباً سواي» واسناده ضعيف . (٢) ماعثرت على هذا اللفظ .

(٣) رواه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي امامة باسناد ضعيف كما في المغني ورواه الكليني في الكافي ج ١ ص ١٥٤ باب الخير والشر عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدّرج فيصعد إلى رأسه ثمّ ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه فقال له بعض أولاده الكبار : يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا، فقال : يا بنيّ إنّي رأيت ما لم تروا وعلمت ما لم تعلموا إنّي تحرّكت حركة واحدة فاهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان و من دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرّك حركة أُخرى فيصيبني ما لا أعلم .

و يروى أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : تريد و أُريد و إنّما يكون ما أُريد فإن سلّمت لما أُريد كفيتك ما تريد ، و إن لم تسلّم لما أُريد أتعبتك فيما تريد ، ثمّ لا يكون إلّا ما أُريد . وقال عليه السلام : « إنّ الله عزّ و جلّ جعل بحكمته و جلاله الرّوح و الفرح في الرّضا واليقين وجعل الغمّ والحزن في الشكّ والسخط »(١).

أقول : وأمّا الآثار الّتي ذكرها أبو حامد في هذا المقام فلمّا لم يكن فيها مزيد فائدة تركنا ذكرها .

✿(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)✿

إعلم أنّ من قال : ليس فيما يخالف الهوى و أنواع البلاء إلّا الصبر فأمّا الرّضا فلا يتصوّر فإنّما أتى من ناحية إنكار المحبّة فأمّا إذا ثبت تصوّر الحبّ لله تعالى و استغراق الهمّ به فلا يخفى أنّ الحبّ يورث الرّضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين أحدهما أن يبطل الإحساس بالألم حتّى يجري عليه المؤلم ولا يحسّ به و تصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ، و مثاله الرّجل المحارب فإنّه في حال غضبه أو حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحسّ بها فإذا رأى الدّم استدلّ به على الجراحة بل الّذي يعدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحسّ بألمه لشغل قلبه بل الّذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألّم به فإن كان مشغول القلب بمهمّ من مهمّاته فيفرغ المزيّن أو الحجّام و هو لا يشعر به و كلّ ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، و كذا العاشق المستغرق الهمّ

(١) اخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود الا أنه قال : «جعل بقسطه» . (المغني)

بمشاهدة معشوقة أو بحبّه قد يصيبه ما كان يتألّم به أو يغتمّ لولا عشقه ، ثمّ لا يدرك غمّه وألمه لفرط استيلاء الحبّ على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحبّ و العشق من أعظم الشواغل و إذا تصوّر هذا في ألم يسير بسبب حبّ خفيف تصوّر في الألم العظيم بالحبّ العظيم فإنّ الحبّ أيضاً يتصوّر تضاعفه في القوّة كما يتصوّر تضاعف الألم و كما يقوى حبّ الصور الجميلة المدركة بحاسّة البصر فكذا يقوى حبّ الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة و جمال الحضرة الرّبوبيّة وجلالها لا يقاس بجمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ولا يحسّ بما يجري عليه فقد قيل : ضرب الحبيب لا يوجع ، و أمّا وجه الثاني فهو أن يحسّ به و يدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له أعني بعقله و إن كان كارهاً له بطبعه كالّذي يلتمس من الفصّاد الفصد و الحجامة فإنّه يدرك ألمه إلّا أنّه راض به و راغب فيه ومتقلّد من الفصّاد و الحجّام المنّة فهذا حالة الراضي بما يجري عليه من الألم و كذلك كلّ من يسافر في طلب الرّبح يدرك مشقّة السفر ولكن حبّه لثمرة سفره طيّب عنده مشقّة السفر وجعله راضياً ، بها ومهما أصابته بليّة من الله عزّ وجلّ وكان له يقين بأنّ ثوابه الّذي ادّخر له فوق مافاته رضي به و رغب فيه وأحبّه و شكر الله تعالى عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الّذي يجازي به عليه ويجوز أن يغلب الحبّ بحيث يكون حظّ المحبّ في مراد حبيبه و رضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه و رضاه محبوباً عنده و مطلوباً وكلّ ذلك موجود في المشاهدات في حبّ الخلق ، وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ولا معنى له إلّا ملاحظة جمال الصور الظاهرة المدركة بالصبر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلّا جلد على لحم و دم مشحون بالأقذار و الأخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة الّتي تغلط فيما ترى كثيراً فترى الصغير كبيراً والكبير صغيراً و البعيد قريباً و القبيح جميلاً و إذا تصوّر فيه استيلاء هذا الحبّ فمن أين يستحيل ذلك في حبّ الجمال الأزلي الأبدي الّذي لا منتهى لكماله

المدرك بعين البصيرة الّتي لا يعتريها الغلط و لا يدوربها الموت بل تبقى بعد الموت حيّة عند الله تعالى فرحة برزق الله مستفيدة بالموت مزيد تنبيه و استكشاف و هذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار و يشهد لذلك الوجود و حكايات أحوال المحبّين وأقوالهم .

قال بشر : قصدت عبّادان في بدايتي فإذا أنا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع و النمل تأكل لحمه فرفعت رأسه و وضعته في حجري و أنا أردّد الكلام فلمّا أفاق قال : من هذا الفضولي الّذي يدخل بيني وبين ربّي لوقطّعني إرباً إرباً ما ازددت له إلّا حبّاً ، قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد و بين ربّه فأنكرتها ، و قال أبو عمرو محمّد بن الأشعث : إنّ أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلّا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك و هو قطع النسوة أيديهنّ لاستهتارهنّ بملاحظة جماله حتّى ما أحسن بذلك .

وقيل : إنّ يونس قال لجبرئيل عليه السلام : دلّني على أعبد أهل الأرض فدلّه على رجل قد قطع الجذام يديه و رجليه و ذهب ببصره وسمعه وهو يقول : إلهي متّعتني بها ماشئت أنت وسلبتني ما شئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل بابرّ يا وصول .

و قال مسروق كان في بني إسرائيل رجلٌ بالبادية له كلبٌ و حمار و ديك فالدّيك يوقظهم للصلاة و الحمار ينقلون عليه الماء و يحمل لهم خباءهم و الكلب يحرسهم قال: فجاء الثعلب وأخذ الدّيك فحزنوا له وكان الرّجل صالحاً فقال : بقدر عسى أن يكون خيراً ، ثمّ أُصيب الكلب فقال : بقدر عسى أن يكون خيراً ، ثمّ جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه ، فقال : بقدر عسى أن يكون خيراً ، ثمّ أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قدسبي من كان حولهم وبقوا هم ، قال : وإنّما اُخذوا اُولئك لما كان عندهم من أصوات الكلب و الحمار والدّيك وكانت الخيرة في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى فمن عرف خفيّ لطف الله رضي بفعله .

و يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد . مضروب الجنبين

بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول : الحمد لله الّذي عافاني ممّا ابتلى به كثيراً من خلقه ، فقال له عيسى عليه السلام : يا هذا أيّ شيء من البلاء تراه مصروفاً عنك فقال : يا روح الله أنا خير ممّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد حكايات و أقوالاً اُخر من هذا القبيل ثمّ قال : فإذا تأمّلت هذه الحكايات عرفت قطعاً أنّ الرّضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدّين و مهما كان ذلك ممكناً في حبّ الخلق و حظوظهم كان ممكناً في حبّ الله عزّ وجلّ وحظوظ الآخرة قطعاً وإمكانه من وجهين أحدهما الرّضا بالألم لما يتوقّع من الثواب الموعود كالرّضا بالحجامة و شرب الدّواء انتظار الشفاء ، و الثاني الرّضا به لا لحظّ وراءه بل لكونه مراد المحبوب و رضى له فقد يغلب الحبّ بحيث ينغمر مراد المحبّ في مراد المحبوب فيكون ألذّ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه و رضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل : « فما لجرح إذا أرضاكم ألم » و هذا ممكن مع الإحساس بالألم و قد يستولي الحبّ بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة و المشاهدة دالّة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه لأنّه إنّما فقده لفقد سببه و هو فرط حبّه و من لم يذق طعم الحبّ لم يعرف عجائبه فللمحبّين عجائب أعظم ممّا وصفناه فقد روي عن عمرو بن الحارث الرّافعي قال : كنت في مجلس بالرّقّة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشّق جارية مغنّية و كانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنّت :

علامة ذلّ الهوى على العاشقين البكاء ✿ ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى : أحسنت و الله يا سيّدتي أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت : مت راشداً ، قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحرّكناه فإذا هو ميّت . وقال الجنيد : رأيت رجلاً متعلّقاً بكمّ صبي و هو يتضرّع إليه و يظهر له المحبّة فالتفت إليه الصبيّ و قال له : إلى متى ذا النفاق الّذي تظهر لي فقال : قد

علم الله أنّي صادق فيما اورده حتّى لوقلت لي مت لمتّ فقال : إن كنت صادقاً فمت قال : فتنحّى الرّجل و غمض عينيه فوجد ميتاً . و قال سمنون المحبّ : كان في جيراننا رجلٌ وله جارية يحبّها غاية الحبّ فاعتلّت الجارية فجلس الرّجل ليصلح لها حيساً فبينا هو يحرّك ما في القدر إذ قالت الجارية : آه ، قال : فدهش الرّجل وسقطت الملعقة من يده وجعل الرّجل يحرّك ما في القدر بيده حتّى تساقطت أصابعه فقالت الجارية : ما هذا ؟ فقال الرّجل هذا من أجل قولك : آه .

وحكي عن محمّد بن عبد الله البغدادي قال : رأيت بالبصرة شابّاً على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول هذا البيت :

من مات عشقاً فليمت هكذا ✡ لا خير في عشق بلا موت

ثمّ رمى بنفسه إلى الأرض فحملوه ميتاً ، فهذا وأمثاله قد يصدق به في حبّ المخلوق فالتصديق به في حبّ الخالق أولى لأنّ البصيرة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الرّبوبيّة أوفى من كلّ جمال بل كلّ جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الّذي فقد البصر ينكر جمال الصور و من فقد السمع ينكر لذّة الألحان و النغمات الموزونة فالّذي فقد القلب لابدّ أن ينكر أيضاً هذه اللّذّات الّتي لامطيّة لها سوى القلب .

✡(بيان ان الدعاء غير مناقض للرضا ولايخرج صاحبه عن مقام الرضا)✡

و كذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها و حسم أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه ، وقد غلط في ذلك قوم من البطّالين المغترّين و زعموا أنّ المعاصي و الفجور و الكفر من قضاء الله و قدره فيجب الرّضا به و هذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأمّا الدّعاء فقد تعبّدنا به و كثرت أدعية النبيّ وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدّعوات و لقد كان عليه السلام في أعلى مقامات الرّضا و قد أثنى الله عزّ و جلّ على بعض عباده بقوله : « يدعوننا رغباً و رهباً »(1) و أمّا إنكار المعاصي و كراهتها وعدم الرّضا فقد تعبّد الله عزّ وجلّ به عباده

(1) الانبياء : ٩٠ .

وذمّهم على الرّضا بها فقال: «ورضوا بالحيوة الدّنيا واطمأنّوا بها»[١] و قال «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم»[٢] وفي الخبر المشهور «من شهد منكراً ورضي به فكأنّه قد فعله»[٣] و في الحديث «الدالّ على الشرّ كفاعله»[٤] وعن ابن مسعود: إنّ العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه، قيل: و كيف ذاك قال: فيبلغه فيرضى به. و في الخبر «لو أنّ عبداً قتل بالمشرق و رضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكه في قتله»[٥] و قد أمر الله عزّ وجلّ بالحسد و المنافسة في الخيرات وتوقّي الشرور فقال تعالى: «و في ذلك فليتنافس المتنافسون»[٦] وقال: النبيّ ﷺ: «لاحسد إلّا في اثنين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثّها في الناس ويعلّمها، ورجل آتاه الله تعالى مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ»[٧] و في لفظ آخر «ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل والنهار فيقول الرّجل: لو آتاني الله تعالى مثل ما اُوتي هذا لفعلت مثل ما يفعل»[٨].

و أمّا بغض الكفّار والفجّار و الإنكار عليهم و مقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: «لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين»[٩] وقال تعالى: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض»[١٠] وقال «كذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً»[١١] وفي الخبر «إنّ الله عزّ وجلّ أخذ الميثاق على كلّ مؤمن أن يبغض كلّ منافق، و على كلّ

---

(١) يونس: ٧. (٢) التوبة ٨٨.
(٣) ما عثرت على لفظه نعم وردت أخبار كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ذلك راجع وسائل عن الشيعة كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الباب الخامس.
(٤) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف.
(٥) رواه الصدوق في العيون والعلل عن الرضا عليه السلام في حديث.
(٦) المطففين: ٢٦.
(٧) قد تقدم في كتاب العلم. (٨) تقدم أيضاً نحوه.
(٩) آل عمران: ٢٨. (١٠) المائدة: ٥٦.
(١١) الانعام: ١٢٩.

منافق أن يبغض كلّ مؤمن»[1] وقال أيضاً : « المرء مع من أحبّ » [2] و قال عليه السلام : « من أحبّ قوماً و والاهم حشر معهم يوم القيامة » [3] وقال عليه السلام : « أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله والبغض في الله»[4] وشواهدهذاقد ذكرناها في باب الحبّ في الله و البغض في الله من كتاب آداب الصحبة ، و في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلانعيدها .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرّضا بقضاء الله تعالى فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد ، و إن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها و مقتها كراهة لقضاء الله تعالى فكيف السبيل إلى الجمع بينهما و هومتناقض على هذا الوجه و كيف يمكن الجمع بين الرّضا والكراهة في شيء واحد فاعلم أنّ هذا ممّا يلتبس على الضعفاء القاصرين على الوقوف على أسرار العلوم و قد التبس على قوم حتّى رأوا السكوت عن المنكرات مقاماً من مقامات الرضا وسمّوه حسن الخلق و هو جهل محض ، بل نقول : الرّضا و الكراهة متضادّان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد و ليس من التضادّ في شيء واحد أن يكره من وجه و يرضى به من وجه إذ قد يموت عدوّك الّذي هو أيضاً عدوّ بعض أعدائك و ساع في إهلاكه فتكره موته من حيث أنّه مات عدوّ عدوّك و ترضاه من حيث أنّه مات عدوّك و كذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله عزّ وجلّ من حيث أنّها فعله و اختياره و إرادته فترضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك و رضاه بما يفعله فيه و وجه إلى العبد من حيث أنّها كسبه و وصفه و علامة كونه ممقوتاً عند الله تعالى و بغيضاً عنده حيث سلّط عليه أسباب البعد و المقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ، و لاينكشف هذا لك إلّا بمثال : فلنفرض محبوباً من الخلق قال :

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وقد تقدم .

(٣) رواه الطبراني والضياء المقدسي عن أبي قرصافة بسند صحيح كما في الجامع الصغير . ورواه ابن عدي من حديث جابر بسند ضعيف كما في المغني .

(٤) رواه احمد وقدتقدم في آداب الصحبة .

بين أيدي محبّيه إنّي أريد أن أميز بين من يحبّني و يبغضني و أنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو أنّي أقصد فلاناً بما يؤذيه و أضربه ضرباً يضطرّه في ذلك إلى الشتم حتّى إذا شتمني أبغضته واتّخذته عدوّاً لي فكلّ من أحبّه فأعلم أنّه أيضاً عدوّي و كلّ من أبغضه فأعلم أنّه صديقي ومحبّي، ثمّ فعل ذلك و حصل مراده من الشتم الّذي هو سبب البغض و حصل البغض الّذي هو سبب العداوة فحقّ على كلّ من هو صادق في محبّته و عالم بشروط المحبّة أن يقول : أمّا تدبيرك في إيذاء هذا الشخص و ضربه وإبعاده و تعريضك إيّاه للبغض و العداوة فأنا محبّ له و راض به فانّه رأيك وتدبيرك وفعلك و إرادتك ، وأمّا شتمه إيّاك فانّه عدوان من جهته إذ كان حقّه أن يصبر و لا يشتم ولكنّه كان مرادك منه فانّك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث أنّه حصل على وفق مرادك و تدبيرك الّذي دبّرته فأنا راض به و لو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك و تعويقاً في مرادك و أنا كاره لفوات مرادك ولكنّه من حيث إنّه وصف لهذا الشخص و كسب له و عدوان و تهجّم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه و من حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك و مقتضى تدبيرك وأمّا بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به و محبّ له لأنّه مرادك و أنا على موافقتك أيضاً مبغض له لأنّ شرط المحبّ أن يكون لحبيب المحبوب حبيباً ولعدوّه عدوّاً وأمّا بغضه لك فانّني أرضاه من حيث إنّك أردت منه أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلّطت عليه دواعي البغض ولكنّها أبغضه من حيث إنّه وصف ذلك البغيض و كسبه و فعله و أمقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته إيّاك و بغضه و مقته لك أيضاً مكروه عندي من حيث إنّه وصف له و كلّ ذلك من حيث إنّه مرادك مرضي و إنّما التناقض أن يقول هو من حيث إنّه مرادك مرضيّ ومن حيث إنّه مرادك مكروه ، فأمّا إذا كان مكروهاً لا من حيث إنّه فعله و مراده بل من حيث إنّه وصف غيره و كسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كلّ ما يكره من وجه ويرضى به من وجه و نظائر ذلك لا تحصى فإذن تسليط الله تعالى دواعي الشهوة و

المعصية عليه حتّى يجرّه ذلك إلى حبّ المعصية و يجرّه الحبّ إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الّذي ضربناه مثلاً ليجرّه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله عزّ وجلّ لمن عصاه و إن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه و إن كان شتمه إنّما حصل بتدبيره واختياره لأسباب ذلك وفعل الله ذلك بكلّ عبد من عبيده أعني تسليط دواعي المعصية عليه يدلّ على أنّه سبقت مشيّته بإبعاده ومقته فواجبٌ على كلّ عبد محبّ لله عزّ وجلّ أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبعده عن حضرته وإن اضطرّه بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنّه بعيدٌ مطرودٌ ملعونٌ عن الحضرة و إن كان بعيداً بإبعاده قهراً ومطروداً و اضطراراً و المبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتاً بغيضاً إلى جميع المحبّين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده وبهذا يتقرّر جميع ما وردت به الأخبار في البغض في الله والحبّ في الله و التشديد على الكفّار و التغليظ عليهم و المبالغة في مقتهم مع الرّضا بقضاء الله عزّ وجلّ من حيث انّه قضاء الله تعالى وهذا كلّه يستمدّ من سرّ القدر الّذي لا رخصة في إفشائه وهو أنّ الشرّ و الخير كلاهما داخلان في المشيّة والإرادة ولكنّ الشرّ مراد مكروه و الخير مراد مرضيّ به فمن قال: ليس الشرّ من الله تعالى وهو جاهل وكذا من قال: إنّهما جميعاً منه من غير افتراق في الرّضا و الكراهة فهو أيضاً مقصّر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه، فالأولى السكوت و التأدّب بأدب الشرع فقد قال عليه السلام: «القدر سرّ الله فلا تفشوه»[1] وذلك يتعلّق بعلم المكاشفة و غرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبّد به جميع الخلق في الجمع بين الرّضا بقضاء الله و مقت المعاصي مع أنّها من قضاء الله عزّ وجلّ وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السرّ فيه و بهذا يعرف أيضاً أنّ الدّعاء للمغفرة والعصمة من المعاصي و لسائر الأسباب المعينة على الدّين غير مناقض للرّضا بقضاء الله تعالى فإنّ الله عزّ و جلّ تعبّد العباد بالدّعاء ليستخرج الدّعاء منهم صفاء الذّكر وخشوع القلب و رقّة التضرّع ويكون

(١) أخرجه ابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر، وقد تقدم.

ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف و سبباً لتواتر مزايا اللّطف كما أنّ حمل الكوز و شرب الماء ليس مناقضاً للرّضا بقضاء الله تعالى في العطش و شرب الماء طلب لإزالة العطش ومباشرة سبب رتّبه مسبّب الأسباب فكذلك الدّعاء سببٌ رتّبه الله تعالى و أمر به .

و قد ذكرنا أنّ التمسّك بالأسباب جرياً على سنّة الله تعالى لايناقض التوكّل و استقصيناه في كتاب التوكّل فهو أيضاً لا يناقض الرّضا لأنّ الرّضا مقام ملاصق بالتوكّل و يتّصل به ، نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى و إنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرّضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر و الكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض فيه و قدقال السلف : من حسن الرّضا بقضاء الله أن لايقول : هذا يومٌ حارّ أي في معرض الشكاية وذلك في الصيف ، فأمّا في الشتاء فهو شكرٌ و الشكوى مناقض للرّضا بكلّ حال و ذمّ الأطعمة وعيبها يناقض الرّضا بقضاء الله لأنّ مذمّة الصنعة مذمّة الصانع والكلّ من صنع الله تعالى وقول القائل : الفقر بلاء و محنة ، و العيال همّ وتعبٌ و الاحتراف كدّ ومشقّة ، كلّ ذلك قادحٌ في الرّضا بل ينبغي أن يسلّم التدبير لمدبّره و المملكة لمالكها و يقول ما قال بعض الصحابة : لا اُبالي أصبحت غنيّاً أو فقيراً فإنّي لا أدري أيّهما خيرٌ لي .

✿(بيان ان الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى)✿
✿(ومذمتها لا يقدح فى الرضا)✿

إعلم أنّ الضعيف قد يظنّ أنّ نهي النبيّ ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون[١] يدلّ على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأنّ كلّ واحد منهما فرارٌ من قضاء الله تعالى و ذلك محالٌ بل العلّة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنّه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحّاء و بقي فيه المرضى المطعونون مهملين لا متعهّد لهم فيهلكون هزلاً و ضراراً ولذلك شبّهه النبيّ عليه السلام

(١) النهى عن الفرار من الطاعون أخرجه مسلم ج ٧ ص ٢٧ من حديث اسامة بن زيد .

في بعض الأخبار بالفرار من الزّحف (١) ولوكان ذلك من القضاء لما أذن لمن قارب البلد في الانصراف عنه و قدذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكّل ، و إذا عرف المعنى ظهر أنّ الفرار من البلادالّتيهي مظانّ المعاصي ليس فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار منها ومن كلّ مالابدّ من الفرار منه وكذلك مذمّة المواضع الّتي تدعو إلى المعاصي و الأسباب الّتي تدعوا إليها لأجل التنفير عن المعصية ليست مذموماً فمازال السلف الصالح يعتادون ذلك حتّى اتّفقت جماعة على ذمّ بغداد و إظهارهم ذلك و طلب الفرار منها .

فقال ابن المبارك : طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شرّاً من بغداد قيل : و كيف ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ، ولمّا قدم خراسان قيل له: كيف رأيت بغداد ؟ قال : ما رأيت به إلّا شرطيّاً غضبان أو تاجراً لهفان أوقارياً حيران ، ولاينبغي أن تظنّ أنّ ذلك من الغيبة لأنّه لم يتعرّض لشخص بعينه حتّى يستضرّ ذلك الشخص به بل قصد بذلك تحذير الناس ، فهذا يدلّ على أنّ من سكن ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقلّ فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر، قال الله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (٢) فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئنّ النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلاً على الدّوام « ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » . و ذلك لأنّ الظلم إذا عمّ نزل البلاء و دمّر على الجميع و شمل المطيعين و العاصين قال الله تعالى : «واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة »(٣) فإذن ليس في شيء من أسباب نقصان الدّين البتّة رضا مطلق إلّا من حيث إضافتها إلى فعل الله فأمّا هي في أنفسها فلا وجه للرّضا بها بحال ، وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل مقامات ثلاثة : رجل يحبّ الموت شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورجل يحبّ البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال : لاأختار شيئاً بل أرضى بما اختاره الله تعالى، ورفعت هذه المسألة

---

(١) تقدم في كتاب آداب السفر ج ٤ ص ٥٢ . وأخرجه احمد في مسنده ج ٦ ص ١٤٥ .

(٢) النساء : ٩٩ . (٣) الانفال : ٢٥ .

إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرّضا أفضلهم لأنّه أقلّهم فضولاً .

أقول : ثمّ ذكر أبوحامد جملة من حكايات المحبّين و أقوالهم و مكاشفاتهم و كلمات متفرّقة كما وعده في أوّل الكتاب ولمّا كان بعضها في معنى ما ذكر وبعضها ممّا كرّر وكان سائرها دعاوي لا وثوق بصحّتها و لا بحال من ادّعاها و كان بعضها يناقض بعضاً وبعضها ينقض بعض ظواهر الشرع نقضاً ضربنا عنها صفحاً و طويناعنها كشحاً إذ لا فائدة في سماع ما هو من قبيل الشطح و الطامات و ما صدر على سبيل الزّهو والرّعونات و إن صحّت فينال أمثالها من كان من أهلها و رجالها و لنختم الكتاب بحديث أورده أبو حامد في جملة ما تركناه نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : سألت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن سنّته فقال : المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، و الحبّ أثاثي ، و الشوق مركبي ، و ذكر الله عزّ و جلّ أنيسي ، والثقة كنزي ، و الحزن رفيقي ، والعمل سلاحي ، والصبر ردائي ، والرّضا غنيمتي ، والفقر فخري ، و الزّهد حرفتي ، و اليقين قوّتي ، و الصدق شفيعي ، و الطاعة جنّتي ، و الجهاد خلقي ، و قرّة عيني في الصلاة »[1].

تمّ كتاب المحبّة وتوابعها من المحجّة البيضاء على يد مؤلّفه محسن بن مرتضى جعله الله من المحبّين له المشتاقين إليه الآنسين به الرّاضين بقضائه بمنّه و كرمه . ويتلوه كتاب النيّة و الصدق والإخلاص إن شاء الله تعالى .

(١) قال العراقي : ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام ولم أجد له اسناداً .

كتاب النية والصدق والاخلاص

و هو الكتاب السابع من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانيّته إقرار الصادقين، و نشهد أن لا إله إلّا الله ربّ العالمين، و خالق السماوات و الأرضين، و مكلّف الجنّ والإنس والملائكة المقرّبين أن يعبدوه عبادة المخلصين. فقال: «وما اُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين» (١) فما لله إلّا الدّين الخالص المتين فإنّه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيّه محمّد سيّد المرسلين وعلى جميع النبيّين وعلى آله وأصحابه الطيّبين الطاهرين.

أما بعد فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان و أنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلّا بالعلم والعبادة، والناس كلّهم هلكى إلّا العالمين، والعالمون كلّهم هلكى إلّا العاملين، والعاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصين، و المخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نيّة عناء و النيّة بغير إخلاص رياء وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء، و الإخلاص من غير صدق و تحقيق هباء، و قد قال الله تعالى في كلّ عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً» (٢) فليت شعري كيف يصحّح النيّة من لا يعرف حقيقة النيّة أو كيف يخلص من صحّح النيّة إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقّق معناه فالوظيفة الأولى على كلّ عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلّم النيّة أوّلاً لتحصل المعرفة ثمّ يصحّحها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق و

(١) البينة: ٥. (٢) الفرقان: ٢٥.

الاخلاص اللّذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة و الخلاص ، و نحن نذكر معاني النيّة و الصدق و الإخلاص في ثلاثة أبواب إن شاء الله : الباب الأوّل في حقيقة النيّة ومعناها ، الباب الثاني في الاخلاص وحقائقه ، الباب الثالث في الصدق وحقيقته .

الباب الأوّل في النيّة ، وفيه بيان فضيلة النيّة ، وبيان حقيقة النيّة ، وبيان كون النيّة خيراً من العمل ، و بيان تفصيل الأعمال المتعلّقة بالنيّة و بيان خروج النيّة عن الاختيار .

✿(بيان فضيلة النية)✿

قال الله تعالى : « و لا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون وجهه » [١] و المراد بتلك الإرادة هي النيّة . وقال عليه السلام : «إنّما الأعمال بالنيّات و لكلّ امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» [٢] و قال عليه السلام : « أكثر شهداء امّتي أصحاب الفرش وربّ قتيل بين الصفّين الله أعلم بنيّته » [٣] و قال عزّ وجلّ : «إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما » [٤] فجعل النيّة سبب التوفيق وقال عليه السلام : « إنّ الله عزّ و جلّ : لاينظر إلى صوركم و أموالكم و إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [٥] و إنّما نظر إلى القلوب لأنّها مظنّة النيّة .

و قال عليه السلام : « إنّ العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة فتلقى بين يدي الله عزّ وجلّ فيقول : ألقوا هذه الصحيفة فإنّه لم يرد بما فيها وجهي ، ثمّ ينادي الملائكة اكتبوا له كذا و كذا فتقولون يا ربّنا إنّه لم يعمل شيئاً من ذلك ، فيقول : إنّه نواه إنّه نواه » [٦] و قال عليه السلام : « الناس أربعة : رجل

---

(١) الانعام : ٥٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصحيح ج ١ ص ٢٢ وقد تقدم كراراً .

(٣) أخرجه احمد فى المسند ج ١ ص ٣٩٧ من حديث ابن مسعود .

(٤) النساء : ٣٤ . (٥) أخرجه مسلم وقد تقدم .

(٦) قال العراقى : أخرجه الدار قطنى من حديث أنس باسناد حسن .

آتاه الله تعالى علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجلٌ : لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء و رجل آتاه الله تعالى مالاً ولم يؤته علماً وهو يتخبّط بجهله في ماله فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء » (١) ألا ترى كيف شركه بالنيّة في محاسن عمله و مساويه ، ولمّا خرج النبيّ صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك قال : « إنّ بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفّار و لا أنفقنا نفقة و لا أصابتنا مخمصة إلّا شاركونا في ذلك و هم في المدينة : قالوا : و كيف ذلك يا رسول الله و ليسوا معنا ؟ فقال : حبسهم العذر فشركونا بحسن النيّة » (٢) و في الخبر « إنّ رجلاً قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار » (٣) لأنّه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه و حماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيّته . وهاجر آخر ليتزوّج امرأة فكان يسمّى مهاجر امّ قيس (٤). و في حديث عبادة عن النبيّ صلى الله عليه وآله « من غزا وهو لا ينوي إلّا عقالاً فله ما نوى» (٥)

و قال اُبيّ : « استعنت برجل ليغزو معي فقال : لا حتّى تجعل لي جعلاً فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبيّ عليه السلام فقال : ليس له من دنياه وآخرته إلّا ما جعلت له » (٦) .

و روي في الإسرائيليّات أنّ رجلاً مرّ بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرّمل طعاماً لقسّمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أن قل له :

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى باب النية تحت رقم ٤٢٢٨ . وفيه «مثل هذه الامة كمثل أربعة نفر - الخبر » من حديث ابى كبشة الانمارى .

(٢) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣١ مختصراً وأخرجه أبوداود هكذا «ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ولا انفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادالا وهم معكم ، قالوا يارسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال: حبسهم المرض».

(٣) رواه أبو اسحاق الفزارى مرسلا فى السنن (المغنى).

(٤) أخرجه الطبرانى باسناد جيد كما فى المغنى .

(٥) أخرجه النسائى فى السنن ج ٦ ص ٢٤ من حديث عبادة .

(٦) أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين وروى نحوه عن عوف بن مالك كما فى مجمع الزوائد.

إنّ الله قد قبل صدقتك و شكر حسن نيّتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدّقت به و قد ورد في أخبار كثيرة « من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة »[١] وفي حديث اُمّ سلمة رضي الله عنها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذكر جيشاً يخسف بهم بالبيداء فقلت : يا رسول الله يكون فيهم الصالح ؟ فقال : «يحشرون على نيّاتهم»[٢] وقال عليه السلام : « إذا التقى الصفّان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدّنيا ، فلان يقاتل للحمية ، فلان يقاتل للعصبيّة ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله فمن قاتل ليكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[٣] .

و عن جابر رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : «يبعث كلّ عبد على ما مات عليه »[٤] وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل و المقتول في النار ، قيل : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنّه أراد قتل صاحبه»[٥] وفي الحديث « من تزوّج امرأة على صداق وهو لاينوي أداءه فهو زان ، و من ادّان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق »[٦] .

و قال عليه السلام : « من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة و ريحه أطيب من المسك الأذفر ، ومن تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة »[٧] .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن عليّ بن الحسين عليهما السلام

---

(١) متفق عليه وقد تقدم ، ورواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٤٢٨ .

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٤٢٣ و قد تقدم .

(٣) أخرجه ابن المبارك فى الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففى الصحيحين من حديث ابى موسى الاشعرى .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه ج ٨ ص ١٦٥ .

(٥) أخرجه البخارى فى الصحيح ج ٩ ص ٦٤ .

(٦) أخرجه احمد ج ٤ ص ٣٣٢ من حديث صهيب بن سنان .

(٧) قال العراقى : رواه ابوالوليد الصفار فى كتاب الصلاة من حديث اسحاق بن ابى طلحة .

قال : « لاعمل إلّا بنيّة » (١).

و عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : نيّة المؤمن خيرٌ من عمله ونيّة الكافر شرٌّ من عمله ، وكلّ عامل يعمل على نيّته »(٢).

و عنه عليه السلام قال : « إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول : يا ربّ ارزقني حتّى أفعل كذا وكذا من البرّ و وجوه الخير ، فإذا علم الله تعالى ذلك منه بصدق نيّة كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لوعمله إنّ الله واسع كريم » (٣).

و عنه عليه السلام إنّه سئل عن حدّ العبادة الّتي إذافعلها فاعلها كان مؤدّياً؟ فقال: «حسن النيّة بالطاعة »(٤).

وعنه عليه السلام قال : «إنّما خلّد أهل النار في النار لأنّ نيّاتهم كانت في الدّنيا أن لو خلّدوا فيها أن يعصوا الله تعالى أبداً و إنّما خلّد أهل الجنّة في الجنّة لأنّ نيّاتهم كانت في الدّنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيّات خلّد هؤلاء وهؤلاء، ثمّ تلا قوله تعالى : «قل كلّ يعمل على شاكلته » (٥) قال : يعني على نيّته »(٦).

ثمّ ذكر أبو حامد الآثار ولمّا لم يكن فيها زيادة فائدة على ماذكر تركناها .

✿(بيان حقيقة النية)✿

إعلم أنّ النيّة و الإرادة و القصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل فالعلم يتقدّم لأنّه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنّه ثمرته وفرعه وذلك لأنّ كلّ عمل أعني كلّ حركة وسكون اختياريّ فانّه لايتمّ إلّا بثلاثة اُمور علم و إرادة وقدرة لأنّه لايريد الإنسان مالم يعلمه فلابدّ أن يعلم ولا يعمل مالم يرد فلابدّ من إرادة و معنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه

(١) و (٢) المصدر ج ٢ ص ٨٤ تحت رقم ١ و ٢ .
(٣) المصدر ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٣ .
(٤) المصدر ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٤ .
(٥) الاسراء : ٨٤ .
(٦) الكافي ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٥ .

موافقاً للغرض ، إمّا في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور فاحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه و دفع المضارّ المنافي عن نفسه فإذن لابدّ من معرفة و إدراك للشيء المضرّ و النافع حتّى يطلب ويهرب فإنّ من لايدرك الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله و من لا يبصر النار لايمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة و جعل لها أسباباً و هي الحواسّ الظاهرة والباطنة و ليس ذلك من غرضنا ، ثمّ لو أبصر الغذاء و عرف أنّه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إلى الغذاء و شهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنّه موافق له و لا يمكنه التناول لعدم الرّغبة و الميل ولفقد الدّاعية المحرّكة إليه فخلق الله تعالى له الميل و الرّغبة و الإرادة و أعني بها نزوعاً في نفسه إليه وتوجّهاً في قلبه إليه ، ثمّ ذلك لايكفيه فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمناً ، فخلقت له القدرة و الأعضاء المتحرّكة حتّى يتمّ بها التناول والعضو لايتحرّك إلّا بالقدرة و القدرة تنتظر الدّاعية الباعثة و الدّاعية تنتظر العلم و المعرفة أو الظنّ و الاعتقاد و هو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له و إذا جزمت المعرفة بأنّ الشيء موافق ولابدّ أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقّق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة ، فالنيّة عبارة عن الصفة المتوسّطة و هي الإرادة و انبعاث النفس بحكم الرّغبة و الميل إلى ما هو موافق للغرض إمّا في الحال أو في المآل ، فالمحرّك الأوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث و الغرض الباعث هو المقصد المنويّ و الانبعاث هو القصد و النيّة ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلّا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد فإذا كان بباعثين فقد يكون كلّ واحد بحيث لو انفرد لكان ملبّياً بإنهاض القدرة ، و قد يكون كلّ واحد قاصراً عنه إلّا بالاجتماع ، و قد يكون أحدهما كافياً لو لا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له و معاوناً ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة

أقسام فلنذكر لكلّ واحد مثالاً وإسماً ، أمّا الأوّل فهوأن ينفرد الباعث الواحد و يتجرّد كما إذاهجم على الإنسان سبع فكلّما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلّا غرض الهرب من السبع فإنّه رأى السبع و عرفه ضارّاً فانبعث نفسه على الهرب وركبت فيه القدرة فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقم لطلب الفرار من السبع لا نيّة له في القيام لغيره و هذه النيّة تسمّى خالصة و يسمّى العمل بموجبها إخلاصاً بالإضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنّه خلص عن مشاركة غيره وممازجته ، الثاني هوأن يجتمع باعثان كلّ واحد مستقلّ بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوّة كانت كافية من الحمل لو انفردت ومثاله في غرضنا أنّ من له قريب فقير يعرض حاجته فيقضيها لفقره و قرابته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرّد القرابة وأنّه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرّد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غنيّ فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبيّ فيرغب أيضاً فيه ، وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام و هو يعلم أنّه لولا عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يترك لأجل أنّه عرفة و قد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل و كان الباعث الثاني رفيق الأوّل فلنسمّ هذا موافقة البواعث ، الثالث أن لا يستقلّ كلّ واحد لوانفرد و لكن يقوى بمجموعهما على إنهاض القدرة ، و مثاله من المحسوسات أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد به أحدهما ، ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغنيّ ليطلب درهماً فلا يعطيه و يقصده الأجنبيّ الفقير ليطلب منه درهماً فلايعطيه ، ثمّ يقصده الفقير القريب فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين هما القرابة و الفقر ، وكذلك الرّجل يتصدّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لايبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء ، و لو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدّق عليه لكان لا يبعثه مجرّد الرّياء على العطاء ولمّا اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب و لنسمّ هذا الجنس مشاركة ، والرّابع أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه و الثاني لايستقلّ ولكن لمّا انضاف إليه لم ينفكّ عن تأثير بالإعانة والتسهيل

ومثاله من المحسوس أن يعاون الضعيف الرّجل القويّ على الحمل ولو انفرد القويّ لاستقلّ و لو انفرد الضعيف لم يستقلّ فإنّ ذلك بالجملة يسهل العمل و يؤثّر في تخفيفه ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان وردٌ في الصلوات وعادة في الصدقات فاتّفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخفّ عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنّه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله وعلم أنّ عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرّياء يحمله عليه فهو شوب تطرّق إلى النيّة ولنسمّ هذا الجنس المعاونة، فالباعث الثاني إمّا أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً وسنذكر حكمها في باب الاخلاص وغرضنا الآن بيان أقسام النيّات فإنّ العمل تابعٌ للباعث عليه فيكتسب الحكم منه فلذلك قيل: إنّما الأعمال بالنيّات لأنّها تابعة لا حكم لها في نفسها و إنّما الحكم للمتبوع.

☆(بيان سرّ قوله عليه السلام «نية المؤمن خير من عمله (١)»)☆

إعلم أنّه قد يظنّ أنّ سبب هذا الترجيح أنّ النيّة سرٌّ لا يطّلع عليه إلّا الله تعالى والعمل ظاهر وفعل السرّ أفضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنّه لو نوى أن يذكر الله تعالى بقلبه أو يتفكّر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نيّته للتفكّر خيراً من التفكّر و قد يظنّ أنّ سبب الترجيح أنّ النيّة تدوم إلى آخر العمل و الأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأنّ ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خيرٌ من القليل بل ليس كذلك فإنّ نيّة أعمال الصلاة قد لا تدوم إلّا في لحظات معدودة و الأعمال تدوم والعموم يقتضي أن يكون نيّته خيراً من عمله، و قد يقال: معناه أنّ النيّة بمجرّدها خيرٌ من العمل بمجرّده دون النيّة و هو كذلك ولكنّه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بلا نيّة بل على الغفلة لا خير فيه أصلاً و النيّة بمجرّدها خيرٌ و ظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير بل المعنى به أنّ كلّ طاعة ينتظم بنيّة وعمل وكانت النيّة من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات

(١) أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٨٤.

ولكنّ النيّة من جملة الطاعات خيرٌ من العمل أي لكلّ واحد منهما أثر في المقصود وأثر النيّة أكثر من أثر العمل فمعناه نيّة المؤمن من جملة طاعته خيرٌ من عمله الّذي هو من جملة طاعته ، والغرض أنّ للعبد اختياراً في النيّة وفي العمل فهما عملان والنيّة من الجملة خيرهما فهذا معناه .

أقول: للخبر معنى آخر و هو أنّ المؤمن ينوي أن يوقع عباداته على أحسن الوجوه ثمّ لما اشتغل بها فلا يتيسّر له ذلك ويكسل عنها ولم يأت بها على ما ينبغي فالّذي ينوي خيرٌ من الّذي يعمل و أيضاً ينوي أبداً أن يأتي بالطاعات و القربات و يجتنب المعاصي والسيئات لإيمانه بالله و اليوم الآخر ثمّ لا يوفّق لذلك و لا يتأتّى منه ما نواه ، و ينوي إن آتاه الله مالاً ينفقه في سبيله ثمّ لمّا آتاه فربّما ينحلّ به فنيّته خيرٌ من عمله و إلى هذا المعنى أشار أبو جعفر الباقر عليه السلام حيث كان يقول « نيّة المؤمن خيرٌ من عمله ، وذلك لأنّه ينوي من الخير مالا يدركه ، ونيّة الكافر شرٌّ من عمله وذلك لأنّ الكافر ينوي الشرّ ويأمل من الشرّ مالا يدركه »(١) و سئل الصادق عليه السلام عن معنى الحديث فقال : «لأنّ العمل رياء المخلوقين و النيّة خالصة لربّ العالمين فيعطى عزّ وجلّ على النيّة مالا يعطى على العمل»(٢) وقال : «إنّ العبد لينوي من نهاره أن يصلّي باللّيل فيغلبه عينه فينام فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة » (٣)

قال أبوحامد : وأمّا سبب كونها خيراً ومترجّحة على العمل فلا يفهمه إلّا من فهم مقصد الدّين وطريقه و مبلغ آثر الطريق في الإيصال إلى المقصود وقاس بعض الآثار بالبعض حتّى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود ، ومن قال : الخبز خيرٌ من الفالوذج فإنّما يعني به أنّه خيرٌ بالإضافة إلى مقصود القوت و الاغتذاء ولا يفهم ذلك إلّا من فهم أنّ للغذاء مقصداً وهو الصحّة والبقاء وأنّ الأغذية

---

(١) و (٢) رواهما الصدوق فى كتاب علل الشرايع الاول من حديث الحسن بن الحسين الانصارى عن رجل ، والثانى من حديث زيد الشحام .

(٣) أيضاً فى العلل .

مختلفة الآثار فيهما ، وفهم أثر كلّ واحد وقاس البعض بالبعض فالطاعات غذاء القلوب و المقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعّمها بلقاء الله عزّ وجلّ فالمقصود لذّة السعادة بلقاء الله تعالى فقط ولن يتنعّم بلقاء الله تعالى إلّا من مات محبّاً لله عارفاً بالله ولن يحبّه إلّا من عرفه و لن يأنس به إلّا من طال ذكره له والاُنس يحصل بدوام الذّكر و المعرفة تحصل بدوام الفكر و المحبّة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرّغ القلب لدوام الذّكر و الفكر إلّا إذا فرغ من شواغل الدّنيا و لن يتفرّغ من شواغلها إلّا إذا انقطع عن شهواتها حتّى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشرّ مبغضاً له وإنّما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنّ سعادته في الآخرة منوطة بهما كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأنّ سلامته فيهما وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنّما يقوى بالعمل بمقتضي الميل و المواظبة عليه فإنّ المواظبة على مقتضى صفات القلب و إرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتّى تترسّخ الصفة وتقوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرّئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلّا ضعيفاً فإن اتّبع مقتضى الميل و اشتغل بالعلم و تربية الرّئاسة و الأعمال المطلوبة لها تأكّد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع و إن خالف مقتضى ميله ضعف ميله و انكسر وربّما زال و انمحق بل الّذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً فلو اتّبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة و المجاورة تأكّد ميله حتّى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى طبعه وميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل و يكون ذلك زجراً و دفعاً في وجهه حتّى يضعف وينكسر بسببه أو ينقمع و ينمحي و هكذا جميع الصفات و الخيرات و الطاعات كلّها هي الّتي تراد بها الآخرة و الشرور كلّها تراد بها الدّنيا لا الآخرة وميل النفس إلى الخيرات الاُخرويّة و انصرافها عن الدّنيا هو الّذي يفرغها للذّكر و الفكر ولن يتأكّد ذلك إلّا بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح ، لأنّ بين الجوارح و بين القلب علاقة حتّى أنّه يتأثّر كلّ واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألّم بها

القلب وترى القلب إذاتألّم بعلمه بموت عزيز من أعزّته أوبهجوم أمر مخوف تأثّرت به الأعضاء و ارتعدت الفرائص وتغيّر اللّون إلّا أنّ القلب هوالأصل المتبوع فكأنّه الأمير والرّاعي ، و الجوارح كالخدم والرّعاء و الاتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيها فالقلب هو المقصود والأعضاء الآت موصلة إلى المقصود ولذلك قال عليه السلام : «إنّ في الجسد لمضغةإذا صلحت صلح لها سائر الجسد»[1] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللّهمّ أصلح الرّاعي والرّعيّة »[2] وأراد بالرّاعي القلب قال الله تعالى : «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »[3] وهو صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثمّ يجب أن تكون النيّة من جملتها أفضل لأنّها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكّد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدّنيا و يكبّ على الذّكر و الفكر ، فبالضرورة يكون خيراً بالاضافة إلى الغرض لأنّه متمكّن من نفس المقصود وهذا كما أنّ المعدة إذا تألّمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدّواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من الطلاء للصدر لأنّ طلاء الصدر أيضاً إنّما اُريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة فما يلاقي في عين المعدة فهوخير وأنفع فهكذا ينبغي أن يفهم تأثير الطاعات كلّها إذ المطلوب منها تغيّر القلوب وتبدّل صفاتها فقطّ دون الجوارح فلا تظننّ أنّ في وضع الجبهة على الأرض غرضنا من حيث إنّه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنّه بحكم العادة يؤكّد صفة التواضع في القلب فإنّ من يجد في نفسه تواضعاً فإذا استعان بأعضائه وصوّرها بصورة التواضع تأكّد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقّة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبّله تأكّدت الرّقة في قلبه ولهذا لم يكن العمل بغير نيّة مفيداً أصلاً لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنّه يمسح

(١) متفق عليه من حديث نعمان بن بشير .
(٢) قال العراقي : لم أجده وقد تقدم .
(٣) الحج : ٣٨ .

ثوباً لم يسر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرّقّة ، و كذلك من سجد غافلاً و هو مشغول الهمّ بأغراض الدّنيا لم يسر من جبهته و وضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكّد به التواضع و كان وجوده كعدمه و ما يساوي وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمّى باطلاً فيقال : العبادة بغير نيّة باطلة و هذا معناه إذا فعل عن غفلة فإن قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرّاً فإنّه لم يؤكّد الصفة المطلوب تأكيدها بل آكد الصفة المطلوب قمعها و هي صفة الرّياء الّتي هي من الميل إلى الدّنيا فهذا وجه كون النيّة خيراً من العمل و بهذا يعرف معنى قوله عليه السلام : « من همّ بحسنة و لم يعملها كتبت له حسنة » لأنّ همّ القلب هو ميله إلى الخير و انصرافه عن الهوى وحبّ الدّنيا وهو غاية الحسنات و إنّما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً فليس المقصود من إرادته دم القربان الدّم و اللّحم بل ميل القلب عن حبّ الدّنيا و بذلها إيثاراً لوجه الله عزّ و جلّ و هذه الصفة قد حصلت عند جزم النيّة و الهمّة و إن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى ههنا أعني في القلب و لذلك قال عليه السلام : « إنّ قوماً بالمدينة و قد شاركونا في الجهاد » كما رويناه لأنّ قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس و الرّغبة في طلب الشهادة و إعلاء كلمة الله عزّ و جلّ كقلوب الخارجين في الجهاد و إنّما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخصّ الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلّا لتأكيد هذه الصفات و بهذا يفهم جميع الأحاديث الّتي أوردناها في فضيلة النيّة فأعرضنا عليه لتنكشف لك أسرارها فلانطول بالإعادة .

✻(بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية)✻

إعلم أنّ الأعمال و إن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب نفع ودفع ضرّ وفكر و ذكر وغير ذلك ممّا لايتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام معاصي و طاعات ومباحات .

القسم الأوّل المعاصي وهي لايتغيّر موضوعاتها بالنيّة فلاينبغي أن يفهم الجاهل

ذلك من عموم قوله ﷺ : « إنّما الأعمال بالنيّات» ويظنّ أنّ المعصية تنقلب طاعة بالنيّة كالّذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيراً من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجداً ورباطاً بمال حرام و قصده الخير فهذا كلّه جهل و النيّة لاتؤثّر في إخراجها عن كونها حراماً وظلماً وعدواناً ومعصية بل قصده الخير بالشرّ على خلاف مقتضى الشرع شرّ آخر فإن عرفه فهو معاند للشرع و إن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ، فالخيرات إنّما عرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشرّ خيراً هيهات بل المروّج لذلك على القلب خفيّ الشهوة و باطن الهوى فإنّ القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس و سائر حظوظ النفس توسّل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ، و لذلك قال سهل : ماعصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل فقيل له : ياأبا محمّد هل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال لأنّ الجهل بالجهل يسدّ بالكلّيّة باب التعلّم فمن ظنّ بنفسه أنّه عالم كيف يتعلّم و كذلك أفضل ما اُطيع الله به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أنّ رأس الجهل الجهل بالجهل فإنّ من لايعرف العلم النافع من العلم الضارّ اشتغل بما أكبّ الناس عليه من العلوم المزخرفة الّتي هي وسائلهم إلى الدّنيا و ذلك هو مادّة الجهل و منبع فساد العالم و المقصود أنّ من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلّا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة التعلّم وقد قال تعالى : «فاسئلوا أهل الذّكر إن كنتم لاتعلمون»(١) و قال ﷺ : « لا يعذر الجاهل على الجهل ولايحلّ للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه » (٢) و يقرب من تقرّب السلاطين ببناء المساجد و المدارس بالمال الحرام تقرّب علماء السوء بتعليم العلم السفهاء و الأشرار المعروفين

---

(١) النحل : ٤٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط و ابن السني وابو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله : «لايعذر الجاهل على الجهل» وفيه «لاينبغي» بدل «لايحل» وقد تقدم في العلم .

بالفجور و القاصرين همّتهم على مماراة العلماء و مباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس و جمع حطام الدّنيا وأخذ أموال السلاطين والمساكين واليتامى فإنّ هؤلاء إذا تعلّموا كانوا قطّاع طريق الله و انتهض كلّ واحد في بلدته نائباً عن الدّجال يتكالب على الدّنيا ويتّبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى ثمّ ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتّخذونه أيضاً آلة و وسيلة في الشرّ و اتّباع الهوى ويتسلسل ذلك و وبال جميعه يرجع إلى المعلّم الّذي علّمه العلم مع علمه بفساد نيّته و قصده و مشاهدته أنواع المعصية في أقواله و أفعاله و في مطعمه و ملبسه ومكسبه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شرّه منتشرة في العالم ألف سنة وألفي سنة مثلاً، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، ثمّ العجب من جهله حيث يقول: « الأعمال بالنيّات» و قد قصدت بذلك نشر علم الدّين فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا منّي و ما قصدت به إلاّ أن يستعين به على الخير وإنّما حبّ الرّئاسة والاستتباع والتفاخر بعلوّ العلم يحسّن ذلك في قلبه. والشيطان بواسطة حبّ الرّئاسة يلبّس عليه وليت شعري ما جوابه عمّن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول: إنّما أردت البذل والسخاء والتخلّق بأخلاق الله عزّ وجلّ وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والخيل في سبيل الله فإنّ إعداد الخيل للرّباط والقوّة للغزاة من أقرب القربات فإن صرفه هو إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أنّ ذلك حرام مع أنّ السخاء هو أحبّ الأخلاق إلى الله تعالى حتّى قال عليه السلام: « إنّ لله ثلاثمائة خُلق من تقرّب إليه بواحد منها دخل الجنّة و أحبّها إليه السخاء »(١) فليت شعري لم حرّم هذا السخاء ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنّه يستعين بالسلاح على الشرّ فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا في أن يمدّه بغيره و العلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله تعالى و هو الهوى فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته و هو عاجز عنها لقلّة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكّن

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث أنس مرفوعاً باختلاف في اللفظ. (المغني)

به من الوصول إلى شهواته ، بل لم يزل علماء السلف يتفقّدون أحوال من يتردّد إليهم فلو رأوا من واحد منهم تقصيراً في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه و إذا رأوا منه فجوراً أو استحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه لعلمهم بأنّ من تعلّم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلّا آلة الشرّ و قد تعوّذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنّة وماتعوّذوا من الفاجر الجاهل ، فهذا و أمثاله ممّا يلتبس على الأغبياء و أتباع الشيطان و إن كانوا أرباب الطيالسة و الأكمام الواسعة و أصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير أعني الفضل من العلوم الّتي لا تشتمل على التحذير من الدّنيا و الزّجر منها و الترغيب في الآخرة و الدّعاء إليها بل هي العلوم الّتي تتعلّق بالخلق و يتوصّل بها إلى جمع الحطام و استتباع الناس والتقدّم على الأقران فإذن قوله عليه السلام : «الأعمال بالنيّات» يختصّ من الأقسام الثلاثة بالطاعات و المباحات دون المعاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد وتكون طاعة بالقصد و المباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فأمّا المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً ، نعم النيّة داخلة فيها و هو أنّه إذا انضافت إليها قصود الخبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

القسم الثاني الطاعات وهي مرتبطة بالنيّات في أصل صحّتها وفي تضاعف فضلها أمّا الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله لاغير فإن نوى الرّياء صارت معصية وأمّا تضاعف الفضل فبكثرة النيّات الحسنة وإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكلّ نيّة ثواب إذ كلّ واحدة منها حسنة فتضاعف كلّ حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر و مثالها القعود في المسجد فإنّه طاعة و يمكن أن ينوي فيه نيّات كثيرة حتّى يصير من فضائل أعمال المتّقين ويبلغ به درجات المؤمنين أوّلها أن يعتقد أنّه بيت الله و أنّ داخله زائر لله تعالى فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده النبيّ عليه السلام حيث قال : «من دخل [1] المسجد فقد زار الله عزّ وجلّ و حقّ على المزور

---

(١) في الاحياء «من قعد» .

إكرام زائره » (١) و ثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون من جملة انتظاره في الصلاة و هو معنى قوله تعالى : « و رابطوا » (٢) و ثالثها الترهّب بكفّ السمع و البصر و سائر الأعضاءعن الحركات و التردّدات فانّ الاعتكاف كفّ و هوفي معنى الصوم وهونوع ترهّب ولذلك قال عليه السلام: «رهبانيةاُمّتي القعودفيالمساجد»(٣) ورابعها عكوف الهمّ على الله تعالى ولزوم السرّ للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه باعتزاله إلى المسجد ، و خامسها التجرّد لذكر الله أو الاستماع لذكره أو المتذكّر به كما روي « من غدا إلى المسجد ليذكر الله عزّ وجلّ أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله » (٤) وسادسها أن يقصد إفادة علم الله عزّ وجلّ بأمربمعروف أو نهي عن منكر إذالمسجد لايخلو عمّن يسيء صلاته أو يتعاطى ما لا يحلّ لهفيأمره بالمعروف و يرشده إلى الدّين فيكون شريكاً معه في خيره الّذي يتعلّم منهفتتضاعف خيراته ، و سابعها أن يستفيد أخاًفي الله فانّها غنيمة و ذخيرة للدّار الآخرة ، والمسجد معشش أهل الدّين المحبّين للهوفي الله تعالى ، وثامنها أن يترك الذّنوب حياء من الله عزّ وجلّ و حياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة وقد قال الحسن بن علي عليهما السلام : «من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال أخاً مستفاداً في الله أو رحمة منزلة أو علماًمستطرفاً أو كلمةتدلّه علىهدى أوتصرفه عن ردى أويترك الذّنوب خشية أوحياء» (٥).

أقول: هذا الحديث روّيناه من طريق الخاصّة عن أمير المؤمنين عليه السلام (٦)

---

(١) أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقى فى الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا باسناد صحيح وقد تقدما .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

(٣) قال العراقى :لم اجد له أصلا .

(٤) قال العراقى : هو معروف من قول كعب الاحبار ورويناه فى جزء ابن طوق .

(٥) رواه الحميرى فى قرب الاسناد بنحوه عن الحسين بن على عن جده عليهم السلام وأيضاً البرقى فى المحاسن .

(٦) رواه الشيخ فى التهذيب ج ١ ص ٣٢٤ باب فضل المساجد .

هكذا قال : «من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان أخاً مستفاداً في الله أوعلماً مستطرفاً أو آية محكمة أو يسمع كلمة تدلّه على هدى أو كلمة تردّه عن ردى أو رحمة منتظرة أويترك ذنباً خشية أوحياءً ».

قال أبوحامد : فهذا طريق تكثير النيّات وقس عليه سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلّاوتحتمل نيّات كثيرة وإنّما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمّره له و تفكّره فيه فبهذا تزكوالأعمال وتتضاعف الحسنات .

القسم الثالث المباحات وما من شيء من المباحات إلّا و يحتمل نيّة أو نيّات يصير بها من محاسن القربات وينال معالي الدّرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات و اللّحظات فكلّ ذلك يسأل عنها يوم القيامة أنّه لم فعلها و ما الّذي قصد بها هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ، ولذلك قال عليه السلام : «حلالها حساب وحرامها عذاب»(١) وفي الخبر « من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة و ريحه أطيب من المسك ، و من تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة و ريحه أنتن من الجيفة » (٢) واستعمال الطيب مباح ولكن لابدّ فيه من نيّة . فإن قلت : فما الّذي يمكن أن ينوي بالطيب و هو حظّ من حظوظ النفس و كيف يتطيّب لله تعالى ؟ فاعلم أنّ من تطيّب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التنعّم بلذّات الدّنيا أويقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران أو يقصد به رئاء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودّد في قلوب النساء الأجنبيّات إذا كان متهيّئاً للنظر إليهنّ أو لاُمور اُخر لا تحصى و كلّ ذلك يجعل التطيّب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة لا بالقصد الأوّل وهو التلذّذ والتنعّم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلّا أنّه يسأل عنه « و من نوقش في الحساب عذّب » و من اُوتي شيئاً من مباح الدّنيا لم يعذّب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم يبقى وأمّا النيّات الحسنة فإنّه ينوي به اتّباع سنّة النبيّ

(١) قد تقدم .　　(٢) ما عثرت على أصل له .

عليه السلام يوم الجمعة ، و أن ينوي به تعظيم المسجد و احترام بيت الله عزّ و جلّ فلا يرى أن يدخله زائر الله عزّ وجلّ إلّا طيّب الرّائحة و أن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه ، و أن يقصد به دفع الرّوائح الكريهة عن نفسه الّتي تؤدّي إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد به حسم باب الغيبة على المغتابين إذا اغتابوه بالرّوائح الكريهة فيعصون الله عزّ وجلّ بسببه فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل :

مهما ترحّلت عن قوم وقد قدروا ✡ ألّا تفارقهم فالرّاحلون هم

و قال عزّ و جلّ : « ولاتسبّوا الّذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم » (١) أشار به إلى أنّ التسبّب إلى الشرّ شرّ ، و أن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته و ذكاؤه ويسهل عليه درك مهمّات دينه بالفكر ، و قد قيل : من طاب ريحه زاد عقله ، فهذاوأمثاله من النيّات لايعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة و طلب الخير غالباً على قلبه و إذا لم يغلب على قلبه إلّا نعيم الدّنيا لم تحضره هذه النيّات و إن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلّا حديث النفس و ليس ذلك من النيّة في شيء ، والمباحات كثيرة ولايمكن إحصاء النيّات فيها فقس على هذا الواحد غيره ، و لهذا قال بعض السلف : إنّي لأستحبّ أن يكون لي في كلّ شيء نيّة حتّى في أكلي و شربي و نومي ودخولي الخلا ، و كلّ ذلك ممّا يمكن أن يقصد به وجه‌الله لأنّ كلّ ما هو سبب لبقاء البدن و فراغ القلب من مهمّات البدن فهو معين على الدّين ، فمن كان قصده من الأكل التقوّي به على العبادة و من الوقاع تحصين دينه و تطييب قلب أهله والتّوصل به إلى ولد يعبدالله فيكثر بهأمّة محمّد صلّى الله عليه وآله كان مطيعاً بأكله و نكاحه ، و أغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة ، و كذلك ينبغي أن يحسّن نيّته مهماضاع له مال و يقول هو في سبيل الله ، و إذا بلغه اغتياب غيره له فليطيّب قلبه بأنّه سيحمل عنه سيّئاته و ينقل إلى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن

(١) الانعام : ١٠٨ .

الجواب ففي الخبر « إنّ العبد ليحاسب فيبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتّى يستوجب النار ثمّ ينشر له من الأعمال الحسنة ما تستوجب به الجنّة فيتعجّب و يقول : يا ربّ هذه أعمال ماعملتها فيقال هي أعمال الّذين اغتابوك و آذوك وظلموك [(١)] » و في الخبر « إنّ العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنّة و يأتي قد ظلم هذا وشتم هذا و ضرب هذا فيقتصّ لهذا من حسناته ولهذامن حسناته حتّى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة : قد فنيت حسناته و بقي طالبون فيقول الله عزّ وجلّ : ألقوا عليه من سيّئاتهم ثمّ صكّوا له صكّاً إلى النار[(٢)] » وبالجملة فإيّاك ثمّ إيّاك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحذر من غرورها و شرورها ولا تجد لها جواباً يوم السؤال و الحساب فإنّ الله مطّلع عليك و شهيد « و ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد» فإن كنت اُولي الحزم والنهي ولم تكن من المغترّين فانظر لنفسك الآن و دقّق الحساب على نفسك قبل أن يدقّق عليك و راقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرّك مالم تتأمّل أوّلاً إنّك لم تتحرّك وماذا تقصد و ما الّذي تنال به من الدّنيا و ما الّذي يفوتك به من الآخرة و بما ذا ترجّح الدّنيا على الآخرة فإذا علمت أنّه لا باعث إلّا الدّين فامض عزمك وما خطر ببالك و إلّا فامسك ثمّ راقب قلبك أيضاً في إمساكك و امتناعك فإنّ ترك الفعل فعل ولابدّ له من نيّة صحيحة ولا ينبغي أن يكون الدّاعي هوى خفيّاً لاتطّلع عليه ولا يغرّنك ظواهر الاُمور و مشهورات الخيرات و انظر إلى الأغوار و الأسرار تخرج من حيّز أهل الاغترار فقد روي عن زكريّا عليه السلام أنّه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجير القوم فقدّموا له رغيفين إذكان لا يأكل إلّا من كسب يديه فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصراً « ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول : هذا لي ولم أعملها ؟ فيقال : بما اغتابك الناس وأنت لاتشعر» وفيه أبي لهيعة (المغني) .

(٢) تقدم مع اختلاف .

الطعام حتّى فرغ منه فتعجّبوا منه لما علموا من سخائه و زهده و ظنّوا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال : إنّي أعمل لقوم بأُجرة وقدّموا إليّ الرّغيفين لأتقوّي بهما على عملهم فلوأكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم. فالبصير هكذا ينظر إلى البواطن بنورالله فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدّعوة نقص في فضل ولاحكم للفضائل مع الفرائض، فهكذا ينبغي أن يتفقّد العبد نيّته في سائرالأعمال فلا يقدم ولايحجم إلّا بنيّة فإن لم تحضره النيّة توقّف فإنّ النيّة لاتدخل تحت الاختيار .

✿(بيان ان النية غير داخلة تحت الاختيار)✿

إعلم أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصيّة بتحسين النيّة و تكثيرها مع قوله عليه السلام :الأعمال بالنيّات فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أوأكله : نويت أن أدرس لله تعالى أوأتّجر أوآكل و يظنّ أنّ ذلك نيّة و هيهات فذلك حديث نفس أو حديث لسان أو فكرة و انتقال من خاطر إلى خاطر، والنيّة بمعزل عن جميع ذلك و إنّما النيّة انبعاث النفس وتوجّهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها إمّا عاجلاً أو آجلاً والميل إذا لم يكن لايمكن اختراعه و اكتسابه بمجرّدالارادة بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن اشتهى الطعام و أميل إليه أو قول الفارغ : نويت إن أعشق فلاناً و أحبّه وأعظمه بقلبي و ذلك محالٌ بل لا طريق إلىاكتساب صرف القلب إلى الشيء و ميله إليه و توجّهه نحوه إلّا باكتساب أسبابه وذلك ممّاقديقدر عليه وقد لا يقدر عليه و إنّماينبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان أنّ غرضه منوط بفعل من الأفعال فلايتوجّه نحوه قصده وذلك ممّا لا يقدر على اعتقاده في كلّ حين ، و إذا اعتقد فانّمايتوجّه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه و ذلك لايمكن في كلّ وقت و الدّواعي و الصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص و الأحوال و الأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح و لميعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولادنيالم يمكنه إن يواقع على نيّةالولد بل لايمكن إلّا على نيّة قضاء الشهوةإذالنيّة

هي إجابة الباعث ولا باعث إلّا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه أنّ إقامة سنّة النكاح اتّباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعظم فضلها لم يمكنه أن ينوي اتّباع السنّة إلّا أن يقول ذلك بلسانه و قلبه و هو حديث محض وليس بنيّة، نعم طريق اكتساب هذه النيّة مثلاً أن يقوى أوّلاً إيمانه بالشرع و يقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفّرات عن الولد من ثقل المؤونة وطول التعب و غيره وإذا فعل ذلك، فربّما انبعثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحرّكه تلك الرّغبة و تحرّك أعضاءه لمباشرة العقد و إذا انتهضت القدرة المحرّكة للّسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً و إذا لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردّده في قلبه من قصد الولد وسواس و هذيان ولهذا امتنعت جماعة من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النيّة وكانوا يقولون ليس يحضرني نيّة حتّى أنّ ابن سيرين لم يصلّ على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نيّة.

أقول: ولعلّه إنّما لم يصلّ على جنازته لأنّه كان يعرفه بالنفاق فتعلّل.

قال أبوحامد: و كانوا إذا سئلوا عملاً من أعمال البرّ قالوا: إن رزقنا الله تعالى نيّة فعلنا. وقال بعضهم: أنا في طلب نيّة لعيادة رجل منذ شهر فما صحّت لي بعد. و قال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران فلمّا انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألّا تعرض عليه العشاء؟ فقال: ليس من نيّتي.

أقول: روى البرقي بإسناده عن الصادق عليه السلام «أنّه أتاه مولى له فسلّم عليه و جلس فلمّا انصرف عليه السلام انصرف معه الرّجل فلمّا انتهى إلى باب داره دخل وترك الرّجل فقال له ابنه إسماعيل: يا أبه ألا كنت عرضت عليه الدّخول؟ فقال: لم يكن من شأني إدخاله، قال: فهو لم يكن يدخل، قال: يا بنيّ إنّي أكره أن يكتبني الله عرّاضاً» (١).

قال أبوحامد: و هذا لأنّ النيّة يتبع النظر فإذا تغيّر النظر تغيّرت النيّة

(١) كتاب المحاسن ص ٤١٧ تحت رقم ١٨٠.

فكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلّا بالنيّة لعلمهم بأنّ النيّة روح الأعمال و أنّ العمل بغير نيّة صادقة رياء و تكلّف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أنّ النيّة ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هي انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى قد يتيسّر في بعض الأوقات و قد يتعذّر نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدّين يتيسّر عليه في أكثر الأحوال إحضار النيّة للخيرات فإنّ قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً و من مال قلبه إلى الدّنيا و غلبت عليه لم يتيسّر ذلك بل لا يتيسّر في الفرائض إلّا بجهد جهيد و غايته أن يتذكّر النار و يحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنّة و يرغّب نفسه فيها فربّما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيّته وأمّا الطاعة على نيّة إجلال الله عزّ وجلّ لاستحقاقه الطاعة و العبوديّة فلا يتيسّر للرّاغب في الدّنيا وهذه أعزّ النيّات و أعلاها ويعزّ من يفهمها فضلاً عمّن يتعاطاها ونيّات الناس في الطاعة أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنّه يتّقي النار، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرّجاء و هو الرّغبة في الجنّة وهذا و إن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله و تعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيّات الصحيحة لأنّه ميل إلى الموعود في الآخرة و إن كان من جنس المألوف في الدّنيا ، و أغلب البواعث باعث الفرج و البطن و موضع قضاء و طرهما الجنّة و العامل لأجل الجنّة عامل لبطنه و فرجه كالأجير السوء و درجته درجة البله و إنّه لينالها بعلمه إذ أكثر أهل الجنّة البله و أمّا عبادة ذوي الألباب فلا تجاوز ذكر الله تعالى و الفكر فيه حبّاً لجماله و جلاله و سائر الأعمال تكون مؤكّدات و روادف و هؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح و المطعوم في الجنّة فإنّهم لم يقصدوها بل هم «الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون وجهه» فقطّ وثواب الناس بقدر نيّاتهم فلا جرم يتنعّمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممّن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعّم بالنظر إلى الحور العين ممّن يتنعّم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشدّ ، فإنّ التفاوت بين جمال الحضرة الرّبوبيّة وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيراً من التفاوت

بين جمال الحور العين و الصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيميّة الشهوانيّة لقضاء الوطر من مخالطة الحسان و إعراضها عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها و ألفها لها و إعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله عزّ وجلّ وجلاله يضاهي عمي الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنّها لاتشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه ولو كان له عقل وذكرن لها لاستخفّ عقل من يلتفت إليهنّ و لايزالون مختلفين إلّا من رحم ربّك ، كلّ حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم و الغرض أنّ هذه النيّات متفاوتة الدّرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربّما لم يتيسّر له العدول إلى غيرها و معرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً و أفعالاً يستنكرها الظاهريّون من الفقهاء فإنّا نقول من حضرت له نيّة في مباح و لم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقّه نقيصة لأنّ الأعمال بالنيّات وذلك مثل العفو فإنّه أفضل من الانتصار في الظلم فإنّه ربّما تحضره نيّة في الانتصار دون العفو يكون ذلك أفضل و مثل أن يكون له نيّة في الشرب والأكل والنوم ليريح نفسه ويتقوّى على العبادة في المستقبل وليس تنبعث نيّته في الحالين للصوم و الصلاة فالأكل و النوم هو الأفضل له بل لو ملّ العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه و ضعف رغبته و علم أنّه لو ترفّه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه ، فاللّهو و الحديث أفضل من الصلاة ، و قال أبو الدّرداء : إنّي لأستجمّ نفسي باللّهو فيكون ذلك عوناً لي على الحقّ . وقال عليّ عليه السلام : «روّحوا القلوب فإنّها إذا أكرهت عميت» [1] وهذه دقائق يدركها سماسرة العلماء دون الحشويّة منهم بل الحاذق بالطبّ قد يعالج المحرور باللّحم مع حرارته و يستبعده القاصر في الطبّ وإنّما ينبغي به أن يعيد أوّلاً قوّته ليحتمل المعالجة بالضدّ ، والحاذق في الشطرنج قد ينزل عن الرخ و الفرس مجّاناً ليتوصّل به إلى الغلبة و الضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجّب منه و كذلك الخبير بالقتال قد يرى من نفسه الهزيمة ويولّي الخصم دبره ليستجرّه إلى مضيق فيكرّ عليه فكذلك سلوك طريق الله عزّ وجلّ

(١) تقدم نحوه .

كلّه قتال مع الشيطان و معالجة للقلب ، و البصير الموفّق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه و لا للمتعلّم أن يعترض على اُستاده بل ينبغي أن يقف حدَّ بصيرته و ما لا يفهمه من أحوالهما يسلّمه لهما إلى أن ينكشف له أسرارهما بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما .

☼(الباب الثاني)☼

☼(في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)☼

فضيلة الإخلاص قال الله تعالى : « و ما اُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين » (١) و قال : « ألا لله الدّين الخالص »(٢) وقال : « إلّا الّذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله » (٣) و قال : « فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً و لا يشرك بعبادة ربّه أحداً » (٤) نزلت فيمن يعمل لله و يحبُّ أن يحمد عليه .

وقال عليه‌السلام : : «ثلاث لايغلّ عليهنّ قلبُ رجل مسلم : إخلاص العمل لله عزَّ وجلّ » (٥) وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظنَّ أبي أنَّ له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، فقال عليه‌السلام : « إنّما نصر الله هذه الاُمّة بضعفائها و دعوتهم و إخلاصهم و صلاتهم » (٦) و عن النبيِّ عليه‌السلام قال : « قال الله تعالى : الإخلاص سرٌّ من أسراري أستودعه قلب من أحببته من عبادي »(٧) و قال عليٌّ بن

(١) البينة : ٤. (٢) الزمر : ٣ .
(٣) النساء : ١٤٥ . (٤) الكهف : ١١٠ .

(٥) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ١٢٥ من حديث عبدالله بن مسعود و روا الصدوق في الخصال باب الثلاثة عن الصادق عليه‌السلام .

(٦) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٤٥ كتاب الجهاد باب الاستنصار بالضعيف .

(٧) قال العراقي : رويناه في جزء من مسلسلات القزويني يقول كل واحد من رواته سألت فلاناً عن الاخلاص فقال : وهومن رواية احمد بن عطاء الهجيمي عن عبدالواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله تعالى .

أبي طالب عليه السلام: لا تهتمّوا القلّة العمل اهتمّوا للقبول فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل »[(١)] و قال صلى الله عليه وآله : « ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين يوماً إلّا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »[(٢)] و قال صلى الله عليه وآله « أوّل من يسأل يوم القيامة ثلاث : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى: ما ذا صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يا ربّ كنت أقوم به آناء اللّيل و النهار ، فيقول الله عزّ وجلّ: كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت بل أردت أن يقال : فلان عالمٌ ، ألا فقد قيل ذلك ، و رجل آتاه الله مالاً فيقول الله تعالى : قد أنعمت عليك فما ذا صنعت ؟ فيقول : يا ربّ كنت أتصدّق به آناء اللّيل و النهار ، فيقول الله عزّ و جلّ : كذبت ، و تقول الملائكة: كذبت أردت أن يقال : فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك ، ورجل قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى: ماذا صنعت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فقاتلت في سبيلك حتّى قتلت، فيقول الله عزّ وجلّ : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت بل أردت أن يقال : فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك »[(٣)].

و في الإسرائيليّات أنّ عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قومٌ فقالوا : إنّ ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك فأخذ فاسه على عاتقه و قصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال : أين تريد رحمك الله قال : اُريد أن أقطع هذه الشجرة قال : و ما أنت وذاك تركت عبادتك و اشتغالك بنفسك و تفرّغت لغير ذلك ، فقال : إنّ هذا من عبادتي قال : فإنّي لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد و طرحه على الأرض وقعد على صدره فقال له : إبليس أطلقني حتّى اُكلّمك فقام عنه فقال له : إبليس يا هذا إنّ الله عزّ وجلّ قد أسقط عنك هذا و لم يفرضه عليك و ما تعبدها أنت و ما عليك من غيرك و لله تعالى أنبياء

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص والحاكم فى المستدرك بلفظ « أخلص نيتك » بسند صحيح من حديث معاذ كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه ابو نعيم فى الحلية بسند ضعيف وفيه « من أخلص لله ». وروى الكلينى نحوه عن أبى جعفر عليه السلام فى الكافى ج ٢ ص ١٦ ويأتى .

(٣) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ٢٢٩ وقد تقدم .

في الأرض و لو شاء لبعثهم إلى أهلها و أمرهم بقطعها قال العابد : لابدّ لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد و صرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال : هل لك في أمر فصل بيني وبينك و هو خيرٌ لك وأنفع قال : وماهو ؟ قال : أطلقني حتّى أقول لك ، فأطلقه فقال له إبليس : أنت رجلٌ فقير لا شيء لك إنّما أنت كلٌّ على النّاس يعولونك و لعلّك تحبّ أن تتفضّل على إخوانك وتواصي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس ؟ قال : نعم ، قال : فارجع عن هذا الأمر ولك عليّ أن أجعل عند رأسك في كلّ ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقتهما على نفسك و عيالك و تصدّقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك و للمسلمين من قطع هذه الشجرة الّتي تغرس مكانها و لايضرّهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إيّاها فتفكّر العابد فيما قال ، وقال : صدق الشيخ لست بنبيّ فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها و ما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد إلى متعبّده فبات فلمّا أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك من الغد ثم أصبح اليوم الثالث و ما بعده فلم يجد شيئاً فغضب وأخذ فاسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة الشيخ فقال له : إلى أين ؟ فقال : أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت و الله ما أنت بقادر على ذلك و لا سبيل لك إليها فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أوّل مرّة فقال : هيهات فأخذه إبليس و صرعه فاذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره فقال : لتنتهينّ عن هذا الأمر أو لأقتلنّك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به ، فقال : يا هذا غلبتني فخلّ عنّي و أخبرني كيف غلبتك أوّلاً وغلبتني الآن ، فقال : لأنّك غضبت لله تعالى أوّل مرّة وكانت نيّتك الآخرة فسخّرني الله لك وهذه الكرّة غضبت لنفسك وللدّنيا فصرعتك .

و هذه الحكاية تصديق قوله تعالى : « إلّا عبادك منهم المخلصين » [1] إذ لا تتخلّص العبد عن الشيطان إلّا بالاخلاص ولذلك كان المعروف الكرخي يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تخلصي ، وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته

(١) الحجر : ٤٠ .

كما يكتم سيّئاته ، وقال أبو سليمان : طوبى لمن صحّت له خطوة واحدة لايريد بها إلّا الله عزّوجلّ ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النيّة في أعمالك يكفك القليل من العمل ، وقال أبو أيّوب السختياني : تخليص النيّات على العمّال أشدّ عليهم من جميع الأعمال .

أقول: ثمّ ذكر أبوحامد أقاويل الناس في فضيلة الإخلاص وقد طويناها وفي الكافي عن الصادق عليه السلام « في قول الله عزّ وجلّ : «ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً » [٢] قال : ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة الحسنة ، ثمّ قال : الإبقاء على العمل حتّى تخلص أشدّ من العمل ؛ والعمل الخالص الّذي لا تريد أن يحمدك عليه أحدٌ إلّا الله عزّوجلّ » [٣] وعن الباقر عليه السلام قال : « ما أخلص العبد الإيمان بالله عزّ وجلّ أربعين يوماً إلّا زهّده الله في الدّنيا وبصّره داءها و دواءها فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه » [٤].

(بيان حقيقة الخلوص)

إعلم أنّ كلّ شيء يتصوّر أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمّي خالصاً وسمّي الفعل المصفّى المخلص إخلاصاً قال الله تعالى : «من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » [٥] فإنّما خلوص اللّبن أن لا يكون فيه شوب من الدّم و الفرث ومن كلّ ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضادّه الاشراك فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلّا أنّ للشرك درجات والإخلاص في التوحيد يضادّه التشريك في الإلهيّة ، والشرك منه خفيّ ومنه جليّ وكذا الإخلاص فالإخلاص وضدّه يتواردان على القلب فمحلّهما القلب وإنّما يكون ذلك في القصود والنيّات وقد ذكرنا حقيقة النيّة وأنّها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحداً على التجرّد سمّي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي فمن تصدّق وغرضه محض الرّياء فهو مخلص وإن كان غرضه

(٢) الملك : ٢ .
(٣) و(٤) المصدر ج٢ ص ١٦ تحت رقم ٤ و٦.
(٥) النحل :٦٦.

محض التقرّب إلى الله تعالى فهو مخلصٌ ولكنّ العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرّب إلى الله تعالى عن جميع شوائبه كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصّصته العادة بالميل عن الحقّ و من كان باعثه مجرّد الرّياء فهو متعرّض للهلاك ولسنا نتكلّم فيه إذقد ذكرنا ما يتعلّق به في كتاب الرّياء من ربع المهلكات و أقلّ اُموره ما ورد في الخبر «إنّ المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسامي : يامرائي يامخادع يا مشرك يا كافر»(١) وإنّما نتكلّم الآن فيمن انبعث لقصد التقرّب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إمّا من الرّياء و إمّا من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرّب ، أو يعتق عبداً ليتخلّص من مؤنته وسوء خلقه ، أم يحجّ ليصحّ مزاجه بحركة السفر ، أو ليتخلّص من شرّ يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدوّ له في منزله أو يتبرّم بأهله وولده أو لشغل هو فيه و أراد أن يستريح عنه أيّاماً ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلّم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرّها ، أو يصلّي باللّيل و له غرض في دفع النعاس عن نفسه به و ليراقب رحله و أهله أو يتعلّم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أوليكون عقاره و أمواله محروسة بعزّ العلم عن الأطماع ، أو اشتغل بالدّرس و الوعظ ليتخلّص عن كرب الصمت ويتفرّج بلذّة الحديث أو تكفّل بخدمة العلماء ليكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقاً في الدّنيا أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطّه أو يحجّ ماشياً ليخفّف عن نفسه مؤونة الكراء ، أو توضّأ ليتنظّف ويتبرّد أو اغتسل ليتطيّب رائحته ، أو روى الحديث ليعرف بعلوّ الإسناد ، أو اعتكف في المسجد ليخفّ عليه كراء المسكن أو صام ليخفّف عن نفسه التردّد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لاشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو يتصدّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض و يشيّع جنازة ليشيّع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير و يذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فمهما كان باعثه هو التقرّب إلى الله عزّ و جلّ ولكن

(١) تقدم فى كتاب الرياء .

انضافت إليه خطرة من هذه الخطرات حتّى صار العمل عليه أخفّ بسبب هذه الاُمور فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى و تطرّق الشرك إليه و قد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشركة ، و بالجملة كلّ حظّ من حظوظ الدّنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قلّ أم كثر إذا تطرّق العمل تكدّر به صفوه و زال به إخلاصه و الإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلّما ينفكّ فعل من أفعاله و عبادة من عباداته عن حظوظ و أغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل : من سلمت له في عمره خطوة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا و ذلك لعزّة الإخلاص و عسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الّذي لا باعث عليه إلّا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبها وإنّما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرّب و انضافت هذه الاُمور إليه ، ثمّ هذه الشوائب إمّا أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النيّة ، و بالجملة فامّا أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الدّيني أو أقوى منه أو أضعف ولكلّ واحد حكم آخر كما سنذكره و إنّما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلّها قليلها و كثيرها حتّى يتجرّد فيه قصد التقرّب فلا يكون فيه باعث سواه و هذا لا يتصوّر إلّا من محبّ لله عزّ و جلّ مستهتر به ، مستغرق الهمّ بالآخرة بحيث لم يبق لحبّ الدّنيا في قلبه قرار حتّى لا يحبّ الأكل و الشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنّه ضرورة الجبلّة فلا يشتهي الطعام لأنّه طعام بل لأنّه يقوّيه على عبادة الله ويتمنّى أن لو كفى شرّ الجوع حتّى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظّ من الفضول الزائدة على الضرورة و يكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنّه ضرورة دينه فلا يكون له همّ إلّا لدينه ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النيّة في جميع حركاته و سكناته ، فلو نام مثلاً ليريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكانت له درجة المخلصين فيه ، و من ليس كذلك فباب الإخلاص في العمل كالمسدود عليه إلّا على

الندور و كما أنّ من غلب عليه حبّ الله عزّ وجلّ وحبّ الآخرة اكتسبت حركاته الاعتياديّة صفة همّه وصارت إخلاصاً فالّذي يغلب على نفسه حبّ الدّنيا و العلوّ و الرّئاسة و بالجملة حبّ غير الله اكتسب جميع حركاته الاعتياديّة تلك الصفة فلم تسلم له عباداته من صومه وصلاته وغير ذلك إلّا نادراً ، فعلاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدّنيا و التجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فإذ ذاك يتيسّر الإخلاص ، و كم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنّها خالصة لوجه الله تعالى و يكون فيها مغروراً لأنّه لا يدري وجه الآفة فيه كما حكي عن بعضهم أنّه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صلّيتها في المسجد جماعة في الصفّ الأوّل لأنّي تأخّرت يوماً لعذر وصلّيت في الصفّ الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني فعرفت أنّ نظر الناس إليّ في الصف الأوّل كان يسرّني و كان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر ، وهذا دقيق غامض وقلّما تسلم الأعمال من أمثاله ، و قلّ من يتنبّه له ، و الغافلون عنه يرون حسناتهم كلّها في الآخرة سيّئات وهم المرادون بقوله تعالى : «وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»(١) « وبدالهم سيّئات ما عملوا»(٢) و«قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً * الّذين ضلّ سعيهم في الحيوة الدّنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً» (٣) وأشدّ الخلق تعرّضاً لهذه الفتنة العلماء فإنّ الباعث للأكثرين على نشر العلم لذّة الاستيلاء و الفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبّس عليهم ذلك و يقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن شرع رسول الله ، وترى الواعظ يمنّ على الله بنصيحته للخلق و وعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه و هو يزعم أنّه يفرح بما تيسّر له من نصرة الدّين ، و لو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً و انصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمّه ولو كان باعثه الدّين لشكر الله عزّ وجلّ إذ كفاه هذا المهمّ بغيره ، ثمّ الشياطين مع ذلك لا يخلّيه و يقول إنّما غمّك لانقطاع

---

(١) الزمر:٤٨. (٢) الجاثية :٣٢.

(٣) الكهف : ١٠٤ و١٠٥.

الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس منك إذ لو اتّعظوا بقولك لكنت أنت المثاب و اغتمامك لفوت الثواب محمودٌ، ولا يدري المسكين أنّ انقياده للحقّ وتسليمه الأمر للأفضل أجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدّث نفسه بأنّه لوظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ولاختاره بذلك على نفسه وذلك قبل التجربة و الامتحان محض الجهل والغرور ، فإنّ النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر بها ، ثمّ إذ دهاها الأمر تغيّرت و رجعت ولم تف بالوعد ، و ذلك لايعرفه إلّا من عرف مكائد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الإخلاص و العمل بها بحرٌ عميق يغرق فيه الجميع إلّا الشاذّ النادر و الفرد الفذّ وهو المستثنى في قوله تعالى : « إلّا عبادك منهم المخلصين»(١) فليكن العبد شديد التفقّد و المراقبة لهذه الدّقائق وإلّا التحق بأتباع الشيطان وهو لا يشعر به .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد أقاويل الشيوخ في الإخلاص ونقل عن بعضهم أنّ الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدّارين قال : و هذه إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلاً و عاجلاً و العابد لأجل تنعّم النفس بالشهوات في الجنّة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلّا وجه الله و هو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين و هو الإخلاص المطلق ، فأمّا من يعمل لرجاء الجنّة أو خوف النّار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة و إلّا فهو في طلب حظّ البطن و الفرج وإنّما المطلوب الحقّ لذوي الألباب وجه الله فقط وقول القائل لايتحرّك الإنسان إلّا لحظّ و البراءة من الحظوظ صفة الإلهيّة و من ادّعاها فهو كافر حقّ، ولكنّ القوم إنّما أرادوا بها البراءة عمّا يسمّيه الناس حظوظاً وهي الشهوات الموصوفة في الجنّة فقطّ فأمّا التلذّذ بمجرّد المعرفة و المناجاة والنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ فهذا حظّ هؤلاء و هذا لا يعدّه الناس حظّاً بل يتعجّبون منه وهؤلاء لو عوّضوا عمّا هم فيه من لذّة الطاعة و المناجاة و ملازمة الشهود للحضرة الإلهيّة سرّاً و جهراً جميع نعيم الجنّة

(١) ص : ٨٣.

لاستحقروها و لم يلتفتوا إليها فحركتهم لحظّ و طاعتهم لحظّ و لكن حظّهم معبودهم فقطّ دون غيره ، ثمّ قال : والأقاويل فيهذا كثيرة ولافائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة و إنّما البيان الشافي بيان سيّد الأوّلين والآخرين عليه‌السلام إذ سئل عن الإخلاص فقال : «هوأن تقول ربّي الله ثمّ تستقيم كما أمرت»[1] أي لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد إلّا ربّك وتستقيم فيعبادته كما أمرك . وهذه إشارة إلى قطع كلّ ما سوى الله عزّوجلّ عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقّاً .

(بيان درجات الشوائب والافات المكدرة للاخلاص)

إعلم أنّ الآفات المشوّشة للإخلاص بعضها جليّ وبعضها خفيّ وبعضها ضعيف مع الجلاء و بعضها قويّ مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء و الجلاء إلّا بمثال و أظهر مشوّشات الاخلاص الرِّياء فلنذكر منه مثالاً فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلّي مهما كان مخلصاً في صلاته حيث نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسّن صوتك حتّى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولايزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرِّياء الظاهر ولايخفى ذلك على المبتدين من المريدين .

الدّرجة الثانية أن يكون المريد قد فهم هذه الآفة فأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيه ولا يلتفت إليه ويستمرّ في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير و يقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسّى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت و عليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لاينخدع بالأوّل و هو أيضاً عين الرِّياء ومبطل للاخلاص فإنّه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لايرتضي لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ٣٩٧٢ . أن سفيان بن عبدالله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله حدثنى بامر أعتصم به قال : قل : « ربى الله ثم استقم » . وروى نحوه مسلم فى الصحيح .

ولايمكن أن تكون نفس غيره أعزّ عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الّذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأمّا هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به أُثيب عليه و أمّا هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ممّا ليس متّصفاً به .

الدّرجة الثالثة و هي أدقّ ممّا قبلها أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبّه لكيد الشيطان و يعلم أنّ مخالفته بين الخلوة و المشاهدة للغير محض الرّياء و يعلم أنّ الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ ويستحيي من نفسه ومن ربّه أن يتخشّع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الّذي يرتضيه في الملأ ويصلّي في الملأ أيضاً كذلك ، فهذا أيضاً من الرّياء الغامض لأنّه حسّن صلاته في الخلوة ليحسّن في الملأ فلايكون قد فرق بينهما فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته و مشاهدة الخلق على وطيرة واحدة فكأنّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثمّ يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ويظنّ أنّ ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلوة و الملأ وهيهات بل زوال ذلك بأن لايلتفت إلى الخلق كما لايلتفت إلى الجمادات في الخلأ والملأ جميعاً وهذا الشخص مشغول الهمّ بالخلق في الملأ و الخلأ جميعاً ، وهذا من المكائد الخفيّة للشيطان .

الدّرجة الرّابعة وهي أدقّ وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لأجلهم فإنّه قد عرف أنّه تفطّن لذلك فيقول له الشيطان : تفكّر في عظمة الله وجلاله و من أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله عزّوجلّ إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظنّ أنّ ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة وكان لايختصّ حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر ممّا يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ ولايكون حضور الغير هو السبب في حضور هذا الخاطر كما لايكون حضور بهيمة سبباً فمادام

يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنّس الباطن بالشرك الخفيّ من الرّياء و هذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في اللّيلة الظلماء على الصخرة الصمّاء كما ورد به الخبر(١) ولا يسلم من الشيطان إلّا من دقّ نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلّا فالشيطان ملازم للمتشمّرين لعبادة الله عزّ وجلّ لا يغفل عنهم لحظة حتّى يحملهم على الرّياء في كلّ حركة من الحركات حتّى في كحل العين وقصّ الشارب وطيب يوم الجمعة و لبس الثياب فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظّ خفيّ لارتباط نظر الخلق بها ولاستيناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنّة لا ينبغي أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوات الخفيّة أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه و ما لا يسلم عن هذه الآفات كلّها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع به فالشيطان يرغّبه فيه ويكثر عليه من ثواب الاعتكاف و قد يكون المحرّك الخفيّ في سرّه هو الاُنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبيّن ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر و كلّ ذلك امتزاج بشوائب الطبع و كدورات النفس فيبطل حقيقة الإخلاص، لعمري الغشّ الّذي يمزج بخالص الذّهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقلّ ولكن يسهل إدراكه ومنها ما يدقّ بحيث لا يدركه إلّا الناقد البصير وغشّ القلب و دغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك و أدقّ كثيراً و لهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل و اُريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتّى يخلص عنها فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة و اغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدّينار المموّه و استدارته و هو زائف في نفسه و قيراط من خالص الذّهب الّذي يرتضيه الناقد خير من دينار من الّذي يرتضيه الغرّ الغبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم و مداخل الآفات المتطرّقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها و إحصاؤها فما

---

(١) تقدم غير مرة فى العلم و غيره .

ذكرناه مثال والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لايغنيه التطويل أيضاً فلافائدة في التفصيل .

(بيان حكم العمل المشوب و استحقاق الثواب به)

إعلم أنّ العمل إذالم يكن خالصاً لوجه الله عزّوجلّ بل امتزج به شوب من الرّياء أوحظوظ النفس فقداختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لايقتضي شيئاً أصلاً فلايكون له ولاعليه ، أمّا الّذي لم يردبه إلّا الرّياء فهوعليه قطعاً وهو سبب المقت و العقاب ، و أمّا الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب و إنّما النظر في المشوب وظاهر الأخبار يدلّ على أنّه لاثواب له و ليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه و الّذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوّة الباعث فإن كان الباعث الدّيني مساوياً للباعث النفسي تقاوما و تساقطاً و صار العمل لا له و لا عليه و إن كان باعث الرّياء أقوى وأغلب فليس بنافع بل هو مع ذلك مضرّ ومفض للعقاب نعم العقاب الّذي فيه أخفّ من عقاب العمل الّذي تجرّد للرّياء ولم يمتزج به شائبة التقرّب وإن كان قصد التقرّب أغلب بالاضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الدّيني وهذا لقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره * و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره »[1] و لقوله : « إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة »[2] فلاينبغي أن يضيّع قصد الخير بل إن كان قصد التقرّب غالباً على قصد الرّياء حبط منه القدر الّذي يساويه و بقيت زيادة ، و إن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد و كشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرّياء من المهلكات وإنّما غذاء هذا المهلك و قوّته بالعمل على وفقه و داعية الخير من المنجيات وإنّما قوّتها بالعمل على وفقها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادّتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرّياء فقد قويت تلك الصفة وإن عمل على وفق داعية الخير قويت أيضاً تلك الصفة وأحدهما مهلك و الآخر منج فإن

---

(١) الزلزال :٧و٨. (٢) النساء :٣٩.

كان تقويته لهذا بقدرتقويته للآخرفقد تقاوماً وكان كالمستضرّ بالحرارة إذاتناول ما يضرّه ثمّ تناول من المبرّدات مايقاوم قدرقوّته فيكون بعد تناولهما كأنّه لم يتناولهما و إن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثرفكما لايضيع مثقال ذرّة من الطعام و الشراب والأدوية ولاينفكّ عن أثر في الجسد بحكم سنّة الله عزّ وجلّ فكذلك لايضيع مثقال ذرّة من الخير والشرّ ولاينفكّ عن تأثير في إنارة القلب أوتسويده وفي تقريبه من الله تعالى أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ماكان لاله ولا عليه فإن كان الفعل ممّا يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لامحالة شبرٌ و قد قال عليه السلام : « أتبع السيّئة الحسنة تمحها » [1] فإذا كان الرّياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه فإذا اجتمعا جميعاً فلابدّ وأن يتدافعا بالضرورة و يشهد لهذا إجماع الأمّة على أنّ من خرج حاجّاً و معه تجارة صحّ حجّه و اُثيب عليه و قد امتزج به حظٌّ من حظوظ النفس ، نعم يمكن أن يقال إنّما يثاب على أعمال الحجّ عند انتهائه إلى مكّة و تجارته غير موقوفة عليه فهو خالص و إنّما المشترك طول المسافة و لاثواب فيه مهما قصد التجارة ولكنّ الصواب أن يقال مهما كان الحجّ هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلاينفكّ نفس السفر عن ثواب .

أقول : بل الصواب أن يقال : أنّ التجارة تعرّض للرّزق وهو أيضاً عبادة و ليس من حظوظ النفس وقدسبق أنّ نيّة الخيرات المتعدّدة موجبة لتضاعف الثواب .

قال أبو حامد : و ما أظنّ أنّ الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفّار في جهة يكثر فيها الغنائم وبين جهة لاغنيمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلّيّة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال : إذاكان الباعث الأصليّ والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله وإنّما الرّغبة في الغنيمة على سبيل التبعيّة فلايحبط به الثواب نعم لايساوي ثوابه ثواب من لايلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً فإنّ هذا الالتفات نقصان لامحالة، فإن قلت : فالآيات والأخبار تدلّ على أنّ شوب الرّياء محبط للثواب وفي

(١) قد تقدم غير مرة فى رياضة النفس وفى التوبة .

معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاؤوس وغيره من التابعين أنّ رجلاً سأل النبيّ صلّى الله عليه وآله عمّن يصطنع المعروف أو قال: يتصدّق فيحبّ أن يحمد ويوجر فلم يدرما يقول له حتّى نزل قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربّه أحداً» (١) و قد قصد الأجر و الحمد جميعاً وروي أنّ أعرابيّاً أتاه فقال له: يا رسول الله الرّجل يقاتل حمية و الرّجل يقاتل شجاعة و الرّجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال عليه السلام: «من قاتل ليكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٢) و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدّنيا فهو له» (٣).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه قال لعبّاد ابن كثير البصريّ في المسجد: «ويلك يا عبّاد إيّاك و الرّياء فإنّه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له» (٤).

و عنه عليه السلام قال: «كلّ رياء شرك، إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس و من عمل لله كان ثوابه على الله» (٥).

وعنه عليه السلام في قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربّه - الآية -» قال: «الرّجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنّما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمّع به الناس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه، ثمّ قال: ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يظهر الله له خيراً، و مامن عبد يسرّ شرّاً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يظهر الله له شرّاً» (٦).

و عنه عليه السلام قال: قال الله تعالى: «أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلّا ما كان لي خالصاً» (٧).

---

(١) الكهف: ١١١.
(٢) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٣ بأدنى اختلاف من حديث ابي موسى الاشعري.
(٣) تقدم في الرياء.
(٤) و(٥) و(٦) المصدر ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ١ و ٣ و ٢.
(٧) المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٩.

قال أبو حامد : فنقول : هذه الأحاديث لاتناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد به إلّا الدّنيا كقوله : « من هاجر يبتغي شيئاً من الدّنيا فهوله » أوكان ذلك أغلب على نيّته و قد ذكرنا أنّ ذلك عصيان و عدوان لا لأنّ طلب الدّنيا حرامٌ ولكن طلبها بأعمال الدّين حرامٌ لما فيه من الرّياء و تغيير العبادة عن وضعها ، و أمّا لفظ الشركة حيث ورد فمطلقه للتساوي و قد بيّنّا أنّه إذا تساوى القصدان تقاوماً ولم يكن له ولاعليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ، ثمّ الإنسان عند الشركة أبداً في خطر فإنّه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربّما يكون عليه و بالاً ولذلك قال الله تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً» أي لا يرجى اللّقاء مع الشركة الّتي أحسن أحوالها التساقط ، و يجوز أن يقال : أيضاً منصب الشهادة أيضاً لا ينال إلّا بالإخلاص في الغزو ، و بعيد أن يقال : من كانت داعيته الدّينيّة بحيث تزعجه إلى مجرّد الغزو و إن لم تكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفّار إحديهما أغنياء و الأخرى فقراء فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله تعالى و الغنيمة أنّه لا ثواب له على غزوه البتّة و نعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإنّ هذا حرج في الدّين و مدخل لليأس على المسلمين لأنّ أمثال هذه الشوائب التابعة قطّ لاينفكّ الإنسان عنها إلّا على الندور فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب فأمّا أن يكون في إحباطه فلا ، نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنّه ربّما يظنّ أنّ الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله ويكون الأغلب على سرّه الحظّ النفسي وذلك ممّا يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلّا بالإخلاص والإخلاص قلّما يستيقنه العبد من نفسه و إن بالغ في الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردّداً بين الردّ و القبول خائفاً أن تكون في عباداته آفة يكون و بالها أكثر من ثوابها فلايقاومها وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون كلّ ذي بصيرة ، و مع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرّياء فإنّ ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن يفوت الإخلاص ، و مهما ترك العمل فقد ضيّع العمل و الإخلاص جميعاً ، و قد قيل : ترك العمل بسبب الخلق رئاء وفعله

لأجل الخلق شرك .

أقول: روى في الكافي بإسناده الحسن عن أبي جعفر عليه السلام « أنّه سئل عن الرّجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك فقال : لا بأس ما من أحد إلّا و هو يحبّ أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك » [(١)].

(الباب الثالث)
(في الصدق وفضيلته وحقيقته)

فضيلة الصدق قال الله تعالى : «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» [(٢)] وقال النبي صلى الله عليه وآله : «إنّ الصدق يهدي إلى البرّ والبرّ يهدي إلى الجنّة ، و إنّ الرّجل ليصدق حتّى يكتب عند الله صدّيقاً ، و إنّ الكذب يهدي إلى الفجور و الفجور يهدي إلى النّار ، و إنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذّاباً » [(٣)] و يكفي في فضيلة الصدق أنّ الصدّيق مشتقّ منه و الله تعالى قد وصف به الأنبياء في معرض المدح والثناء فقال : « و اذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيّاً» [(٤)] وقال : « و اذكر في الكتاب إدريس إنّه كان صدّيقاً نبيّاً » [(٥)] .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد أقوال الناس في فضيلة الصدق و روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سئل عن الكمال فقال : «قول الحقّ و العمل بالصدق » [(٦)] .

و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : « إنّ الرّجل ليصدق حتّى يكتبه الله صدّيقاً » [(٧)].

و عن الصادق عليه السلام قال : « كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع » [(٨)].

و عنه عليه السلام : « من صدق لسانه زكى عمله ، ومن حسنت نيّته زيد في رزقه ،

(١) المصدر ج٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٨ .
(٢) الاحزاب :٢٣. (٣) متفق عليه وقد تقدم .
(٤) مريم :٤٢ . (٥) مريم : ٥٧.
(٦) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ .
(٧) و (٨) المصدر ج ٢ ص ١٠٥ تحت رقم ٨ و ١٠ .

ومن حسن برّه بأهل بيته مدّ له في عمره »[1].

و عنه عليه السلام « لا تنظروا إلى طول ركوع الرّجل و سجوده فإنّ ذلك شيء اعتاده ولو تركه استوحش لذلك ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته»[2]

وعنه عليه السلام قال لبعض أصحابه : «انظر ما بلغ به عليّ عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالزمه فإنّ عليّاً عليه السلام إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدق الحديث و أداء الأمانة »[3] .

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

إعلم أنّ لفظ الصدق يستعمل في ستّة معان صدق في القول وصدق في النيّة و الإرادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم و صدق في العمل و صدق في تحقيق مقامات الدّين كلّها ، فمن اتّصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق لأنّه مبالغة من الصدق ، ثمّ هم أيضاً على درجات و من كان له حظّ من الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه .

الصدق الأوّل صدق اللّسان و ذلك لا يكون إلّا في الإخبار أو فيما يتضمّن الإخبار وينبّه عليه والخبر إمّا أن يتعلّق بالماضي أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحقّ على كلّ عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلّم إلّا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها ، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ، ولكن لهذا الصدق كمالان أحدهما الاحتراز عن المعاريض وقد قيل : في المعاريض لمندوحة عن الكذب وذلك لأنّها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلّا أنّ ذلك ممّا تمسّ إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان و من يجري مجراهم و في الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء و الاحتراز عن اطّلاعهم على أسرار الملك فمن اضطرّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله بما يأمره الحقّ به ويقتضيه

---

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٥٠ تحت رقم ١١ و١٢.

(٣) المصدر ج٢ ص١٠٤ تحت رقم ٥ .

الدّين فإذا نطق به فهو صادق و إن كان كلامه مفهماً غير ماهو عليه لأنّ الصدق ما أُريد به لذاته بل للدّلالة على الحقّ و الدّعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً «كان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا توجّه إلى سفر ورّى بغيره»(١) و ذلك لئلّا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد ، و ليس هذا من الكذب في شيء وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : «ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً»(٢) و رخّص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع «من أصلح بين اثنين ومن كانت له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب»(٣) والصدق ههنا يتحوّل إلى النيّة فلا يراعى فيه إلّا صدق النيّة وإرادة الخير فمهما صحّ قصده وصدقت نيّته و تجرّدت للخير إرادته كان صادقاً وصدّيقاً كيف ما كان لفظه ثمّ التعريض فيه أولى و طريقه ما حكي عن بعضهم أنّه كان يطلبه بعض الظلمة و هو في داره فقال: لزوجته خطّي باصبعك دائرة وضعي الاصبع عليها وقولي : ليس هو ههنا · واحترز بذلك عن الكذب و دفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقاً وأفهم الظالم أنّه ليس في الدار فالكمال الأوّل في اللّفظ أن يحترز عن صريح اللّفظ و عن المعاريض أيضاً إلّا عند الضرورة ، والكمال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه الّتي يناجي بها ربّه كقوله «وجّهت وجهي للّذي فطر السماوات والأرض» فإنّ قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدّنيا وشهواتها فهو كاذب و كقوله «إيّاك نعبد» وقوله : أنا عبد الله فإنّه إذا لم يتّصف بحقيقة العبوديّة وكان له مطلب سوى الله عزّ وجلّ لم يكن كلامه صدقاً ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله «أنا عبد الله» لعجز عن تحقيقه فإنّه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله و كلّ ما تقيّد به العبد فهو عبدٌ له كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدّنيا ، و قال نبيّنا صلى الله عليه وآله : « تعس عبد الدّينار تعس عبد الدّرهم و عبد الحلّة و عبد الخميصة » (٤) وسمّي كلّ من تقيّد

(١) في النهاية أي ستره وأخرجه البخاري و مسلم من حديث كعب بن مالك .

(٢) أخرجه البخاري ج٣ ص٢٢٧ ومسلم ج٨ ص٢٨ من حديث ام كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

(٣) روى مسلم ج ٨ ص٢٨ والكليني نحوه عن الصادق عليه السلام في الكافي ج ٢ ص٣٤٢.

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

قلبه بشيء عبداً له ، و إنّما العبد الحقّ لله تعالى من اعتق أوّلاً من غير الله تعالى فصار حرّاً مطلقاً فا ذا تقدّمت هذه الحرّيّة صار القلب فارغاً فحلّت فيه العبوديّة لله فتشغله بالله و بمحبّته و تقيّد باطنه و ظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلّا الله تعالى ثمّ قد يجاوز هذا إلى مقام أسنى منه يسمّى الحرّيّة و هو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله عزّ وجلّ وهذا عبد عتق عن غير الله تعالى فصار حرّاً ثمّ عاد وعتق عن نفسه فصار حرّاً و صار مفقوداً لنفسه و موجوداً لسيّده ومولاه ، إن حرّكه تحرّك وإن سكّنه سكن وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متّسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميّت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصّدق في العبوديّة فالعبد الحقّ هو الّذي وجوده لمولاه لا لنفسه و هذه درجة الصّدّيقين ، و أمّا الحرّية عن غير الله فدرجات الصّادقين وبعد هذا يتحقّق العبوديّة لله وما قبل هذا فلا يستحقّ صاحبه أن يسمّى صادقاً ولا صدّيقاً ، فهذا هو معنى الصدق في القول .

الصّدق الثاني في النيّة والإرادة ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلّا الله عزّ وجلّ فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النيّة و صاحبه يجوز أن يسمّى كاذباً كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يُسأل العالم «ماذا عملت في ماعلمت فقال : فعلت كذا و كذا فقال الله عزّ وجلّ : كذبت أردت أن يقال : فلان عالم» فإنّه لم يكذّبه ولم يقل له: لم تعمل ولكن كذّبه في إرادته و نيّته ، و قال بعضهم : الصّدق صحّة التوحيد في القصد و لذلك قال الله تعالى : « والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون » (١) و قد قالوا : « إنّك لرسول الله » (٢) وهذا صدق ولكن كذّبهم لا من حيث نطق اللّسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر وهذا القول يتضمّن اخباراً بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أنّه يعتقد ما يقوله فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فإنّه كذب في ذلك و إن لم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحدهما في الصدق

(١) و(٢) المنافقون : ٢ .

إلى خلوص النيّة و هو الإخلاص و كلّ صادق فلابدّ وأن يكون مخلصاً .

الصدق الثالث صدق العزم فإنّ الانسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه : إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه أو بشطره ، و إذا لقيت عدوّاً في سبيل الله قاتلته و لم اُبال و إن قتلت ، و إن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله بظلم و ميل إلى خلق ، فهذه العزيمة قد يصادفها في نفسه و هي عزيمة جازمة صادقة و قد يكون في عزمه نوع ميل و تردّد و ضعف يضادّ الصّدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال : لفلان شهوة صادقة و يقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى فالصادق والصدّيق هو الّذي تصادف عزيمته في الخيرات كلّها قويّة تامّة ليس فيها ميل و لا ضعف و لا تردّد بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمّم الجازم على الخيرات .

الصدق الرابع في الوفاء بالعزم فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقّة في الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة فإذا حقّت الحقائق و حصل التمكّن و هاجت الشهوات انحلّت العزيمة وغلبت الشهوة ولم يتّفق الوفاء بالعزم و هذا يضادّ الصدق فيه ولذلك قال تعالى : « رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه » [(١)].

الصدق الخامس في الأعمال وهو أن يجتهد حتّى لا تدلّ أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتّصف هو به لا بأن يترك الأعمال و لكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر ، و هذا يخالف ما ذكرناه من ترك الرّياء لأنّ المرائي هو الّذي يقصد ذلك لأجل الخلق ، و ربّ واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره و لكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله عزّوجلّ و هو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب و هو مطالب بالصدق في الأعمال و كذلك قد يمشي الرّجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك فهذا

(١) الاحزاب : ٢٣ .

غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إيّاهم ولا ينجو من هذا إلّا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره فإذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سمّيت رياء ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال عليه السلام : «اللّهمّ اجعل سريرتي خيراً من علانيتي و أجعل علانيتي صالحة» (١) و قيل : إذا استوت سريرة العبد و علانيته فذلك النصف ، و إن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، و إن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور ، فإذن مساواة السريرة للعلانيّة أحد أنواع الصّدق .

أقول: وذلك كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « إنّي والله ما أحثّكم على طاعة إلّا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلّا وأتناهى قبلكم عنها» (٢).

الصدق السادس - و هو أعلى الدّرجات و أعزّها - الصدق في مقامات الدّين كالصدق في الخوف والرّجاء والتعظيم والزّهد والرّضا والحبّ والتوكّل وسائر هذه الأمور فإنّ هذه الأمور لها مبادي ينطلق الاسم بظهورها ثمّ لها غايات وحقائق والصادق المحقّق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء و تمّت حقيقته يسمّى صاحبها صادقاً كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، و هذه هي الشهوة الصادقة ، وقال تعالى : «إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا - إلى قوله - اُولئك هم الصادقون »(٣) و قال تعالى : « ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر - ثمّ قال : - و الصابرين في البأساء و الضرّاء - إلى قوله - اُولئك الّذين صدقوا » (٤).

وسئل أبوذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له : سألناك عن الإيمان فقال : سألت رسول الله عن الإيمان فقرأ هذه الآية »(٥) و لنضرب للخوف مثلاً فما من عبد

(١) قال العراقي : لم أجده .
(٢) النهج قسم الخطب تحت رقم ١٧٣ .
(٣) الحجرات : ١٥ .
(٤) البقرة : ١٧٧ .
(٥) أخرجه اسحاق بن راهويه في مسنده ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه عن القاسم ابن عبدالرحمن كما في الدرالمنثور ج ١ ص ١٦٩ .

يؤمن بالله إلّا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم ولكنّه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه و يتنغّص عليه عيشه ويتعذّر عليه أكله ونومه ويتقسّم عليه فكره حتّى لاينتفع به أهله و ولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالاُنس الوحشة و بالرّاحة التعب و المشقّة والتعرّض للأخطار كلّ ذلك خوفاً من درك المحذور ثمّ إنّه يخاف النار و لا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصيته عليه ولذلك قال عليه السلام : « لم أر مثل النار نام هاربها و لم أر مثل الجنّة نام طالبها » [١] فالتحقيق في هذه الاُمور عزيز جدّاً و لا غاية لهذه المقامات حتّى ينال غايتها ولكن لكلّ عبد منها حظّ بحسب حاله إمّا ضعيف و إمّا قويّ فإذا قوي سمّي صادقاً فيه فمعرفة الله عزّ وجلّ و تعظيمه و الخوف منه لا نهاية له و لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجبرئيل عليه السلام : « اُحبّ أن أراك في صورتك الّتي هي صورتك فقال : لاتطيق ذلك ، قال : بلى أرني قال : فواعده بالبقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر إليه فإذا هو به قد سدّ الاُفق يعني جوانب السماء فوقع عليه السلام مغشيّاً عليه فأفاق وقد عاد جبرئيل عليه السلام إلى صورته الأولى فقال : ما ظننت أنّ أحداً من خلق الله عزّ وجلّ هكذا ، قال : كيف و لو رأيت إسرافيل أنّ العرش لعلى كاهله و أنّ رجليه قد مرقتا تخوم الأرضين السفلى وأنّه ليتصاغر من عظمة الله حتّى يصير كالوصع يعني كالعصفور الصغير » [٢] فانظر ماالّذي يغشاه من العظمة والهيبة حتّى يرجع إلى ذلك الحدّ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم .

وقال جابر : قال عليه السلام : « مررت ليلة اُسري بي أنا وجبرئيل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله عزّ و جلّ » [٣] يعني الكساء الّذي يلقى على ظهر

(١) أخرجه الترمذى فى صحيحه ج ١٠ ص ٦٥ من حديث ابى هريرة والطبرانى فى الاوسط من حديث أنس .

(٢) تقدم فى كتاب الرجاء والخوف أنه رأى جبرئيل فى صورته مرتين .

(٣) رواه محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس (المغنى) .

البعير ولذلك قال عليه السلام : « لايبلغ أحد حقيقة الإيمان حتّى يرى الناس كالأباعر في جنب الله ثمّ يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير » (١) و الصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز ، ثمّ درجات الصدق لا نهاية لها و قد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصدّيق حقّاً و قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهنّ قوي وفيما سواهنّ ضعيف ما صلّيت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفسي بأن أعيش حتّى أفرغ منها ، وما شيّعت جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائله وما هو مقول لها حتّى يفرغ من دفنها ، وما سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول قولاً إلّا علمت أنّه حقّ ، فقال ابن المسيّب لما سمع هذا الحديث : ماظننت أنّ هذه الخصال تجتمع إلّا في النبيّ صلّى الله عليه وآله . فهذا صدق في هذه الأمور و كم من جملة الصحابة قوم قد أدّوا الصلاة وشيّعوا الجنائز و لم يبلغوا هذا المبلغ ، فهذه هي درجات الصدق و معانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لايتعرّض فيها إلّا لآحاد هذه المعاني ، نعم قد قال أبوبكر الورّاق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد وصدق الطاعة و صدق المعرفة فصدق التوحيد لعامّة المؤمنين قال الله تعالى : « والّذين آمنوا بالله و رسله اُولئك هم الصدّيقون »(٢) وصدق الطاعة لأهل العلم وصدق المعرفة لأهل الولاية الّذين هم أوتاد الأرض . وكلّ هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنّه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق عليه السلام : « الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غير الله كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى : « هو اجتبيكم »(٣) و قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أنّي إذا أحببت عبداً ابتليته ببلاء لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فإن وجدته صابراً اتّخذته وليّاً وحبيباً ، و إن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولم اُبال . فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً و كراهة اطّلاع الخلق عليها .

أقول : وفي مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : « إذا أردت أن تعلم أصادق

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) الحديد ١٩ . (٣) الحج: ٧٨ .

أنت أم كاذب فانظر في قصدمعناك وغور دعواك وعيّرهما بقسطاس من الله عزّوجلّ كأنّك في القيامة قال الله عزّ وجلّ : «والوزن يومئذ الحقّ» (١) فاذا اعتدل معناك بغور دعواك ثبت لك الصدق ، وأدنى حدّ الصدق أن لا يخالف اللّسان القلب ولا القلب اللّسان ، و مثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه إن لم ينزع فماذا يصنع »(٢) .

تمّ كتاب النيّة و الصدق و الإخلاص من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ولله الحمد و المنّة على يد أفقر العباد إلى الله محسن بن مرتضى القاساني جعله الله من المخلصين الصادقين بمنّه وكرمه ، ويتلوه كتاب المراقبة و المحاسبة إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وحده .

---

(١) الاعراف : ٧ .

(٢) المصدر الباب الرابع والسبعون .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كلّ نفس بما كسبت ، الرّقيب على كلّ جارحة بما اجترحت ، المطّلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب عباده على الخواطر إذا اختلجت ، الّذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات و الأرض تحرّكت أو سكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضّل بقبول طاعات العباد و إن صغرت ، المتطوّل بالعفو عن معاصيهم و إن كثرت ، وإنّما يحاسبهم لتعلم كلّ نفس ما أحضرت و تنظر في ما قدّمت و أخّرت فتعلم أنّه لولا لزومها للمراقبة و المحاسبة في الدّنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت و بعد المجاهدة و المحاسبة و المراقبة لولا فضل الله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت و خسرت ، فسبحان من عمّت نعمه كافّة العباد ، و شملت و استغرقت رحمته الخلائق في الدّنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتّسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيّدت الجوارح بالعبادات وتأدّبت ، و بحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل و انقشعت ، و بتأييده و نصرته انقطعت مكائد الشيطان و اندفعت ، و بلطف عنايته تترجّح كفّة الحسنات إذا ثقلت ، و بتيسيره تيسّرت من الطاعات ما تيسّرت ، فمنه العطاء والجزاء و بحكمه الإبعاد و الإدناء و الإسعاد والإشقاء .

و الصلاة على محمّد سيّد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء و قادة الأتقياء وسلّم كثيراً .

أمّا بعد فقد قال الله تعالى : « و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم

نفس شيئاً و إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين » [١]. وقال : « و وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه و يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولايظلم ربّك أحداً»[٢] وقال : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبّئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كلّ شيء شهيد » [٣] وقال : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ✿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✿ ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » [٤] و قال : « ثمّ توفّى كلّ نفس ما كسبت وهم لايظلمون»[٥] وقال تعالى: «يوم تجد كلّ نفس ماعملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها و بينه أمداً بعيداً ويحذّركم الله نفسه»[٦] وقال تعالى: «واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه و اعلموا أنّ الله غفورٌ رحيم » [٧] فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله عزّ وجلّ لهم بالمرصاد وإنّهم سيناقشون في الحساب ، و يطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللّحظات ، وتحقّقوا أنّه لاينجيهم من هذه الأخطار إلّا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات و اللّحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي و المقت سيّئاته ، فلمّا انكشف لهم ذلك علموا أنّه لا ينجيه منه إلّا طاعة الله عزّ وجلّ وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال : « يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا و رابطوا »[٨] فرابطوا أوّلاً أنفسهم بالمشارطة ، ثمّ بالمراقبة ، ثمّ بالمحاسبة ، ثمّ بالمعاقبة ثمّ بالمجاهدة ، ثمّ بالمعاتبة ، فكانت لهم في المرابطة ستّ مقامات ولابدّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصلها المحاسبه ولكن كلّ حساب فبعد مشارطة و مراقبة و يتبعه عند الحساب معاتبة و معاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات .

---

(١) الانبياء : ٤٧ .
(٢) الكهف : ٥٠ .
(٣) المجادلة : ٦ .
(٤) الزلزال: ٦و٧ و٨.
(٥) البقرة : ٢٨١.
(٦) آل عمران : ٣٠.
(٧) البقرة : ٢٣٥.
(٨) آل عمران : ٢٠٠ .

✡(المقام الاول من المرابطة المشارطة)✡

إعلم أنّ مطلب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الرّبح وكما أنّ التاجر يستعين بشريكه فيسلّم إليه المال حتّى يتّجر ثمّ يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنّما مطلبه وربحه تزكية النفس إذ به فلاحها قال الله تعالى: «قد أفلح من زكّيها ✡ و قد خاب من دسّيها »[1] وإنّما فلاحها بالأعمال الصالحة ، و العقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها و ويستسخرها فيما يزكّيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الّذي يتّجر في ماله و كما أنّ الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الرّبح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاتبه أويعاقبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أوّلاً فيوظّف عليها الوظائف و يشترط عليها الشروط و يرشدها إلى طريق الفلاح و يجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطريق ثمّ لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنّه لو أهملها لم يرمنها إلّا الخيانة و تضييع رأس المال كالعبد الخائن إذاخلا له الجوّ وانفرد بالمال ثمّ بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بماشرط عليها ، فإنّ هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء و الشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهمّ كثيراً في تدقيقه في أرباح الدّنيا مع أنّها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ، ثمّ كيف ما كانت فمصيرها إلى التصرّم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل شرّ لايدوم خير من خير لا يدوم لأنّ الشرّ الّذي لايدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً و قد انقضى الشرّ، و الخير الّذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً و قد انقطع الخير ولذلك قيل :

أشدّ الغمّ عندي في سرور ✡ تيقّن عنه صاحبه انتقالاً

فحتمٌ على كلّ ذي حزم آمن بالله و اليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه و التضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فإنّ كلّ نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاعوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا تتناهى نعيمه

(١) الشمس : ٩و١٠.

أبدالآباد فانقضاء هذه الأنفاس ضائعةً أومصروفةً إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا يسمح به عاقل فإذا أصبح العبد و فرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس : مالي بضاعة إلّا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال و وقع اليأس عن التجارة وطلب الرّبح وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله عزّ وجلّ فيه وأنسأ في أجلي وأنعم به عليّ و لو توفّاني لكنت أتمنّى أن يرجعني إلى الدّنيا يوماً واحداً حتّى أعمل فيه صالحاً فاحسبي أنّك توفّيت ثمّ رددت فإيّاك أن تضيّعي هذا اليوم فإنّ كلّ نفَس من الأنفاس جوهرة لاقيمة لها ، واعلمي أنّ اليوم و اللّيلة أربع و عشرون ساعة و قد ورد في الخبر ، « إنّه ينشر للعبد كلّ يوم و ليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوّة نوراً من حسناته الّتي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح و الاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار الّتي هي وسيلة عند الملك الجبّار مالو وزّع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ، ثمّ يفتح له خزانة اُخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها و يتغشّاه ظلامها و هي الساعة الّتي عصى الله فيها فيناله من الهول و الفزع مالو قسّم على أهل الجنّة لتنغّص عليهم نعيمها ، ويفتح له خزانة اُخرى فارغة ليس فيها ما يسرّه ولا ما يسوؤه »(١) و هي الساعة الّتي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدّنيا فيتحسّر على خلوّها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الرّبح الكثير و الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتّى فاته وناهيك به حسرة وغبناً وهكذا يعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك و لا تدعيها فارغة عن كنوزك الّتي هي أسباب ملكك و لا تركني إلى الكسل والدّعة و الاستراحة فيفوتك من درجات علّيّين مايدركه غيرك وتبقى عندك حسراتها لاتفارقك و إن دخلت الجنّة ، و ألم الغبن و الحسرة لا يطاق و إن كان دون ألم النار ، و قال بعضهم : هب أنّ المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين . أشار به

(١) أورده العلامة المجلسي في البحار ج٣ ص٢٦٧ في الهامش من كتاب عدة الداعي.

إلى الغبن والحسرة وقد قال تعالى: «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن»(١) فهذه وصيّته لنفسه في أوقاته ثمّ يستأنف لها وصيّة في أعضائه السبعة: العين و الاُذن واللّسان والبطن والفرج واليد والرّجل وتسليمها إليها(٢) فإنّها رعايا خادمة لها في التجارة و بها تتمّ أعمال هذه التجارة و إنّ لجهنّم سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم وإنّما تتعيّن تلك الأبواب لمن عصى الله بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أمّا العين فيحفظها عن النظر إلى عورة مسلم و وجه من ليس بمحرم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كلّ فضول مستغنى عنه فإنّ الله يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثمّ إذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتّى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهي الّتي خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله عزّ وجلّ بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء و النظر في كتاب الله و سنّة رسوله و مطالعة كتب الحكمة للاتّعاظ و الاستفادة و هكذا ينبغي أن يفصّل عليها الأمر في عضو عضو لا سيّما اللّسان و البطن، أمّا اللّسان فلأنّه منطلق بالطبع و لا مؤونة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة و الكذب و النميمة و تزكية النفس ومذمّة الخلق و الأطعمة والطعن و اللّعن و الدّعاء على الأعداء و المماراة في الكلام و غير ذلك ممّا ذكرناه في آفات اللّسان فهي بصدد ذلك كلّه مع أنّها خلقت للذكر و التذكير وتكرار العلم والتعليم و إرشاد عباد الله إلى طريق الله و إصلاح ذات البين و سائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرّك اللّسان إلّا في الذكر طول نهاره فنطق المؤمن ذكرٌ ونظره عبرة وصمته فكرة «و ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيبٌ عتيدٌ»، وأمّا البطن فيكلّفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات و يمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة و يشترط عليها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع من شهواته فيفوتها أكثر ممّا نالته بشهواتها، وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء و استقصاء ذلك يطول ولايخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ثمّ يستأنف وصيّتها في وظائف الطاعات الّتي تتكرّر عليه في اليوم واللّيلة ثمّ في النوافل الّتي يقدر

(١) التغابن: ٩.

(٢) أي تسليم الاعضاء الى النفس.

عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتّب لها تفصيلها و كيفيّتها و كيفيّة الاستعداد لها بأسبابها ، و هذه شروط يفتقر إليها كلّ يوم ولكن إذا تعوّد الإنسان بأن شرط ذلك على نفسه أيّاماً و طاوعته نفسه في الوفاء بحقّها استغنى عن المشارطة فيها و إن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كلّ يوم من مهمّ جديد و واقعة حادثة لها حكم جديدٌ ولله عليه فيه حقّ ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدّنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلّما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حقّ الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة عليها و الانقياد للحقّ في مجاريها ويحذّرها مغبّة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد المتمرّد الآبق، فإنّ النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبوديّة ولكن الوعظ و التأديب يؤثّر فيها « وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين » فهذا و ما يجري مجراه هو أوّل مقام المرابطة مع النفس و هي المحاسبة قبل العمل ، والمحاسبة تارة تكون قبله للتحذير قال الله تعالى : « واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه »(١) و هذا للمستقبل وكلّ نظر في كمّيّة و مقدار لمعرفة زيادة و نقصان فإنّه يسمّى محاسبة ، فانظر فيما بين العبد والرّبّ في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا » (٢) و قال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا » (٣) و قال تعالى : « و لقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه » (٤) ذكر ذلك تنبيهاً و تحذيراً للاحتراز منه في المستقبل .

و روى عبادة بن الصامت أنّه صلّى الله عليه وآله قال لرجل سأله أن يوصيه و يعظه : « إذا أردت أمراً فتدبّر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه و إن كان غيّاً فانته عنه» (٥).

---

(١) البقرة : ٢٣٥ . (٢) النساء : ٩٣ .
(٣) الحجرات : ٦ . (٤) ق : ١٦ .
(٥) رواه ابن المبارك فى الزهد عن أبى جعفر بن مسور الهاشمى مرسلا بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتّى تنظر إلى العاقبة فإنّ مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفّة الشهوة ، و قال لقمان : إنّ المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . و روى شدّاد بن أوس عنه عليه السلام أنّه قال : « الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنّى على الله الأماني » [(١)] دان نفسه أي حاسب نفسه ، و يوم الدّين هو يوم الحساب . وقوله تعالى : « إنّا لمدينون » [(٢)] أي لمحاسبون . و قال بعض الصحابة : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، و زنوها قبل أن توزنوا ، و تهيّئوا للعرض الأكبر » وهذا كلّه إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه و عمل لما بعد الموت معناه وزن الأمور أوّلاً و قدّرها ونظر فيها و تدبّرها ثمّ أقدم عليها فباشرها .

✡(المرابطة الثانية المراقبة)✡

إذا أوصي الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلّا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال و ملاحظتها بالعين الكالئة فإنّها إن تركت طغت و فسدت ، ولنذكر فضيلة المراقبة ثمّ درجاتها .

أمّا الفضيلة فقد سأل جبرئيل عليه السلام النبيّ صلى الله عليه وآله عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنّك تراه » [(٣)] و قال أيضاً : « اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » [(٤)] و قد قال تعالى : « أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت » [(٥)] و قال تعالى : « ألم يعلم بأنّ الله يرى » [(٦)] ، و قال تعالى : « إنّ الله كان عليكم رقيباً » [(٧)] و قال تعالى : « و الّذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون ✡ و الّذين هم بشهاداتهم قائمون» [(٨)] .

---

(١) تقدم غير مرة . (٢) الصافات : ٥٣ .
(٣) و (٤) أخرجهما النسائي ج ٨ ص ٩٨ في حديث و قد تقدما .
(٥) الرعد : ٣٥ . (٦) العلق : ١٤ .
(٧) النساء : ١ . (٨) المعارج : ٣٢ و ٣٣ .

وحكي أنّ زليخا لما خلت بيوسف قامت فغطّت وجه صنمها فقال يوسف : مالك أتستحين من مراقبة جماد و لا أستحي من مراقبه الملك الجبّار ؟ و حكي عن بعض الأحداث أنّه راود جارية عن نفسها ليلاً فقالت : ألا تستحي ؟ فقال : ممّن أستحي و ما يرانا إلّا الكواكب ، فقالت : وأين مكوكبها . وقال رجل للجنيد بم أستعين على غضّ البصر قال : بعلمك أنّ نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . و قال الجنيد : إنّما يتحقّق بالمراقبة من يخاف على فوت حظّه من ربّه عزّ وجلّ . و قيل : وفي الحديث القدسيّ إنّما يسكن جنّات عدن الّذين إذا همّوا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والّذين انحنت أصلابهم من خشيتي ، و عزّتي وجلالي إنّي لأهمّ بعذاب أهل الأرض فاذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . و يروى أنّ الله عزّ و جلّ قال للملائكة : أنتم موكّلون بالظواهر و أنا رقيب على البواطن .

☼(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)☼

إعلم أنّ حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرّقيب وانصراف الهمّ إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال : إنّه راقب فلاناً و راعى جانبه ، و نعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح و في القلب أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرّقيب واشتغاله به و التفاته إليه وملاحظته إيّاه و انصرافه إليه ، وأمّا المعرفة الّتي تثمر هذه الحالة فهي العلم بأنّ الله مطّلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كلّ نفس بما كسبت و أنّ سرّ القلب في حقّه مكشوف كما أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً يعني أنّها إذا خلت عن الشكّ ، ثمّ استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فربّ علم لاشكّ فيه لايغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرّت القلب إلى مراعات جانب الرّقيب وصرف الهمّة إليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقرّبون وهم ينقسمون إلى الصدّيقين وإلى أصحاب اليمين ومراقبتهم على درجتين .

الدّرجة الأولى مراقبة المقرّبين من الصدّيقين وهي مراقبة التعظيم والإجلال وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متّسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة لا نطوّل النظر في تفصيل أعمالها فإنّها مقصورة على القلب، أمّا الجوارح فإنّها تتعطّل عن التلفّت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات فإذا تحرّكت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبّر وتثبّت في حفظها على سنن السداد بل تشتدّ الرّغبة بسداد الرّاعي فإذا صار مستوفى بالمعبود صار الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلّف وهذا هو الّذي صار همّه همّاً واحداً وكفاه الله تعالى سائر الهموم ومن نال هذه الدّرجة فقد يغفل عن الخلق حتّى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنّه لاصمم به وقديمرّ على ابنه مثلا فلا يكلّمه حتّى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحرّكني، ولا تستبعد هذا فإنّك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض حتّى أنّ خدم الملوك قد لايحسّون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بمهمّ حقير من مهمّات الدّنيا فيغوص الرّجل في الفكر فيه ويمشي فربّما يخطي الموضع الّذي قصده وينسى الشغل الّذي نهض له، وحكي عن بعضهم أنّه قال: مررت بجماعة يتراقبون(١) وواحد جالس بعيداً منهم فتقدّمت إليه فأردت أن اُكلّمه فقال: ذكر الله أشهى لقلبي، فقلت: إنّك وحدك؟ فقال: ما أنا وحدي معي ربّي وملكاي، فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى، وقال: أكثر خلقك شاغل عنك. فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلّم إلّا معه ولا يسمع إلّا منه فهذا لايحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنّها لا تتحرّك إلّا بما هو فيه، وقيل: عليك بصحبة من يذكّرك الله رؤيته ويقع هيبته على قلبك ويعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله. فهذه درجة المراقبين الّذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متّسع لغير ذلك.

الدّرجة الثانية مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطّلاع الله

(١) في الاحياء «يترامون».

على ظواهرهم و بواطنهم و على قلوبهم و لكن لم تدهشهم ملاحظة الجمال و الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متّسعة للتلفّت إلى الأحوال و الأعمال إلّا أنّها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة فيها ، نعم غلب عليهم الحياء من الله تعالى فلا يقدمون و لا يجمحون إلّا بعد التثبّت فيه و يمتنعون عن كلّ ما يفتضحون به في القيامة فإنّهم يرون الله تعالى في الدّنيا مطّلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة ويعرف اختلاف الدّرجتين بالمشاهدات ، فإنّك في خلواتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبيّ أو امرأة فتعلم أنّه مطّلع عليك فتستحيي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك لا عن إجلال و تعظيم بل عن حياء فإنّ مشاهدته و إن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنّها تهيّج الحياء منك و قد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتّى تترك كلّ ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه ، فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى و من كان في هذه الدّرجة فيحتاج إلى أن يراقب جميع حركاته و سكناته وخطراته ولحظاته و بالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل أمّا قبل العمل فلينظر أنّ ما ظهر له وتحرّك لفعله خاطره أهو لله تعالى خاصّة أوهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقّف فيه ويتثبّت حتّى ينكشف له ذلك بنور الحقّ فإن كان لله أمضاه و إن كان لغير الله استحيا من الله و انكفّ عنه ثمّ لام نفسه على رغبتها فيه و همّها به و ميلها إليه و عزمها على سوء فعلها و سعيها في فضيحتها فإنّها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته ، و هذا التوقّف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإنّ في الخبر « أنّه ينشر للعبد في كلّ حركة من حركاته و إن صغرت ثلاثة دواوين الدّيوان الأوّل لِمَ ، و الثاني كيف ، والثالث لمن » فمعنى لم أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك ، فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الدّيوان الثاني كيف فعلت فإنّ الله في كلّ عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره و وقته و صفته إلّا بعلم فيقال : كيف فعلت أبعلم محقّق أم بجهل وظنّ ، فإن سلم من هذا نشر الدّيوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال :

لمن عملت ألوجه الله خالصاً ؟ وفاء بقولك « لا إله إلّا الله » فيكون أجرك على الله أولمراءاة خلق مثلك فخذأجرك منه ، أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفينا نصيبك من الدّنيا ، أم عملته بسهو وغفلة فقدسقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفّه بنعمتي ثمّ تعمل لغيري أما سمعتني أقول : « إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم »(١) « إنّ الّذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرّزق و اعبدوه » (٢) ويحك أما سمعتني أقول : « ألا لله الدّين الخالص » (٣) و إذا عرف العبد أنّه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب و أعدّ للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدىء ولا يعيد إلّا بعد التثبّت ولا يحرّك جفناً ولا أنملة إلّا بعد التأمّل .

و قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله لمعاذ : « إنّ العبد ليسأل عن كحل عينيه وعن فتّه الطين بأصبعيه و عن لمسه ثوب أخيه » (٤) و قيل : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة نظر وتثبّت فإن كان لله أمضاها ، و في حديث سعد حين أوصاه سلمان «اتّق الله عند همّك إذاهممت» وقال محمّد بن عليّ : إنّ المؤمن وقّاف متأن(٥) عند همّه ليس بحاطب ليل . فهذا هو النظر الأوّل في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلّا العلم المتين والمعرفة الحقيقيّة بأسرار الأعمال و أغوار النفس ومكائد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربّه و عدوّه و هو الشيطان و لم يعرف ما يوافق هواه و لم يميّز بينه و بين ما يحبّ الله تعالى ويرضاه في نيّته وهمّته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله عزّ وجلّ وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ، فلا تظننّ أنّ الجاهل بما يقدر على التعلّم فيه يعذر بالجهل هيهات بل طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنّه يعلم آفات النفوس ومكائد الشيطان و مواضع الغرور فيتّقيها و الجاهل

(١) الاعراف : ١٩٣ . (٢) العنكبوت : ١٧ . (٣) الزمر : ٣ .
(٤) لم أجده . (٥) أى لا يستعجل فى اموره .

لا يعرفها فكيف يحترز منها فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة ، فهما رأس كلّ شقاوة و أساس كلّ خسران فحكم الله على كلّ عبد أن يراقب نفسه عند همّه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقّف عن الهمّ و عن السعي حتّى ينكشف له بنور العلم أنّه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتّقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه و عن الهمّ به فإنّ الخطرة الاُولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرّغبة و الرّغبة تورث الهمّ والهمّ يورث جزم القصد و القصد يورث الفعل و الفعل يورث العقاب والمقت ، فينبغي أن تحسم مادّة الشرّ من منبعه الأوّل وهو الخاطر فإنّ جميع ماوراءه يتبعه ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكّر فيه بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد و الفكر فيه بنفسه فليستضيء بنور علماء الدّين و ليفرّ من العلماء المضلّين المقبلين على الدّنيا فراره من الأسد بل أشدّ فقد أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام : « ياداود لاتسأل عنّي عالماً أسكره حبّ الدّنيا فيقطعك عنّي و عن محبّتي اُولئك قطّاع طريق عبادي» فالقلوب المظلمة بحبّ الدّنيا وشدّة الشّره بها و التكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإنّ مستضاء أنوار القلوب حضرة الرّبوبيّة وكيف يستضيء بها من استدبرها و أقبل على عدوّها وعشق ضدّها و هي شهوات الدّنيا فلتكن همّة المريد أوّلاً في أحكام العلم و في طلب عالم معرض عن الدّنيا أو ضعيف الرّغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرّغبة فيها و قد قال عليه السلام : « إنّ الله يحبّ البصير الناقد عند ورود الشبهات » (١) و العقل الكامل عند هجوم الشهوات جمع بين الأمرين و هما متلازمان حقّاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ، و لذلك قال عليه السلام : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يرجع إليه أبداً» (٢) فما قدر العقل الضعيف الّذي يتّصف الآدمي به حتّى يعمد إلى محوه و محقه بمفارقة الذّنوب و معرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين بن عمر العدني ضعفه الجمهور كما في المغني . (٢) قد تقدم .

الأعصار فإنّ الناس كلّهم قدهجروا هذه العلوم و اشتغلوا بالتوسّط بين الخلق في الخصومات الثائرة من اتّباع الشهوات وقالوا : هذاهوالفقه وأخرجواهذا العلم الّذي هوفقه الدّين من جملة العلوم وتجرّدوا لفقه الدّنيا الّذي ما قصد به إلّا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرّغ لفقه الدّين وكان فقه الدّنيا من الدّين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر « أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع و سيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبّت » (١) فمن لم يتوقّف عند الاشتباه كان متّبعاً لهواه معجباً برأيه . و كان ممّن وصفه النبيّ عليه السلام إذ قال : « فإذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوى متّبعاً و إعجاب كلّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك »(٢) وكلّ من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى : « و لا تقف ما ليس لك به علم » (٣) و قوله عليه السلام : « إيّاكم و الظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث » (٤) و أراد به ظنّاً بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتّبع ظنّه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء بعض الصحابة « اللّهمّ أرني الحقّ حقّاً و ارزقني اتّباعه ، وأرني الباطل باطلاً و ارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهاً عليّ فأتّبع الهوى » وقال عيسى عليه السلام : « الأمور ثلاثة أمر استبان لك رشده فاتّبعه وأمر استبان غيّه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه » (٥). و قد كان من دعاء النبيّ عليه السلام « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من أن أقول في الدّين بغير علم »(٦) فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم و كشف الحقّ و الإيمان عبارة عن نوع كشف و علم و لذلك قال تعالى إمتناناً على عبده : « و كان فضل الله عليك عظيماً » (٧) و أراد به العلم و قال تعالى : « فاسئلوا أهل الذّكر إن كنتم لا

(١) قال العراقي : لم أجده .

(٢) قد تقدم . (٣) الاسراء : ٣٦ .

(٤) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ٥٧٧ والترمذي من حديث أبي هريرة . وقد تقدم .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس باسناد ضعيف و رواه الصدوق في الخصال أبواب الثلاثة من حديث الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله .

(٦) قال العراقي : لم أجده . (٧) النساء : ١١٢ .

تعلمون »[١] و قال : « إنّ علينا للهدى »[٢] وقال : «ثمّ إنّ علينا بيانه »[٣] وقال: « و على الله قصد السبيل »[٤].

قال علي عليه السلام : « الهوى شريك العمى، ومن التوفيق التوقّف عند الحيرة »[٥]

فاذن النظر الأوّل للمراقب نظره في الهمّة والحركة أهي لله تعالى أو للهوى وقد قال عليه السلام : « ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه لايخاف في الله لومة لائم ، ولا يرائي بشيء من عمله ، و إذا عرض له أمران أحدهما للدّنيا و الآخر للآخرة آثر الآخرة على الدّنيا »[٦] و أقلّ[٧] ماينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكنّه لايعنيه فيتركه لقوله عليه السلام : « من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه »[٨].

☼(النظر الثانى المراقبة عند الشروع فى العمل)☼

و ذلك بتفقّد كيفيّة العمل ليقضي حقّ الله تعالى فيه ويحسن النيّة في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه و هذا ملازم له في جميع أحواله فإنّه لايخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله عزّ وجلّ في جميع ذلك قدر على عبادة الله فيها بالنيّة و حسن الفعل و مراعاة الأدب فان كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم «خير المجالس مااستقبل به القبلة »[٩] ولا يجلس متربّعاً إذ لايجالس عند الملوك كذلك و ملك الملوك مطّلع عليك و إن كان

---

(١) النحل : ٤٣ . (٢) الليل : ١٢ .

(٣) القيامة : ١٩ . (٤) النحل : ٩ .

(٥) شطره الاول فى النهج كتابه عليه السلام الى ابنه الحسن(ع) وفيه « الهواء شريك العناء » وفى بعض نسخه كما فى المتن . ولم أجد شطره الثانى .

(٦) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة .(المغنى)

(٧) وفى بعض نسخ الاحياء « وأكثر».

(٨) تقدم فى آفات اللسان .

(٩) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٢٧٠ من حديث ابن عباس هكذا « ان لكل شيء شرفاً و أشرف المجالس ما استقبل به القبلة » .

ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب الّتي ذكرناها في مواضعها ، فكلّ ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابه وفاء بالمراقبة ، فاذن لا يخلو العبد إمّا أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح فمراقبته في الطاعة بالإخلاص و الإكمال و مراعاة الأدب و حراستها عن الآفات و إن كان في معصية فمراقبته بالتوبة و الندم و الإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكّر ، و إن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثمّ بشهود المنعم في النعمة و بالشكر عليها ، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليّة لابدّ له من الصبر عليها أو نعمة لا بدّ له من الشكر عليها ، و كلّ ذلك من المراقبة ، بل لا ينفكّ العبد في كلّ حال من فرض الله تعالى عليه إمّا فعل يلزمه مباشرته ، أومحظور يلزمه تركه ، أوندب حثّ عليه ليسارع به إلى مغفرة الله و يسابق به عباده ، أومباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكلّ واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة « ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه » فينبغي أن يتفقّد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة ، فاذا كان فارغاً من الفرائض و قدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإنّ من فاته مزيد ربح و هو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تنال بمزايا من الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى : «ولا تنس نصيبك من الدّنيا»(١) و كلّ ذلك إنّما يمكن بصبر ساعة واحدة فإنّ الساعات ثلاث : ساعة مضت لاتعب على العبد فيها كيف ما انقضت في مشقّة أو في رفاهية ، و ساعة مستقبلة لم تأت بعد ولا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري ما يقضي الله فيها ، و ساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربّه ، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسّر على فوات هذه الساعة ، و إن أتته الساعة الثانية استوفى حقّه منها كما استوفى من الاُولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته و كأنّه في آخر أنفاسه فلعلّه آخر أنفاسه وهو لا يدري ، و إذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت و هو على تلك الحالة

(١) القصص : ٧٧ .

ويكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبوذر من قوله عليه السلام: «لايكون المؤمن ظاعناً إلّا في ثلاث تزوّد لمعاد أومرمّة لمعاش أو لذّة في غير محرّم»(١) وما روي أيضاً عنه في معناه «على العاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربّه، و ساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكّر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فإنّ في هذه الساعة عوناً له على بقيّة الساعات»(٢) ثمّ هذه الساعات الّتي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم و المشرب لا ينبغي أن يخلو فيها عن عمل هو أفضل الأعمال و هو الذّكر و الفكر فإنّ الطعام الّذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكّر فيه وفطن له لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام قسم ينظرون بعين التبصّر و الاعتبار فينظرون في عجائب صنعها و كيفيّة ارتباط قوام الحيوانات بها و كيفيّة تقدير الله لأسبابها و خلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخّرة للشهوة فيها كما فصّلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الألباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت و الكراهة و يلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودّهم لو استغنوا عنه و لكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخّرين لشهواته وهذا مقام الزّاهدين، وقسم يرون في الصنعة الصانع ويترقّون منها إلى صفات الخالق فيكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكّر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه و هو أعلى مقامات العارفين و علامات المحبّين إذ المحبّ إذا رأى صنعة حبيبه و كتابه وتصنيفه نسي الصنعة و اشتغل قلبه بالصانع و كلّ ما يتردّد العبد فيه هو صنع الله تعالى فله في النظر منها إلى الصانع مجالٌ رحب إن فتحت له أبواب الملكوت و ذلك عزيزٌ جدّاً، و قسم رابع ينظرون فيه بعين الرّغبة و الحرص فيتأسّفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من

---

(١) رواه الصدوق فى الفقيه ص ٢٢١ وفى الخصال أبواب الثلاثة عن الصادق عليه السلام و فيهما فى حكمة آل داود عليه السلام و قد تقدم واخرجه ابن حبان وأحمد والحاكم و صححه أنه قال صلى الله عليه وآله: انه فى صحف موسى عليه السلام.

(٢) هذا تتمة حديث أبى ذر المتقدم، وروى الصدوق فى معانى الاخبار و كمال الدين نحوه و قد تقدم.

جملته و يذمّون منه ما لا يوافق هواهم و يعيبونه و يذمّون فاعله فيذمّون الطبيخ و والطبّاخ ولا يعلمون أنّ الفاعل للطبيخ والطبّاخ ولقدرته و علمه هو الله تعالى وإن من ذمّ شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذمّ الله ولذلك قال عليه السلام : « لا تسبوا الدّهر فإنّ الله هو الدّهر »[١] فهذه هي المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدّوام والاتّصال و شرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول .

✿(المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل)✿

و لنذكر فيها فضيلة المحاسبة ثمّ حقيقتها . أمّا الفضيلة فقد قال تعالى : «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد»[٢] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قيل : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا »[٣] و في الخبر أنّه عليه السلام جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني فقال : أمستوص أنت ؟ قال : نعم ، قال : «إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه و إن كان غيّاً فانته عنه »[٤] و في الخبر « ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه» وقال الله عزّ وجلّ : «وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون»[٥] و التوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقال عليه السلام : « إنّي لأستغفر الله عزّ وجلّ و أتوب إليه في اليوم مائة مرّة »[٦] و قال تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون »[٧] و عن ميمون بن مهران أنّه قال : لا يكون العبد من المتّقين حتّى يحاسب نفسه أتمّ من محاسبة

---

(١) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٤٥ من حديث أبى هريرة بسند صحيح .

(٢) الحشر : ١٨ .

(٣) رواه الكلينى فى الروضة ص ١٤٣ دون قوله « وزنوها قبل ان توزنوا » و ذكره المجلسى فى الجزء الثانى من المجلد الخامس عشر من البحار ص ٤٢ بتمامه و زيادة عن كتاب محاسبة النفس عن النبى صلى الله عليه وآله مرسلا .

(٤) تقدم ص ١٥٤ .

(٥) النور : ٣١ .

(٦) تقدم غير مرة .

(٧) الاعراف : ٢٠٠ .

شريكه و الشريكان إنّما يتحاسبان بعد العمل (١) ، وقال بعضهم : المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله و إنّما خفّ الحساب في الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدّنيا و إنّما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة ثمّ فسّر المحاسبة فقال : إنّ المؤمن يفجأ بالشيء يعجبه فيقول : و الله إنّك لتعجبني و إنّك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني و بينك وهذا حساب قبل العمل ثمّ قال : ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما ذا أردت بهذا و الله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

أقول: و معاني أكثر هذه الأخبار واردة من طريق الخاصّة أيضاً وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام « ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم فإن عمل حسناً استزاد الله تعالى وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه » (٢) و عن الصادق عليه السلام « اقصر نفسك عمّا يضرّها من قبل أن تفارقك واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإنّ نفسك رهينة بعملك » (٣) و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : «لو لم يكن للحساب مهولة الا حياء للعرض على الله عزّ وجلّ و فضيحة هتك الستر على المخفيّات لحقّ للمرء أن لا يهبط من رؤس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلّا عن اضطرار متّصل بالتلف ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها و شدائدها قائمة في كلّ نفس ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبّار حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنّه إلى عرصاتها مدعوّ و في غمراتها مسؤول قال الله عزّ و جلّ : « إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين» (٤) وقال بعض الأئمّة

(١) في المجلد الخامس عشر من البحار الجزء الثاني منه ص ٤٢ نقل عن يحيى بن الحسين بن هارون الحسني في كتاب أماليه باسناده عن الحسن بن علي عليهما السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « لايكون العبد ـ الخ » وأما ميمون بن مهران كان من الذين عنونهم الشعراني في الطبقات الكبرى المسمى بلواقح الانوار في طبقات الاخيار . وكان ممن عاصر الحسن البصري ، و قيل : لقي علياً عليه السلام ولم يثبت .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٥٣ تحت رقم ٢ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٥٥ تحت رقم ٨ .　(٤) الانبياء : ٤٧ .

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم بميزان الحياء قبل أن توزنوا» وقال أبوذر - رحمه الله - : ذكر الجنّة موت و ذكر النار موت فواعجبا لنفس تحيى بين موتين و روى عن يحيى بن زكريّا عليه السلام أنّه كان يفكّر في طول اللّيل في أمر الجنّة والنار فيسهر ليلته ولا يأخذه النوم ثمّ يقول عند الصباح : اللّهمّ أين المفرّ وأين المستقرّ اللّهمّ إلّا إليك »[1].

✿(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)✿

إعلم أنّ العبد كما يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيها نفسه على سبيل التوصية بالحقّ فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب النفس فيها ويحاسبها على جميع حركاتها و سكناتها و كذلك يفعل التجّار في الدّنيا مع الشركاء في آخر كلّ سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدّنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته و لو حصل ذلك لهم لكان لا يبقى إلّا أيّاماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلّق به خطر الشقاوة و السعادة أبد الآباد ، ما هذه المساهلة إلّا من الغفلة و الخذلان و قلّة التوفيق نعوذ بالله منه . و معنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال و في الرّبح و الخسران ليتبيّن له الزّيادة و النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه و شكره و إن كان من خسران طالبه بضمانه و كلّفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض و ربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمّارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أوّلاً فإن أدّتها على وجهها شكر الله عزّ وجلّ عليه ورغّبها في مثلها و إن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء فإن أدّتها ناقصة كلّفها الجبران بالنوافل و إن ارتكبت معصية اشتغل بعتابها و تعذيبها و معاقبتها و استوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه و كما أنّه يفتّش في حساب الدّنيا عن الحبّة و القيراط فيحفظ مداخل الزّيادة والنقصان حتّى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتّقي غائلة النفس و مكرها فإنّها خدّاعة ملبّسة مكّارة

(١) المصدر الباب الرابع و الثمانون .

فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلّم به طول نهاره و ليتكفّل بنفسه من الحساب ما سيتولاّه غيره في صعيد القيامة و هكذا عن نظره بل عن خواطره و أفكاره و قيامه و قعوده و أكله و شربه و نومه حتّى عن سكوته أنّه لم سكت و عن سكونه أنّه لم سكن فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصحّ عنده قدر ما أدّى الحقّ فيه كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي عليه فليثبته عليه و ليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الّذي هو على شريكه على قلبه و على جريدته ثمّ النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الدّيون أمّا بعضها فبالغرامة و الضمان و بعضها بردّ عينه و بعضها بالعقوبة لها على ذلك و لا يمكن شيء من ذلك إلّا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحقّ الواجب عليه فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة و الاستيفاء وينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر على يوم يوم و ساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة و الباطنة وعن معصيته بالقلب والجوارح في كلّ ساعة ولو رمى بكلّ معصية حجراً في صحن داره لامتلأت داره في مدّة قريبة من عمره ولكن يتساهل في حفظ المعاصي و الملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

(المرابطة الرابعة معاقبة النفس على تقصيرها)

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية و ارتكاب تقصير في حقّ الله فلا ينبغي أن يهملها فإنّه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي و أنس بها و عسر عليه فطامها و كان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع و إذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر و كذلك يعاقب كلّ طرف من أطراف بدنه بمنعه من شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة . و عن طلحة قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه و تمرّغ في الرّمضاء و كان يقول لنفسه ذوقي وعذاب جهنّم أشدّ حرّاً أجيفة باللّيل بطّالة بالنهار قال : فبينا هو كذلك إذ أبصر النبيّ ﷺ في ظلّ شجرة فأتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبيّ ﷺ : ألم يكن لك بدّ من الّذي صنعته أما لقد فتحت لك أبواب السماء و باهى الله عزّ و جلّ بك الملائكة ثمّ قال لأصحابه : تزوّدوا من

أخيكم فجعل الرّجل يقول له : يا فلان ادع لي : يا فلان ادع لي فقال عليه السلام: عمّهم فقال : اللّهمّ اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبيّ عليه السلام يقول : اللّهمّ سدّده فقال الرّجل : اللّهمّ اجعل الجنّة مآبهم» (١).

أقول : قد مضى هذا الحديث من طريق الخاصّة في كتاب الخوف على اختلاف في ألفاظه »(٢).

قال أبو حامد : « و عن وهب بن منبّه أنّ رجلاً تعبّد زماناً ثمّ بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كلّ سبت إحدى عشرة تمرة ثمّ سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال : منك أُتيت لو فيك خيراً لأُعطيت فنزل إليه ملك و قال : يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك الّتي مضت وقد قضى الله حاجتك ، فهكذا كانت عقوبة أُولي الحزم لأنفسهم .

و العجب أنّك تعاقب عبدك و أمتك و أهلك و ولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنّك لو تجاوزت عنهم خرج أمرهم من يدك و بغوا عليك ثمّ تهمل نفسك وهي أعظم عداوة لك وضراوة ، وأشدّ طغياناً عليك و ضررك من طغيانها أعظم ضرراً من طغيان أهلك فإنّ غايتهم أن يشوّشوا عليك معيشة الدّنيا و لو عقلت لعلمت أنّ العيش عيش الآخرة و أنّ نعيم الجنّة هو النعيم المقيم الّذي لا آخر له و نفسك هي الّتي تنغّص عليك عيش الآخرة فهي أولى بالمعاقبة من غيرها .

(المرابطة الخامسة المجاهدة)

وهي أنّه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات الّتي مضت و إن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدّبها بتثقيل الأوراد عليها و يلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه (ص) وهذا منقطع أو مرسل (المغنى) ورواه الصدوق باسناده عن ليث بن أبى سليم قال : سمعت رجلا من الانصار يقول .... راجع مجالس الصدوق المجلس الرابع والخمسين .

(٢) ص ٣٠٨ ج ٧ .

منه وتداركاً لما فرط فهكذا كان يعمل عمّال الله تعالى فقد عاقب بعضهم نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدّق بأرض قيمتها مائة ألف درهم، و كان بعضهم إذا فاتته صلاة في جماعة أحيى تلك اللّيلة، و أخّر ليلة صلاة المغرب حتّى طلع كوكبان فأعتق رقبتين. وفات من ابن ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة، وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحجّ ماشياً أو التصدّق بجميع ماله كلّ ذلك مرابطة للنفس و مؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

أقول: وفي مصباح الشريعة عن الصّادق عليه السلام قال: «طوبى لعبد جاهد لله نفسه وهواه، ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله، و من جاوز عقله نفسه الأمّارة بالسّوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله فقد فاز فوزاً عظيماً، و لا حجاب أظلم وأوحش بين العبد و بين الله تعالى من النفس و الهوى، و ليس لقتلهما في قطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله والخشوع والجوع والظمأ بالنّهار والسهر باللّيل فإن مات صاحبه مات شهيداً و إن عاش واستقام أدّاه عاقبته إلى الرّضوان الأكبر قال الله عزّ وجلّ: «و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ الله لمع المحسنين» [١] و إذا رأيت مجتهداً أبلغ منك في الاجتهاد فوبّخ نفسك و لمها و عيّرها تحثيثاً على الازدياد عليه واجعل لها زماماً من الأمر وعناناً من النهي وسقها كالرّائض للفارة الّذي لا يذهب عليه خطوة من خطواتها إلّا وقد صحّح أوّلها وآخرها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلّي حتّى يتورّم قدماه ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» أراد أن يعتبر به أمّته فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبّد والرّياضة بحال إلّا و إنّك لو وجدت حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتها و استضأت بنورها لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت إرباً إرباً فما أعرض من أعرض إلّا بحرمان فوائد السلف من العصمة و التوفيق، قيل لربيع بن خثيم: مالك لا تنام باللّيل؟ قال: لأنّي أخاف البيات» [٢].

قال أبو حامد: فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على الاجتهاد والمرابطة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟ فأقول: علاجها أن تسمعها ما ورد في الأخبار من

---

(١) العنكبوت: ٦٩. (٢) المصدر الباب الثمانون.

فضل المجتهدين و من أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أحواله و تقتدي به. فكان بعضهم يقول : إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع و إلى اجتهاده في العبادة فعملت على ذلك أسبوعاً . إلّا أنّ هذا العلاج قد تعذّر إذ فقد في عباد الله من يجتهد في عبادة الله اجتهاد الأوّلين فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد و قد انقضى تعبهم و بقي ثوابهم و نعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم و ما أشدّ حسرة من لا يقتدي بهم فتمتّع نفسه أيّاماً قلائل بشهوات مكدّرة ثمّ يأتيه الموت و يحال بينه و بين كلّ ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله منه ، ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرّك رغبة المريدين في الاجتهاد اقتداءً بهم فقد قال عليه السلام : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى»(١) قيل : أجهدتهم العبادة ، قال الله تعالى : « والّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة »(٢) قيل : يعملون ما عملوا من أعمال البرّ و يخافون أن لا يقبل و أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله ، و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»(٣) ويروى أنّ الله عزّ وجلّ يقول لملائكته : « ما بال عبادي مجتهدين فيقولون : إلهنا خوّفتهم شيئاً فخافوه وشوّقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تعالى : فكيف لو رأوني عبادي لكانوا أشدّ اجتهاداً . و قال بعض السلف : أدركت أقواماً و صحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدّنيا أقبل ، ولا يتأسّفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الّذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كلّه ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قطّ ولا جعل بينه و بين الأرض شيئاً قط و أدركتهم عاملين بكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم إذا جنّهم اللّيل فقيام على أقدامهم يفترشون

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ وفى كلام أمير المؤمنين فى خطبته التى وصف فيها المتقين لهمام « ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى و ما بالقوم من مرض ».
(٢) المؤمنون : ٦١ .
(٣) أخرجه الطبراني فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبدالله بن بسر .

وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربّهم في فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها[1] وسألوا الله أن يتقبّلها ، وإذا عملوا السيّئة أحزنتهم و سألوا الله أن يغفرها لهم ما زالوا كذلك و على ذلك والله ما سلموا من الذّنوب و لا نجوا إلّا بالمغفرة . و يحكى أنّ قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه و إذا فيهم شابّ ناحل الجسم فقال له عمر : يا فتى ما الّذي بلغ بك ما أرى فقال : يا أمير المؤمنين أسقام و أمراض فقال : سألتك بالله إلّا صدقتني فقال : يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدّنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها و كأنّي أنظر إلى عرش ربّي بارزاً والناس يساقون إلى الجنّة والنار فأظمأت لذلك نهاري و أسهرت له ليلي و قليلٌ كلّ ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو الدّرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف اللّيل ومجالسة أقوام ينتقون أطائب الكلام كما ينتقى أطائب التمر. و قيل : إنّ قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا : يا راهب إنّا قد أخطأنا الطريق فكيف هو فأومأ برأسه إلى السماء فلم يعلم الناس ما أراد ، فقالوا : يا راهب إنّا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال : سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث ، فتعجّب القوم من كلامه فقالوا : يا راهب على م يحشر الخلق غداً عند مليكهم فقال : على نيّاتهم ، فقالوا : أوصنا فقال : تزوّدوا على قدر سفركم فإنّ خير الزّاد ما بلغ البغية ثمّ أرشدهم إلى الطريق و أدخل رأسه في صومعته . و قال عبد الواحد ابن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجب فناديته الثالثة فأشرف عليّ وقال : يا هذا ما أنا براهب إنّما الرّاهب من رهب الله في سمائه وعظّمه في كبريائه و صبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه و شكره على نعمائه و تواضع لعظمته و ذلّ لعزّته واستسلم لقدرته و خضع لمهابته وفكر في حسابه و عقابه فنهاره صائم و ليله قائم قد أسهره ذكر النّار ومسألة

(١) أى جدّوا وتعبوا واستمروا عليه .

الجبّار فذاك هو الرّاهب فأمّا أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلّا أعقرهم ، فقلت : يا راهب فما الّذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه ؟ فقال : يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلّا حبّ الدّنيا و زينتها لأنّها محلّ المعاصي والذّنوب فالعاقل من رمى بها عن قلبه و تاب إلى الله من ذنبه و أقبل على ما يقرّبه من ربّه .

وكان اُويس القرني يقول : هذه ليلة الرّكوع فيحيي اللّيلة كلّها في ركعة وإذا كانت اللّيلة الآتيه قال : هذه ليلة السجود فيحيي اللّيلة كلّها في سجدة . و يروى عن رجل من أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال : « صلّيت خلف عليّ بن أبي طالب عليه السلام الفجر فلمّا سلّم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتّى طلعت الشمس ثمّ قلّب يده فقال : والله لقد رأيت أصحاب محمّد صلّى الله عليه وآله وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله عزّ وجلّ يراوحون بين أقدامهم وجباههم فكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الرّيح وهملت أعينهم حتّى ابتلّ ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله . وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : «سيما الصّالحين صفرة الألوان من السهر و عمش العيون من البكاء و ذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين » (١) و قيل بعض السلف : ما بال المتهجّدين أحسن النّاس وجوهاً ؟ فقال : إنّهم خلوا بالرّحمن فألبسهم نوراً من نوره . و كان عامر بن عبد قيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤامرني و تميتني ولا تعلمني و خلقت معي عدوّا و جعلته يجري منّي مجرى الدّم و جعلته يراني و لا أراه ثمّ قلت لي استمسك ، إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني ، إلهي في الدّنيا الهموم والأحزان و في الآخرة العقاب والحساب فأين الرّاحة والفرح ، وقال بعض الحكماء : إنّ لله عزّ وجلّ عباداً أنعم عليهم فعرفوه و شرح صدورهم فأطاعوه و توكّلوا عليه فسلّموا الخلق و الأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين و بيوتاً للحكمة و توابيت للعظمة و خزائن للقدرة فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بحجب الغيوب ثمّ ترجع ومعها طرائف من لطيف الفوائد مالا يمكن واصفاً أن يصفه

(١) روى الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ نحوه .

فهم في باطن اُمورهم كالدّيباج حسناً وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً.

و هذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلّف و إنّما هو فضل الله يؤتيه من يشاء ، و قال بعض الصّالحين : بينا أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هنالك فإذا أنا بصوت قد علا وإذاً تلك الجبال تجيبه لها دويّ عال فأتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتفّ ، و إذا أنا برجل قائم يردّد هذه الآية « يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً - إلى قوله : - ويحذّركم الله نفسه »[1] قال: فجلست خلفه أسمع كلامه و هو يردّد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ بها مغشيّاً عليه قلت : وا أسفاه هذا لشقائي ، ثمّ انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذّابين ، أعوذ بك من أعمال البطّالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين، ثمّ قال : لك خشعت قلوب الخائفين و إليك فزعت آمال المقصّرين و لعظمتك ذلّت قلوب العارفين ، ثمّ نفض يديه فقال : مالي وللدّنيا وما للدّنيا ولي عليك يادنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى محبّيك فاذهبي و إيّاهم فاخدعي ثمّ قال : أين القرون الماضية و أهل الدّهور السالفة في التراب يبلون وعلى مرّ الزّمان يفنون ، فناديته يا عبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال : و كيف يفرغ من يبادر الأوقات و تبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه أم كيف يفرغ من ذهبت أيّامه و بقيت آثامه ، ثمّ قال : أين أنت لها ولكلّ شدّة أتوقّع نزولها ، ثمّ لهى عنّي ساعة وقرأ « وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون» ثمّ صاح صيحة اُخرى أشدّ من الاُولى وخرّ مغشيّاً عليه منها فقلت : قد خرجت نفسه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثمّ أفاق وهو يقول : ما أنا ما خطري هب لي إساءتي بفضلك وجلّلني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك . فقلت له : بالّذي ترجوه لنفسك و تثق به إلّا كلّمتني فقال : عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنّي لفي هذا الموضع منذ ما شاء الله اُجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجدعوناً عليّ ليخرجني ممّا أنا فيه غيرك فإليك عنّي يا مخدوع فقد عطّلت عليّ لساني ومالت إلى حديثك شعبة من قلبي فأنا أعوذ بالله

(١) آل عمران : ٢٨ .

من شرّك ثمّ أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضّل عليّ برحمته قال : فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأُعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في مسيرلي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال : يا هذا قم فإنّ الموت لم يمت ثمّ هام على وجهه فأتبعته فسمعته و هو يقول : «كلّ نفس ذائقة الموت اللّهمّ بارك لي في الموت» فقلت : وفيما بعد الموت فقال: من أيقن بما بعد الموت شمّر مئزر الحذر ولم يكن له في الدّنيا مستقرّ ، ثمّ قال : « يا من لوجهه عنت الوجوه بيّض وجهي بالنظر إليك واملأ قلبي من المحبّة لك و أجرني من ذلّة التوبيخ غداً عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرّجوع عن الإعراض عنك ، ثمّ قال : لولا حلمك لم يسعني أجلي ، و لولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي ، ثمّ مضى وتركني و قد أنشدوا في هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ✩ تراه بقنّة أو بطن واد
ينوح على معاصي فادحات ✩ يكدّر ثقلها صفو الرّقاد
فإن هاجت مخاوفه و زادت ✩ فدعوته أغثني يا عمادي
فأنت بما اُلاقية عليم ✩ كثير الصفح عن زلل العباد

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمرّدت نفسك عليك و امتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنّه قد عزّ الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فإن لم يكن إبل فمعزى ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم و الكون في غمارهم وهم العقلاء و الحكماء و ذووالبصائر في الدّين و بين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبّه بالاغبياء . وتؤثر مخالفة العقلاء فإن حدّثتك نفسك بأنّ هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها : ألا تستنكفين يا نفس أن تكوني أقلّ من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات

فقد روي عن حبيبة العدويّة أنّها كانت إذاصلّت العتمة قامت على سطح لها وشدّت عليها درعها وخمارها ثمّ قالت : إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها وخلا كلّ حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ، ثم أقبلت على صلاتها فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت : إلهي هذا اللّيل قد أدبر ، و هذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت منّي ليلتي فأهنأ أو رددتها عليّ فأعزي و عزّتك لهذا دأبي و دأبك ما أبقيتني وعزّتك لوانتهرتني عن بابك مابرحته لما وقع في نفسي من جودك وكرمك .

و يروى عن عجرة أنّها كانت تحيى اللّيل و كانت مكفوفة البصر فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى اللّيالي ، يستبقون إلى رحمتك و فضل مغفرتك ، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين و أن ترفعني لديك في علّيّين في درجة المقرّبين و أن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرّحماء و أعظم العظماء و أكرم الكرماء يا كريم ، فخرّت ساجدة فسمعت لها وجبة ثمّ لاتزال تدعو وتبكي إلى الفجر .

و قال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة [1] فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لوأتيناها إذا خلت فأمرناها بالرّفق بنفسها قال أنت و ذاك قال : فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك و أقصرت عن هذا البكاء شيئاً لكان ذلك أقوى على ما تريدين فبكت ثمّ قالت : والله لوددت أن أبكي حتّى تنفد دموعي ثمّ أبكي دماً حتّى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي ، وأنّى لي بالبكاء و أنّى لي بالبكاء ، فلم تزل تردّد « و أنّى لي بالبكاء » حتّى غشي عليها .

وقال محمّد بن معاذ : حدّثتني امرأة من المتعبّدات قالت : رأيت في منامي كأنّي اُدخلت الجنّة فإذا أهل الجنّة قيام على أبوابها فقلت : ما شأن أهل الجنّة قياماً؟ فقال لي قائل : خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة الّتي زخرفت الجنان لقدومها قلت : ومن هذه المرأة ؟ قيل: أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة قالت : فقلت : اُختي

(١) في طبقات الشعراني نبذ يسير من حالاتها فراجعه .

والله فبينا أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلمّا رأيتها ناديتها يا أُختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك، قالت: فتبسّمت إليّ وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظي عنّي اثنتين ألزمي الحزن قلبك وقدّمي محبّة الله على هواك، ولا يضرّك متى مت.

وقال عبد الله بن الحسن: كانت لي جارية روميّة وكنت بها معجباً وكانت في بعض اللّيالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبّك لي إلّا غفرت لي ذنوبي، فقلت لها: لا تقولي بحبّك لي ولكن قولي بحبّي اك، فقالت: لا يا مولاي بحبّه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام وبحبّه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشي: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريّة فنزلت في بعض ديارنا قال: فكنت أسمع لها من اللّيل أنيناً وشهيقاً، فقلت يوماً لخادم لي أشرف على هذه المرأة فانظر ما ذا تصنع، فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنّها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة تقول: خلقت سريّة ثمّ غذّيتها بنعمتك من حال إلى حال وكلّ أحوالك لها حسنة وكلّ بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرّضة لسخطك بالتوثّب على معاصيها فلتة بعد فلتة، أتراها تظنّ أنّك لا ترى سوء فعالها وأنت عليمٌ خبيرٌ وأنت على كلّ شيء قدير.

وقال ذو النّون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان فلمّا علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول: «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» ويبكي فلمّا قرب منّي السواد إذا هو امرأة عليها جبّة صوف وبيدها ركوة فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة منّي قلت: رجلٌ غريبٌ، فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت: ما الّذي أبكاك؟ قلت: وقع الدّواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله والصادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأنّ البكاء راحة للقلب، فسكتُّ متعجباً من قولها.

وقال بعض الصالحين: خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشيّة فاحتبستها في موضع بناحية السوق و ذهبت في بعض حوائجي و قلت : لا تبرحي من مكانك حتّى أنصرف إليك قال : فانصرفت فلم أجدها في الموضع و انصرفت إلى منزلي و أنا شديد الغضب عليها فلمّا رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت لي : يا مولاي لا تعجل عليّ إنّك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها : أنت حرّة فقالت : لي ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأمّا الآن فقد ذهب عنّي أحدهما .

و قال ابن العلاء السعدي : كانت لي ابنة عمّ يقال لها : بريرة وتعبّدت وكانت تكثر القراءة في المصحف فكلّما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكي حتّى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمّها : انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتّى نعذلها في كثرة البكاء ، قال : فدخلنا عليها فقلنا : يا بريرة كيف أصبحت؟ فقالت : أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب ، فقلنا لها : إلى كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ؟ فقالت : إن يكن لعينيّ عندالله خيرٌ فما يضرّهما ماذهب منهما في الدّنيا و إن كان لهما عند الله شرٌّ فبين أيديهما بكاء أطول من هذا و أعرضت ، قال : فقال القوم : قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه .

وكانت معاذة العدويّة إذا جاء النهار تقول : هذا يومي الّذي أموت فيه فما تطعم حتّى تمسى و إذا جاء اللّيل تقول : هذه اللّيلة الّتي أموت فيها فتصلّي حتّى تصبح .

وقال أبو سليمان الدّاراني : بتّ ليلة عند رابعة فقامت إلى محرابها وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلمّا كان السحر قلت : ما جزاء من قوّانا على قيام هذه اللّيلة قالت : جزاؤه أن نصوم له غداً .

و كانت شعوانة تقول في دعائها : إلهي ما أشوقني إلى لقائك و أعظم رجائي لجزائك و أنت الكريم الّذي لا يخيب لديك أمل الآملين و لا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهي إن كان دنا منك أجلي ولم يقرّبني منك عملٌ فقد جعلت الاعتراف

بالذنب وسائل عللي ، فإن عفوت فمن أولى بذلك منك ، و إن عذّبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهي إنّك لم تزل لي برّاً أيّام حياتي فلاتقطع عنّي برّك بعد مماتي و لقد رجوت ممّن تولّاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي و لم تولّني إلّا الجميل في حياتي . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإنّ محبّتي لك قد أجارتني فتولّ من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غرّه جهله ، إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني و لو أردت فضيحتي لم تسترني فمتّعني بما له هديتني و أدم لي ما به سترتني ، إلهي ما أظنّك تردّني في حاجة أفنيت فيها عمري ، إلهي لولا ما قارفت من الذّنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .

و قال الخوّاص دخلنا على رحلة العابدة و كانت صامت حتّى اسودّت وبكت حتّى عميت وصلّت حتّى أقعدت فكانت تصلّي قاعدة فسلّمنا عليها ثمّ ذكرناها شيئاً من العفو ليهوّن عليها الأمر قال : فشهقت ثمّ قالت : علمي بنفسي قرح فؤادي و كلم كبدي ، والله لوددت أنّ الله لم يخلقني و لم أك شيئاً مذكوراً ، ثمّ أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرّجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك و يزيد حرصك ، و إيّاك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنّك إن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله ، و حكايات المجتهدين غير محصورة و فيما ذكرناه كفاية للمريد ، و إن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبُعد أهل عصرك من أهل الدّين فإن حدّثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك و قالت : إنّما تيسّر الخير في ذلك الزّمان لكثرة الأعوان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً و سخروا بك فوافقهم فيماهم فيه وعليه فلا يجري عليك إلّا مايجري عليهم والمصيبة إذا عمّت

طابت ، فإيّاك أن تتدلّى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها و قل لها : أرأيت لوهجم سيل جارف يغرق أهل البلد و ثبتوا على مواضعهم و لم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال و قدرت على أن تفارقيهم و تركبي سفينة تنجو بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أنّ المصيبة إذا عمّت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجهليهم في صنيعهم وتأخذين حذرك ممّا دهاك فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يكون إلّا ساعة فكيف لاتهربين من عذاب الأبد و أنت متعرّضة له في كلّ حال و من أين تطيب المصيبة إذا عمّت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص و لم يهلك الكفّار إلّا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : « إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة و إنّا على آثارهم مقتدون » فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك أن تعمد على الاجتهاد و إن استعصت فلا تترك معاتبتها و توبيخها و تقريعها و تعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها .

✲(المرابطة السادسة في توبيخ النفس و معاتبتها)✲

إعلم أنّ أعدى عدوّك نفسك الّتي هي بين جنبيك و قد خلقت أمّارة بالسوء ميّالة إلى الشرّ فرّارة من الخير واُمرت بتزكيتها و تقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربّها و خالقها و بمنعها عن شهواتها و فطامها عن لذّاتها فإن أهملتها شردت وجمحت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللّوامة الّتي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنّة المدعوّة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضيّة فلا تغفلنّ ساعة عن تذكيرها و معاتبتها ولا تشتغلنّ بوعظ غيرك مالم تشتغل أوّلاً بوعظ نفسك .

أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام «يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ الناس و إلّا فاستحي منّي » و قال تعالى : « و ذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين » (١) و سبيلك أن تقبل عليها فتقرّر عندها جهلها و غباوتها فإنّها أبداً تتعزّز بفطنتها وهدايتها وتشتدّ أنفتها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك

(١) الذاريات : ٥٥ .

تدّعين الحكمة والذّكاء والفطنة و أنت أشدّ الناس غباوة و حمقاً أما تعرفين ما بين يديك من الجنّة والنار و أنت صائرة إلى إحديهما على القرب فمالك تفرحين و تضحكين وتشتغلين باللّهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله تعالى قريباً أما تعلمين أنّ كلّ ما هو آت قريب وأنّ البعيد ما ليس بآت ، أما تعلمين أنّ الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول و من غير مواعدة ومواطأة ، و أنّه لايأتي في شتاء دون صيف ، ولافي صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ، ولافي ليل دون نهار ، ولايأتي في سنّ الصبا دون الشباب ولافي الشباب دون الصبّا بل كلّ نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثمّ يفضي إلى الموت فمالك لاتستعدّين للموت و هو أقرب إليك من كلّ قريب أما تتدبّرين قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ✿ ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث إلّا استمعوه وهم يلعبون ✿ لاهية قلوبهم» (١) ويحك يا نفس جرأتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أنّ الله لا يراك فما أعظم كفرك و إن كانت مع علمك باطّلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقلّ حياءك ويحك لو واجهك أخ من إخوانك بل عبد من عبادك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه و مقتك له فبأيّ جسارة تتعرّضين لمقت الله تعالى و غضبه و شديد عقابه أفتظنّين أنّك تطيقين عذابه هيهات هيهات جرّبي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قرّبي أصبعك من النار ليتبيّن لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله عزّ وجلّ و فضله و استغنائه عن طاعتك و عبادتك فمالك لاتعولين على كرم الله في مهمّات دنياك فإذا قصدك عدوّ فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولاتكلينه إلى كرم الله عزّ وجلّ ، و إذا أرهقك حاجة إلى شهوة من شهوات الدّنيا ممّا لاينقضي إلّا بالدينار والدّرهم فما لك تنزعين الرّوح في طلبه و تحصيله من وجوه الحيل ؟ فلم لاتعولين على كرم الله عزّ و جلّ حتّى يعينك على ذلك أو يسخّر عبداً من عبيده ليحمل إليك حاجتك من غير سعيك و طلبك أفتحسبين

(١) الانبياء : ٢ و ٣ و ٤ .

أنّ الله كريم في الآخرة دون الدّنيا و قد عرفت أنّ سنّة الله لا تبديل لها وأن الدّنيا والآخرة واحد وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى ، ويحك يا نفس ما أعجب نف كثرة دعاويك الباطلة فإنّك تدّعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم ي سيّدك ومولاك : « ومامن دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها »(١) وقال في أمر الآ « و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى (٢) » فقد تكفّل لك بأمر الدّنيا خاصّة و عن السّعي لها فكذّبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش الم وكّل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما ه علامات الايمان فلو كان الايمان باللّسان فلما ذا كان المنافقون في الدّرك ا من النّار . و يحك كأنّك لا تؤمنين بيوم الحساب و تظنّين أنّك إذا متّ ان تخلّصت وهيهات أتحسبين أن تتركي سدى ، ألم تكوني نطفة من منيّ يمنى كنت علقة فخلق فسوّى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، فإن كان هذا من إ فما أكفرك و أجهلك أما تتفكّرين أنّه ممّا ذا خلقك من نطفة خلقك فقدّ السبيل يسّرك ، ثمّ أماتك فأقبرك أفتكذّبينه في قوله « ثمّ إذا شاء أنشرك »؟ تكوني مكذّبة فما بالك لا تأخذين حذرك ولو أنّ يهوديّاً أخبرك في ألذّ أ بأنّه يضرّك في بدنك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول المؤيّدين بالمعجزات و قول الله عزّ وجلّ في كتبه المنزلة أقلّ عندك تأثيراً ، يهوديّ يخبرك عن حدس و تخمين وظنّ مع نقصان عقل و قصور علم ؟! و أنّه لو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعته في الحال من غير مطالبة له و دليل أكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء و كافّة الأولياء أقلّ عندك صبيّ من جملة الأغبياء ؟ أو صار حرّ جهنّم وصديدها و أغلالها وأنكالها و ز مقامعها و حديدها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من لذع عقرب لا تحسّين يوماً أوأقلّ ؟ ما هذا من أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحك و سخروا من عقلك ، فإن كنت قد عرفت جميع ذلك و آمنت به فمالك تسوّ ف

(١) هود : ٦ . (٢) النجم : ٣٩ .

والموت لك بالمرصاد ولعلّه يختطفك من غير مهل فبماذا أمنت استعجال الأجل . وهب إنّك وعدت الإمهال ألف سنة أفتظنّين أنّ من لا يعلف الدّابة في حضيض العقبة يفلح و يقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك ، أرأيت لو سافر رجل ليتفقّه في الغربة فأقام فيها سنين متعطّلاً بطّالاً يعد نفسه بالتفقّه في السنة الأخيرة من رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله و ظنّه أن تفقّيه النفس ممّا يطمع فيه بمدّة قريبة ، أوحسبانه أنّ منازل الفقهاء تنال من غير تفقّه اعتماداً على كرم الله سبحانه ، ثمّ هب أنّ الجهد في آخر العمر نافع و أنّه موصل إلى الدّجات العلى فلعلّ اليوم آخر عمرك فلم لاتشتغلين به فإن اُوحي إليك بالإمهال فما المانع لك من المبادرة و ما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلّا عجزك عن مخالفة شهوتك لما فيه من التعب و الشقّة أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله و لا يخلقه و لاتكون الجنّة قطّ إلّا محفوفة بالمكاره ، ولا يكون المكاره قطّ خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده ، أما تتأمّلين منذ كم تعدين نفسك وتقولين: غداً غداً ، فقد جاء الغد و صار يوماً فكيف وجدته ، أما علمت أنّ الغد الّذي جاء و صار يوماً كان له حكم الأمس لا بل ما تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز لأنّ الشهوة كالشجرة الرّاسخة الّتي تُعبّد الرّجل على قلعها فإذا عجز عن قلعها للضعف وأخّرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شابّ قويّ فأخّرها إلى سنة اُخرى مع العلم بأنّ طول المدّة يزيد الشجرة قوّة ورسوخاً و يزيد القالع ضعفاً ووهناً فما لا يقدر عليه في الشباب فلا يقدر عليه قطّ في المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، و من التعذيب تهذيب الذّئب ، والقضيب الرّطب سهل الانحناء فإذا جفّ و طال عليه الزّمان لم يقبله ، فإذا كنت لا تفهمين هذه الاُمور الجليّة و تركنين إلى التسويف فمالك تدّعين الحكمة وأيّة حماقة تزيد على هذه الحماقة و لعلّك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلّا حرصي على لذّة الشهوات وقلّة صبري على الآلام و المشقّات فما أحمقك و أقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعّم بالشهوات الصافية عن الكدورات أبد الآباد و لا مطمع في ذلك إلّا في الجنّة فإن كنت ناظرة لنفسك فالنظر

لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات ، و ما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح و يتهنأ لشربه طول العمر و أخبر أنه إن شربه مرض مرضاً مزمناً و امتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر و إن طالت مدته ، و ليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة و أطول مدة أم ألم النار في دركات جهنم ؟! فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ . ماأراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وعظم قدر الثواب و العقاب و أما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى و عفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لاتعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز وحبة من المال وكلمة واحدة تسمعينها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من النبي عليه السلام حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأماني »(١) و يحك يا نفس لا ينبغي أن تغرنك الحياة الدنيا و لايغرنك بالله الغرور ، فانظري لنفسك فيما أمرك و لاتضيعي أوقاتك فإن الأنفاس معدودة و إذا مضى نفس منك فقد مضى بعضك ، فاغتنمي الصحة قبل السقم ، و الفراغ قبل الشغل ، و الغنى قبل الفقر و الشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، و استعدي للآخرة على قدر بقائك فيها أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب واللبد والجبة ولاتتكلين في ذلك على فضل الله و كرمه حتى يدفع البرد عنك من غير جبة ولبد وحطب فانه قادر على ذلك ، أفتظنين أن زمهرير جهنم أخف برداً أو أقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ،

(١) أخرجه ابن ماجه فى السنن وتقدم غير مرة .

هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلّا بالجبّة و النار و سائر الأسباب فلا يندفع حرّ النار و بردها إلا بحصن التوحيد و خندق الطاعات و إنّما كرم الله عزّ وجلّ في أن عرّفك طريق التحصّن ويسّر لك أسبابه لافي أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كما أنّ كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النّار و هداك لطريق استخراجها من بين حديدة و حجر حتّى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك و كما أن شرى الحطب و الجبّة ممّا يستغنى عنه خالقك و مولاك و إنّما تشترينه لنفسك إذ جعله سبباً لاستراحتك و طاعتك و مجاهدتك أيضاً هو مستغن عنها و إنّما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه و من أساء فعليها والله غنيّ عن العالمين ، و يحك انزعي عن جهلك و قيسي آخرتك بدنياك «فما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة وكما بدأكم تعودون» وسنّة الله لن تجدلها تبديلاً ولا تحويلاً ، و ما أراك إلّا ألفت الدّنيا و أنست بها فعسّرت عليك مفارقتها و أنت مقبلة على مقاربتها و تؤكّدين نفسك مودّتها ، فاحسبي أنّك غافلة عن عقاب الله و ثوابه و عن أهوال يوم القيامة وأحوالها فما أنت موقنة بالموت المفرّق بينك وبين محابّك ، أفترى أنّ من دخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنّه يستغرق ذلك قلبه ثمّ يضطرّ لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقاء ، أما تعلمين أنّ الدّنيا دار لملك الملوك و ما أنت فيها إلّا مجتاز و كلّ ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت و لذلك قال سيّد البشر صلى الله عليه وآله : « إنّ روح القدس نفث في روعي أحبب ما أحببت فإنّك مفارقه ، و عش ما شئت فإنّك ميّت ، و اعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به (١) » أما تعلمين أنّ كلّ من التفت إلى ملاذّ الدنيا و أنس بها مع أنّ الموت من ورائه فإنّما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنّما يتزوّد من السمّ المهلك و هو لا يدري ، أو ما تنظرين إلى الّذين مضوا كيف بنوا و علوا ثمّ ذهبوا و خلّوا ، و كيف أورث الله أرضهم و ديارهم أعداءهم ، أما تراهم كيف يجمعون ما لا يأكلون و يبنون ما لا يسكنون و يأمّلون ما لا يدركون ، يبني كلّ واحد قصراً

(١) تقدم في العلم وغيره .

مرفوعاً إلى جهة السّماء و مقرّه قبر محفور تحت الأرض فهل في الدّنيا حمق و انتكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه و هو مرتحلٌ عنها يقيناً و يخرب آخرته و هو صائر إليها قطعاً ، أما تستحين من مساعدة هؤلاء على حماقتهم و احسبي أنّك لست ذات بصيرة تهتدين إلى هذه الاُمور وإنّما تميلين بالطبع إلى التشبّه والاقتداء فقيسي عقل الأنبياء و الحكماء و العلماء بعقل هؤلاء المكبّين على الدّنيا و اقتدى بين الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذّكاء يانفس ما أعجب أمرك و أشدّ جهلك و أظهر طغيانك ، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الاُمور الواضحة الجليّة فلعلّك أسكرك حبّ الجاه و أدهشك عن فهمها أو ما تتفكّرين في أنّ الجاه لا معنى له إلّا ميل قلوب الناس إليك فاحسبي أنّ كلّ من على وجه الأرض سجدوا لك و أطاعوك أفما تعرفين أنّ بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولاأحد ممّن على وجه الأرض ممّن عبدك و سجد لك و سيأتي زمان لا يبقى ذكرك و ذكر من ذكرك كماأتى على الملوك الّذين كانوا من قبلك فهل تحسّ منهم من أحد أوتسمع لهم ركزا . فكيف تبيعين ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة لو بقي هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلّم لك الشرق و الغرب حتّى أذعنت لك الرّقاب و انتظمت لك الأسباب كيف و يأبى إدبارك و شقاوتك أن يسلّم لك أمر محلّتك بل أمر دارك فضلاً عن محلّتك فإن كنت لاتتركين الدّنيا رغبة في الآخرة لجهلك و عمى بصيرتك فما لك لاتتركينها ترفّعاً عن خسّة شركائها ، و تنزّهاً عن كثرة عنائها ، و توقّياً من سرعة فنائها أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ، و مالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلاتخلو بلدك عن جماعة من يهود أو مجوس يسبقونك بها و يزيدون عليك في نعيمها و زينتها فاُفّ لدنيا سبقك بها هؤلاء الأخسّاء فما أجهلك وأخسّ همّتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من الصدّيقين و النبيّين في جوار ربّ العالمين أبد الآبدين لتكوني في صفّ النعال من جملة الحمقى الجاهلين أيّاماً قلائل ، فيا حسرة عليك إذخسرت الدّنيا والدّين ، فبادري ويحك فقد أشرفت على الهلاك و اقترب الموت وورد النذير

فمن ذا يصلّي عنك بعد الموت و من ذا يصوم عنك بعد الموت و من ذا يرضى ربّك بعد الموت ، مالك إلّا أيّام معدودة هي بضاعتك إن اتّجرت فيها و قد ضيّعت أكثرها فلو بكيت بقيّة عمرك على ما ضيّعت منها لكنت مقصّرة في حقّ نفسك فكيف إذا ضيّعت البقيّة و أصررت على عادتك ، أما تعلمين أنّ الموت موعدك و القبر بيتك و التّراب فراشك و الدّود أنيسك و الفزع الأكبر بين يديك . أما علمت أنّ عسكر الموتى على باب البلد ينتظرونك و قد آلوا كلّهم [1] على أنفسهم بالأيمان المغلظة أنّهم يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك إلى أنفسهم . أما تعلمين أنّهم يتمنّون الرّجعة إلى الدّنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك مافرط منهم فأنت في اُمنيّتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لوقدروا عليه وأنت تضيّعين أيّامك في الغفلة و البطالة ، ويحك أما تستحين تزيّنين ظاهرك للخلق وتبارزين الله تعالى بالعظائم أفتستحين من الخلق ولا تستحين من الخالق ، ويحك أهو أهون الناظرين إليك ويحك أتأمرين الناس بالخير و أنت متلطّخة بالرّذائل تدعين إلى الله و أنت منه فارّة و تذكرين الله وأنت له ناسية ، أما تعلمين أنّ المذنب أنتن من العذرة و أنّ العذرة لاتطهّر غيرها فلم تطمعين في تطييب غيرك و أنت غير طيبة في نفسك و يحك لو عرفت نفسك حقّ المعرفة لظننت أنّ الناس لا يصيبهم بلاء إلّا لشؤمك ، ويحك و قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد و يسخربك و مع هذا فتعجبين بعملك و فيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لربحت فكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك . و قد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن كان عبده مائتي ألف سنة و أخرج آدم من الجنّة بخطيئة واحدة مع كونه نبيّه وصفيّه . ويحك يا نفس ما أعذرك ، ويحك يانفس ماأوقحك ، ويحك يا نفس ماأجهلك وماأجرأك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتنقضين ، ويحك كم تعهدين فتغدرين ، ويحك أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنّك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا قد جمعوا كثيراً و بنوا شديداً و أمّلوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً و بنيانهم قبوراً و

(١) أى أقسموا وحلفوا على أنفسهم .

أملهم غروراً ، أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنّين أنّهم دعوا إلى الآخرة و أنت من الخالدين هيهات هيهات ساء ما تتوهّمين ما أنت إلّا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمّك فابني على ظهر الأرض قصرك فإنّ بطنها عن قليل يكون قبرك ، أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربّك منحدرة إليك بسواد الألوان و كلح الوجوه و بشّروك بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الهدم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ، و العجب كلّ العجب منك أنّك مع هذا تدّعين البصيرة و الفطنة و من فطنتك أنّك تفرحين كلّ يوم بزيادة مالك و لا تحزنين بنقصان عمرك و ما نفع مال يزيد و عمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة و هي مقبلة عليك و تقبلين على الدنيا و هي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوماً لم يستكمله و كم من مؤمّل لغد لم يبلغه وأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك وترين تحسّرهم عند الموت ثمّ لا ترجعين عن جهالتك فاحذري يا مسكينة يوماً آلى الله تعالى فيه على نفسه أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدّنيا و نهاه حتّى يسأله عن عمله دقيقه و جليله سرّه و علانيته ، فانظرى بأيّ بدن تقفين بين يديه و بأيّ لسان تجيبين وأعدّي للسؤال جواباً و للجواب صواباً و اعملي بقيّة عمرك في أيّام قصار لأيّام طوال و في دار زوال لدار مقامة ، و في دار حزن و نصب لدار نعيم و خلود ، و اعملي قبل أن لا تعملي و اخرجي من الدّنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، و لا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدّنيا فربّ مسرور مغبون وربّ مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثمّ لا يشعر ، يضحك ويفرح ويمرح ويأكل ويشرب ويلهو ، وقد حقّ له في كتاب الله أنّه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس إلى الدّنيا اعتباراً و سعيك لها اضطراراً و رفضك لها اختياراً و طلبك للآخرة ابتداراً و لا تكوني ممّن يعجز عن شكر ما أوتي و يبتغي الزّيادة فيما بقي و ينهى النّاس و لا ينتهي ، و اعلمي أنّه ليس للدّين عوض و لا للإيمان بدلٌ و لا للجسد خلفٌ و من كانت مطيّته اللّيل و النّهار فإنّه يسار به و إن لم يسر ، فاتّعظي يا نفس بهذه الموعظة و اقبلي هذه النصيحة فإنّ من [illegible]رض عن الموعظة

فقد رضي بالنّار و ما أراك بها راضية و لالهذه الموعظة واعية و إن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجّد و القيام ، فإن لم تزل فبالمواظبةعلى الصيام ، فإن لم تزل فبقلّةالمخالطة والكلام فإن لم تزل فبصلةالأرحام و اللّطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمي أنّ الله قد طبع على قلبك و أقفل عليه و أنّه قد تراكمت ظلمة الذّنوب على ظاهره و باطنه فوطّني نفسك على النّار فقد خلق الله الجنّة و خلق لها أهلاً و خلق النار و خلق لها أهلاً و كلٌّ ميسّر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك و القنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله منها ، فلا سبيل لك إلى القنوط و لا سبيل لك إلى الرّجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإنّ ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة الّتي ابتليت بها و هل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدّمع من بحر الرّحمة فقد بقي فيك موضع للرّجاء فواظبي على النياحة و البكاء و استغيثي بأرحم الرّاحمين و اشتكي إلى أكرم الأكرمين و أدمني الاستغاثة و لا تملّي طول الشكاية لعلّه أن يرحم ضعفك ويغيثك فإنّ مصيبتك قد عظمت وبليّتك قد تفاقمت و تماديك قد طال و قد انقطعت منك الحيل و زاحت عنك العلل فلامذهب و لامطلبَ و لامستغاثَ و لا مهربَ و لا منجا و لاملجأ إلّا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرّع و اجزعي في تضرّعك على قدر عظم جرمك و كثرة ذنوبك فإنّه يرحم المتضرّع الذّليل و يغيث الطالب المتلهّف و يجيب دعوة المضطرّ الذّليل و قد أصبحت إليه مضطرّة و إلى رحمته محتاجة و قدضاقت بك السبل و انسدّت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل و لم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم ، والمسؤول عنه جواد ، والمستغاث به برّرؤوف ، و الرّحمة واسعة ، و الكرم فائض ، و العفوشامل و قولي : يا أرحم الرّاحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا كريم أنا المذنب المصرّ أنا الجريء الّذي لا أقلع ، أنا المتمادي الّذي لا استحي ، هذا المقام مقام المتضرّع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجّل إغاثتي وفرجي و أرني آثار رحمتك

و أذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوّة عصمتك يا أرحم الرّاحمين ، اقتداءً بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبّه : لما أهبط الله عزّ و جلّ آدم إلى الأرض من الجنّة مكث لاترقأ له دمعة فأطلع الله عليه في اليوم السابع و هو محزون كئيب كظيم منكّس الرأس فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الّذي أرى بك قال : يا ربّ عظمت مصيبتي و أحاطت بي خطيئتي واُخرجت من ملكوت ربّي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة و في دار النّصب بعد الرّاحة و في دار البلاء بعد العافية و في دار الزّوال بعد القرار و في دار الموت و الفناء بعد الخلود و البقاء فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري و خصصتك بكرامتي وحذّرتك سخطي ؟ ألم أخلقك بيدي و نفخت فيك من روحي و أسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري و نسيت عهدي و تعرّضت لسخطي فوعزّتي و جلالي لوملأت الأرض رجالاً كلّهم مثلك يعبدونني و يسبّحونني ثمّ عصوني لأنزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عند ذلك ثلاثمائة عام .

و كان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول اللّيلة : إلهي أنا الّذي كلّما طال عمري زادت ذنوبي ، أنا الّذي كلّما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة اُخرى ، و اعبيداه خطيئة لم تبلُ وصاحبها فيطلب اُخرى ، و اعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً و مأوى ، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيّأ ، و اعبيداه قضيت حاجة الطالبين و لعلّ حاجتك لاتقضى .

و قال منصور بن عمّار : سمعت بعض اللّيالي بالكوفة عابداً يناجي ربّه عزّوجلّ و هو يقول : يا ربّ و عزّتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك و لا عصيتك إذ عصيتك و أنا بمكانك جاهل و لا لعقوبتك متعرّض و لا لنظرك مستخفّ و لكن سوّلت لي نفسي و أعانني على ذلك شقوتي و غرّني سترك المرخى عليّ فأقدمت على معصيتك بجهلي و خالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنّي واسواتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفّين جوزوا ، وللمثقلين : حطّوا ، أمع المخفّين أجوز أم مع المثقلين أحطّ ، ويلي كلّما

كبرت سنّي كثرت ذنوبي ، و يلي كلّما طال عمري كثرت معاصيّ ، فإلى متى أتوب وفي كم أعود أما آن لي أن أستحي من ربّي .

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم و في معاتبة نفوسهم و إنّما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً و يوشك أن لا يكون الله عنه راضياً .

تمّ كتاب المحاسبة و المراقبة من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء و لله الحمد و المنّة ، و يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب التفكّر و الحمد لله ربّ العالمين و الصلوة و السلام على أنبيائه و أوليائه أجمعين سيّما أفضلهم و أكرمهم محمّد و آله الطاهرين آمين .

كتاب التفكر

و هو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي لم يقدر لانتهاء عزّته نحواً ولاقطراً ، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام و مرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، و ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلّما اهتزّت لنيل مطلوبها ردّتها سبحات الجلال قسراً ، وإذا همّت بالانصراف آئسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً ، ثمّ قيل لها أجيلي في ذلّ العبوديّة منك فكراً لأنّك لو تفكّرت في جلال الرّبوبيّة لم تقدري له قدراً ، و إن طلبت وراء التفكّر في صفاتك أمراً فانظري في نعم الله و أياديه كيف توالت عليك تترى ، و جدّدي لكلّ نعمة منها ذكراً و شكراً ، و تأمّلي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً و شرّاً ، و نفعاً و ضرّاً ، و عسراً و يسراً ، و ربحاً و خسراً ، و جبراً و كسراً ، و طيّاً و نشراً ، و إيماناً و كفراً ، و عرفاناً ونكراً ، وإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذّات فقد حاولت أمراً إمراً(١) وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلماً و جوراً ، فقد انبهرت العقول دون مبادي إشراقه و انتكصت على أعقابها اضطراراً و قهراً .

و الصلاة على محمّد المصطفى إذ كان سيّد ولد آدم و لم يعدّ سيادته فخراً صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة و ذخراً ، و على آله و أصحابه الّذين أصبح كلّ واحد منهم في سماء الدّين بدراً و لطوائف المسلمين صدراً و سلّم .

(١) اى امراً منكراً .

أما بعد فقد وردت السنّة بأنّ تفكّر ساعة خير من عبادة سنة [١] و كثر الحثّ في كتاب الله عزّ وجلّ على التدبّر والاعتبار و النظر و الافتكار ، ولايخفى أنّ الفكر هو مفتاح الأنوار و مبدء الاستبصار و هو شبكة العلوم و مصيدة المعارف و الفهوم ، و أكثر الناس قد عرفوا فضيلته و رتبته لكن جهلوا حقيقته و ثمرته و مصدره و مورده و مجراه و مسرحه و طريقه و كيفيته ، و لم يعلم أنّه كيف يتفكّر و فيما ذا يتفكّر و لما ذا يتفكّر و ما الّذي يطلب به أهو مراد لعينه أو لثمرة تستفاد منه و إن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً و كشف جميع ذلك مهمّ و نحن نذكر أوّلاً فضيلة التفكّر ، ثمّ حقيقة التفكّر و ثمرته ، ثمّ مجاري الفكر و مسارحه إن شاء الله .

✿(فضيلة التفكر)✿

قد أمر الله تعالى بالتفكّر و التدبّر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى و أثنى على المتفكّرين فقال تعالى : « و يتفكّرون في خلق السموات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً [٢] » و قد قال ابن عبّاس : إنّ قوماً تفكّروا في الله عزّ وجلّ فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « تفكّروا في خلق الله و لا تتفكّروا في الله فإنّكم لن تقدروا قدره »[٣] و عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « أنّه خرج على قوم ذات يوم و هم يتفكّرون فقال ما لكم لاتتكلّمون ؟ فقالوا : نتفكّر في خلق الله عزّ وجلّ ، قال : فكذلك فافعلوا تفكّروا في خلقه و لا تتفكّروا فيه فإنّ بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها و

(١) رواه ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ « ستين سنة » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث انس بلفظ « ثمانين سنة » و رواه أبو - الشيخ في كتاب العظمة من قول ابن عباس (المغنى) أقول : ورواه بلفظه العياشي في تفسيره من حديث جعفر بن محمد عليهما السلام . كما في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر ص ١٩٥ .

(٢) آل عمران : ١٩١ .

(٣) رواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس كما في الجامع الصغير .

بياضها نورها مسيرة الشّمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله عزّ وجلّ لم يعصوا الله طرفة عين ، قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان عنهم قال : ما يدرون خلق الشيطان أم لا ، قالوا : من ولد آدم قال : لا يدرون خلق آدم أم لا[١]» و « عن عطاء قال : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة وبيننا وبينها حجاب فقالت: ياعبيد مايمنعك من زيارتنا فقال قول النبيّ ﷺ : « زرغبّاً تزدد حبّاً » فقال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال : فبكت وقالت : كلّ أمره كان عجباً أتاني في ليلتي حتّى مسّ جلدي جلده ثمّ قال : ذريني أتعبّد لربّي عزّ وجلّ فقام إلى القربة فتوضّأ منها ثمّ قام يصلّي فبكى حتّى بلّ لحيته ، ثمّ سجد حتّى بلّ الأرض ، ثمّ اضطجع على جنبه حتّى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال : يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر فقال : ويحك يابلال مايمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه اللّيلة « إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولي الألباب»[٢] ثمّ قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها » [٣] .

وقيل للأوزاعي : ما غاية التفكّر فيهنّ ؟ قال : تقرأهن وتعقلهنّ .

أقول : ومن طريق الخاصّة عن أمير المؤمنين عليه السلام « التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به[٤] » .

وعن الصادق عليه السلام « أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته [٥] » .

وعنه عن عليّ عليه السلام « نبّه بالتفكّر قلبك ، وجاف عن اللّيل جنبك ، واتّق الله ربّك [٦] » .

(١) أخرج صدره ابن أبي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس كما في الدر المنثور ج٢ ص ١١٠ وقال العراقي رويناه في جزء من حديث عبدالله بن سلام .

(٢) آل عمران : ١٩٠ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد و ابن أبي الدنيا في التفكر و قد تقدم في كتاب الصبر والشكر .

(٤) و (٥) الكافي ج ٢ ص ٥٥ تحت رقم ٥ و٣ .

(٦) المصدر ج ٢ ص٥٤ تحت رقم ١.

وعن الرّضا عليه السلام « ليس العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله تعالى [(١)] » .

قال : أبو حامد : وعن محمّد بن واسع أنّ رجلاً من أهل البصرة ركب إلى اُمّ ذرّ بعد موت أبي ذرّ فسألها عن عبادة أبي ذرّ فقالت : كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكّر . وقال بعض السّلف : تفكّر ساعة خير من قيام ليلة ، وقال آخر : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيّئاتك ، وقال آخر : الفكرة مخّ العقل وقد قيل:

إذا المرء كانت له فكرة ☆ ففي كلّ شيء له عبرة

وروي أنّ الحواريّين قالوا لعيسى ابن مريم عليه السلام : هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنّه مثلي .

وقال بعض السلف : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكّراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو . وفي قول الله عزّ وجلّ : « سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ [(٢)] » قال : أمنع قلوبهم من التفكّر في أمري .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « اعطوا أعينكم حظّها من العبادة ، قالوا : وما حظّها من العبادة يارسول الله ؟ قال : النظر في المصحف والتفكّر فيه والاعتبار عند عجائبه [(٣)] » .

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكّة أنّها قالت لو تطالعت قلوب المتّقين بفكرها إلى ما قد ادّخر في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدّنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدّنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمرّ به مولاه فيقول : يالقمان إنّك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس لكان آنس لك ، فيقول

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٥ تحت رقم ٤ .

(٢) الاعراف : ١٤٥ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر ، و من طريقه ابو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة كما في المغني .

لقمان : إنّ طول الوحدة أفهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنّة ، وقال وهب بن منبّه : «ما طالت فكرة امرىء قطّ إلّا علم وما علم امرؤ قطّ إلّا عمل ، وعن ابن عبّاس ركعتان مقتصرتان في تفكّر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب ، وقال بعضهم : الفكر في الدّنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلب ، وقال آخر : من العبرة يزيد العلم ومن الذّكر يزيد الحبّ ومن التفكّر يزيد الخوف ، وقال ابن عبّاس - رضي الله عنه - : التفكّر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشرّ يدعو إلى تركه ، ويروى أنّ الله عزّ وجلّ قال في بعض كتبه : إنّي لست أقبل كلام كلّ حكيم ولكن أنظر إلى همّه وهواه فإذا كان همّه وهواه لي جعلت صمته تفكّراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلّم . وقال بعض السلف : إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذّكر على الفكر وبالفكر على الذّكر حتّى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة ، وقال آخر : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسّم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبّة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظنّ بالله تعالى ثمّ قال : يالها من مجالس ما أجلّها ومن شراب ما ألذّه طوبى لمن رزقه ، قال بعض السّلف : استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة ، وقال أيضاً : صحّة النظر في الاُمور نجاة من الغرور ، والعزم في الرّأي سلامة من التفريط والنّدم والرّؤية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوّة في البصيرة ، ففكّر قبل أن تعزم ، وتدبّر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تندم ، وقال أيضاً : الفضائل أربع إحداها الحكمة وقوامها الفكرة ، و الثانية العفّة و قوامها في الشّهوة ، و الثالثة القوّة و قوامها في الغضب والرّابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفّس . فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحدٌ في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

❁ (بيان حقيقة الفكر وثمرته) ❁

اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في النّفس ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله أنّ من مال إلى العاجلة و آثر الحياة الدّنيا وأراد أن يعرف

أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان أحدهما أن يسمع من غيره أنّ الآخرة أولى بالإيثار فيقلّده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرّد قوله وهذا يسمّى تقليداً ولا يسمّى معرفة والطريق الثاني أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار ثمّ يعرف أنّ الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أنّ الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقّق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلّا بالمعرفتين السابقتين فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصّل به إلى المعرفة الثالثة يسمّى تفكّراً واعتباراً وتذكّراً ونظراً وتأمّلاً وتدبّراً. أمّا التأمّل والتدبّر والتفكّر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليست تحتهامعان مختلفة، فأمّا اسم التذكّر والاعتبار والنظر فهي مختلفةالمعاني وإن كان أصل المسمّى واحداً كما أنّ اسم الصارم والسيف والمهنّد يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصّارم يدلّ على السّيف من حيث هو قاطع والمهنّد يدلّ عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدلّ دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزّوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنّه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة فإن لم يقع العبور ولم يكن إلّا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكّر لا اسم الاعتبار، فأمّا النظر والتفكّر فيقع عليه من حيث إنّ فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لايسمّى ناظراً فكلّ متفكّر فهو متذكّر وليس كلّ متذكّر متفكّراً وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ وتثبت ولا تنمحي عن القلب، و فائدة التفكّر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكّر والتفكّر والمعارف إذا اجتمعت في القلب و ازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة اُخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فإذا حصلت معرفة و ازدوجت مع معرفة اُخرى حصل منها نتاج آخر و هكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية وإنّما ينسدّ طريق زيادة المعارف بالموت أو العوائق، هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق زيادة المعارف وطريق التفكّر، فأمّا أكثر الناس فإنّما منعوا الزّيادة في العلوم

لفقدهم رأس المال وهو المعارف الّتي منها تستثمر العلوم كالّذي لابضاعة له فإنّه لايقدر على الرّبح ، وقد يملك البضاعة ولكن لايحسن صنعة التجارة فلا يربح ، فكذلك قد يكون له من المعارف ماهو رأس العلوم ولكنّه ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهيّ في القلب يحصل بالقطرة كما كان للأنبياء عليهم السلام وذلك عزيز جدّاً وقد تكون بالتعلّم و الممارسة وهو الأكثر ، ثمّ المتفكّر قد تحضر له هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لايشعر بكيفيّة حصولها ولايقدر على التعبير عنه لقلّة ممارسته لصناعة التدبير في الايراد فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالايثار علماً حقيقيّاً ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنّه لم تحصل معرفة إلّا عن المعرفتين السابقتين وهو أنّ الأبقى أولى بالإيثار وأنّ الآخرة أبقى من الدّنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهي أنّ الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة التفكّر إلى إحضار معرفتين للتوصّل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأمّا ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرتها الخاصّة العلم لاغير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب وإذا تغيّر حال القلب تغيّرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال ، والحال تابع للعلم والعلم تابع للفكر و الفكر إذن هو المبدء والمفتاح للخيرات كلّها و هذا هو الّذي يكشف لك عن فضيلة التفكّر وأنّه خير من الذكر والتذكّر لأنّ في الفكر ذكراً و زيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذّكر فإذن التفكّر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل : تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة سنة . وقيل : هو الّذي ينقل من المكاره إلى المحابّ ومن الرّغبة والحرص إلى الزّهد والقناعة ، وقيل : هو الّذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى : « لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً (١) » وإن أردت أن تفهم كيفيّة تغيّر الحال بالفكر فمثاله ماذكرناه من أمر الآخرة فإنّ الفكر فيه يعرّفنا أنّ الآخرة أولى بالايثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في

(١) طه : ١١٣ .

قلوبنا تغيّرت القلوب إلى الرّغبة في الآخرة والزّهد في الدّنيا وهذا ماعنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حبّ العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلّة الرّغبة فيها وبهذه المعرفة تغيّر حال القلب وتبدّلت إرادته ورغبته ثمّ أثمر تغيّر الإرادة أعمال الجوارح في إطراح الدّنياوالإقبال على أعمالالآخرة فههنا خمس درجات أوليها التذكّر وهو إحضار المعرفتين في القلب ، وثانيها التفكّر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما ، والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها ، والرابعة تغيّر حال القلب عمّا كان بسبب حصول نور المعرفة ، والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب مايتجدّد له من الحالة ، فكماتضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فيصير العين بها مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة و تنتهض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة[1] هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلّف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً فينبعث نورالمعرفة كماتنبعث النار من الحديد ويتغيّر القلب بسبب هذا النور حتّى يميل إلى مالم يكن يميل إليه كما يتغيّر البصربنور النار فيرى مالم يكن يراه ، ثمّ تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر مالم يكن يبصره فإذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لانهاية لها والأحوال الّتي تتصوّر أن تتقلّب على القلب لايمكن حصرها ، فلهذا لوأراد مريد أن يحصي فنون الفكر ومجاريه وأنّه فيماذا يتفكّر لم يقدر عليه لأنّ مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهدفي ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمّات العلوم الدّينيّة وبالإضافة إلى الأحوال الّتي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطاً جمليّاً فإنّ تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلّها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فإنّها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبطالمجامع فيه ليحصل الوقوف على مجاري الفكر فيه .

---

(١) الزند هو العود الذى تقدح به النار جمعه زناد .

✿ (بيان مجارى الفكر) ✿

اعلم أنّ الفكر قد يجري في أمر يتعلّق بالدّين وقد يجري فيما يتعلّق بغير الدّين وإنّما غرضنا ما يتعلّق بالدّين فلنترك القسم الآخر ونعني بالدّين المعاملة الّتي بين العبد وبين الرّبّ تعالى فجميع أفكار العبد إمّا أن تتعلّق بالعبد وصفاته وأحواله وإمّا أن تتعلّق بالمعبود وصفاته وأفعاله ولا يمكن أن يخرج من هذين القسمين وما يتعلّق بالعبد إمّا أن يكون نظراً فيما هو محبوبٌ عند الرّبّ تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين وما يتعلّق بالرّبّ تعالى إمّا أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى وإمّا أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإمّا أن يكون نظراً في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرضين وما بينهما وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال وهو أنّ حال السائرين إلى الله والمشتاقين إلى لقائه يضاهي حال العشّاق فلنتّخذ العاشق المستهتر مثالاً فنقول : العاشق المستغرق الهمّ بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلّق بمعشوقه أو يتعلّق بنفسه ، فإن تفكّر في معشوقه فإمّا أن يتفكّر في جماله وحسن صورته ليتنعّم بالفكر فيه ومشاهدته ، وإمّا أن يتفكّر في أعماله اللّطيفة الحسنة الدّالّة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفاً للذّته ومقوياً لمحبّته وإن تفكّر في نفسه فيكون فكره في صفاته الّتي تسقطه من عين محبوبه حتّى يتنزّه عنها أو في الصفات الّتي تقرّبه منه وتحبّبه إليه حتّى يتّصف بها فإن تفكّر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق وهو نقصان فيه لأنّ العشق التامّ الكامل ما يستغرق العاشق ويستولي على القلب حتّى لا يترك فيه متّسعاً لغيره ، فمحبّ الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكّره محبوبه ومهما كان تفكّره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبّة فلنبدأ بالقسم الأوّل وهو تفكّره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميّز المحبوب منها عن المكروه ، فإنّ هذا القسم هو الّذي يتعلّق بعلم المعاملة الّذي هو مقصود هذا الكتاب ، وأمّا القسم الآخر فيتعلّق بعلم المكاشفة ، ثمّ كلّ واحد ممّا هو مكروهٌ عند الله أو محبوب ينقسم

إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات الّتي محلّها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المنجيات والمهلكات . والطاعات و المعاصي تنقسم إلى ما يتعلّق بالأعضاء السبعة و إلى ما ينسب إلى جميع البدن كالفرار عن الزّحف وعقوق الوالدين والسّكون في المسكن الحرام و يجب في كلّ واحد من المكاره التفكّر في ثلاثة اُمور : الأوّل التفكّر في أنّه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فربّ شيء لايظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر ، والثاني التفكّر في أنّه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه ، والثالث أنّ هذا المكروه هل هو متّصفٌ به في الحال فيتركه أو هومتعرِّض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كلّ واحد من هذه المحبوبات ينقسم هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مائة ، و العبد مدفوع إلى التفكّر إمّا في جميعها أو في أكثرها و شرح آحاد هذه الأقسام يطول ولكن انحصر هذا القسم أعني قسم المعاملة في أربعة أنواع الطاعات والمعاصي والصفات المنجيات والمهلكات ، فلنذكر في كلّ نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتّسع له طريقه .

النوع الأول المعاصي وينبغي أن يفتّش العبد صبيحة كل يوم عن جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثمّ عن بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أولابسها بالأمس فيتداركها بالترك والنّدم ، أو هو متعرِّض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتّباعد عنها فينظر في اللّسان ويقول : إنّه متعرِّض للغيبة والكذب وتزكية النفّس والاستهزاء والمماراة والممازحة والخوض فيما لايعني إلى غير ذلك من المكاره فيقرّر أوّلاً في نفسه أنّها مكروهة عند الله ويتفكّر في شواهد القرآن والسنّة على شدّة العذاب فيها ثمّ يتفكّر في أحواله أنّه كيف يتعرّض لها من حيث لايشعر ، ثمّ يتفكّر أنّه كيف يحترز منها و يعلم أنّه لا يتمّ له ذلك إلّا بالعزلة والانفراد أو بأن لايجالس إلّا صالحاً تقيّاً ينكر عليه مهما تكلّم بما يكرهه الله و إلّا يضع حجرة في فيه إذا جالس غيره حتّى يكون ذلك مذكّراً له فهذا يكون الفكر

في حيلة الاحتراز ويتفكّر في سمعه أنّه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللّهو والبدعة وأنّ ذلك إنّما يسمعه من زيد ومن عمرو وأنّه كيف ينبغي أن يحترز عنهم بالاعتزال أو بالنّهي عن المنكر مهما سمع ذلك ، ويتفكّر في بطنه أنّه إنّما يعصي الله فيه بالأكل والشرب . إمّا بكثرة الأكل من الحلال فإنّ ذلك مكروه عند الله عزّ وجلّ ومقوّ للشهوة الّتي هي سلاح الشيطان عدوّ الله ، وإمّا بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ويتفكّر في طرق الحلال ومداخله ثمّ يتفكّر في وجوه الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرّر على نفسه أنّ العبادات كلّها ضائعة عند الله مع أكل الحرام وأنّ أكل الحلال هو أساس العبادات كلّها وأنّ الله لايقبل صلاة عبدو في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به [1] فهكذا يتفكّر في أعضائه . و في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء ، فمهما حصلت بالفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتّى يحفظ الأعضاء عنها .

وأمّا النوع الثاني وهو الطاعات فينظر أوّلاً في الفرائض المكتوبة عليه أنّه كيف يؤدّيها و كيف يحرسها عن النّقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النّوافل ، ثمّ يرجع إلى عضو عضو فيتفكّر في الأفعال الّتي تتعلّق بها ممّا كتبه الله عزّ وجلّ عليه فيقول مثلاً : إنّ العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنّة رسوله وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنّة فلم لاأفعله وأنا قادرٌ على أنّ أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرورَ على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء وأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله ، و كذلك يقول في سمعه : إنّي قادرٌ على استماع كلام الله أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر ، فمالي أعطّله وقد أنعم الله عزّ وجلّ عليّ به و أودعنيه لأشكره ، فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه

---

(١) أخرج أحمد في مسنده ج ٢ ص ٩٨ من حديث ابن عمر عن لنبي صلى الله عليه وآله قال : «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم حرام لم يقبل الله لا لاة مادام عليه» .

وتعطيله ، و كذلك يتفكّر في اللّسان ويقول : إنّي قادر على أن أتقرّب إلى الله تعالى بالوعظ وبالتودّد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السّرور على قلب زيد الصّالح و عمرو العالم بكلمة طيّبة و كلّ كلمة طيّبة فإنّها صدقة و كذلك يتفكّر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدّق بالمال الفلاني فإنّي مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج منّي إلى ذلك المال ، وهكذا يفتّش عن أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابّه و غلمانه وأولاده فإنّ كلّ ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله عزّ وجلّ بها ويستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكّر فيما يدعوه إلى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكّر في إخلاص النيّة فيها و يطلب لها مظانّ الاستحقاق حتّى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات .

وأمّا النّوع الثالث فهو الصفات المهلكة الّتي محلّها القلب فيعرفها ممّا ذكرناه في ربع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرّياء والحسد وسوء الظنّ والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقّد من قلبه هذه الصفات فإن ظنّ أنّ قلبه منزّه عنها فيتفكّر في كيفيّة امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فإنّ النفس أبداً تعده الخير من نفسها وتكذب فإذا ادّعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن يجرّب نفسه بحمل حزمة حطب في السّوق كما كان الأوّلون يجرّبون به أنفسهم ، وإذا ادّعت الحلم تعرّض لغضب يناله من غيره ثمّ يجرّبها في كظم الغيظ و كذلك في سائر الصّفات ، وهذا تفكّر في أنّه هل هو موصوف بالصّفة المكروهة أم لا ، ولها علامات ذكرناها في ربع المهلكات فإذا دلّت العلامات على وجودها فكّر في الأسباب الّتي تقبح تلك الصفات عنده ويتبيّن أنّ منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدّخلة[1] كما لو رأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكّر ويقول : إنّما عملي ببدني وجارحتي و بقدرتي وإرادتي و كلّ ذلك ليس منّي ولا إليّ وإنّما هو من خلق الله عزّ وجلّ وفضله عليّ فهو الّذي خلقني و خلق قدرتي وإرادتي وهو الّذي حرّك

(١) دخلة الرجل - مثلثة - و دخيلته نيته ومذهبه و جميع أمره .

أعضائي بقدرته فكيف أُعجب بعملي أو بنفسي ولا قوام لنفسي بنفسي ، وإذا أحسّ في نفسه بالكبر قرّر على نفسه ما فيها من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو كبير عند الله وذلك ينكشف بعد الموت ، وكم من كافر في الحال يموت متقرّباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيّاً بتغيّر حاله عند الموت بسوء الخاتمة ، فإذا عرف أنّ الكبر مهلك وأنّ أصله الحماقة فيتفكّر في علاج إزالته بأن يتعاطى أفعال المتواضعين ، وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكّر في أنّ هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتّصف بهما البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد ، وكذلك يقرّر على نفسه في الغضب ثمّ يتفكّر في طريق العلاج وكلّ ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتّسع له طريق الفكر فلابدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب .

وأمّا النوع الرابع وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذّنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرّجاء والزّهد في الدّنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبّة الله عزّ وجلّ وتعظيمه والرّضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له ، وكلّ ذلك ذكرناه في هذا الرّبع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكّر العبد كلّ يوم وليلة في قلبه وما الّذي يعوزه[1] من هذه الصفات الّتي هي المقرّبة إلى الله عزّ وجل ، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنّها أحوال لا يثمرها إلّا علوم وأنّ العلوم لا يثمرها إلّا أفكار ، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتّش عن ذنوبه أوّلاً وليتفكّر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ، ثمّ لينظر في الوعيد والتشديد الّذي ورد في الشرع فيه وليحقّق عند نفسه أنّه متعرّض لمقت الله عزّ وجلّ به حتّى ينبعث له حال الندم ، وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله تعالى إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك ، وإذا أراد حال المحبّة والشوق

(١) أعوز الرجل اعوازاً افتقر ، و أعوزه الدهر أفقره .

فليتفكّر في جلال الله عزّ وجلّ وجماله وعظمته وكبريائه ، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنرمز إلى طرف يسير منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فلينظر أوّلاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثمّ لينظر في الموت وسكراته ثمّ فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحيّاته وعقاربه وديدانه ثمّ في هول النداء عند نفخة الصور ، ثمّ في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثمّ في المناقشة في الحساب والمضائقة في النقير والقطمير ، ثمّ في الصراط ودقّته وحدّته ، ثمّ في خطر الأمر عنده أنّه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين وينزل دار القرار ، ثمّ ليحضر أهول القيامة في قلبه من صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقّومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صورة الزّبانية الموكّلين بها وأنّهم كلمّا نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها وأنّهم كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وأنّهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا زفيرها وتغيظها وهلمّ جرّاً إلى جميع ماورد في القرآن من شرحها ، وإذا أراد أن يستجلب حال الرّجاء فلينظر إلى الجنّة ونعيمها وأشجارها وأثمارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدّائم فهكذا طريق الفكر الّذي يطلب به العلوم الّتي تثمر الاتّصاف بأحوال محبوبة أو التنزّه عن الصفات مذمومة وقد ذكرنا في كلّ واحدة من هذه الأفعال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر ، أمّا بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكّر فانّه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ففيه مايورث الخوف والرّجاء والصبر والشكر والمحبّة والشوق وسائر الأحوال و فيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد و يردّد الآية الّتي هو محتاج إلى التفكّر فيها مرّة بعد أُخرى ولو مائة مرّة فقراءة آية بتفكّر وفهم خيرٌ من ختمه بغير تدبّر وفهم وليتوقّف في التأمّل فيها ولو في ليلة واحدة فإنّ تحت كلّ كلمة منها أسرار لاتنحصر ولا يوقف عليها إلّا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « فقد أوتي جوامع الكلم (١) » وكلّ كلمة من كلامه بحر من بحور الحكمة ولو تأمّلها العالم

(١) تقدم .

حقّ تأمّله لم ينقطع فيها نظره طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله ﷺ : « إنّ روح القدس نفث في روعي : أحبب من أحببت فإنّك مفارقه وعش ماشئت فإنّك ميّت و اعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به »(١) فإنّ هذه الكلمات جامعة حكم الأوّلين و الآخرين و هي كافية للمتأمّلين فيها طول العمر إذ لو وقفوا على معانيها و غلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم و لحالت بينهم و بين التلفّت إلى الدّنيا بالكلّيّة فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة و صفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله أو مكروهة و المبتدي ينبغي أن يكون مستغرق الهمّ في هذه الأفكار حتّى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة و المقامات الشريفة و ينزّه باطنه و ظاهره عن المكاره و ليعلم أنّ هذا مع أنّه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدّيقين و هو التنعّم بالفكر في جلال الله و جماله و استغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أي ينسى نفسه و أحواله ومقاماته و صفاته فيكون مستغرق الهمّ بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنّه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه و أوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه و هو منتهى لذّة العشّاق فأمّا ما ذكرناه فهو تفكّر في عمارة الباطن ليصلح للقرب و الوصال فإذا ضيّع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعّم بالقرب و لذلك كان الخوّاص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور و قال له : فيم أنت ؟ قال : أدور في البوادي أصلح حالي في التوكّل قال : أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التّوحيد . فالفناء في الواحد الحقّ هو غاية مقصد الطالبين و منتهى نعيم الصدّيقين وأمّا التنزّه عن الصّفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدّة في النكاح و الاتّصاف بالصّفات المنجيات و سائر الطاعات يجري مجرى تهيئة المرأة جهازها و تنظيفها وجهها و مشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ، فإن استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرّحم و تزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء زوجها فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدّين إن كنت من أهل المجالسة و إن كنت كالعبد

(١) تقدم غير مرة .

السّوء لا يتحرّك إلّا خوفاً من الضرب و طمعاً في الأجر ، فدونك و إتعاب البدن بالأعمال الظاهرة فإنّ بينك و بين القلب حجاباً كثيفاً فإذا قضيت حقّ الأعمال كنت من أهل الجنّة و لكن للمجالسة قوم آخرون ، فإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة الّتي بين العبد و بين ربّه فينبغي أن تتّخذ ذلك عادتك و ديدنك في كلّ صباح و مساء ، فلا تغفل عن نفسك و عن صفاتك المبعدة عن الله عزّ وجلّ و أحوالك المقرّبة إليه تعالى بل كلّ مريد فينبغي أن يكون له جريدة يكتب فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي و الطاعات ويعرض نفسه عليها كلّ يوم و يكفيه من المهلكات النظر في عشرة فإنّه إن سلم منها سلم من غيرها و هي البخل و الكبر و العجب و الرّياء و الحسد و شدّة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحبّ المال وحبّ الجاه .ومن المنجيات عشراً وهي الندم على الذّنوب و الصبر على البلاء و الرّضا بالقضاء والشكر على النّعماء و اعتدال الخوف والرّجاء و الزّهد في الدّنيا و الإخلاص في العمل و حسن الخُلق مع الخلق و حبّ الله و الخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشر منها مذمومة و عشر محمودة . فمهما كفي عن المذمومات واحدة فيخطّ عليها في جريدته و يدع الفكر فيها و يشكر اللهعزّوجلّ على كفايته إيّاها و تنزيه قلبه عنها و يعلم أنّ ذلك لم يتمّ إلّا بتوفيق الله و عونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقلّ الرّذائل عن نفسه فيقبل على التسع البواقي و هكذا يفعل حتّى يخطّ على الجميع و كذلك يطالب نفسه بالاتّصاف بالمنجيات فإذا اتّصف بواحدة منها كالتّوبة و الندم مثلاً حظّ عليها و اشتغل بالبواقي و هذا يحتاج إليه المريد المتشمّر فأمّا أكثر النّاس من المعدودين من الصّالحين فينبغي أن يثبتوا في جريدتهم المعاصي الظاهرة كالأكل بالشّبهة وإطلاق اللّسان بالغيبة والنميمة و المراء و الثّناء على النّفس والإفراط في معاداة الأعداد و موالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فإنّ أكثر من يعدّ نفسه من وجوه الصالحين لاينفكّ عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه و ما لم يطهّر الجوارح من الآثام لا يمكنه الاشتغال بعمارة القلب و تطهيره بل كلّ فريق من

الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقّدهم لها و تفكّرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها ، مثاله العالم الورع فإنّه لايخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم و طلب الشّهرة و انتشار الصّيت إمّا بالتدريس أو بالوعظ و من فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلّا الصدّيقون فإنّه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لن ينفكّ عن الإعجاب والخيلاء والتزيّن والتصنّع وذلك من المهلكات وإن رُدّ كلامه لم ينفكّ عن أنفة وغيظ وحقد على من ردّه وهو أكثر من غيظه على من يردّ عليه كلام غيره وقد يلبّس الشيطان عليه ويقول : إنّ غيظك من حيث إنّه ردّ الحقّ و أنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يردّ عليه كلامه أو يردّ على عالم آخر فهو مغرورٌ وضحكة للشيطان ، ثمّ مهما كان له إرتياح بالقبول وفرح بالثناء و استنكاف من الرّدّ و الاعراض لم يخلُ عن تكلّف و تصنّع لتحسين اللّفظ و الايراد حرصاً على استجلاب الثّناء والله لا يحبّ المتكلّفين ، والشيطان قد يلبّس عليه و يقول : إنّما حرصك على تحسين الألفاظ و التكلّف فيها لينتشر الحقّ و يحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله عزّ وجلّ ، فإن كان فرحه بحسن الألفاظ وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنّما يدندن حول طلب الجاه و هو يظنّ أنّ مطلبه الدّين و مهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتّى يكون للموقّر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً و يكون بلقائه أشدّ استبشاراً ممّن يغلو في موالاة غيره و إن كان ذلك الغير مستحقّاً للموالاة ، و ربّما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشقّ على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنّه منتفع بغيره و مستفيد منه في دينه و كلّ هذا رشح الصفات المهلكات المستكنّة في سرّ القلب الّتي قد يظنّ العالم النجاة منها و هو مغرور فيها و إنّما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة و هو إمّا مالك و إمّا هالك و لا مطمع له في سلامة العوام ، فمن أحسّ في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه الانفراد و العُزلة و طلب الخمول و المدافعة للفتاوي مهما سئل فقد كان المسجد يهوى جمعاً من أصحاب النبيّ عليه السلام كلّهم مفتون و

كانوا يتدافعون الفتوى فكلّ من كان يفتي كان يودّ أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتّقي شياطين الإنس إذ قالوا لا تفعل هذا فإنّ هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق و ليقل لهم إنّ دين الإسلام مستغن عنّي فإنّه كان معموراً قبلي و كذلك يكون بعدي و لومتّ لم تنهدم أركان الإسلام فالدّين مستغن عنّي و أمّا أنا فلستُ بمستغن عن إصلاح قلبي و أمّا إفضاء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدلّ على غاية الجهل فإنّ الناس لو حبسوا في السجن وقيّدوا بالقيود وتوعّدوا بالنّار على طلب العلم لكان حبّ العلوّ والرّئاسة يحملهم على كسر القيود و هدم حيطان الحصون والخروج منها و الاشتغال بطلب العلم فالعلم لايندرس مادام الشيطان يحبّب إلى الخلق الرّئاسة و الشيطان لايفتر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهض لنشره أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال عليه السلام: «إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بأقوام لاخلاق لهم [١]» «و إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر [٢]» فلا ينبغي أن يغترّ العالم بهذه التلبيسات ويشتغل بمخالطة الخلق حتّى يتربّى في قلبه حبّ الجاه و الثناء و التعظيم فإنّ ذلك بذر النفاق قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «حبّ المال و الجاه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل [٣]» و قال عليه السلام: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً فيهامن حبّ الجاه والمال في دين المرء المسلم [٤]» و لاينقلع حبّ الجاه من القلب إلّا بالاعتزال عن الناس و الهرب من مخالطتهم وترك كلّ ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في التفطّن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منه وهذه وظيفة العالم المتّقي ، فأمّا أمثالنا فينبغي أن يكون تفكّرنا فيما يقوّي أيماننا بيوم الحساب إذ لو رآنا السّلف الصّالحون لقالوا قطعاً إنّ هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنّة و النار فإنّ من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه ، و قد علمنا أنّ الهرب من

(١) و(٢) تقدما عن البخارى فى صحيحه وابوعوانه فى مسنده .

(٣) تقدم فى المجلد السادس ص ٤٠ .

(٤) رواه أحمد والترمذى وقد تقدم فى المجلد السادس ص ٤١ .

النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي و نحن منهمكون فيها وأنّ طلب الجنّة بتكثير نوافل الطاعات و نحن مقصّرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلّا أنّه يقتدى بنا في الحرص على الدّنيا و التكالب عليها ويقال : لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أولى باجتنابه منّا فليتنا كنّا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة الّتي تعرّضنا لها لو تفكّرنا فيها فنسأل الله عزّ وجلّ أن يصلحنا و يصلح بنا و يوفّقنا للتوبة قبل أن يتوفّانا إنّه الكريم اللّطيف بنا المنعم علينا فهذه مجاري أفكار العلماء والصّالحين في علم المعاملة فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم و ارتقوا منها إلى التفكّر في جلال الله وعظمته والتنعّم بمشاهدته بعين القلب و لا يتمّ ذلك إلّا بعد الانفكاك من جميع المهلكات و الاتّصاف بجميع المنجيات و إن ظهر منه شيء قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدّراً مقطوعاً وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الّذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه عقارب تلدغه مرّة بعد اُخرى فيتنغّص عليه لذّة المشاهدة ولا طريق له في إكمال التنعّم إلّا بإخراج العقارب من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيّات وهي مؤذيات ومشوّشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيّات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربّه .

القسم الثاني الفكر جلال الله وعظمته و كبريائه وفيه مقامات :

المقام الأوّل وهو الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا ممّا منع منه حيث قيل : « تفكّروا في خلق الله ولا تتفكّروا في ذات الله (١) » وذلك لأنّ العقول تتحيّر فيه فلا يطيق مدّ البصر إليه إلّا الصدّيقون ثمّ لا يطيقون دوام النظر إليه بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله كحال بصر الخفّاش بالاضافة إلى نور الشمس فإنّه لا يطيقه البتّة بل يختفي نهاراً وإنّما يتردّد ليلاً لينظر في بقيّة نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان بالنظر إلى الشمس فإنّه يقدر على النظر إليها ولكن لا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو

(١) تقدم في باب فضيلة التفكر .

أدام النظر إليها ونظره المختطف إليها يورث العمش وتضعف البصر وكذلك النظر إلى ذات الله عزّ وجلّ يورث الحيرة والدّهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لايتعرّض لمجاري الفكر في ذات الله وصفاته فإنّ أكثر العقول لاتحتمله بل القدر اليسير الّذي صرّح به بعض العلماء، وهو أنّ الله عزّ وجلّ مقدّس عن المكان، منزّه عن الأقطار والجهات، وأنّه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متّصل بالعالم ولا هو منفصل عنه، قد حيّر عقولَ أقوام حتّى أنكروه إذ لم يطيقوا إسماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال أقلّ من هذا إذ قيل لهم: إنّه يتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسماً مشخّصاً له حجم ومقدار فأنكروا هذا فظنّوا أنّ ذلك قدح في عظمته وجلاله حتّى قال بعض الحمقى من العوام: إنّ هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله فظنّ المسكين أنّ الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأنّ الإنسان لا يعرف إلّا نفسه ولا يستعظم إلاّ نفسه، فكلّ مالا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدّر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك في حقّ الله تعالى وتقدّس حتّى يفهم العظمة بل لو كان للذّباب عقل وقيل له: ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك، وقال: كيف يكون خالقي انقص منّي أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمناً لايقدر على الطيران، أو يكون لي آلة وقدرة ولا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوّري وعقول أكثر الخلق قريبة من هذا العقل، وإنّ الإنسان جهول ظلوم كفّار ولذلك أوحى الله عزّ وجلّ إلى بعض أنبيائه لاتخبر عبادي بصفاتي فينكرون ولكن أخبرهم عنّي بما يفهمون ولمّا كان النظر في ذات الله عزّ وجلّ وصفاته مخطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق بأن لايتعرّض لمجاري الفكر فيه لكنّا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر إلى أفعاله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنّها تدلّ على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه وتدلّ على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيّته وقدرته فننظر إلى صفاته من آثار صفاته فإنّا لانطيق النظر إلى صفاته كما أنّا [لا] نطيق النظر

إلى الأرض مهما استنار بنور الشمس ونستدلّ به على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأنّ نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الأثر يدلّ على المؤثّر دلالة ما وإن كان لايقوم مقام النظر في نفس المؤثّر وجميع موجودات الدّنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنواره بل لا ظلمة أشدّ من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدّس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيّوم بنفسه كما أنّ قوام نور الأجسام بنورالشمس المضيئة بنفسها ومهماانكسف بعض الشمس فقدجرت العادة بأن يوضع طست ماء حتّى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يغضّ قليلاً من نور الشمس حتّى يطاق النظر إليها وكذلك الأفعال واسطة يشاهد فيها صفات الفاعل ولا يبهرنا نور الذّات بعد أن تباعدنا عنه بواسطة الأفعال ، فهذا سرّ قوله عليه السلام «تفكّروا في خلق الله ولا تتفكّروا في ذات الله ».

✿ (بيان كيفية التفكر في خلق الله عز وجل) ✿

اعلم أنّ كلّ ما في الوجود ممّا سوى الله فعل الله عزّ وجلّ وخلقه وكلّ ذرّة من الذّرّات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنّه لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي بل عشر عشير ذلك ولكنّا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه . فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة إلى مالا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكّر فيها ، وكم من الموجودات الّتي لانعلمها كما قال تعالى : « سبحان الّذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لايعلمون [(١)] » وقال « وننشئكم فيما لاتعلمون [(٢)] » وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكّر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحسّ البصر وإلى مالا ندركه بالبصر أمّا مالا ندركه بالبصر فكالملائكة والجنّ والشياطين وأمّا المدركات بحسّ البصر فهي السماوات السبع والأرضون وما بينهما والسماوات

(١) يس : ٣٦ . (٢) الواقعة : ٦١ .

مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنها ها وبحارها وحيوانها ونباتها و ما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها ، فهذه هي الأجناس المشاهدة من السماوات والأرض وما بينهما ، وكلّ جنس منهاينقسم إلى أنواع وكلّ نوع ينقسم إلى أقسام وينشعب كلّ قسم إلى أصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك و انقسامه في اختلاف صفاتها وهيآتها ومعانيها الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجالي الفكر فلا تتحرّك ذرّة في السماوات والأرض من جماد ونبات وحيوان وفلك وكوكب إلّا ومحرّكها هو الله عزّ وجلّ وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كلّ ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانيّة ودالّ على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدّالّة عليه وقد ورد القرآن بالحثّ على التفكّر في هذه الآيات كما قال : « إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولي الألباب[1] »و كما قال « ومن آياته » و «من آياته» من أوّل القرآن إلى آخره فلنذكر كيفيّة الفكر في بعض الآيات .

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من العجائب الدّالّة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنها فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرها وقد أمرك الله تعالى بالتدبّر في نفسك في كتابه العزيز فقال : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » [2] وذكر أنّك مخلوق من نطفة قذرة ، فقال تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره ✿ من أيّ شيء خلقه ✿ من نطفة خلقه فقدّره ✿ ثمّ السبيل يسّره ✿ ثم أماته فأقبره ✿ ثمّ إذا شاء أنشره [3] » وقال تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون [4] » وقال : « ألم يك نطفةً من منيّ يمنى ✿ ثم كان علقة فخلق فسوّى [5] » وقال : « ألم نخلقكم من ماء مهين ✿ فجعلناه في قرار

(١) آل عمران : ١٩٠ . (٢) الذاريات : ٢١ .
(٣) عبس : ١٧ - الى -٢٢ . (٤) الروم : ٢٠ .
(٥) القيامة : ٢٧و٢٨ .

مكين [١]» وقال : «أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين [٢]» وقال : «إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه [٣]» .

ثمّ ذكر كيف جعل النّطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً وقال تعالى : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ☆ ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ☆ ثمّ خلقنا النطفة علقة - الآية» [٤] فتكرار ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظها ويترك التأمّل في معناها فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة ولو تركت ساعة يضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها ربّ الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذّكر والانثى ؟ وألقى الإلف والمحبّة في قلبهما ؟ وكيف قادهما بسلسلة المحبّة والشهوة إلى الاجتماع ؟ وكيف استخرج النطفة من الرّجل بحركة الوقاع ؟ وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الأرحام ؟ ثمّ كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه وربّاه وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثمّ كيف جعلها مضغة ، ثمّ كيف قسّم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظم والأعصاب والعروق والأوتار واللّحم ، ثمّ كيف ركّب من اللّحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدوّر الرأس وشقّ السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثمّ مدّ اليد والرّجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثمّ كيف ركّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرّية والرّحم والمثانة والامعاء كلّ واحد على شكل مخصوص ، بمقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثمّ كيف قسم كلّ عضو من هذه الأعضاء بأقسام آخر فركّب العين من سبع طبقات لكلّ طبقه وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها لتعطّلت العين عن الإبصار ولو ذهبنا إلى نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا نقضت فيه الأعمار ، فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام قويّة صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثمّ جعلها قواماً للبدن وعماداً له ،

---

(١) المرسلات : ٢٠ و٢١ .	(٢) يس : ٧٧ .
(٣) الدهر : ٢ .	(٤) المؤمنون : ١٢ و١٣ و١٤ .

ثمّ قدّرها بمقادير مختلفة و أشكال متفاوتة فمنها صغيرٌ و كبيرٌ و طويل و مستدير و مجوّف و مصمت و عريض و دقيق ، و لمّا كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه و ببعض أعضائه للتردّد في حاجاته لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينهما مفاصل حتّى يتيسّر بها الحركة و قدّر شكل كلّ واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثمّ وصل مفاصلها و ربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم و ألصق بالطرف الآخر كالرّباط له ثمّ خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزّوائد لتدخل فيها و تنطبق عليها فصار العبد إن أراد حركة جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولو لا المفاصل لتعذّر عليه ذلك ، ثمّ انظر كيف خلق عظام الرّأس و كيف جمعها و ركّبها و قد ركّبها من خمسة و خمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور فألّف بعضها إلى بعض بحيث استوت به كرة الرّأس كما تراه فمنها ستّة تخصّ القحف (١) و أربعة عشر للحى الأعلى و الإثنان للحى الأسفل و البقيّة هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن و بعضها حادّة تصلح للقطع و هي الأنياب و الأضراس و الثنايا ، ثم جعل الرّقبة مركّباً للرّأس و ركّبها من سبع خرزات (٢) مجوّفات مستديرات فيها تجويفات و زيادات ونقصانات لينطبق بعضها على البعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ، ثمّ ركّب الرّقبة على الظهر .

و ركّب الظهر من أسفل الرّقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة و ركّب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة و يتّصل به من أسفله عظم العُصعُص (٣) و هو أيضاً مؤلّف من ثلاثة أجزاء ثمّ وصل عظام الظهر بعظام الصدور و عظام الكتف و عظام اليدين و عظام العانة و عظام العجز ثمّ عظام الفخذين و الساقين و أصابع الرّجلين و لانطول بذكر عدده ، ومجموع العظام في بدن الانسان مائتا عظم وثمانية

---

(١) القحف ـ بالكسر ـ : العظم فوق الدماغ .

(٢) يعنى بها فقرات الظهر .

(٣) العصعص ـ كقنفذ ـ : عجب الذنب أى اصله .

و أربعون عظماً سوى العظام الصغيرة الّتي حشى بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة و ليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فإنّ هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرّحون وإنّما الغرض منها أن ينظر في مدبّرها وخالقها أنّه كيف قدّرها ودبّرها وخالف بين أشكالها و أقدارها وخصّصها بهذا العدد المخصوص ، لأنّه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان و يحتاج إلى قلعه ، و لو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلّوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها ، فشتّان ما بين النظرين ، ثمّ انظر كيف خلق الله آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة و العضلة هي المركّبة من اللّحم والعصب والرّبط والأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع و عشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين و أجفانها و لو نقصت واحدة من جملتها لاختلّ أمر العين و هكذا لكلّ عضو عضلات بعدد مخصوص و قدر مخصوص و أمر الأعصاب و العروق و الأوردة و الشرائين و عددها و منابتها و انشعاباتها أعجب من هذا كلّه ، و شرحه يطول و للتفكّر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثمّ في آحاد هذا الأعضاء ، ثمّ في جملة البدن و كلّ ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن ، و عجائب المعاني والصفات الّتي لا تدرك بالحواسّ أعظم فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان و باطنه و إلى بدنه و صفاته لترى فيها من الصّنعة ما يقضي به العجب و كلّ ذلك صنع الله تعالى في قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السّماوات و كواكبها و ما حكمته في أوضاعها و أشكالها و مقاديرها و أعدادها و اجتماع بعضها و تفرّق بعضها و اختلاف صورها و تفاوت مشارقها و مغاربها ، و لا تظننّ أنّ ذرّة من ملكوت السماوات تنفكّ عن حكمة و حكم بل هي أحكم خلقاً و أتقن صنعاً و أجمع للعجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات و لذلك قال تعالى : « ءأنتم

أشدّ خلقا أم السّماء بناها (١) » فارجع الآن إلى النطفة و تأمّل حالها أوّلاً و ما صارت إليه ثانياً و تأمّل أنّه لو اجتمع الإنس والجنّ على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون عليها بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته و كيفيّة خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنها فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنّق النقّاش (٢) في تصويرها حتّى قرب ذلك من صورة الإنسان و قال الناظر إليها كأنّه إنسان عظم تعجّبك من صنعة النقّاش و حذقه و خفّة يده و تمام فطنته ولعظم في قلبك محلّه مع أنّك تعلم أنّ تلك الصّورة إنّما تمّت بالصبغ و القلم و الحائط و اليد و القدرة و العلم و الإرادة ، و شيء من ذلك ليس من فعل النقّاش و لا خلقه بل هو من خلق غيره و إنّما منتهى فعله الجمع بين الصّبغ و الحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجّبك منه و تستعظمه و أنت ترى النّطفة القذرة الّتي كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب و التّرائب ثمّ أخرجها منها وشكّلها و أحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وصوّرها فأحسن تصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها و حسن أشكال أعضائها وزيّن ظاهرها و باطنها و رتّب عروقها و أعصابها و جعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبباً لبقائها و جعلها سميعاً بصيراً عالماً ناطقاً ، فخلق لها الظهر أساساً لبدنها و البطن حاوياً لآلات غذائها و الرّأس جامعاً لحواسّها ففتح العين و رتّب طبقاتها و أحسن شكلها و لونها و هيأتها ثمّ حماها بأجفان لتسترها و تحفظها و تصقلها و تدفع الأقذاء عنها ، ثمّ أظهر في مقدار عدسة منها صورة السّماء مع اتّساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها وشقّ أذنيه و أودعهما ماءً مرّاً لحفظ سمعها ويدفع الهوامّ عنها وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فتردّها إلى صماخها و لتحسّ بدبيب الهوامّ إليها و جعل فيها تجويفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدبّ فيها و يطول طريقها

(١) النازعات : ٢٧ .

(٢) تأنق في عمله أى عمله باتقان .

فينتبه عن النّوم صاحبها إذا قصدته الدّابة في نوم ، ثمّ رفع الأنف من وسط الوجه و أحسن شكله و فتح منخريه وأودع فيهما حاسّة الشمّ ليستدلّ باستنشاق الرّوائح على مطاعمه و أغذيته و ليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه و ترويحاً لحرارة باطنه ، و فتح الفم وأودعه اللّسان ناطقاً و ترجماناً و معرباً عمّا في القلب و زيّن الفم بالأسنان و لتكون آلة للطحن و الكسر والقطع ، فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها و حسن لونها ورتّب صفوفها متساوية الرّؤوس متناسقة التّرتيب كأنّها الدّرّ المنظوم ، و خلق الشفتين و حسن لونهما وشكلهما لتنطبقا على الفم و تسدّا منفذه و ليتمّ بهما حروف الكلام ، ثمّ خلق الحنجرة و هيّأها لخروج الأصوات ، وخلق اللّسان قدرة للحركات و التقطيعات لتقطع الصّوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتّسع طريق النطق بكثرتها ، ثمّ خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيّق و السعة و الخشونة و الملاسة و صلابة الجوهر و رخاوته و الطّول و القصر حتّى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كلّ صوتين فرقان حتّى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرّد الصّوت في الظّلمة ، ثمّ زيّن الرأس بالشعور و الأصداغ [1] ، و زيّن الوجه باللّحية و الحاجبين ، و زيّن الحاجبين بدقّة الشعر و استقواس الشكل و زيّن العينين بالأهداب [2] ثمّ خلق الأعضاء الباطنة وسخّر كلّ واحد لفعل مخصوص ، فسخّر المعدة لنضج الغذاء والكبد لإحالة الغذاء إلى الدّم و الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمه بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمه لجذب الصفراء عنه ، والكلية تخدمه لجذب المائيّة عنها ، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثمّ تخرجه عن طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدّم إلى سائر أطراف البدن ، ثمّ خلق اليدين وطوّلهما لتمتدّ إلى المقاصد و عرض الكفّ و قسم الأصابع الخمس و قسم كلّ أصبع بثلاث أنامل و وضع الأربع في جانب و الإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع و لو اجتمع

(١) هي الشعور المتدلية على الصدغين والصدغ ما بين العين والاذن .
(٢) جمع هدبة وآن بفارسي مژهٔ چشم است .

الأوّلون و الآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول و ترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت إليه للقبض والاعطاء ، فان بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت آلة للضرب و إن ضمّها ضمّاً غير تامّ كانت مغرفة [١] و إن بسطها و ضمّ أصابعها كانت مجرفة له [٢] ، ثمّ خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل و عماداً لها من ورائها حتّى لا تنقطع و ليلتقط بها الأشياء الدّقيقة الّتي لاتتناولها الأنامل وليحكّ بها بدنه عند الحاجة فالظفر الّذي هو أخسّ الأعضاء لو عدمه الانسان و ظهرت به حكّة لكان أعجز الخلق و أضعفهم و لم يقم شيء مقامه في حكّ بدنه ، ثمّ هدى اليد إلى موضع الحكّ حتّى تمتدّ إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحكّ إلّا بعد تعب طويل ، ثمّ خلق هذا كلّه في النطفة وهي في جوف الرّحم في ظلمات ثلاث و لو كشف الغطاء والغشاء و امتدّ البصر إليه لكان يرى التخطيط و التّصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصوّر ولا آلته فهل رأيت مصوّراً أو فاعلاً لا يمسّ آلته مصنوعه ولا يلاقيه و هو يتصرّف فيها ، فسبحانه ما أعظم شأنه و أظهر برهانه ، ثمّ انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فانّه لمّا ضاق الرّحم عن الصبيّ لمّا كبر كيف هداه السّبيل حتّى تنكّس و تحرّك و خرج من ذلك المضيق و طلب المنفذ كأنّه عاقل بصير بما يحتاج إليه ، ثمّ لمّا خرج و احتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ، ثمّ لمّا كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبّر له في خلق اللّبن اللّطيف و استخرجه من بين الفرث و الدّم خالصاً سائغاً ، و كيف خلق الثديين و جمع فيهما اللّبن و أنبت لهما الحلمة [٣] على قدر ما ينطبق عليه فم الصبيّ ، ثمّ فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيّقاً جدّاً حتّى لايخرج اللّبن إلّا بعد المصّ

---

(١) مغرفة هى ما يقال لها بالفارسية «چمچه» .

(٢) جرف بالفارسى «كاويدن» ومجرفة بمعنى بيل است .

(٣) الحلمة ـ محركة ـ الثؤلول فى وسط الثدى وهوالحبة على رأسه .

تدريجاً فإنّ الطفل لايطيق منه إلّا القليل ، ثمّ كيف هداه إلى الإمتصاص حتّى يستخرج من ذلك المضيق اللّبن الكثير عند شدّة الجوع ، ثمّ انظر إلى عطفه و رأفته كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنّه في الحولين لايتغذّى إلّا باللّبن فيستغني عن السنّ و إذا كبر لم يوافقه اللّبن السّخيف و يحتاج إلى الطعام الغليظ و يحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لاقبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة من اللّثات اللّينة ثمّ حنّن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الّذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلو لم يسلّط الله سبحانه الرّحمة على قلبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثمّ انظر كيف رزقه القدرة والتمييز و العقل و الهداية تدريجاً حتّى بلغ و تكامل فصار مراهقاً ثمّ شابّاً ثم كهلاً ثمّ شيخاً إمّا كفوراً أوشكوراً ، مطيعاً أو عاصياً ، مؤمناً أوكافراً تصديقاً لقوله تعالى : «هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً☆إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً☆إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً[1]» فانظر إلى اللّطف والكرم ثمّ إلى القدرة والحكمة تبهرك[2] عجائب الحضرة الرّبوبيّة ، والعجب كلّ العجب ممّن يرى خطّاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه فينصرف جميع همّه إلى التفكّر في الخطّاط والنقّاش وأنّه كيف خطّه و نقشه و كيف اقتدر عليه ، ولا يزال يستعظمه ويقول ما أحذقه وما أجمل صنعته و أحسن قدرته ، ثمّ ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ويغفل عن صانعه ومصوّره ، فلا تدهشه عظمته و لا يحيره جلاله وحكمته ، فهذه نبذة من عجائب بدنك الّتي لا يمكن استقصاؤها، وهي أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عنها مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلّا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل وتشاركك في معرفة ذلك البهائم والسّباع كلّها وإنّما خاصيّة الإنسان الّتي حجبت البهائم عنها معرفة الله عزّ وجلّ بالنظر في ملكوت السّماوات والأرض

(١) الدهر : ١ الى ٣ .

(٢) بهر القمر غلب ضوؤه ضوء الكواكب .

وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين و يحشر في زمرة النبيّين والصدّيقين مقرّباً من حضرة ربّ العالمين. وليست هذه الرّتبة للبهائم ولا للإنسان إذا رضي من الدّنيا بشهوات البهائم فإنّه شرّ من البهيمة بكثير إذ لاقدرة للبهيمة على ذلك ، فأمّا هو فقد خلقت له القدرة ثمّ عطّلها و كفّر نعمة الله فيها ، فأولئك كالانعام بل هم أضلّ سبيلاً ، وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكّر في الأرض الّتي هي مقرّك ثمّ في أنهارها و بحارها وجبالها ومعادنها ثمّ ارتفع منها إلى ملكوت السّماوات .

اما الارض فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً و مهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها وجعلها وقوراً لاتتحرّك وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد ، ثمّ وسّع أكنافها حتّى عجز الآدميّون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم و كثر تطوافهم فقال تعالى : « والسّماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون ✿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون[1] »وقال تعالى : « هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها [2] » وقال : « الّذي جعل لكم الأرض فراشاً[3] » وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر الأرض ليتفكّر في عجائبها فظهرها مقرّ للأحياء و بطنها للأموات ، و لذلك قال تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتاً ✿ أحياء و أمواتاً [4] » فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربت واخضرّت وأنبتت عجائب النّبات و خرجت منها أصناف الحيوان ، ثمّ انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الرّاسيات الشوامخ الصّمّ الصلاب ، و كيف أودع المياه تحتها ففجّر العيون و أسال الأنهار تجري على وجهها وإنّما أخرج من الحجارة اليابسة

---

(١) الذاريات : ٤٨ . (٢) الملك : ١٥ .

(٣) البقرة : ٢٢ .

(٤) المرسلات : ٢٥و٢٦. وقوله تعالى« كفاتاً» قال البيضاوى : اى كافتة ، اسم لما يكفت اى يضم ويجمع، كالضمام والجماع لما يضم و يجمع ، أومصدر نعت به أوجمع كافت كصائم وصيام أو كفت وهوالوعاء أجرى على الارض باعتبار اقطارها .

ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً وجعل به كلّ شيء حيّاً [١] فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حبّ وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمّان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفةالأشكال والألوان والطعوم والصّفات والارائيح ففضّل بعضها على بعض في الأُكل تسقى جميعاً بماء واحد وتخرج من أرض واحدة ، فإن قلت : إنّ اختلافها لاختلاف بذورها وأُصولهافمتى كانت في النواة نخلة مطوّقة بعناقيد[٢] الرّطب ومتى كانت في حبّة واحدة سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة ، ثمّ انظر إلى أراضي البوادي وفتّش ظاهرها وباطنها فترى بها تراباً متشابها فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كلّ زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه ، لكلّ واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثمّ اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعها وكيف أودع اللهالعقاقيرالمنافع الغريبة فهذاالنبات يغذّي ، وهذا يقوّي ، وهذا يحيي ، وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصّفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصّفراء ، وهذا يقمع البلغم والسّوداء ، وهذا يستحيل إليهما ، وهذا يستحيل دماً ، وهذا يصفي الدّم ، وهذا يفرح ، وهذا ينوّم ، وهذا يقوّي ؛ وهذا يضعّف فلم‌ينبت من‌الأرض ورقة ولانبتة إلّا وفيها منافع‌لايقوى البشر على الوقوف على كنهها وكلّ واحد منها يحتاج الفلّاح في تربيتها إلى عمل مخصوص فالنخيل يؤبّر [٣] والكرم يقطع والزّرع ينقّى منه الحشيش والدّغل [٤]

(١) لعله مأخوذ من قوله تعالى « و جعلنا من الماء كل شيء حيي » و لايخفى ان معنى الاية أن الله تعالى‌جعل كل شيء حي‌من الماء لا كل‌شيء حياً من‌الماء . وفي‌الاحياء طبعاته المختلفة بايران و مصر والهند كلها « وجعل به كل شيء حي» وهوالصواب .

(٢) جمع عنقود بمعنى خوشه .

(٣) الابار - بالكسر - هو ادخال شيء من طلع النخل الذكر في طلع الانثى فيعلق باذن‌الله . أبر النخلة وأبرة - بالتشديد - أي‌لقحه وأصلحه .

(٤) الدغل - محركة - : الشجرالكثيرالملتف ، واشتباك النبت .

وبعضها تستنبت ببثّ البذر في الأرض و بعضها تغرس الأغصان وبعضها تركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النّبات وأنواعها ومنافعها وأحوالها وعجائبها لانقضت الأيّام في وصفها فيكفيك من كلّ جنس نبذة يسيرة تدلّك على طريق الفكر فهذه عجائب النّبات .

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والنحاس والفضّة والفيروزج واللّعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق (١) كالذّهب والنحاس والرّصاص والحديد وبعضها لاينطبع كالفيروزج واللّعل ، وكيف هدى الله تعالى النّاس إلى استخراجها وتنقيتها واتّخاذ الأواني والآلات والنقود والحليّ منها ، ثمّ انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقير وغيرها وأقلّها الملح ولا يحتاج إليه إلّا لتطييب الطّعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك عليها، فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصّافي من المطر فيصير ملحاً مالحاً محرقاً بحيث لايمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيتهنّأ عيشك ، وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلّا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا ضائعاً ولاهزلاً بل خلق الكلّ بالحقّ كما ينبغي و على الوجه الّذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ، ولذلك قال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض و ما بينهما لاعبين ۞ ما خلقناهما إلّا بالحقّ (٢) ».

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير و إلى ما يمشي ، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع وعلى عشر وعلى مائة ويشاهد ذلك في بعض الحشرات والدّيدان وانقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البرّ وإلى

(١) المطرقة آلة الحدادين ، جمعها مطارق .

(٢) الدخان : ٣٩ و ٤٠ .

البهائم الأهليّة ترى فيها من العجائب مالاتشكّ معها في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقّة[١] أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها الزوجها و في ادّخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر ، فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أوّلاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتّى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثمّ يبتدي فيلقي اللّعاب الّذي هو خيطه على جانب ليلتصق به فيعدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثمّ يحكم كذلك ثانياً وثالثاً ويجعل بعد مابينها متناسباً تناسباً هندسياً حتّى إذا أحكم معاقد القمط[٢] ورتّب الخيوط كاللّحمة فيشتغل بالتسدية فيلصق السدى إلى اللّحمة ويحكم العقد على موضع التقاء السدى[٣] باللّحمة و يرعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ويقعد في زاوية مترصّداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع فيها بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصّيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصله بين طرفي الزّاوية بخيط ثمّ علّق نفسه منها بخيط آخر وبقي متنكّساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت ذبابة رمى بنفسه إليها فأخذها وأحكم خيطه على رجلها وأحكمها ثمّ أكلها ، وما من حيوان صغير ولا كبير إلّا وفيه من هذه العجائب ما لايحصى افترى أنّه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كوّنه آدمي أو علّمه إذ لاهادي له ولا معلّم أيشكّ ذو - بصيرة في أنّه مسكين عاجز ضعيف بل الفيل العظيم شخصه الظاهر قوّته عاجز عن أمر نفسه فكيف بهذا الحيوان الضّعيف أفلا يشهد هو بنفسه وشكله وصورته وحركته

(١) هي ما يقال له بالفارسية « پشه ».

(٢) القمط - بكسر القاف - : حبل تشدبه قوائم الشاة للذبح .

(٣) السدى - بفتح السين - : ضد اللحمة وهو مايمد طولا فى النسج واسديت الثوب بالالف اقمت سداه ، ولحمة الثوب ما ينسج عرضاً .

وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم ، فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبّر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ماتتحيّر فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات ، وهذا الباب أيضاً لاحصرله فإنّ الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنّما سقط تعجّب القلوب منها لاُنسها بكثرة المشاهدة ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجدّد تعجّبه وقال : سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجّب من نفسه بل لونظر إلى الأنعام الّتي ألفها ونظر إلى أشكالها و صورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها و أصوافها و أوبارها و أشعارها الّتي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوناً لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثمّ جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبراري والمفازات لأكثر الناظر التعجّب من حكمة خالقها ومصوّرها فإنّه ما خلقها إلّا بعلم مفيد بجميع منافعها سابق على خلقه إيّاها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكّر ومن غير تأمّل وتدبّر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير و لقد استخرج بأقلّ القليل ممّا خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلّا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيّته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن الّذي يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنّما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله عزّ وجلّ أن يكرمنا بهدايته بمنّه و رأفته .

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض الّتي هي قطع من البحر الأخضر المحيط بجميع الأرض حتّى أنّ جميع المكشوف من البوادي والجبال بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم و بقية الأرض مستورة بالماء قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض [1] » فانسب اصطبلاً إلى جميع الأرض ، واعلم أنّ الأرض بالاضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب -

(١) قال العراقى : لم أجد له أصلا وقد تقدم .

الأرض و ما فيها فتأمّل الآن عجائب البحر فإنّ عجائب ما فيه من الحيوان و الجواهر أضعاف عجائب ما نشاهده على وجه الأرض كما أنّ سعته أضعاف سعتها ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما يرى ظهورها في البحر فيظنّ أنّها جزيرة فينزل الرّكبان عليها فربّما يحسّ بالنّيران إذا اشتعلت فيتحرّك فيعلم أنّها حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البرّ من فرس أوطير أوبقر أوإنسان إلّا وفي البحر أمثالها وأصنافها ، وفيه أجناس لايعهد لها نظير في البرّ قد ذكرت أوصافها في مجلّدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ، ثمّ انظر كيف خلق الله اللّؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صمّ الصّخور تحت الماء وإنّما هو نبات على هيئة شجرة تنبت من الحجر ، ثمّ تأمّل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس الّتي يقذفها البحر و يستخرج منها ، ثمّ انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله عزّوجلّ على وجه الماء وسيّر فيها التجّار وطلّاب الأموال وسخّرلهم الفلك ليحمل أثقالهم ، ثمّ أرسل الرّياح لتسوق السّفن ، ثمّ عرّف الملّاحين موارد الرّياح ومهابّها ومواقيتها ، ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلّدات ، و أعجب من ذلك كلّه ما هو أظهر من كلّ ظاهر و هو كيفيّة قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيّال مشفّ متّصل الأجزاء كأنّه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنّه منفصل مسخّر للتصرّف وقابل للانفصال و الاتّصال به حياة كلّ ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ومنع لبذل جميع خزائن الدّنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ثمّ إذا شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها فالعجب من الآدمي أن يستعظم الدّنيا والدّرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله عزّوجلّ في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها و إخراجها بذل جميع الدّنيا فيها فتأمّل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متّسع للفكر و مجالّ و كلّ هذا شواهد متظاهرة و آيات متناصرة ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلالة بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها ، قائلة : أماتراني وما ترى صورتي و تركيبي و صفاتي ومنافعي و

اختلاف حالاتي و كثرة فوائدي أتظنّ أنّي تكوّنت بنفسي أوخلقني أحدٌ من جنسي أو ما تستحي تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنّها صنعة آدمي مريد عالم قادر متكلّم ، ثمّ تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهيّة المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الّذي لا تدرك الأبصار ذاته و لا حركته و لا اتّصاله بمحلّ الخطّ، ثمّ ينفك قلبك عن جلالة صانعه ، و تقول النطفة لأرباب السمع لاللّذين هم عن السمع لمعزولون : توهّموني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الّذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقّاش حدقتي و أجفاني ووجهي وخدّي وشفتي فترى النقوش تظهر شيئاً فشيئاً ولاترى داخل النطفة نقّاشاً ولاخارجها و لا داخل الرّحم و لاخارجه ولاخبر منها لاللأب و لاللأمّ و لاللنطفة ولاللرّحم أفما هذا النقّاش بأعجب ممّن تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرّةأو مرّتين لتعلّمته فهل تقدر على أن تتعلّم هذا الجنس من النقش الّذي يعمّ ظاهر النطفة و باطنها و جميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة و من غير اتّصال بها لا من داخل و لا من خارج فإن كنت لاتتعجّب من هذه العجائب ولاتفهم بها أنّ الّذي صوّر ونقش و قدّر لا نظير له و لا يساويه نقّاش و مصوّر كما أنّ نقشه و صنعه لا يساويه نقش و صنع ، فبين الفاعلين من المباينة و التباعد ما بين الفعلين ، و إن كنت لاتتعجّب من هذا فتعجّب من عدم تعجّبك فإنّه أعجب من كلّ عجب فإن الّذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح و منعك التبيّن مع هذا البيان جديرٌ بأن تتعجّب منه فسبحان من هدى وأضلّ و أغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبّائه فشاهدوه في جميع ذرّات العالم و أجزائه و أعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزّه و علائه فله الخلق و الأمر و الامتنان و الفضل و اللّطف و القهر ، لارادّ لحكمه و لامعقّب لقضائه .

ومن آياته الهواء اللّطيف المحبوس بين مقعّر السّماء و محدّب الأرض يدرك بحسّ اللّمس عند هبوب الرّيح جسمه ولايرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد و الطيور محلّقة في جوّ السّماء مسفّة سبّاحة فيها بأجنحتها كما تسبح حيوانات

البحر في الماء و تضطرب جوانبه و أمواجه عند هبوب الرّياح كما تضطرب أمواج البحر فإذا حرّكالله الهواء و جعله ريحاً هابّة فإن شاء جعله بشرى بين يدي رحمته كما قال : « و أرسلنا الرّياح لواقح[1] » فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات و النبات فتستعدّ للنماء و إن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال : « إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمرّ * تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر [2] » ثمّ انظر إلى لطف الهواء ثمّ شدّته و قوّته مهما ضغط في الماء فالزّقّ المنفوخ يتحامل عليه الرّجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه و الحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته و بهذه الحكمة أمسك الله عزّ وجلّ السفن على وجه الماء و كذلك كلّ مجوّف فيه هواء لايغوص في الماء لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء و لا ينفصل عن السطح الدّاخل في السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها و صلابتها معلّقة في الهواء اللّطيف كالّذي يقع في البئر ، فيتعلّق بذيل رجل قويّ ممتنع عن الهويّ في البئر و السفينة بمقعرها تتشبّث بأذيال الهواء القويّ حتّى يمتنع عن الهويّ و الغوص في الماء فسبحان من علّق المركب الثقيل من هواء لطيف من غير علاقة تشاهد و عقدة تشدّ ، ثمّ انظر إلى عجائب الجوّ وما يظهر فيها من الغيوم والرّعود و البروق و الأمطار و الثلوج و الشهب و الصواعق و هي عجائب ما بين السماء و الأرض و قد أشار القرآن إلى جملته في قوله تعالى : « وما خلقنا السموات و الأرض وما بينهما لاعبين [3] » و السحاب هو الّذي بينهما و أشار إلى تفصيله في مواضع شتّى حيث قال : « والسحاب المسخّر بين السماء والأرض »[4] وحيث تعرّض للرّعد و البرق و السحاب و المطر . فإذا لم يكن لك حظّ من هذه الجملة إلّا أن ترى المطر بعينك و تسمع الرّعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم

---

(١) الحجر : ٢٢ .

(٢) القمر : ١٩ و ٢٠ .

(٣) الدخان : ٣٨ .

(٤) البقرة : ١٦٤ .

البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها فغمّض عينك الظاهرة و انظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها و هذا أيضاً باب يطول الفكر فيه و لامطمع في استيفائه ، فتأمّل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه تجمع في جوّ صاف لا كدورة فيه و كيف يخلقه الله عزّ وجلّ إذا شاء و متى شاء و هو مع رخاوته حامل للماء الثقيل و ممسك في جوّ السماء إلى أن يأذن الله عزّ وجلّ في إرساله الماء و تقطيع القطرات كلّ قطرة بالقدر الّذي أراده الله عزّ وجلّ و على الشكل الّذي شاءه فترى السّحاب يرشّ الماء على الأرض و يرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها اُخرى و لا تتّصل واحدة باُخرى بل تنزل كلّ واحدة في الطريق الّذي رسم لها لا تعدل عنه و لا يتقدّم المتأخّر و لايتأخّر المتقدّم حتّى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأوّلون و الآخرون على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أويعرفوا عددماينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجنّ و الانس عنه فلا يعلم عددها إلّا الّذي أوجدها ، ثمّ كلّ قطرة منها عيّنت لكلّ جزء من الأرض و لكلّ حيوان فيها من طير و وحش ودود مكتوب على تلك القطرة بخطّ إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنّها رزق الدّود الفلانية الّذي هو في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللّطيف و في تناثر الثلوج كالقطن المندوف ، و من العجائب الّتي لاتحصى كلّ ذلك فضل من الجبّار القادر و قهر من الخلّاق القاهر ، مالأحد فيه شركة ولا مدخل بل ليس للمؤمن من خلقه إلّا الاستكانة والخضوع تحت جلاله و عظمته و لالمعميان الجاحدين إلّا الجهل بكيفيّته و رجم الظنّ بذكر سببه و علّته فيقول الجاهل المغرور : إنّما ينزل الماء لأنّه ثقيل بطبعه ، و إنّما هذا سبب نزوله و يظنّ أنّ هذه معرفة انكشفت له و يفرح بها و لو قيل له : ما معنى الطبع ؟ و ما الّذي خلقه ؟ وما الّذي خلق الماء الّذي طبعه الثقل ؟ و ما الّذي يرقى الماء المصبوب في أسفل الاشجار إلى أعالي الأغصان و هي ثقيلة بطبعها فكيف هوت إلى أسفل ثمّ ارتفعت إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى و لا يشاهد

حتّى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيغذى كلّ جزء من كلّ ورق و يجري إليه في تجاويف عروق شعريّة صغار يروّي منها العرق الّذي هوأصل الورق ، ثمّ ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكان الكبير نهر ينشعب عنه جداول ثمّ ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ثمّ ينتشر منها خيوط عنكبوتيّةدقيقة تخرج عن إدراك البصر حتّى تنبسط في جميع عرض الورق فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذّيها وينميها ويربّيها وتبقى طراوتها و نضارتها و كذلك إلى سائر أجزاء الفواكه ، فإن كان الماء يتحرّك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرّك إلى فوق فإن كان ذلك بجذب فما الّذي سخّر ذلك الجاذب فإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السماوات و الأرض و جبّار الملك و الملكوت فلم لايحال عليه في أوّل الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل .

ومن آياته ملكوت السماوات وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كلّه و من أدرك الكلّ و فاتته عجائب السماوات فقد فاته الكلّ تحقيقاً ، فالأرض و البحار و الهواء و كلّ جسم سوى السماوات بالإضافة إلى السماوات كقطرة في بحر أو أصغر ، فانظر كيف عظم الله أمر السّماوات و النّجوم في كتابه فما من سورة إلّا و تشتمل على تفخيمها في مواضع و كم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى : « و السّماء ذات البروج [1] » « و السماء و الطارق ✿ و ما أدريك ما الطارق ✿ النجم الثاقب [2] » « و السماء ذات الحبك [3] » « و السماء و ما بناها [4] » و قوله : « و الشمس و ضحيها [5] » « فلا اُقسم بالخنّس ✿ الجوار الكنّس [6] » « والنّجم إذا هوى [7] » « فلا اُقسم بمواقع النّجوم ✿ و إنّه لقسم لو تعملون عظيم [8] » وقد علمت أنّ عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون و الآخرون و ما أقسم الله

---

(١) البروج : ١ .
(٢) الطارق : ١ و٢و٣.
(٣) الذاريات : ٧.
(٤) و(٥) الشمس : ٥ و ١ .
(٦) التكوير : ١٥ و١٦.
(٧) النجم : ١ .
(٨) الواقعة : ٧٦ و٧٧ .

عزّ وجلّ بها فكيف ظنّك بما أقسم الله عزّ وجلّ به و أحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال : « و في السماء رزقكم و ما توعدون (١) » و أثنى على المتفكّرين فيه فقال : « و يتفكّرون في خلق السّموات و الأرض (٢) » و قال النبيّ عليه‌السلام : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثمّ مسح بها سبلته(٣) » أي تجاوزها من غير فكرة . وذمّ المعرضين عنها فقال : «وجعلنا السّماء سقفاً محفوظاً و هم عن آياتها معرضون (٤) » فأيّ نسبة لجميع البحار و الأرض إلى السماء و هي متغيّرات على القرب و السماوات شداد صلاب محفوظات عن التغيّر إلى أن يبلغ الكتاب أجله و لذلك سمّاه الله عزّ و جلّ محفوظاً فقال : « و جعلنا السّماء سقفاً محفوظاً (٥) » و قال : « و بنينا فوقكم سبعاً شداداً (٦) » و قال : « أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماء بناها * رفع سمكها فسوّيها (٧) » فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العزّ و الجبروت و لاتظننّ أنّ معنى النظر إلى الملكوت بأن تمدّ البصر إليه فترى زرقة السّماء وضوء الكواكب و تفرّقها فإنّ البهائم تشاركك في هذا النظر فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله إبراهيم بقوله : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض (٨) » لابل كلّ ما تدركه بحاسّة البصر فالقرآن يعبّر عنه بالملك و الشهادة ، و ما غاب عن الأبصار فيعبّر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب و الشهادة و جبّار الملك و الملكوت ولايحيط أحدٌ بشيء من علمه إلّا بما شاء و هو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلّا من ارتضى من رسول ، فأطل أيّها الغافل فكرك في الملكوت فعسى أن يفتح لك أبواب السّماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرّحمن فعند ذلك ربمّا يرجى لك أن تبلغ رتبة من قال : « رأى قلبي ربّي » و هذا لأنّ بلوغ الأقصى لايكون إلّا بعد مجاوزة الأدنى ، وأدنى شيء إليك نفسك ثمّ الأرض

(١) الذاريات : ٢٢ .
(٢) آل عمران : ١٩١ .
(٣) قد تقدم .
(٤) و(٥) الانبياء : ٣٢ .
(٦) النبأ : ١٢ .
(٧) النازعات :٢٧ و٢٨ .
(٨) الانعام ٧٥ .

الّتي هي مقرّك ، ثمّ الهواء المكتنف لك ، ثمّ النبات و الحيوان و ما على وجه الأرض ، ثمّ عجائب الجوّ و هو ما بين السّماء و الأرض ، ثمّ السماوات السبع بكواكبها ثمّ الكرسيّ ثمّ العرش ثمّ الملائكة الّذين هم حملة العرش و خزّان السماوات ثمّ منه تجاوز النظر إلى ربّ العرش والكرسيّ والسماوات والأرض وما بينهما فبينك و بينه هذه المفاوز الفيح[1] والمسافات الشاسعة و العقبات الشاهقة[2] و أنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، و هي معرفة ظاهر نفسك ، ثمّ صرت تطلق اللّسان بوقاحتك وتدّعي معرفة ربّك وتقول : قد عرفته و عرفت خلقه ففيما ذا أتفكّر وإلى ما ذا أتطلّع ؟ فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها و في دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها و مغاربها ودؤوبها في الحركة[3] على الدّوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغيّر في سيرها بل يجري جميعها في منازل مرتّبة بحساب مقدّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله عزّ وجلّ طيّ السجلّ للكتب ، فتدبّر عدد كواكبها و كثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللّون الرّصاصي ، ثمّ انظر إلى كيفيّة أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على سورة الحمل والثور والاسد والانسان ، وما من صورة في الأرض إلّا ولها تمثال في السماء ، ثمّ انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة ثمّ هي تطلع كلّ يوم وتغرب بسير آخر سخّرها لها خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف اللّيل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدّوام أو الضياء على الدّوام وكان لا يتميّز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل اللّيل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً ، وانظر إلى إيلاجه اللّيل في النهار والنهار في اللّيل وإدخاله الزّيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص و انظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتّى اختلف بسببه الصّيف والشتاء والرّبيع والخريف

(١) مفازة فيحاء أي واسعة . والجمع فيح .

(٢) الشاسعة البعيدة ، والشاهقة : المرتفعة (الصحاح) .

(٣) الدؤوب الجد و الحركة .

فإذا انخفضت الشمس عن وسط السماء في مسيره برد الهواء فظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتدّ القيظ وإن كانت فيما بينهما اعتدل الزّمان وعجائب السماوات لامطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وإنّما هذا تنبيه على طريق التفكّر واعتقد على الجملة أنّه ما من كوكب من الكواكب إلّا و لله تعالى حِكم كثيرة في خلقه، ثمّ في مقداره، ثمّ في شكله، ثمّ في لونه، ثمّ في وضعه في السماء وقربه من وسط السّماء وبعده وقربه من الكواكب الّتي بجنبه وبعده وقس ذلك بما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ مامن جزء إلّا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السّماء لافي كبر جسمه ولا في كثرة معانيه، وقس التفاوت الّذي بينهما في كثرة معانيه بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتّساع أطرافها أنّه لايقدر آدميّ على أن يدور بجوانبها وقد اتّفق المهندسون على أنّ الشمس مثل الأرض مائة ونيّفاً وستّين مرّة [1]، وفي الأخبار ما يدلّ على عظمتها والكواكب الّتي تراها أصغرها هي مثل الأرض ثماني مرّات وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرّة مثل الأرض وبهذا يعرف إرتفاعها وبعدها فللبعد صارت ترى صغاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: «رفع سمكها فسوّيها [2]» وفي الأخبار أنّ «بين كلّ سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام [3]» فإذا كان هذا مقدار كوكب واحد من الأرض فانظر إلى كثرة الكواكب ثمّ

(١) هذا على مذهب بطلميوس و أتباعه و أما قبله يعني عصر هيرقلس الفيلسوف اعتقدوا بأن جرم الشمس لا يزيد عما نشاهده بالابصار كما في كتاب مشهد الكائنات ص ٨٣ و أما اليوم فزعموا أن جسامة الشمس بالنسبة الى الارض تزيد من ألف ألف مرة الى ١٣٠٠٠٠٠ مرة والله أعلم.

(٢) النازعات: ٢٨.

(٣) أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة و قال: غريب. و قال العراقي: ويروى عن أيوب و يونس بن عبيد و علي بن زيد قالوا: و لم يسمع الحسن من أبي هريرة، و رواه أبوالشيخ في كتاب العظمة من رواية أبي نصرة عن أبي ذر ورجاله ثقات الا انه لا يعرف لابي نصرة سماع من أبي ذر.

انظر إلى السماء الّتي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمتها، ثمّ انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحسّ بحركتها فضلاً من أن تدرك سرعتها لكن لاتشكّ في أنّه في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأنّ الزّمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرّة وزيادة ، فقد دار الفلك في هذه اللّحظة مثل الأرض مائة مرّة وهكذا يدور على الدّوام وأنت غافل عنه، وانظر كيف عبّر جبرئيل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبيّ صلى الله عليه وآله : «هل زالت الشّمس ؟ فقال : لا ، نعم ، فقال كيف تقول: لا نعم فقال: من حيث قلت «لا» إلى أن قلت «نعم» سارت الشّمس مسيرة خمسمائة عام[1] » فانظر إلى عظم شخصها ثمّ إلى خفّة حركتها ثمّ انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتّساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتّى تجلس على الأرض وتفتح عينك نحوها فترى جميعها فهذه السّماء لعظمتها و كثرة كواكبها لاتنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثمّ أمسكها من غير عمد ترونها و من غير علاقة من فوقها تتدلّى بها فكلّ العالم كبيت واحد والسّماء سقفه فالعجب منك إنّك تدخل بيت غني فتراه مزوّقاً[2] بالصبغ مموّها بالذّهب فلا ينقطع تعجّبك عنه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ، ثمّ لاتتحدّث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون البيت الّذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض الّتي هي أخسّ أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلّا أنّه بيت ربّك هو الّذي انفرد ببنائه وتزيينه وأنت قد نسيت نفسك وربّك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك همّ إلّا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بلسانهم بين يديك

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .
(٢) أي منقشاً .

ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وإن صدّقوك في مودّتهم إيّاك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حيوة ولا نشوراً وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذه الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السّماوات والأرض ثمّ غفلت عن التنعّم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك و ما مثلك و مثل عقلك إلّا كمثل النملة تخرج من الحجر الّذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزيّن بالجواري والغلمان وأنواع الذّخائر والنّفائس وإنّها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلّا من بيتها وغذائها و كيفيّة إدّخارها فأمّا حال القصر والملك الّذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكّر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها و كما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضاً عن سكّانه فأنت غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الّذين هم سكّان سماواته فلا تعرف من السّماء إلّا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السماوات إلّا ما تعرفه النملة منك ومن سكّان بيتك نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه فأمّا أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنها ، ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنّه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضّل الله عزّ وجلّ علينا بمعرفته وكلّ ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه جملة الأولياء والعلماء ، وما عرفوه قليل بالاضافة إلى ما عرفه نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم وما عرفه نبيّنا قليل بالاضافة إلى ما عرفته الملائكة المقرّبون كجبرئيل وإسرافيل وغيرهما صلوات الله عليهم ثمّ جميع علوم الملائكة والجنّ والانس إذا اُضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحقّ أن يسمّى علماً ، هو إلى أن يسمّى دهشاً وحيرة وقصوراً و عجزاً أقرب ، فسبحان من عرّف عباده ما عرّف ثمّ قال مخاطباً جميعهم : « وما اوتيتم من العلم إلّا قليلا [1] »

---

(١) الاسرى : ٨٥ .

فهذا بيان معاقد الجمل الّتي يجول فيها فكر المتفكّرين في خلق الله عزّ وجلّ وليس فيها فكر في ذات الله ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لامحالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلّما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله كانت معرفتك بجلاله و عظمته أتمّ و هذا كما أنّك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه فلايزال تطلع على غريبه من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً حتّى أنّ كلّ كلمة من كلماته و كلّ بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً في قلبك و يستدعي التعظيم له من نفسك ، فهكذا تأمّل في خلق الله وتصنيفه وتأليفه . وكلّ ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه فالنظر والفكر فيه لايتناهى أبداً وإنّما لكلّ عبد منها بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ماذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصّلناه في كتاب الشكر فانّا نظرنا في ذلك الكتاب إلى فعل الله من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث أنّه فعل الله فقط وكلّ مانظرنا فيه فانّ الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفّق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرّة في السماء و الأرض إلّا ولله تعالى فيه حكم يضلّ بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ومن نظر في هذه الاُمور من حيث أنّها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصراً المنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بمسبّب الأسباب فقد شقي وتردّى فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلّة أقدام الجهّال بمنّه وفضله إنّه على مايشاء قدير .

تمّ كتاب التفكّر من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء بحمد الله ومنّه على يد أحقر العباد وأضعفهم محسن بن مرتضى جعله الله من المتفكّرين في ملكوت السماوات والارض بمنّه وكرمه .

ويتلوه كتاب ذكر الموت ومابعده إن شاء الله العزيز والحمد لله وحده والصلاة على خير خلقه محمّد وآله الطّاهرين .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر آخر كتب الأرباع الأربعة من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي قصم بالموت رقاب الجبابرة و كسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آجال القياصرة الّذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة حتّى جاءهم الوعد الحقّ فإذا هم في الحافرة فنُقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللّحود ، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مصاحبة الهوام والدّيدان ، ومن التنعّم بالشراب إلى التمرّغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً أو اتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً ، وأبصر هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ، فسبحان من تفرّد بالقهر والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء وأذلّ أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثمّ جعل الموت مخلصاً للاتقياء وموعداً في حقّهم للّقاء وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السماوات والأرض وله الحمد في الأولى و الآخرة والصلاة على محمّد ذي المعجزات الظاهرة وعلى آله وأصحابه وسلّم كثيراً .

أمّا بعد فجديرٌ بمن الموت مصرعه ، و التراب مضجعه ، و الدّود أنيسه ، و منكر ونكير جليسه ، والقبر مقرّه ، وبطن الأرض مستقرّه ، و القيامة موعده ، و الجنّة أو النار مورده أن لا يكون له فكرٌ إلّا في الموت و لا ذكرٌ إلّا لأجله ، و لا تطلّع إلّا إليه ، و لا تعريج إلّا عليه ، ولا اهتمام إلّا به ، ولا حوم إلّا حوله ، ولا انتظار

ولا تربّص إلّا له ، و حقيقٌ بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور فإنّ كلّ ما هو آت قريبٌ ، و البعيد ما ليس بآت و قد قال عليه السلام : « الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت » و لن يتيسّر الاستعداد للشيء إلّا عند تجدّد ذكره على القلب و لا يتجدّد ذكره ، إلّا عند التذكّر بالإصغاء إلى المذكّرات له ، والنظر في المنبّهات عليه و نحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته و لواحقه و أحوال الآخرة و القيامة و الجنّة والنار ما لابدّ للعبد من تذكاره على التكرار و ملازمته بالافتكار و الاستبصار ليكون ذلك مستحثّاً على الاستعداد فقد قرب الرّحيل فما بقي من العمر إلّا قليلٌ والخلق غافلون واقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ونحن نذكر ما يتعلّق بالموت في شطرين .

الشطر الأوّل في مقدّماته و توابعه إلى نفخة الصور و فيه ثمانية أبواب :
الباب الأوّل في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في طول الأمل وقصره. الباب الثالث في سكرات الموت و شدّته و ما يستحبّ من الأحوال عند الموت . الباب الرّابع في وفاه النبيّ صلّى الله عليه وآله . الباب الخامس في كلام المحتضرين من الصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر و حكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت و ما يلقاه الميّت في القبر إلى نفخة الصّور . الباب الثامن في ما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

✿(الباب الاول)✿

في فضل ذكر الموت و الترغيب فيه إعلم أنّ المنهمك في الدّنيا المكبّ على غرورها المحبّ لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره و إذا ذكّر به كرهه ونفر منه اُولئك هم الّذين قال الله تعالى فيهم: «قل إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم ثمّ تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون[1]» و الناس إمّا منهمك أو تائب مبتدىء أو عارف منته ، أمّا المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره ليتأسّف على دنياه و يشتغل بمذمّته و هذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً ، و أمّا التائب فإنّه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف و الخشية

(١) الجمعة : ٨.

فيفي بتمام التوبة و ربّما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التّوبة و قبل إصلاح الزّاد و هو معذور في كراهة الموت ولايدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وآله: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه [1]» فإنّ هذا ليس يكره الموت و لقاء الله و إنّما يخاف فوت لقاء الله لقصوره و تقصيره، و هو كالّذي يتأخّر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعدُّ كارهاً للقائه و علامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواه و إلّا التحق بالمنهمك في الدّنيا، و أمّا العارف فانّه يذكر الموت دائماً لأنّه موعد للقائه لحبيبه والمحبُّ لاينسي قطُّ موعد لقاء الحبيب، و هذا في غالب الأمر يستبطيء مجييء الموت ويحبُّ مجيئه ليتخلّص من دار العاصين و ينتقل إلى جوار ربّ العالمين كما روي عن حذيفة - رضي الله عنه - أنّه لمّا حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم، اللّهمّ إن كنت تعلم أنّ الفقر أحبُّ إليّ من الغنى والسقم أحبُّ إليّ من الصحّة والموت أحبُّ إليّ من الحياة فسهّل عليّ الموت حتّى ألقاك فإذن التّائب معذور في كراهة الموت و هذا معذور في حبّ الموت و تمنّيه وأعلى رتبة منهما من يفوّض أمره إلى الله فصار لايختار لنفسه موتاً و لا حياة بل يكون أحبُّ الأشياء إليه أحبّها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحبّ و الولاء إلى درجة التّسليم و الرّضا و هو الغاية و المنتهى و على كلّ حال ففي ذكر الموت ثواب و فضل، فإنّ المنهمك في الدّنيا أيضاً يستفيد بذكر الموت التّجافي عن الدّنيا إذ يتنغّص عليه نعيمه و يتكدّر عليه صفو لذّته و كلُّ ما يكدر على الانسان اللّذّات والشهوات فهو من أسباب النّجاة.

✿(بيان فصل ذكر الموت كيف ما كان) ✿

قال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «أكثروا ذكر هادم اللّذات الموت [2]» أي نغّصوا به اللّذات

---

(١) أخرجه البخارى ٨ ص ١٣٢ من حديث عبادة بن صامت ومسلم ج ٨ ص ٦٥ من حديث عائشة.

(٢) اخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٨. والنسائى والترمذى أيضاً وقال السيوطى «هاذم» بالذال المعجمة أى قاطعها، ويحتمل أن يكون بالدال المهملة والمراد على التقدير بن الموت.

حتّى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى .

وقال عليه السلام : « لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون ماأكلتم منها سميناً(١) »

وقالت عائشة : « يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : نعم من يذكر الموت في اليوم واللّيلة عشرين مرّة (٢)» وإنّما سبب هذه الفضيلة كلّها أنّ ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضي الاستعداد للآخرة والغفلة عن ذكر الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدّنيا .

وقال عليه السلام : « تحفة المؤمن الموت (٣) » وإنّما قال هذا لأنّ الدّنيا سجن المؤمن إذ لايزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاقه له من هذا العذاب والإطلاق تحفة في حقّه .

وقال عليه السلام : « الموت كفّارة لكلّ مسلم (٤) » وأراد بهذا المسلم حقّاً المؤمن صدقاً الّذي سلم المسلمون من لسانه ويده وتحقّق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنّس من المعاصي إلّا باللّمم و الصغاير ، فالموت يطهّره و يكفّره بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض .

وقال عطاء الخراساني : « مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بمجلس قد استعلاه الضحك فقال : شوبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللّذات ، قالوا : وما مكدّر اللّذات ؟ قال : الموت (٥) » .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « أكثروا ذكر الموت فإنّه يمحّص الذّنوب ويزهد في

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ام حبيبة .

(٢) قال العراقي : تقدم . وما حضرني الآن متى تقدم .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن عمر ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٤) أخرجه أبونعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند صحيح من حديث أنس كما في الجامع الصغير .

(٥) قال العراقي : رواه ابن ابي الدنيا في الموت مرسلا .

الدُّنيا (١) » وقال عليه السلام : « كفى بالموت واعظاً (٢) » .

و خرج النبيُّ صلى الله عليه وآله إلى المسجد فإذا قومه يتحدَّثون و يضحكون فقال : «اذكروا الموت أما والّذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً (٣) » وذكر عند النّبيِّ صلى الله عليه وآله رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا: ما كنّا نكادنسمعه يذكرالموت ، قال : فإنَّ صاحبكم ليس هنالك (٤) » .

وسئل « من أكيس الناس وأكرم النّاس يارسول‌الله ؟ فقال : أكثرهم ذكراً للموت وأشدُّهم استعداداً له اُولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدُّنيا وكرامة الآخرة (٥) » .

أقول ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي‌عبيدة قال : قلت لأبي-جعفر عليه السلام : « حدِّثني ماأنتفع به فقال : ياأباعبيدة أكثرذكرالموتفإنّه لم‌يكثر ذكره إنسان إلّازهد في الدُّنيا (٦) » .

و عن أبي بصير قال : « شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام الوسواس فقال : « يا أبامحمّداذكرتقطّعأوصالك في قبرك ، ورجوع أحبّائك عنك إذا دفنوك في حفرتك ، وخروج بنات الماء من منخريك ، وأكل الدُّود لحمك فإنَّ ذلك يسلي عنك ماأنت فيه ، قال أبو بصير : فوالله ماذكرته إلّاسلى عنّي ما أنا فيه من همِّ الدُّنيا(٧) » .

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الموت بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(١) أخرجه الحرث بن أبى اسامة فى مسنده بسند ضعيف من حديث أنس (المغنى)

(٢) أخرجه الطبرانى من حديث عمار والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف وهومشهور من قول فضيل بن عياض راجع جامع الصغير حرف الكاف .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت بسند ضعيف كما فى المغنى .

(٤) كالذى قبله .

(٥) أخرجه أيضاً ابن أبى الدنيا بتمامه باسناد جيد كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٦) و(٧) المصدر ج ٣ ص ٢٥٥ تحت رقم ١٨ و ٢٠ .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين ، وكان مأجوراً كلّما نظر إليه [١] » .

وعنه عليه السلام قال : « ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلّا وملك الموت يتصفّحهم كلّ يوم خمس مرّات [٢] » .

وعنه عليه السلام قال : « إذا أنت حملت جنازة فكن كأنّك أنت المحمول وكأنّك سألت ربّك الرّجوع إلى الدّنيا ففعل فانظر ماذا تستأنف ، قال : ثم قال : عجب لقوم حبس أوّلهم عن آخرهم ثمّ نودي فيهم الرّحيل وهم يلعبون [٣] » .

وعنه عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : ماأنزل الموت حقّ منزلته من عدّ غداً من أجله ، قال : وقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما أطال عبد الأمل إلّا أساء العمل ، وكان يقول : لورأى العبدأجله وسرعته إليه لأبغض العمل من طلب الدّنيا [٤] » .

و عن أبي جعفر عليه السلام أنّه سئل النبيّ صلى الله عليه وآله : « أي المؤمنين أكيس قال : أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم له استعداد [٥] » و في مصباح الشريعة [٦] عن الصادق عليه السلام قال : « ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ويقطع منابت الغفلة ويقوّي القلب بمواعد الله و يرقّ الطبع و يكسر أعلام الهوى و يطفي نار الحرص و يحقّر الدّنيا و هو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله : فكر ساعة خير من عبادة سنة ، و ذلك عند ما يحلّ أطناب خيام الدّنيا و يشدّها في الآخرة ولايسكن نزول الرّحمة على ذاكر الموت بهذه الصفة ، و من لايعتبر بالموت وقلّة حيلته و كثرة عجزه و طول مقامه في القبر و تحيّره في القيامة فلا خير فيه ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : أكثروا ذكر هاذم اللّذّات قيل : و ما هو يا رسول الله ؟ قال : الموت فما ذكره عبدٌ على الحقيقة في سعة إلّا

---

(١) و(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٥٦ تحت رقم ٢٣ و٢٢ .

(٣) المصدرج ٣ ص ٢٥٨ تحت رقم ٢٩ .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٥٩ تحت رقم ٣٠ .

(٥) المصدر ج ٣ص ٢٥٧ تحت رقم ٢٩ .

(٦) المصدر الباب الثالث والثمانون .

ضاقت عليه الدّنيا و لا في شدّة إلّا اتّسعت عليه ، و الموت أوّل منزل من منازل الآخرة و آخر منزل من منازل الدّنيا ، فطوبى لمن أكرم عند النزول بأوّلها وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها ، و الموت أقرب الأشياء من ابن آدم و هو يعدّه أبعد فما أجرأ الإنسان على نفسه و ما أضعفه من خلق و في الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت و كره من كره قال النبيّ ﷺ : من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، و من كره لقاء الله كره الله لقاءه » .

قال ابو حامد : وكان الرّبيع بن خثيم حفر قبراً في داره فكان ينام في اللّحد كلّ يوم مرّات ليستديم به ذكر الموت وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد ، وقال : ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت .

✡(بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت)✡

إعلم أنّ الموت هائل وخطره عظيم وغفلة النّاس عنه لقلّة فكرهم فيه وذكرهم له و من يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدّنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كلّ شيء إلّا عن ذكر الموت الّذي هو بين يديه كالّذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانّه لا يتفكّر إلّا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثّر فيه و عند ذلك يقلّ فرحه و سروره بالدّنيا و ينكسر قلبه و أوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله و أقرانه الّذين مضوا قبلة فيتذكّر موتهم و مصرعهم تحت التراب و يتذكّر صورهم في مناصبهم و أحوالهم و يتفكّر كيف محا التراب الآن حسن صورتهم و كيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم و كيف أرملوا نساءهم و أيتموا أولادهم و ضيّعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم و مجالسهم و انقطعت آثارهم و أوحشت ديارهم فمهما تذكر رجلاً رجلاً و فصّل في قلبه حاله و كيفيّة حياته ، و توهّم صورته ، و تذكر نشاطه ، و تردّده و أمله في العيش و البقاء ، و نسيانه للموت و انخداعه بمؤاتاة الأسباب ، و ركونه إلى القوّة و الشّباب ، و ميله إلى الضحك و اللّهو و غفلته عمّا بين يديه من الموت الذّريع و الهلاك السريع ، و أنّه كيف كان يتردّد والآن قد تهدّمت رجلاه

و مفاصله ، و أنّه كيف كان ينطق و قد أكل الدّود لسانه ، و كيف يضحك و قد أكل التراب أسنانه ، و كيف كان يدبّر لنفسه ما لايحتاج إليه إلى عشرسنين في وقت لم يكن بينه و بين الموت إلّا شهر و هو غافل عمّا يراد به حتّى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك و قرع سمعه النّداء إمّا بالجنّة أو بالنّار فعند ذلك ينظر في نفسه أنّه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم. قال أبو الدّرداء : إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود : السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألاترون أنّكم تجهزون كلّ يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عزّ وجلّ تضعونه في صدع الأرض قدتوسّد التراب وخلّف الأحباب وقطع الأسباب. فملازمة هذه الأفكار و أمثالها مع دخول المقابر و مشاهدة المرضى هو الّذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتّى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعدّ له و يتجافى عن دار الغرور و إلّا فالذكر بظاهر القلب و عذبة اللّسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشيء من الدّنيا فينبغي أن يتذكّر في الحال أنّه لابدّ من مفارقته .

نظر ابن مطيع يوماً إلى داره فأعجبه حسنها ثمّ بكى و قال : والله لو لاالموت لكنت بك مسروراً ، و لو لا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرّت بالدّنيا أعيننا ، ثمّ بكى بكاءً شديداً حتّى ارتفع صوته .

☆(الباب الثاني في طول الامل)☆

☆(و فضيلة قصر الأمل وسبب طوله و كيفيّة معالجته)☆

فضيلة قصر الأمل : قال النبيّ صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمر : « إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء ، و إذا أمسيت فلاتحدّث نفسك بالصباح وخذ من دنياك لآخرتك و من حياتك لموتك و من صحّتك لسقمك فإنّك ياعبدالله لاتدري ما اسمك غداً(١) » و روى عليّ عليه السلام أنّه صلى الله عليه وآله قال : «إنّ أشدّ ما أخاف عليكم خصلتان اتّباع الهوى

(١) أى حى أو ميت . و أخرجه ابن حبان ورواه البخارى فى آخر حديث « كن فى الدنيا كانك غريب » من قول ابن عمر (المغنى) .

وطول الأمل فأمّا اتّباع الهوى فإنّه يعدل عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فإنّه يحبّب الدّنيا، ثمّ قال: ألا إنّ الله تعالى يعطي الدّنيا من يحبّ ويبغض وإذا أحبّ الله عبداً أعطاه الايمان إلّا أنّ للدّين أبناء و للدّنيا أبناء فكونوا من أبناء الدّين ولاتكونوا من أبناء الدّنيا، ألا إنّ الدّنيا قد ارتحلت مولّية ألا إنّ الآخرة قد أتت مقبلة، ألا و إنّكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا و إنّكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل [1] » و قالت أمّ المنذر: « اطّلع رسول الله صلى الله عليه وآله ذات عشيّة إلى الناس فقال: أيّها الناس أما تستحيون من الله عزّ وجلّ؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: تجمعون ما لاتأكلون وتأملون مالاتدركون وتبنون مالاتسكنون [2] ».

وقال أبو سعيد الخدري: اشترى اُسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: « ألا تعجبون من اُسامة المشتري إلى شهر إنّ اُسامة لطويل الأمل و الّذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلّا ظننت أنّ شفريّ لا يلتقيان حتّى يقبض الله روحي و لا رفعت طرفي فظننت أنّي واضعه حتّى اُقبض، و لا لقمت لقمة إلّا ظننت أنّي لااُسيغها حتّى أغصّ بها من الموت، ثمّ قال: يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى، و الّذي نفسي بيده إنّ ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين [3] ».

و « روي أنّه عليه السلام أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه و آخر إلى جنبه و أمّا الثالث فأبعده فقال: هل تدرون ماهذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: هذا الانسان و ذلك الأجل و ذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم و يختلجه الأجل دون الأمل [4] ».

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الامل ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف كما فى المغنى.

(٢) رواه الطبرانى من حديث ام الوليد بنت عمر كما فى الترغيب و الترهيب ج ٤ ص ٢٤١.

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب وابن أبى الدنيا فى قصر الامل كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٣٢.

(٤) قال العراقى أخرجه احمد وابن أبى الدنيا فى قصر الامل واللفظ له و ←

وقال عليه السلام: «أكلّكم يحبّ أن يدخل الجنّة؟ قالوا: نعم يارسول الله قال: قصّروا من الأمل واجعلوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حقّ الحياء[1]».

وكان عليه السلام يقول في دعائه: «اللّهمّ إنّي أعوذبك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير المماة، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل[2]».

وقال سلمان الفارسي: «ثلاث أعجبتني حتّى أضحكتني مؤمّل الدّنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه لا يدري أساخط ربّ العالمين عليه أم راض عنه، وثلاث أحزنتني حتّى أبكتني فراق الأحبّة محمّد وحزبه وهول المطّلع والوقوف بين يدي ربّي لاأدري إلى الجنّة يؤمر بي أو إلى النّار».

وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى في المنام بعد موته فقلت: أيّ الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكّل وقصر الأمل.

✿(بيان السبب في طول الامل وعلاجه)✿

إعلم أنّ طول الأمل له سببان أحدهما الجهل والآخر حبّ الدّنيا أمّا حبّ الدّنيا فهو أنّه إذا أنس بها وبشهواتها ولذّاتها وعلائقها ثقلت على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الّذي هو سبب مفارقتها وكلّ من كره شيئاً دفعه عن نفسه والإنسان مشغوف بالأماني الباطنة فيمنّي نفسه أبداً بمايوافق مراده وإنّما يوافق مراده البقاء في الدّنيا فلايزال يتوهّمه ويقرّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودوابّ وسائر أسباب الدّنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت ولايقدّر قربه فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال: الأيّام بين يديك فإلى أن تكبر ثمّ تتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير

← الرامهرمزى فى الامثال من رواية أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى واسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا أيضاً من رواية أبى المتوكل مرسلا. (م)

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى قصر الامل من حديث الحسن مرسلا (المغنى).

(٢) ابن أبى الدنيا فيه من رواية حوشب.

شيخاً و إذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدّار و عمارة هذا الضّيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد و جهازه و تدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدوّ الّذي يشمت بك و لا يزال يسوّف و يؤخّر ولايخوض في شغل إلّا و يتعلّق با تمام ذلك الشغل عدّة أشغال اُخر وهكذاعلى التدريج يؤخّر يوماً و يفضي به شغل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنيّة في وقت لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته ، وأكثر أهل النّار صياحهم من سوف يقولون و اخرناه من سوف ، و المسوّف المسكين لايدري أنّ الّذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً و إنّما يزداد بطول المدّة قوّة و رسوخاً و يظنّ أنّه يتصوّر أن يكون للخائض في الدّنيا و الحافظ لها فراغ قطّ وهيهات فمايفرغ منها إلّا من أطرحها . كماقيل :

فما قضى أحد منها لبانته ☆ و ما انتهى أرَب إلّا إلى أرَب

و أصل هذه الأماني كلّها حبّ الدّنيا و الاُنس بها و الغفلة عن معنى قوله عليه السلام «أحبب ما أحببت فا نّك مفارقه» و أمّا الجهل فهوأنّ الا نسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب و ليس يتفكّر المسكين في أنّ مشايخ بلده لوعدّوا لكانوا أقلّ من عشر أهل البلد و إنّما قلّوا لأنّ الموت في الشبّان أكثر ، وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبيّ وشابّ ، وقد يستبعد الموت لصحّته ويستبعد الموت فجأة و لا يدري أنّ ذلك غير بعيد و إن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد ، و كلّ مرض فا نّمايقع فجأة وإذامرض لم يكن الموت بعيداً ، ولوتفكّر هذاالغافل و علم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب و شيب و كهولة و من صيف وشتاء و خريف و ربيع و من ليل و نهار لعظم اشتغاله بالاستعداد له و استشعاره و لكنّ الجهل بهذه الاُمور و حبّ الدّنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهوأبداً يظنّ أنّ الموت يكون بين يديه ولايقدّر نزوله ووقوعه فيه ، ويشيّع الجنائز و لا يقدّر أن يشيّع جنازته لأنّ هذا قد تكرّر عليه و ألفه و هو شاهد موت غيره فأمّا موت نفسه فلم يألفه و لا يتصوّر أن يألفه فا نّه لم يقع و إذا وقع لا يقع دفعة اُخرى بعده فهو الأوّل و هو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره و يعلم أنّه

لابدّ وأن يحمل جنازته و يدفن في قبره و لعلّ اللّبن الّذي يغطّى به لحده قدضرب و فرغ منه و هو لا يدري فتسويفه جهل محض و إذا عرفت أنّ سببه الجهل و حبّ الدّنيا فعلاجه دفع سببه أمّا الجهل فيدفع بالفكر الصّافي من القلب الحاضر و بسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة و أمّا حبّ الدّنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الدّاء العضال الّذي أعيى الأوّلين والآخرين علاجه ولاعلاج له إلّا الايمان باليوم الآخر و ما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب و مهماحصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حبّ الدّنيا فإنّ حبّ الخطير هو الّذي يمحو من القلب حبّ الحقير فإذا رأى حقارة الدّنيا و نفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدّنيا كلّها و إن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب فكيف و ليس لكلّ عبد من الدّنيا إلّا قدريسيرمكدّر منغّص فكيف يفرح بها ويترسّخ في القلبحبّها مع الايمان بالآخرة . فنسأل الله تعالى أن يرينا الدّنيا كما أراها الصّالحين من عباده و لا علاج في تقرير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران و الأشكال و أنّهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أمّا من كان مستعدّاً له فقد فاز فوزاً عظيماً ، و أمّا من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً ، و لينظر الانسان كلّ ساعة في أطرافه و أعضائه و ليتدبّر أنّها كيف تأكلها الدّيدان لا محالة و كيف تتفتّت عظامها ، و ليتفكّر أنّ الدّود يبدأ بحدقتهاليمنى أوّلاً أو باليسرى فما على بدنه شيء إلّا و هو طعمة الدّود و ماله من نفسه إلّا العلم والعمل الخالص لوجه الله عزّ وجلّ و كذلك يتفكّر فيما سيورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وفزع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي الّتي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

✿ (بيان مراتب الناس فى طول الامل وقصره) ✿

إعلم أنّ الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال

الله تعالى : « يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة (١) » ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الّذي شاهده ورآه وهو الّذي يحبّ الدّنيا حبّاً شديداً قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « حبّ الشيخ شابّ في طلب الدّنيا وإن التفّت ترقوتاه من الكبر إلّا الّذين اتّقوا وقليلٌ ماهم (٢) »، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ولايقدّر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكنّ هذا يستعدّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف وإذا جمع ما يكفيه لسنة اشتغل بالعبادة ، ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء فلا يدّخر في الصّيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ، و منهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعدّ إلّا لنهاره فأمّا للغد فلا .

قال عيسى عليه السلام : « لا تهتمّوا برزق غد فإن يكن غداً من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتمّوا لأرزاق غيركم » .

ومنهم من لايجاوز أمله ساعة كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « ياعبد الله إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح (٣) » ومنهم من لايقدّر البقاء أيضاً ساعة ، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنّه واقع وهو ينتظره وهذا الانسان هو الّذي يصلّي صلاة مودّع. فهذه مراتب الناس ولكلّ درجات عندالله و ليس من أمله مقصوراً على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدّرجة عند الله فإن الله لايظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ثمّ يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل وكلّ إنسان يدّعي أنّه قصير الأمل وهو كاذب وإنّما يظهر ذلك بأعماله فإنّه يعتني بأسباب ربّما لايحتاج إليها في سنة فيدلّ ذلك على طول أمله ، وإنّما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب عينيه لايغفل عنه ساعة فيستعدّ للموت الّذي يرد عليه في الوقت فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى

(١) البقره : ٩٦ .
(٢) أخرج صدره مسلم والبخارى فى الصحيح ج ٨ ص ١١١ ولم أجده بتمامه .
(٣) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٠٣ والبيهقى وغيره من حديث ابن عمر قاله صلى الله عليه وآله له .

على طاعته و فرح بأنّه لم يضيّع نهاره بل استوفى منه حظّه و ادّخره لنفسه ثمّ يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذاأصبح ، ولا يتيسّر هذا إلّا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سرّ بحسن الاستعداد ولذّة المناجات فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإنّ السير حادّ بك وأنت غافل عن نفسك ولعلّك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا يكون كذلك إلّا بمبادرة العمل اغتناماً لكلّ نفس امهلت فيه .

✿ (بيان المبادرة الى العمل حذر آفة التأخير)✿

إعلم أنّ من له إخوان غائبان و ينتظر قدوم أحدهما في غد و ينتظر قدوم الآخر بعد شهر أوسنة فلا يستعدّ للّذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنّما يستعدّ للمنتظر قدومه غداً فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدّة ونسي ماوراء المدّة ، ثمّ يصبح كلّ يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لاينقص منها اليوم الّذي انقضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنّه أبداً يرى لنفسه متّسعاً في تلك السّنة و يؤخّر العمل كما قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما ينتظر أحدكم من الدّنيا إلّا غنى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدّجّال فالدّجال شرّ غائب ينتظر ، أو الساعة ،والساعة أدهى و أمرّ [1] » .

وقال ابن عبّاس رضي الله عنه : قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لرجل وهو يعظه : «اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتّك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك [2] » .

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ١٨٥ من رواية محرز بن هارون عن عبدالرحمن الاعرج ، عن أبي‌هريرة وقال : حديث حسن . وقوله : « هرماً مفنداً» اى مبلغاًالى ارذل العمر و قوله « موتاً مجهزاً » أى قاضياً على العبد بالفناء ، يقال : أجهزت على فلان ، اذا عجلت قتله وأسرعت بذهاب نفسه .

(٢) رواه الحاكم ج ٤ ص ٣٠٦ وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وقال ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحّة والفراغ [(١)] » أي أنّه لايغتنمهما ثمّ يعرف قدرهما عند زوالهما .

وقال ﷺ : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إنّ سلعة الله غالية ألا إنّ سلعة الله الجنّة [(٢)] »

وقال النبيّ ﷺ : « جاءت الرّاجفة تتبعها الرّادفة جاء الموت بما فيه [(٣)] »

وكان ﷺ إذا أحسّ من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع « أتتكم المنيّة راتبة لازمة إمّا بشقاوة وإمّا بسعادة [(٤)] » .

وقال النبيّ ﷺ : « أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد [(٥)] ».

وقال ابن عمر : خرج علينا النبيّ ﷺ والشمس على أطراف السقف فقال: « ما بقي من الدّنيا إلّا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه [(٦)] » .

وقال ﷺ : « مثل الدّنيا مثل ثوب يشقّ من أوّله إلى آخره فبقي معلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع [(٧)] » وقال جابر : كان النبيّ ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنّه منذر جيش يقول: « صبحتكم ومسيتكم بعثت أنا والساعة كهاتين - وقرن بين أصبعيه - [(٨)] » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تلا النبيّ ﷺ « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » فقال : « إنّ النور إذا دخل الصدر انفسح فقيل : يا رسول الله هل

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٠ والحاكم فى المستدرك ج ٤ ص٣٠٦ .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ص٢٧٧ والحاكم بسند حسن من حديث أبى هريرة .

(٣) أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبى بن كعب .

(٤) أخرجه ابن ابى الدنيا فى قصرالامل من حديث زيد السلمى مرسلا (المغنى) .

(٥) أخرجه أيضاً ابن ابى الدنيا فى قصرالامل وابوالقاسم البغوى أيضاً (المغنى).

(٦) رواه ابن أبى الدنيا ايضاً والترمذى نحوه من حديث ابى سعيد الخدرى باسناد حسنه .

(٧) ابن أبى الدنيا أيضاً من حديث أنس ولايصح .

(٨) أخرجه مسلم ج٨ص٢٠٩ بنحوه وابن أبى الدنيا فى قصرالعمل بلفظه كمافى المغنى.

لذلك من علامة تعرف ؟ فقال : نعم التجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله (١) » .

✿ (الباب الثالث) ✿

✿ (في سكرات الموت وشدّته وما يستحبّ من الأحوال عند الموت) ✿

إعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرّدها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ويتكدّر عليه سروره ويفارقه سهوه و غفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكرته ويعظم له استعداده لاسيّما وهو في كلّ نفس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لاتدري متى يغشاك ، وقال لقمان لابنه : يابنيّ أمرٌ لا تدري متى يلقاك استعدّ له قبل أن يفجأك . والعجب أنّ الا نسان لو كان في أعظم اللّذّات وأطيب مجالس اللّهو فانتظر أن يدخل عليه جنديّ فيضربه خمس خشبات لتكدّرت عليه لذّته و فسد عليه عيشه وهو في كلّ نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النّزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلّا الجهل والغرور .

واعلم أنّ شدّة الألم في سكرات النزع لايعرفها بالحقيقة إلّا من ذاقها ومن لم يذقها فإنّما يعرفها إمّا بالقياس إلى الآلام الّتي أدركها وإمّا بالاستدلال بأحوال النّاس في النزع على شدّة ماهم فيه فأمّا القياس الّذي يشهد له فهو أنّ كلّ عضو لا روح فيه فلا يحسّ بالألم فإذا كان فيه الرّوح تألّم ، فالمدرك للألم هو الرّوح فمهما أصاب العضو الّذي فيه الرّوح جرح أو حرق سرى الأثر منه إلى الرّوح فبقدر ما يسري إلى الرّوح يتألّم والمؤلم يتفرّق على اللّحم والدّم وسائر الأجزاء فلا يصيب الرّوح إلّا بعض الأثر فإذا كان في الآلام مايباشر نفس الرّوح ولايلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشدّه ، والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الرّوح فاستغرق جميع أجزائه حتّى لم يبق جزء من أجزاء الرّوح المنتشرة في أعماق البدن إلّا وقد حلّ به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الّذي يجد إنّما يجري في

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك وابن أبى الدنيا فى قصر الامل وقد تقدم .

جزء من الرّوح يلاقي ذلك الموضع الّذي أصابته الشوكة وإنّما يعظم أثر الاحتراق لأنّ أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلاّ وتصيبه النّار فتحسّه الأجزاء الرّوحانيّة المنتشرة في سائر أجزاء اللّحم وأمّا الجراحة فإنّما تصيب الموضع الّذي يمسّه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النّار فألم النزع يهجم على نفس الرّوح ويستغرق جميع أجزائه فإنّه المنزوع المجذوب من كلّ عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل، ومن أصل كلّ شعرة وبشرة من القرن إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتّى قالوا: إنّ الموت أشدّ من ضرب بالسّيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأنّ قطع البدن بالسيف إنّما لم يؤلم لتعلّقه بالرّوح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الرّوح، وإنّما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته وتصاعد في قلبه و شراسيفه (١) وفي لسانه، وإنّما انقطع صوت الميّت وصياحه مع شدّة ألمه لأنّ الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وغلب على كلّ موضع منه فهدّ كلّ قوّة وضعّف كلّ جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة أمّا العقل فقد غشيه وشوّشه وأمّا اللّسان فقد أبكمه وأمّا الأطراف فقد ضعّفها ويودّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصّياح والاستغاثة، و لكنّه لايقدر على ذلك فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزوع الرّوح وجذبها خواراً وغرغرة في حلقه وصدره وقد تغيّر لونه واربدّ حتّى كأنّه قد ظهر منه التراب الّذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كلّ عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله و خارجه حتّى ترتفع الحدقتان إلى أعالي جفونه، وتتقلّص الشفتان واللّسان إلى أصله، وترتفع الانثيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله، فلا تسأل عن بدن يجذب منه كلّ عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الرّوح المتألّم لا من عرق واحد بل من جميع العروق؟! ثمّ يموت كلّ عضو من أعضائه تدريجاً فتبرّد أوّلاً قدماه ثمّ ساقاه ثمّ فخذاه ولكلّ عضوسكرة بعدسكرة

---

(١) الشرسوف: طرف الضلع المشرف على البطن، جمعه شراسيف.

وكربة بعد كربة حتّى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدّنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تقبل توبة العبد مالم يغرغر (١)».

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد عن السلف أخباراً في شدّة الموت وسكراته وخوف الأنبياء والأولياء منه وشدّته عليهم حتّى ذكر أنّه لما مات الخليل عليه السلام قال الله تبارك وتعالى: كيف وجدت الموت يا خليلي فقال كسفّود جعل في صوف رطب ثمّ جذب ولما مات الكليم عليه السلام سأله فقال: كشاة حيّة تسلخ بيد القصّاب. وإنّه عليه السلام قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يقلي على المقلى لا هو يموت فيستريح ولا ينجو فيطير، وبالجملة مالا يشبه أخبار أهل البيت عليهم السلام بل يشمّ منه رائحة الكذب إلّا حديثاً واحداً رواه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يحرّض على القتال ويقول: «إن لم تقتلوا تموتوا فوالّذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش» وهذا الحديث مرويّ عنه من طريق الخاصّة أيضاً فلنطو سائر ماذكره ونذكر مكانه ما ورد من طريق الخاصّة في هذا الباب وهو ما أورده الشيخ الصدوق رحمه الله في اعتقاداته (٢) قال: «قيل لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: صف لنا الموت فقال عليه السلام: «على الخبير سقطتم الموت هو أحد ثلاثة أمور يرد عليه إمّا بشارة بنعيم الأبد وإمّا بشارة بعذاب الأبد وإمّا بتخويف و تهويل لا يدري من أيّ الفرق هو، أمّا وليّنا المطيع لأمرنا فهو المبشّر بنعيم الأبد، وأمّا عدوّنا المخالف لأمرنا فهو المبشّر بعذاب الأبد، أمّا المبهم أمره الّذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثمّ لن يسوّيه الله بأعدائنا ويخرجه من النار بشفاعتنا، فاحتملوا وأطيعوا ولا تتّكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله فإنّ من المسرفين من لا يلحقه شفاعتنا إلّا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة» وسئل عن الحسن بن عليّ عليهما السلام: «ما الموت الّذي جهلوه؟ فقال: أعظم سرور يرد على المؤمنين إذ نقلوا عن دار النكد إلى النعيم الأبد،

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٣ من حديث ابن عمر وقد تقدم.

(٢) ص ٧٧ الذى طبع مع باب حاديعشر و هكذا رواه فى معانى الاخبار ص ٢٨٧.

و أعظم ثبور يرد على الكافرين إذ نقلوا عن جنّتهم إلى نار لاتبيد و لاتنفد[١] » .

« و لمّا اشتدّ الأمر على الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم لأنّهم كانوا إذا اشتدّ بهم الأمر تغيّرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلت قلوبهم ووجبت [٢] جنوبهم و كان الحسين عليه السلام وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم وتهدى جوارحهم وتسكن نفوسهم فقال بعضهم لبعض : انظروا إليه لايبالي بالموت فقال الحسين عليه السلام : صبراً بني الكرام فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلى الجنان الواسعة والنعم الدّائمة فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وهولأعدائكم كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب أليم ، إنّ أبي حدّثني بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جنّاتهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كذبت [٣] » .

وقيل لعليّ بن الحسين عليهما السلام ما الموت ؟ قال: « للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة [٤] وفكّ قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر الثياب و أطيبها روائح و أوطأ المراكب وآنس المنازل ، وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن المنازل الأنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب[٥] » .

وقيل لمحمد بن عليّ الباقر عليهما السلام : « ما الموت ؟ قال : هو النوم الّذي يأتيكم في كلّ ليلة إلّا أنّه طويل مدّته لاينتبه إلى يوم القيامة فمنهم من رأى في منامه من أصناف الفرح مالا يقادر قدره ومنهم من رأى في منامه من أصناف الاهوال مالايقادر قدره فكيف حال فرحه في الموت ووجله فيه هذا هو الموت فاستعدّوا له[٦] » .

---

(١) رواه الصدوق أيضاً فى معانى الاخبار ص ٢٨٨ تحت رقم ٣ .

(٢) وجب وجبا ووجيبا ووجبانا : رجف وخفق .

(٣) معانى الاخبار ص٢٨٨ .

(٤) ثوب وسخ : علاه الدرن لقلة تعهده بالماء : و « قمل » اى كثير فيه القمل و هزدويبة معروفة .

(٥) و(٦) معانى الاخبار ص ٢٨٩ .

وقيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت فقال: «هو للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينعس[١] لطيبه فيقطع التعب والألم كلّه عنه، و للكافر كلدغ الأفاعي و كلسع العقارب وأشدّ، قيل: فإنّ قوماً يقولون: إنّه هو أشدّ من نشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، ورضخ بالحجارة، وتدوير قطب الأرحية[٢] في الأحداق؟ فقال كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين، ألا ترون منهم من يعاين تلك الشدائد فذلكم الّذي هو أشدّ من هذا إلّا من عذاب الآخرة، فهذا أشدّ من عذاب الدّنيا. قيل: فما بالنا نرى كافراً يسهل عليه النزع فينطفي وهو يتحدّث ويضحك ويتكلّم و في المؤمنين من يكون أيضاً كذلك وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد؟ فقال: ما كان من راحة هناك للمؤمنين فهو عاجل ثوابه وماكان من شديدة فهو تمحيصه من ذنوبه ليرد إلى الآخرة نقيّاً نظيفاً مستحقّاً لثواب الله ليس له مانع دونه وما كان من سهولة هناك على الكافرين فليوفّى أجر حسناته في الدّنيا ليرد إلى الآخرة وليس له إلّا ما يوجب عليه العذاب و ماكان من شدّة هناك على الكافرين فهو ابتداء عقاب الله له بعد نفاد حسناته ذلكم بأنّ الله عدل لا يجور[٣]».

و دخل موسى بن جعفر عليهما السلام على رجل قد عرق في سكرات الموت و هو لا يجيب داعياً فقالوا له: يا ابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف حال صاحبنا و كيف الموت؟ فقال: إنّ الموت هو المصفّاة يصفّي المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم و كفّارة آخر وزر عليهم و يصفّي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذّة أو نعمة أو رحمة تلحقهم وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم، وأمّا صاحبكم هذا فقد تخلّى من الذّنوب وصفّي من الآثام تصفية وخلص حتّى نقي كما ينقي الثوب من الوسخ و صلح لمعاشرتنا أهل البيت وفي دارنا دار الأبد»[٤].

(١) في بعض نسخ المصدر [فيتنفس].
(٢) الرضخ: الرمي. والارحية: جمع الرحى وهي الطاحون.
(٣) معاني الاخبار ص ٢٨٧.
(٤) معاني الاخبار ص ٢٨٩.

ومرض رجل من أصحاب الرّضا عليه السلام فعاده فقال : « كيف تجدك فقال : لقيت الموت بعدك - يريد به مالقيه من شدّة مرضه - فقال : كيف لقيته قال : أليماً شديداً ، فقال : مالقيته إنّما لقيت ماينذرك به ويعرّفك بعض حاله إنّما الناس رجلان مستريح بالموت ومستراح به منه فجدّد الإيمان بالله و النبوّة والولاية لناتكن مستريحاً ففعل الرّجل ذلك - والحديث طويل أخذنامنه موضع الحاجة [١] » .

وقيل لمحمد بن عليّ بن موسى عليهما السلام : « ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت فقال : لأنّهم جهلوه وكرهوه ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله حقّاًلأحبّوه وليعلموا أنّ الآخرة خير لهم من الدّنيا ، ثمّ قال : « ياأباعبد الله ما بال الصبيّ والمجنون يمتنع من الدّواء المنقي لبدنه والنافي للألم عنه؟ فقال لجهلهم بنفع الدّواء قال : والّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً إنّ من قد استعدّ للموت حقّ الاستعداد فهو أنفع لهم من هذا الدّواء لهذا المعالج ،أما إنّهم لو علموا مايؤدّي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبّوه أشدّ ممّا يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات [٢] » .

ودخل عليّ بن محمّد عليهما السلام على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزع عن الموت فقال له : « ياعبد الله تخاف من الموت لأنّك لاتعرفه أرأيتك إذا اتّسخت وتقذّرت وتأذّيت بماعليك من الوسخ والقذر عليك وأصابك قروح وجرب وعلمت أنّ الغسل في الحمّام يزيل عنك ذلك كلّه أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك؟ أوماتكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك ؟ قال : بلى ياابن رسول الله ، قال : فذلك الموت هو ذلك الحمّام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك عن سيّئاتك فإذا أنت وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كلّ غمّ وهمّ وأذى ووصلت إلى كلّ سرور و فرح فسكن الرّجل و نشط و استسلم و غمض عين نفسه و مضى لسبيله [٣] ».

---

(١) و (٢) و (٣) معاني الاخبار ص٢٩٠ .

« وسئل الحسن بن علي عليهما السلام عن الموت ماهو فقال : هو التصديق بما لا يكون[١] إنّ أبي حدّثني بذلك عن أبيه ، عن جدّه عن الصّادق عليه السلام أنّه قال : إنّ المؤمن إذا مات لم يكن ميّتاً وإنّ الكافر هو الميّت، إنّ الله عزّ وجلّ يقول : «يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ[٢]» يعني المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن[٣]» وجاء رجل إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : يارسول الله ما بالي لا اُحبّ الموت ؟ فقال : لك مال ؟ قال : نعم ، قال : قد قدّمته قال : لا قال : فمن ثمّة لاتحبّ الموت[٤] » .

وقال رجل لأبي ذرّ رحمة الله عليه : « ما بالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنّكم عمّرتم الدّنيا وخرّبتم الآخرة فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب وقيل له كيف ترى قدومنا على الله قال : أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأمّا المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، قيل: فكيف ترى حالنا عندالله قال : اعرضوا أعمالكم على الكتاب إنّ الله عزّ وجلّ يقول : « إنّ الأبرار لفي نعيم ✡ وإنّ الفجّار لفي جحيم[٥] » قال الرّجل : فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين » إلى هنا كلام الصدوق طاب ثراه[٦].

---

(١) اى هو امر ، التصديق به تصديق بمالا يكون اذ المؤمن لايموت بالموت والكافر أيضاً كذلك لانه كان ميتاً قبله (قاله العلامة المجلسي - رحمه الله) وله معنى آخر يأتي بعد تمام الحديث .

(٢) الروم : ١٩ .

(٣) معاني الاخبار ص ٢٩٠ . قوله : «التصديق بما لايكون » الظاهر أن المعنى ان التصديق بما لايكون اى الامر المحال هو بمنزلة الموت وهو فعل الاحمق الذى لاعقل له وقد روى عن الصادق عليه السلام انه قال : اذا اردت ان تختبر عقل الرجل فى مجلس واحد فحدثه فى خلال حديثك بما لايكون فان أنكره فهو عاقل وان صدقه فهو احمق » . وقال امير المؤمنين عليه السلام : « فقد العقل فقد الحياة ولا يقاس الا بالاموات» ويؤيد هذا المعنى ذيل الخبر ايضاً و عليهذا لايناسب ذكر الخبر فى هذا المقام .

(٤) رواه الصدوق أيضاً فى الخصال ج ١ ص ١٠ .

(٥) الانفطار : ١٣ و ١٤ .

(٦) راجع كل ذلك فى كتاب الاعتقادات له - رحمه الله - ص ٧٧ الى ٨١ .

قال أبو حامد : فهذه سكرات الموت على أوليائه وأحبّائه فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي ويتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدّواهي فإنّ دواهي الموت ثلاثة الأولى شدّة النزع كما ذكرناه ، الدّاهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الرّوع والخوف منه على القلب ، فلو رأى صورته الّتي عليها يقبض روح العبد المذنب أعظم الرّجال قوّة لم يطق رؤيته فروي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنّه قال لملك الموت هل تستطيع أنّ تريني الصورة الّتي تقبض فيها روح الفاجر ؟ قال : فأعرض عنّي فأعرض عنه ثمّ التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الرّيح أسود الثياب يخرج من فيه ومنخريه لهب النار والدّخان فغشي على إبراهيم عليه السلام ثمّ أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلّا صورة وجهك لكان حسبه[1]. وأمّا المطيع فإنّه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عبّاس أنّ إبراهيم صلوات الله عليه كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبّد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري ، فقال : أدخلنيها ربّها فقال : أنا ربّها قال : أدخلنيها من هو أملك لها منّي ومنك فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت فقال : فهل تستطيع أن تريني الصورة الّتي تقبض فيها روح المؤمنين ؟ قال : نعم فأعرض عنّي فأعرض عنه ، ثمّ التفت فإذا هو بشابّ فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال : ياملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلّا صورتك كان حسبه . ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهب : بلغنا أنّه ما من ميّت يموت حتّى يتراأى له الملكان الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالا له : جزاك الله عنّا خيراً فربّ مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح قد أحضرتنا وإن كان فاجراً قالا: لاجزاك الله عنّا خيراً فربّ مجلس سوء قد أجلستنا وعمل غير صالح قد أحضرتنا وكلام قبيح قد أسمعتنا فلاجزاك الله عنّا خيراً[2]. فذلك حين شخوص بصر الميّت

---

(١) جامع الاخبار فصل ١٣٥ .

(٢) راجع جامع الاخبار فصل ١٣٣ في القبر .

إليهما ولا يرجع إلى الدّنيا أبداً . الدّاهية الثالثة مشاهدة العصاة مواضعهم من النّار وخوفهم قبل المشاهدة فإنّهم في حال السّكرات وقد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولم يخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشارتين إمّا أبشر ياعدوّ الله بالنار أو أبشر ياوليّ الله بالجنّة . وعن هذا الخطر كان خوف أرباب القلوب والألباب وقال ﷺ : « لن يخرج أحدكم من الدّنيا حتّى يعلم أين مصيره وحتّى يرى مقعده من الجنّة أو النار [١] ».

وقال ﷺ : « من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالوا : كلّنا نكره الموت ، قال : ليس ذاك بذاك إنّ المؤمن إذا فرّج له عمّا هو قادم عليه أحبّ لقاء الله وأحبّ الله لقاءه [٢] » .

و عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « إنّ الله تعالى إذا رضي عن عبد قال : ياملك الموت اذهب إلى عبدي فلان فأتني بروحه لأريحه حسبي من عمله قد بلوته بالسّرّاء فوجدته حيث اُحبّ فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم قضبان الرّيحان واُصول الزّعفران كلّ واحد منهم يبشّره ببشارة سوى بشارة صاحبه ويقوم الملائكة صفّين لخروج روحه معهم الرّيحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثمّ صرخ قال فيقول له جنوده : مالك ياسيّدنا فيقول : أما ترون ما اُعطي هذا العبد من الكرامة أين كنتم عن هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به ولكنّه كان معصوماً [٣] » .

قال بعض السلف : لاراحة للمؤمن إلّا في لقاء الله ومن كان راحته في لقاء الله فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزّه وشرفه .

أقول وفي الكافي عن سدير الصيرفي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « جعلت -

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الموت من رواية رجل لم يسم عن على عليه السلام موقوفاً .

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت .

(٣) قال العراقى : أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث تميم الدارى باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح فى اول الحديث برفعه وفى آخره مادل على أنه مرفوع .

فداك ياابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال : لا والله إنّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت : ياوليّ الله لاتجزع فو الّذي بعث محمّداً لأ نا أبرُّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ، افتح عينك فانظر قال : وتمثّل له رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذرّيتهم عليهم السلام فقال له : هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة رفقاؤك ، قال : فيفتح عينه فينظر فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول : ياأيتّها النّفس المطمئنّة إلى محمّد وأهل بيته ارجعي إلى ربّك راضية بالولاء مرضية بالثواب ، فادخلي في عبادي يعني محمّداً وأهل بيته ، وادخلي جنّتي فما شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللّحوق بالمنادي [1] » .

وعنه عليه السلام « إنّ الرّجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى ، قلت : جعلت فداك وما يرى ؟ قال : يرى رسول الله فيقول له رسول الله : أنا رسول الله أبشر ، قال : ثمّ يرى عليّ بن أبي طالب فيقول : أنا عليّ بن أبي طالب الّذي كنت تحبّه أنا أنفعك اليوم قال : قلت له أيكون أحدٌ من الناس يرى هذا ثمّ يرجع إلى الدّنيا قال : قال : لا إذا رأى هذا أبداً مات وأعظمَ ذلك ، قال: وذلك في القرآن قول الله تعالى : « الّذين آمنوا و كانوا يتّقون لهم البشرى في الحيوة الدّنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله [2] » .

وعن ابن أبي يعفور قال : « كان خطّاب الجهني خليطاً لنا وكان شديد النصب لآل محمّد عليهم السلام وكان يصحب نجدة الحروريّة قال : فدخلت عليه أعوده للخلط والتقيّة فإذا هو مغمى عليه في حدّ الموت فسمعته يقول : مالي ولك ياعليُّ فأخبرت بذلك أبا عبد الله عليه السلام فقال عليه السلام : رآه وربِّ الكعبة رآه و ربِّ الكعبة رآه وربِّ الكعبة [3] » .

---

(١) الكافي ج ٣ ص ١٢٨ تحت رقم ٢ والاستلال من السل وهوالنزع .
(٢) المصدر ج ٣ ص ١٣٣ تحت رقم ٨ والآية في سورة يونس : ٦٣و٦٤ .
(٣) المصدر ج ٣ص ١٣٣ تحت رقم ٩ .

قال أبو حامد : وخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهي من الدّواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدّة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرّجاء وهو لائق بهذا الموضع ولكنّا لانطول بذكره وإعادته .

✿ (بيان مايستحب من احوال المحتضر عند الموت) ✿

اعلم أنّ المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسّكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة ، ومن قلبه أنّ يكون حسن الظنّ بالله تعالى ، أمّا الصّورة فقد روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « راقبوا الميّت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه و يبست شفتاه فهي من رحمة الله تعالى قد نزلت به ، وإذا غطّ غطيط المخنوق[2] واحمرّ لونه واربدّت شفتاه فهو من عذاب الله تعالى قد نزل به[1] ».

أقول ومن طريق الخاصّة ما رواه في الفقيه عن الصّادق عليه السلام قال : « إذا رأيت المؤمن قد شخص ببصره وسالت عينه اليسرى ورشح جبينه وتقلّصت شفتاه وانتشر منخراه فأيّ ذلك رأيت فحسبك به[3] » .

وعنه عليه السلام في الميت تدمع عيناه عند الموت وإنّ ذلك عند معاينة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيرى مايسرّه ، ثمّ قال : أما ترى الرّجل يرى ما يسرّه وما يحبّ فتدمع عيناه ويضحك[4] » .

وعنه عليه السلام «إنّ وليّ عليّ عليه السلام يراه في ثلاثة مواطن حيث يسرّه عند الموت وعند الصراط وعند الحوض ، وملك الموت يدفع الشيطان عن المحافظ على الصلوات ويلقّنه شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله في تلك الحالة العظيمة[5] » .

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لقّنوا موتاكم « لا إله إلّا الله» فإنّ من كان آخر كلامه « لا إله إلّا الله» دخل الجنّة[6] » .

---

(١) غط الجمل يغط ـ من باب ضرب ـ غطيطا : صوت في الشقشقة . و غط النائم يغط غطيطاً أيضاً تردد نفسه صاعداً الى حلقه حتى يسمعه من حوله .

(٢) اخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الاصول من حديث سلمان .

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) المصدر باب غسل الميت تحت رقم ٢٠و١٩و٢٧و٣ .

قال أبو حامد : وأمّا انطلاق لسانه بكلمتي الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدريّ : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقنّوا موتاكم لا إله إلّا الله [١] » وفي رواية حذيفة « فإنّها تهدم ماقبلها من الخطايا [٢] » .

وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلّا الله دخل الجنّة [٣] » .

وينبغي للملقّن أن لايلحّ بالتلقين ولكن يتلطّف فربّما لا ينطلق لسان المريض فيشقّ عليه ذلك و يؤدّي إلى استثقاله التلقين و كراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة ، وإنّما معنى هذه الكلمة أن يموت الرّجل وليس في قلبه غير الله تعالى فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحقّ كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقّه وإن كان القلب مشعوفاً بالدّنيا ملتفتاً إليها متأسّفاً على لذّاتها وكانت الكلمة على رأس اللّسان ولم ينطق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيّة فإنّ مجرّد حركة اللّسان قليل الجدوى إلّا أن يتفضّل الله بالقبول .

أقول : « وعن الصادق عليه السلام « ما من أحد يحضره الموت إلّا وكّل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشكّكه في دينه حتّى تخرج نفسه فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه فإذا حضرتم موتاكم فلقّنوهم شهادة أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله حتّى يموتوا» . وفي رواية اُخرى قال : « فلقّنه كلمات الفرج والشهادتين وتسمّي له الإقرار بالأئمّة عليهم السلام واحداً بعد واحد حتّى ينقطع عنه الكلام [٤] » .

وعن أبي بكر الحضرمي قال : « مرض رجلٌ من أهل بيتي فأتيته عائداً له فقلت له : يا ابن أخ إنّ لك عندي نصيحة أتقبلها ؟ فقال : نعم ، قلت : قل : « أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له » فشهد بذلك فقلت : قل « وأنّ محمّداً رسول الله »

---

(١) اخرجه أحمد ومسلم وقد تقدم .

(٢) تقدم أيضاً . (٣) تقدم ايضاً .

(٤) الوافي ج ٣ باب تلقين المحتضر .

فشهد بذلك ، فقلت : إنّ هذا لا ينتفع به إلّا أن يكون منك على يقين فذكر أنّه منه على يقين ، فقلت : أشهد أنّ علياً وليّ الله و وصيّه و هو الخليفة من بعده والامام المفترض الطاعة من بعده . فشهد بذلك ، فقلت له : إنّك لا تنتفع بذلك حتّى يكون منك على يقين ، فذكر أنّه منه على يقين ، ثمّ سمّيت له الأئمّة عليهم السلام رجلاً رجلاً فأقرّ بذلك وذكر أنّه على يقين ، فلم يلبث الرّجل أن توفّي فجزع أهله عليه جزعاً شديداً قال : فغبت عنهم ، ثمّ أتيتهم بعد ذلك فرأيت عزاء حسناً فقلت : كيف تجدونكم كيف عزاؤك أيّتها المرأة ؟ قالت : والله لقد اُصبنا بمصيبة عظيمة بوفاة فلان - رحمه الله - وكان ممّا سخا بنفسي لرؤيا رأيتها اللّيلة ، فقلت : وماتلك الرّؤيا ؟ قالت : رأيت فلاناً يعني الميّت - حيّاً سليماً ، فقلت : فلان؟! فقال : نعم ، فقلت له : أما كنت ميّتاً ؟ فقال : بلي ولكن نجوت بكلمات لقّنيهنّ أبوبكر ولولا ذلك لكدت اُهلك (١) » .

وعن الباقر عليه السلام « لو أدركت عكرمة عندالموت لنفعته ، فقيل للصّادق عليه السلام « بماذا كان ينفعه ؟ قال : يلقّنه ما أنتم عليه (٢) » .

وعن الصّادق عليه السلام « والله لو أنّ عابد وثن وصف ما تصفون (٣) عند خروج نفسه ماطعمت النار من جسده شيئاً أبداً (٤) » .

وعنه عليه السلام « أعقل ما يكون الرجل المؤمن عند موته (٥) » .

وقال عليه السلام : « اعتقل لسان رجل من أهل المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الّذي مات فيه فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له قل : « لا إله إلّا الله » فلم يقدر عليه فأعاد عليه فلم يقدر عليه ، وعند رأس الرّجل امرأة فقال لها : هل لهذا الرّجل

---

(١) هكذا فى الوافى وفى الكافى ج ٣ ص ٢٢ باختلاف فى اللفظ .
(٢) الكافى ج ٣ ص ١٢٢ تحت رقم ٣ .
(٣) اى اقرّ بما تقرون به من أمر الامامة .
(٤) حمل على عدم معاينة الاخرة . والخبر فى الكافى ج ٣ ص ١٢٤ تحت رقم ٨ .
(٥) الفقيه باب غسل الميت تحت رقم ٤ .

اُمّ؟ فقالت : نعم يارسول‌الله أنا اُمّه فقال لها : أفرضيت‌أنت عنه أم لا ؟ فقالت : لابل ساخطة ، فقال لها رسول الله : فإنّي اُحبّ أن ترضين عنه فقالت : قد رضيتُ عنه لرضاك‌يا رسول‌الله فقال : له‌قل : «لاإله‌إلّا الله» فقال : «لاإله‌إلا الله» فقال: له قل : «يامن يقبل اليسير ويعفو عن الكثير اقبل منّي اليسير واعف عنّي الكثير إنّك أنت العفوّ الغفور» فقالها ، فقال له : ماذا ترى ؟ قال : أرى أسودين قد دخلا عليّ قال : أعدها فأعادها فقال : ما ذا ترى ؟ قال : قدتباعدا عنّي ودخل‌أبيضان وخرج الأسودان‌فماأراهما ودنا الابيضان منّي‌الآن يأخذان بنفسي . فمات من ساعته[(١)]».

قال الصّادق عليه السلام : «إذا حضرتم ميتاً فقولوا له هذا الكلام ليقوله[(٢)]» .

قال أبو حامد : وأمّا حسن الظنّ فهو مستحبّ في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرّجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظنّ «دخل واثلة بن أسقع على مريض فقال.: أخبرني كيف ظنّك بالله فقال : أغرقتني‌ذنوب أشرفت على‌الهلكة و لكنّي أرجو رحمة الله فكبّر واثلة و كبّر أهل البيت بتكبيره ، وقال : الله أكبر سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : قال الله تعالى : «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ماشاء[(٣)]» .

ودخل صلّى الله عليه وآله على‌شابّ‌وهويموت‌فقال : «كيف تجدك قال : أرجو الله‌وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «لايجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوقت إلّاأعطاه الله الّذي يرجو وآمنه من الّذي يخاف[(٤)]».

ومرض‌أعرابي‌فقيل‌له : إنّك تموت قال : أين يذهب بي؟ قالوا : إلى‌الله قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لايرى الخير إلّا منه .

✿ (بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات تعرب بلسان الحال عنها) ✿

أقول : قد ذكر أبو حامد أوّلاً كيفيّة قبض الأرواح ثمّ أورد الحكايات

---

(١) الفقيه باب غسل الميت تحت رقم ٥ ، وفى الكافى نحوه .
(٢) هذه الزيادة فى‌الكافى ج ٣ ص ١٢٤ تحت رقم ١٠ .
(٣) اخرجه ابن‌حبان بالمرفوع منه وقد تقدم ، واحمد والبيهقى‌فى‌الشعب به‌جميعاً .
(٤) تقدم .

ونحن نذكر الأوّل من طريق الخاصّة ثمّ نكتفي ببعض ما أورده فعن الصادق عليه السلام «قيل لملك الموت: كيف تقبض الأرواح وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟ فقال: أدعوها فتجيبني قال: وقال ملك الموت: إنّ الدّنيا بين يدي كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء، والدّنيا عندي كالدّرهم في كفّ أحدكم يقلّب كيف يشاء»[1] وقيل للصادق عليه السلام: «يعلم ملك الموت نفس من يقبض؟ قال: لا إنّما هي صكاك تنزل من السّماء اقبض نفس فلان بن فلان[2]».

قال أبو حامد: قال وهب بن منبّه: كان ملك من ملوك الأرض أراد أن يركب إلى أرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتّى لبس ما أعجبه بعد مرّات وكذلك طلب دابّة فلم يعجبه حتّى أتى بدوابّ فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ في منخريه نفخة فملأه كبراً ثمّ سار وسارت معه الجنود، وهو لا ينظر إلى النّاس كبراً فجاءه رجل رثّ الهيئة فسلّم عليه فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابّته فقال: أرسل اللّجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً، وقال: إنّ لي إليك حاجة قال: اصبر حتّى أنزل قال: لا الآن فقهره على لجام دابّته فقال: اذكرها، قال: هي سرّ فأدنا إليه رأسه فسارّه فقال: أنا ملك الموت فتغيّر لون الملك واضطرب لسانه، ثمّ قال: دعني حتّى أرجع إلى أهلي فأقضي حاجتي وأودّعهم قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبداً فقبض روحه فخرّ كأنّه خشبة، ثمّ لقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلّم عليه فردّ السّلام فقال: إنّ لي إليك حاجة اذكرها في اُذنك فقال: هات فسارّه فقال: أنا ملك الموت فقال: مرحباً وأهلاً بمن طالت غيبته عليّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحبّ إليّ أن ألقاه منك فقال: ملك الموت اقض حاجتك الّتي خرجت لها، فقال: مالي حاجة أكبر عندي ولا أحبّ إليّ من لقاء الله، قال: فاختر على أيّ حال شئت أن أقبض روحك فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إنّي اُمرت بذلك، قال: فدعني حتّى أتوضّأ واُصلّي ركعتين فاقبض روحي وأنا ساجد

(١) الفقيه ص ٣٢ و ٣٣ .
(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٥٥ تحت رقم ٢١ .

فقبض روحه وهو ساجد .

وقال بكر بن عبد الله المزني : جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلمّا أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأُتي بشيء كثير من الخيل والابل والرّقيق وغيره فلمّا نظر إليه بكى تحسّراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال: ما يبكيك فو الّذي خوّلك ما أنا بخارج من منزلك حتّى أفرّق بين روحك وبدنك ، قال : فالمهلة حتّى اُفرّقه قال : هيهات انقطعت عنك المهلة فهلّا كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه . وقال وهب بن منبّه : قبض ملك الموت روح جبّار من الجبابرة ما في الأرض مثله ، ثمّ عرج إلى السّماء فقالت الملائكة : لمن كنت أشدّ رحمة ممّن قبضت روحه قال: اُمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لامتعهّد له بها فقالت له الملائكة : الجبّار الّذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الّذي رحمته فقال ملك الموت: سبحان اللّطيف لما يشاء .

وقال يزيد الرّقاشي : بينا جبّار من الجبابرة من بني إسرائيل كان جالساً في منزله فدخل ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل إلى باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً فقال : من أنت ومن أدخلك داري ؟ قال : أمّا الّذي أدخلني الدّار فربّها أمّا أنا فالّذي لا يمنعني الحجاب ولا أستاذن على الملوك ولا أخاف سطوة السّلاطين ولا يمتنع عنّي كلّ جبّار عنيد ولا شيطان مريد ، قال : فسقط في يدي الجبّار وأرعد حتّى سقط منكبّاً لوجهه ، ثمّ رفع إليه رأسه مستعطفاً متذلّلاً فقال له : أنت إذاً ملك الموت ، قال : أنا هو ، قال : فهل أنت ممهّلي حتّى أحدث عهداً ، قال : هيهات انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال : فإلى أين تذهب بي ؟ قال : إلى عملك الّذي قدّمته وإلى بيتك الّذي مهّدته ، قال : فإنّي لم اُقدّم عملاً صالحاً ولم اُمهّد بيتاً حسناً ، قال : فإلى لظى ، نزّاعة للشّوى ، ثمّ قبض روحه فسقط بين أهله فمن صارخ وباك .

وقال يزيد الرّقاشي : لو تعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر .

وعن الأعمش عن خيثمة قال: «دخل ملك الموت على سليمان بن داود صلوات الله عليهما فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلمّا خرج قال الرّجل لسليمان عليه السلام: من هذا قال: هذا ملك الموت قال: لقد رأيته ينظر إليّ كأنّه يريدني، قال، فماذا تريد؟ قال: اُريد أن تخلّصني عنه فتأمر الرّيح حتّى يحملني إلى أقصى الهند، فأمر سليمان عليه السلام الرّيح ففعل الرّيح ذلك، ثمّ قال سليمان عليه السلام لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال: نعم كنت أتعجّب منه لأنّي كنت اُمرت أن أقبض روحه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فتعجّبت من ذلك.

❁ (الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله) ❁

أقول: و لنعرض الآن عمّا ذكره أبو حامد من طريق العامّة في هذا الباب فإنّ أكثره من مفتريات سلفهم لترويج أغراضهم الفاسدة. و لنذكر ماروته أصحابنا من مآخذهم الصحيحة قال: بعض علمائنا في كتاب له صنّفه (١) في ذكر وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسبب اختلاف الصحابة بعده بعدما ذكر حديث حجّة الوداع ووصيّة يوم الغدير وما يتعلّق بذلك ما هذا لفظه «ثمّ إنّه صلى الله عليه وآله تحقّق من دنوّ أجله فخاف توثّب المنافقين ومن والاهم على هذا الأمر وكانوا ألف رجل فعقد لاُسامة بن زيد فولاء الرّاية وأمّره على أكثر المهاجرين و الأنصار و ندبه إلى الخروج بهم إلى الوجه الّذي قتل أبوه فيه من بلاد الرّوم لكيلا يبقى بالمدينة بعد وفاته من يطمع في الإمارة فيستتمّ الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام فلا ينازعه هناك منازعٌ، فأمر اُسامة فعسكر على أميال من المدينة ورسول الله صلى الله عليه وآله يحثّ الناس على الخروج إلى اُسامة والمسير معه، فبينما هو كذلك إذ عرض له المرض الّذي توفّي فيه فلمّا أحسّ بالمرض أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام وتبعه جماعة من

(١) الظاهر أن هذا الكتاب تأليف أحد علماء البحرين ويسمى «التهاب نيران الاحزان» و على ما سمعت في مكتبة الامام امير المؤمنين عليه السلام العامة في النجف الاشرف نسخة مخطوطة منه.

المهاجرين والأنصار ، فقال عليه السلام : إنّي اُمرت بالاستغفار لأهل البقيع فلمّا جاءهم قال : السلام عليكم يا أهل القبور ليهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا فيه الناس ، أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم يتبع أوّلها آخرها ، فاستغفر لهم كثيراً ، ثمّ أقبل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : يا أخي إنّ جبرئيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة وقد عرضه عليّ في هذا العام مرّتين ولا أراه إلّا لحضور أجلي ، ثمّ قال : يا عليّ إنّي خيّرت بين خزائن الدّنيا والخلود فيها وبين لقاء ربّي والجنّة فاخترت لقاء ربّي والجنّة خالداً فيها ، فإذا أنا متّ فغسّلني و استر عورتي فإنّه لا يراها أحدٌ إلّا أكمهه الله تعالى ، ثمّ عاد إلى منزله فمكث ثلاثة أيّام موعوكاً ، ثمّ إنّه خرج إلى المسجد معتمداً على أمير المؤمنين عليه السلام حتّى صعد المنبر وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : معاشر الناس قد حان منّي خفوقٌ ما بين أظهركم ، فمن كان له عندي عدةٌ فليأتني اُعطه إيّاها ومن كان له عندي دين فليخبرني به ، فقام رجلٌ وقال ؟ يارسول الله إنّ لي عندك عدةٌ إنّي تزوّجت فوعدتني أن تنحلني ثلاث أواق ، فقال له : أنحلتكها وأفضل ، ثمّ قال : معاشر الناس إنّه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه شرّاً إلّا العمل ، والّذي بعثني بالحقّ لا ينجي إلّا العمل مع رحمة الله ولو عصيت لهويت ، ثمّ نزل فصلّى بالنّاس صلاة خفيفة ، ودخل بيته وكان في بيت اُمّ سلمة فجاءت عائشة فسألته أن ينتقل إلى البيت الّذي هي فيه فانتقل إليها وجاءت الأنصار من غد فأحدقوا بالباب وقالوا لغلامه : استأذن لنا على رسول الله ، فقال الغلام : إنّه مغشيّ عليه فجعلوا يبكون ، ثمّ إنّه عليه السلام أفاق فسمع البكاء فقال : من هؤلاء ؟ قالوا : الانصار فقال : من ههنا من أهل بيتي ؟ فقالوا : عليّ والعباس فدعا بهما وخرج متوكّئاً عليهما واستند إلى جذع من جذوع مسجده واجتمع الناس حوله ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : معاشر الناس إنّه لم يمت نبيّ قطّ إلّا خلّف تركة وقد خلّفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فتمسّكوا بهما فمن ضيّعهما ضيّعه الله ، ألا وإنّ الأنصار كرشي وعيبتي الّتي أوى إليها اُوصيكم بتقوى الله والإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم ، وجعل الناس ممّن لم يكن

في جيش اُسامة يعودون رسول الله ﷺ ، ثمّ ينصرفون إلى سعد بن عبادة ويعودنه ثمّ إنّ رسول الله ﷺ دعا اُسامة بن زيد وقال له : سرعلى بركة الله حيث أمرتك بمن أمّرتك عليه وكان قد أمّره على جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم وأمره أنّ يعبر على قرية وادي فلسطين وهو الموضع الّذي قتل فيه أبوه زيد ، فقال اُسامة : بأبي أنت واُمّي يارسول الله تأذن لي بالمقام حتّى يشفيك الله فإنّي متى خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفي قلبي قرحة ، فقال : أنفذ يا اُسامة لما أمرتك فإنّ القعود عن الجهاد لا يحبّ فخرج اُسامة من يومه ذلك فعسكر على رأس فرسخ من المدينة فنادى منادي رسول الله : ألا لا يتخلّف عن اُسامة أحدٌ ممّن أمّرته عليه ، قال : فلمّا رأى رسول الله ﷺ تثاقل الناس عن الخروج أمر قيس بن سعد بن عبادة وكان سيّاف رسول الله ﷺ والحباب بن المنذر أن يخرجا في جماعة من الأنصار وأن يرحّلا القوم إلى عسكرهم فأخرجهم قيس و أصحابه حتّى لحقوا بالعسكر وقالا لاُسامة : إنّ رسول الله ﷺ لم يرخّص لك في التأخير فسر من قبل أن يعلم بتأخّرك فارتحل بهم اُسامة وانصرف قيس ومن معه إلى رسول الله ﷺ وأعلمه بمسير القوم فقال ﷺ : إنّ القوم غير سائرين، فلمّا نزلوا أتى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة نحو اُسامة وقالوا له : أين تذهب وتخلّي المدينة ونحن أحوج من كلّ أحد إلى المقام بها ، فقال اُسامة : وما ذاك ؟ قالوا : إنّ رسول الله ﷺ قد نزل به الموت والله لئن خلينا المدينة ليلينّ الأمر عليّ بن أبي طالب و ما وجّهنا محمّد إلى هذا الوجه البعيد إلّا لنخلّي المدينة لعليّ بن أبي طالب فيبايع له الناس ويستتمّ الأمر له ويفسد علينا جميع ما أبرمناه ، قال : فرجع القوم إلى المنزل الأوّل فأقاموا به وبعثوا رسولاً يتعرّف لهم الخبر وعلّة رسول الله فأتى الرّسول إلى عائشة وسألها عن ذلك سرّاً فقالت له : امض إلى أبي بكر وعمر وقل له : إنّ رسول الله قد ثقل حاله وازداد مرضه فلا يبرح أحدٌ منكم وأنا أعرفكم الخبر وقتاً بعد وقت ، فلمّا اشتدّت علّة رسول الله ﷺ دعت عائشة صهيب الرّومي وقالت له : امض إلى أبي بكر وعمر وأعلمهما أنّ رسول الله ﷺ في حال الإياس وقل له:

يدخل هو وعمر وأبو عبيدة بالليل ، فأتاهم صهيب وأخبرهم برسالة عائشة فأخذوا بيده وادخلوه على اُسامة وأخبروه بما أرسلت عائشة واستأذنوه في الدخول فأمرهم وقال : لايعلمنّ بكم أحدٌ فإن عوفي رسول الله رجعتم إلى معسكركم وإن قبض رسول الله ﷺ عرّفوني ذلك فأدخل فيما دخل فيه الناس ، فدخل أبوبكر وعمر وأبو عبيدة ليلاً إلى المدينة ورسول الله ﷺ مغشيٌ عليه فلمّا أفاق قال: والله لقد طرق المدينة هذه الليلة شرٌّ عظيم ، قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الّذين أمرتهم بالخروج في جيش اُسامة رجع منهم قوم إلى المدينة مخالفين لأمري ألا وإنّي إلى الله منهم بريء ، و يحكم نفّذوا جيش اُسامة - ثلاثاً - لعن الله من تخلّف عنه ، حتّى قالها - ثلاثاً - قال : وكان عليٌّ بن أبي طالب والفضل بن عباس لايفارقانه في مرضه .

وكان بلال المؤذّن يأتي في وقت كلّ فريضة إلى النّبيّ ﷺ فيقول : الصلاة يا رسول الله ، فإن قدر على الخروج صلّى بالناس وإن لم يقدر أمر عليّ ابن أبي طالب أن يصلّي بهم فلّما أصبح رسول الله من ليلته الّتي قدم فيها القوم إلى المدينة أتاه بلال يؤذّن بالصّلاة فوجده قد ثقل عن الخروج فنادى الصلاة يرحمكم الله فأومى رسول الله ﷺ بيده - وكان رأسه في حجر عليّ - أن يصلّي بالناس بعضهم فإنّي مشغول بنفسي ، فقالت عائشة : مروا أبابكر يصلّي بهم ، وقالت حفصة : مروا عمر ، فلمّا سمع رسول الله ﷺ كلامهما ورأى حرص كلّ واحدة على تقديم أبيها قال لهنّ : اعففن ، ثمّ اُغمي عليه فقالت عائشة لبلال : إنّ رسول الله قد اُغمي عليه ورأسه في حجر عليّ فلا يقدر على مفارقته فمر أبا بكر فليصلّ بالناس فظنّ بلال أنّ ذلك عن رسول الله فقال للناس : قدّموا أبا بكر وكان أبوبكر وعمر ومن معهما قد دخلا المسجد فارسلت عائشة صهيب الرّومي إلى أبي بكر قد أمرت بلال يقول الناس صلّوا بصلوة أبي بكر فتقدّم حتّى يأتيك بلال بالأمر فتقدّم أبو بكر إلى المحراب فلمّا كبّر أفاق رسول الله من غشوته فسمع التكبيرة فقال لعليّ من يصلّي بالناس قال : يا رسول الله إنّ عائشة وحفصة أمرتا بلالاً أنّ يأمر أبا بكر أن يصلّي بالناس فقال : سنّدوني و أخرجوني إلى المسجد فقد نزلت والله بالإسلام فتنة

ليست بهنيئة ، ثمّ نظر إلى عائشة وحفصة نظر المغضب ، وقال : أما إنّكنّ كصويحبات يوسف ، يريد بذلك أنّ صويحبات يوسف قد كذبن عليه وأردن مراد الشيطان الغويّ من يوسف فشبّه رسول الله صلى الله عليه وآله عائشة وحفصة بهنّ حيث كذبن عليه لقولهنّ لبلال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مشغول بنفسه وعليّ لايقدر على مفارقته فأمر أبا بكر أن يصلّي بالناس ، ثمّ خرج عليه السلام معصّب الرّأس يتهادى بين عليّ وبين الفضل بن العبّاس ورجلاه يخطّان إلى الأرض من الضعف فلمّا رأى المسلمون رسول الله قد دخل المسجد على تلك الحالة عظم ذلك عليهم ، فتقدّم عليه السلام ونحّى أبا بكر عن المحراب وصلّى بالناس جالساً وبلال يسمع التكبير حتّى أكمل رسول الله صلاته ثمّ التفت فلم ير أبا بكر فقال : أيّها الناس ألاتعجبوا من ابن أبي قحافة وأصحابه أنفذتهم تحت راية اُسامة إلى الوجه الّذي وجّهتهم له فرجعوا إلى المدينة ابتغاء الفتنة ألا وإنّ الله أركسهم فيها عرّجوا بي إلى المنبر فقام منهوكاً حتّى أجلسوه على أدنى مرقاة منه فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ قال : أيّها الناس إنّي مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض فتمسّكوا بهما ولا تتفرّقوا ولاتتقدّموا أهل بيتي فتمرقوا و لا تتأخّروا عنهم فتزهقوا وأوفوا بعهدي ولا تنكثوا بيعتي الّتي بايعتموني عليها اللّهمّ إنّي قد بلّغتُ ما أمرتني به ونصحت لهم ما استطعت وماتوفيقي إلّا بالله عليه توكّلت و إليه اُنيب ، ثمّ قام فدخل حجرته ، ثمّ أمر من استدعى له أبا بكر وعمر ومن كان بالمسجد فقال لهم : ألم آمركم أن تنفذوا مع جيش اُسامة فقال أبوبكر : إنّي كنت قد خرجت ثمّ عدت لاُجدّد بك عهداً وقال عمر : إنّي لم أخرج لأنّي لم اُحبّ أن أسأل عنك الرّكبان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله نفّذوا جيش اُسامة - يكرّرها ثلاثاً - لعن الله على من تأخّر عن أمره ، ثمّ اُغمي عنه لعظم مالحقه من التعب والأسف على من تأخّر عن أمره فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه و ولده .

ثمّ أفاق فنظر إليهم وقال : ائتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا

بعدي ، ثمّ اُغمي عليه فقام بعض من حضر ليأتي بالدّواة والكتف فقال له عمر : ارجع فانّ النبيّ يهجر ، ثمّ تلاوموا بينهم فقال بعضهم : أطيعوا رسول الله و أتوه بالدّواة والكتف ، و قال آخرون : أطيعوا عمر ، و قال آخرون : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، لقد أشفقنا من مخالفتنا لرسول الله . فلمّا أفاق قال بعض: ألا نأتيك بالدّواة والكتف يارسول الله ؟ فقال : أمّا بعد الّذي قلتم لا ، ولكنّي اُوصيكم بأهل بيتي خيراً ، وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا ، وقال بعض العارفين في هذا المعنى:

أوصي النبيّ فقال قائلهم ✩ قد ضلّ يهجر سيّد البشر

ورأي أبا بكر أصاب ولم ✩ يهجر وقد أوصى إلى عمر

قال الرّاوي : و بقي عند الرّسول صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطلب وأهل بيته، فقال العباس : يا رسول الله إن يكن هذا الأمر فينا مستقرّاً فبشّرنا وإن كنت تعلم أنّا نغلب عليه فأوص بنا ، فقال : أنتم المستضعفون من بعدي وصمت ، فنهضوا وهم يبكون وقد آيسوا من النبيّ صلى الله عليه وآله فلمّا خرجوا من عنده قال لهم : ردّوا عليّ بن أبي طالب وعمّي العبّاس فلمّا حضروا قال للعباس: ياعمّ تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي ديني ؟ قال العبّاس : يا ابن أخي عمّك شيخ كبير ذو عيال كثيرة وأنت تباري الرّيح سخاء و كرماً وعليك وعد لا ينهض به عمّك، فأقبل بوجهه على أمير المؤمنين عليه السلام وقال : يا أخي تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي ديني ، وتقوم بأمر أهلي من بعدي ؟ قال : نعم يا رسول الله فداك أبي واُمّي فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : اُدن منّي ، فدنا منه فضمّه إلى صدره وقبّل ما بين عينيه وتعانقا وبكى كلّ منهما ثمّ نزع خاتمه من أصبعه ، وقال له : خذ هذا فضعه في يدك ودعا بسيفه ودرعه ولأمة حربه وفرسه وناقته وبغلته والتمس عصابته الّتي كان يشدّها على بطنه إذا لبس سلاحه وخرج إلى الحرب ، فدفع ذلك كلّه إليه ، وقال : امض به على بركة الله إلى منزلك .

قال الرّاوي : واستأذن ابن عبّاس على رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن له فلمّا دخل عليه قال : بأبي أنت واُمّي يا رسول الله قد دنا أجلك ؟ قال : نعم ، قال : يارسول الله فما

تأمرني به ؟ قال : يا ابن عبّاس خالف من خالف عليّاً ولا تكن لهم ظهيراً ولا وليّاً ، فقال ابن عبّاس : يا رسول الله فلم لا تأمر النّاس بترك مخالفته فبكى عليه السلام حتّى اُغمي عليه فلمّا أفاق قال : يا ابن عبّاس سبق الكتاب فيهم وعلم ربّي والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً لا يخرج أحدٌ ممّن خالفه من الدّنيا وأنكر حقّه حتّى يغيّر الله ما به من نعمة ، يا ابن عبّاس إذا أردت أن تلقى الله وهو عنك راض فاسلك طريق عليّ بن أبي طالب ومل معه حيث ما مال وارض به إماماً وعاد من عاده ووال من والاه ، يا ابن عبّاس احذر أن يدخلك شكٌّ فيه فإنّ الشكّ في عليّ كفر بالله .

ثمّ دخل عليه أصحابه يعودونه فلمّا اجتمعوا قام أبو بكر وقال : يا رسول الله متى الأجل ؟ قال : قد حضر ، قال أبو بكر : فإلى أين المنقلب ؟ قال : إلى سدرة المنتهى وجنّة المأوى ، والرّفيق الأعلى ، والكأس الأوفى ، والعيش المهنّأ ، قال أبو بكر : فمن يلي غسلك منّا ؟ قال : رجلٌ من أهل بيتي الأدنى فالأدنى قال أبو بكر : ففيما نكفّنك ؟ قال : في ثيابي هذه أو في حلّة يمانية أو في بياض مصر ، قال أبو بكر : فكيف الصلاة عليك ؟ قال : فارتجّت الأرض بالبكاء فقال لهم النبيّ صلّى الله عليه وآله : مهلاً عفا الله عنكم فإذا غسّلت و كفّنت فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثمّ اخرجوا عنّي ساعة فإنّ الله تعالى أوّل من يصلّي عليّ ، ثمّ الملائكة ، ثمّ ادخلوا عليّ زمرة زمرة وليبدأ بالصّلاة عليّ الأدنى من أهل بيتي ، ثمّ النّساء ، ثمّ الصبيان زمراً زمراً ، قال : فمن يدخلك في قبرك ؟ قال : الأدنى فالأدنى من أهل بيتي مع الملائكة لا ترونهم ، فقوموا عنّي فأذنوا على من ورائكم ، فقاموا .

ثمّ استأذن عليه جماعة اُخرى فسلّموا عليه فردّ عليهم السلام ورحّب بهم فقام من بينهم عمّار بن ياسر - رضي الله عنه - وقال : فداك أبي واُمّي يا رسول الله من يغسّلك منّا إذا فارقت الدّنيا ؟ فقال صلّى الله عليه وآله : أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب ألا إنّه لا يهمّ بعضو منّي إلّا أعانته الملائكة عليه فقال له : فداك أبي واُمّي يا رسول الله فمن يصلّي عليك منّا ؟ فقال : يا عمّار - يرحمك الله - ثمّ قال : أين أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب فأجابه بالتلبية لبّيك يا رسول الله صلّى الله عليك فقال : يا ابن عمّي

أجلسني وسنّد ظهري فأجلسه وسنّد بصدره ، ثمّ قال : يا ابن العمّ إذا نزل بي الموت فضع رأسي في حجرك فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك ، ثمّ وجّهني إلى القبلة ، ثمّ غسّلني وكفّنّي في طمريّ هاتين أو في بياض مصر أو حبرة ، ولا تغال في كفني ، ثمّ صلّ عليّ أوّل الناس ، واعلم أنّ أوّل من يصلّي عليّ الجبّار جلّ جلاله ثمّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ، ثمّ الحافّون بالعرش لايحصي عددهم إلّا الله ثمّ سكّان أهل كلّ سماء فسماء ، ثمّ أهل بيتي يؤمون إيماء ما ويسلّموا تسليماً ، لاتؤذوني بصوت ناد و لا مرزبة [(١)] ، ثمّ قال : يا بلال عليّ بالعبّاس فلمّا اجتمعوا قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ بن أبي طالب : اقعدني على مرتفع وسنّدني فأقامه وهو معصّب الرأس حتّى أجلسه على كرسيّ وعليّ بن أبي طالب لازم بمنكبيه فحمد الله وأثنى عليه وذكر نفسه المقدّسة ونعاها.

ثمّ قال: معاشر الناس أيّ نبيّ كنت لكم ؟ قالوا بأجمعهم : خير نبيّ ، قال : ألم اُجاهد بين أظهركم ؟ ألم تكسر رباعيتي ؟ ألم يعفر جبيني ؟ ألم تسل الدّماء على وجهي حتّى وقعت لجنبي ؟ ألم اُكابد الشدّة والجهد مع جهّال قومي ؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني ؟ قالوا بأجمعهم : بلي يا رسول الله لقد كنتَ على البلاء صابراً ، ولنعمائه شاكراً ، وعن المنكر ناهياً ، وبالمعروف آمراً ، فجزاك الله عنّا أفضل الجزاء ، قال : وأنتم جزاكم الله خيراً ، ثمّ قال : أيّها الناس لانبيّ بعدي ولا سنّة بعد سنّتي فمن ادّعى ذلك فهو في النّار ، أيّها الناس أحيوا القصاص ، أحيوا الحقّ لصاحب الحقّ ولا تفرّقوا و سلّموا تسليماً « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز » أيّها النّاس إنّ ربّي حكم و أقسم أن لايجاوز ظلم ظالم إلّا بعفو أو قصاص فأنشدكم بالله أيّ رجل كانت له من قبل محمّد مظلمة أو قصاص إلّا قام فيقتصّ منّي فإنّ القصاص في الدّنيا أحبّ إليّ من القصاص في الآخرة على رؤوس الأشهاد ، قال: فقام إليه رجلٌ يقال له : سوادة بن قيس فقال: فداك أبي واُمّي يارسول الله

(١) المرزبة بالباء الموحدة و هى عصية من حديد و فى بعض النسخ [مرزنه] ولعله تصحيف .

أقبلت من الطائف استقبلتك و أنت على ناقتك العضباء و بيدك القضيب الممشوق فرفعت القضيب وأنت تريد الناقة فأصاب بطني فلاأدري عمداً أوخطأ فقال : معاذ الله ياسوادة أن أكون تعمّدت ، ثمّ قال : يا بلال قم إلى ابنتي فاطمة وأتني بالقضيب الممشوق فخرج بلال ينادي في شوارع المدينة من ذا الّذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة ، ثمّ أتى فاطمة عليها السلام فقال : يافاطمة قومي فناوليني القضيب الممشوق فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يريده فصاحت فاطمة ما يصنع رسول الله بالقضيب الممشوق وليس هذا يوم القضيب ؟ فقال بلال : يافاطمة أما علمت أنّ أباك خطب الناس ونعى نفسه فقد ودّع أهل الدّين والدّنيا ، فصاحت فاطمة وقالت : واحزناه عليك يا أبتاه من للفقير والمسكين وابن السبيل يا حبيب الله وحبيب القلوب ، ثمّ إنّها ناولت بلال القضيب فخرج به حتّى ناوله رسول الله فقال صلى الله عليه وآله : أين الشيخ فقال الشيخ : ها أنا ذا يارسول الله ، فقال له : قم فاقتصّ منّي حتّى ترضى قال الشيخ : يا رسول الله اكشف لي عن بطنك فكشف صلى الله عليه وآله عن بطنه فقال الشيخ : بأبي أنت واُمّي يارسول الله أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك ؟ قال صلى الله عليه وآله : قد أذنتك فوضع الشيخ فمه على بطن رسول الله فقال : أعوذ ببطن رسول الله من النار يوم القيامة فقال صلى الله عليه وآله لسوادة : أتعفو أم تقتصّ فقال الشيخ : بل أعفو يارسول الله فقال صلى الله عليه وآله : اللّهمّ اعف عن سوادة بن قيس ممّا عفا عن نبيّك .

ثمّ جعل صلى الله عليه وآله يوصي أصحابه بالتمسّك بسنّته والاقتداء بعترته ويحذّرهم مخالفة أهل بيته ، ثمّ إنّه أمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يضجعه على فراشه . وقام القوم عنه وقد آيسوا منه فلمّا كان من الغد حُجب الناس عنه وكان عليّ عليه السلام لايفارقه فخرج عليه السلام لحاجة ، فدخل عليه نساؤه فأفاق فافتقد عليّاً عليه السلام فقال لأزواجه : ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت عائشة : ادعوا له أبابكر فدعي فلمّا نظر إليه أعرض بوجهه عنه فقام أبو بكر وقال : لوكان له حاجة لأفضى بها إليّ فلمّا خرج قال : ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت حفصة : ادعوا له عمر فدعي فلمّا نظر إليه أعرض بوجهه عنه فانصرف ، وقال : لو كان له حاجة لأفضى بها إليّ فلمّا خرج قال :

ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت اُمّ سلمة : اُدعوا له علياً فوالله ما يريد غيره فدعي عليٌّ عليه السلام فلمّا رآه أوى إليه فانكبّ عليه من تحت ثوبه فناجاه طويلاً ثمّ قام عليه السلام ناحية فقال له الناس بعد ذلك : ماالّذي أوعز إليك قال : علّمني ألف باب من العلم انفتح لي من كلّ باب ألف باب و أوصاني بما أنا عامل به إن شاء الله ، ثمّ إنّ أمّ سلمة استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن لها فدخلت وسلّمت عليه ، ثمّ قالت : بأبي أنت واُمّي يا رسول الله أراك متغيّراً قال : نعيت إليّ نفسي فسلام لك منّي فلا تسمعون بعد اليوم صوت محمّد أبداً ، فقالت اُمّ سلمة : واحزاناه لاتدركه الندامة عليك يامحمّد ، فقال : يااُمّ سلمة ادعي لي حبيبتي وقرّة عيني وثمرة فؤادي المظلومة بعدي فاطمة . فلمّا رأته قبّلت رأسه وخدّيه وقالت : نفسي لنفسك الفداء واكرباه لكربك يا أبتاه ففتح صلى الله عليه وآله عينيه وقال : يابنيّة لاكرب على أبيك بعد اليوم فقالت : يا أبتاه إنّي أراك مفارق الدّنيا فقال لها : بنيّة إنّي مفارقك فسلام لك منّي فقالت : يا أبتاه فأين الملتقى يوم القيامة؟ قال : عند الحساب ، قالت: فإن لم ألقك هناك ، قال : فعندالشفاعة لمحبّيك ، قالت : فإن لم ألقك عندالشفاعة قال : عند الصراط جبرئيل عن يميني وميكائيل عن شمالي وبعلك عليٌّ بن أبي طالب أمامي بيده لواء الحمد والملائكة من خلفي ينادون ربّ سلّم اُمّة محمّد من النّار ويسّر عليهم الحساب قالت : فأين اُمّي خديجة قال: في قصر من لؤلؤة بيضاء له أربعة أبواب .

ثمّ اُغمي عليه ورأسه في حجر عليّ بن أبي طالب عليه السلام فانكبّت عليه تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وهي تقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ☆ ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاّك[1] من آل هاشم ☆ فهم عنده في نعمة وفواضل

قال : ففتح رسول الله صلى الله عليه وآله عينيه وقال لها بصوت ضعيف : يابنيّة هذا قول عمّك أبي طالب لاتقولينه ولكن قولي « وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم[2] » فبكت طويلاً ، ثمّ إنّه عليه السلام أومأ إليها

(١) أي الصعاليك . (٢) آل عمران : ١٤٤ .

بالدنوّ منه ، فدنت منه حتّى أدخلها تحت ردائه فناجاها فرفعت رأسها وعينها تهملان دموعاً ثمّ قال لها : ادني منّي فدنت منه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك فتعجّب الحاضرون من ذلك ، فقالت : نعى إليّ نفسه فبكيت، ثمّ قال لي : يابنيّة لاتجزعي على أبيك من الموت فإنّي سألت ربّي أن يجعلك أوّل أهل بيتي لحوقاً بي وأخبرني ربّي أنّه استجاب لي فضحكت ، ثمّ قال : يابنيّة ادعي لي ولديّ الحسن والحسين . فدعت بهما فلمّا رآهما قبّلهما وشمّهما وجعل يترشّفهما وعيناه تهملان دموعاً ، ثم اُغمي عليه فصاح الحسن والحسين عليهما السلام وقالا : ياجداه أنفسنا لنفسك الفداء، ووجهنا لوجهك الوقاء، وجعلا يصيحان ويبكيان حتّى وقعا على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأراد عليّ عليه السلام أن ينحّيهما عنه فأفاق صلى الله عليه وآله وقال : يا عليّ تنحّ عنّي ابنيّ ؟ دعني أشمّهما ويشمّاني وأتزوّد منهما ويتزوّدان منّي فهذا وداع لاتلاق بعده أما إنّهما سيظلمان بعدي و يقتلان ظلماً فلعنة الله قاتلهماوظالمهما ، ثم قال : أما أنت يا أبا محمّد فتقتل مسموماً مخذولاً مضطهداً ، وأمّا أنت يا أبا عبد الله فتقتل عطشاناً غريباً فلعنة الله على اُمّة قتلوك يابنيّ .

قال : وكان جبرئيل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه في كلّ يوم وليلة فيقول: السلام عليك يا رسول الله إنّ ربّك يقرئك السّلام ويقول : كيف تجدك وهو أعلم بك ولكنّه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً إلى ما أعطاك وأراد أن يكون عيادة المريض سنّة في اُمّتك فإن كان النبيّ موجباً أي حاله خفيف قال : أجدني موجباً فيقول له جبرئيل أحمد الله تعالى على ذلك فإنّه يحبّ أن يحمد ويزيد في شكره وإن كان وجعاً قال : أجدني وجعاً فيقول جبرئيل : يامحمّد إنّ ربّك لم يشدّد عليك وما من أحد من خلقه أكرم عليه منك ولكن أحبّ أن تحمده وتشكره حتّى تلقه مستوجباً للدّرجة العليا والثواب الدّائم والكرامة على جميع الخلق . قال أمير المؤمنين عليه السلام : و إنّ جبرئيل نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في الوقت الّذي ينزل عليه فيه فلمّا حسست بنزوله قلت لمن كان في البيت أن يتنحّى فلمّا دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله جلس عند رأسه ، ثمّ قال عليه السلام :السلام عليك يا رسول الله إنّ ربّك يقرئك

السلام ويسألك كيف تجدك وهو أعلم بك فقال له : أجدني ميتاً ، فقال جبرئيل : يا محمّد أبشر فإنّ الله تعالى إنّما أراد أن يبلغك بما تجد ما أعدّ لك من الكرامة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : ثمّ إنّ رجلاً استأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله فخرجتُ إليه وقلت له : ما الّذي تريد ؟ قال : أردت الدّخول على رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت : لستَ تصل إليه فما حاجتك ؟ فقال الرّجل : إنّه لا بدّ من الدّخول عليه فدخل عليّ عليه السلام واستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن له فدخل الرّجل وجلس عند رأسه ، ثمّ قال : السلام عليك يا رسول الله فقال له : وعليك السلام فما حاجتك ؟ فقال الرّجل : إنّي رسول الله إليك ، فقال عليه السلام : وأيّ رسل الله أنت ؟ فقال : أنا ملك الموت أرسلني إليك ربّك وهو يقرئك السلام ويخيّرك بين لقائه وبين الرّجوع إلى الدّنيا فقال صلى الله عليه وآله : أمهلني حتّى ينزل جبرئيل عليه السلام فيسلّم عليّ واُسلّم عليه وأستشيره فخرج ملك الموت من عنده واستقبله جبرئيل في الهواء فقال : يا ملك الموت قبضت روح محمّد ؟ قال : لا يا جبرئيل سألني أن لا اُقبضه حتّى تأتيه فتسلّم عليه ويسلّم عليك ويستشيرك فقال جبرئيل : يا ملك الموت أما ترى أبواب السماء مفتّحة لروح محمّد ؟ أمّا ترى الحور العين قد تزيّنت لمحمد ، ثمّ نزل جبرئيل على النّبي صلى الله عليه وآله فقال : السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا محمّد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، فقال : وعليك السلام يا حبيبي جبرئيل إنّ ملك الموت استأذن عليّ فأذنت له فأراد قبض روحي فاستنظرته مجيئك ، فقال له جبرئيل : يا محمّد إنّ ربّك مشتاق وما استأذن ملك الموت على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : يا جبرئيل إنّ ملك الموت قد خيّرني عن ربّي بين لقائه وبين الرّجوع إلى الدّنيا فما ترى يا حبيبي جبرئيل ؟ فقال جبرئيل : يا محمّد « والآخرة خير لك من الاُولى ولسوف يعطيك ربّك فترضى » لقاء ربّك خيرٌ لك فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : لقاء ربّي خيرٌ لي ، لا تبرح يا حبيبي جبرئيل حتّى يجيء ملك الموت فما كان إلّا ساعة حتّى نزل ملك الموت فقال : السلام عليك يا محمّد ، فقال : وعليك السلام يا ملك الموت ، ما تريد أن تصنع ؟ قال : قبض روحك ، فقال : إمض لما اُمرت به ، فقال جبرئيل : يا محمّد هذا آخر يوم أهبط فيه إلى الدّنيا فقال صلى الله عليه وآله

يا حبيبي جبرئيل أدن منّي فدنا منه فكان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله وملك الموت قابض لروحه المقدّسة فقال جبرئيل : يا ملك الموت لا تعجل حتّى أعرج إلى ربّي وأهبط ، فقال ملك الموت : قد صارت روحه في موضع لا أقدر على تأخيرها فعند ذلك قال جبرئيل : يا محمّد هذا آخر هبوطي إلى الدّنيا إنّما كنتَ حاجتي فيها والآن أصعد إلى السّماء ولا أنزل إلى الأرض أبداً ، ثمّ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام : اُدن منّي يا أخي فقد جاء أمر الله فدنا منه حتّى أدخله تحت ثوبه الّذي عليه ووضع عليه السلام فاه في اُذنه فناجاه طويلاً حتّى خرجت نفسه الطيّبة صلى الله عليه وآله وكان عليه السلام كلّما كشف الثوب عن وجهه نظر إلى جبرئيل عليه السلام فقال : عند الشدائد لِمَ تخذلني يا حبيبي فقال جبرئيل يا محمّد « إنّك ميّت وإنّهم ميّتون » « كلّ نفس ذائقة الموت » ثمّ قال جبرئيل : يا محمّد احفظ وصيّة الله في روح محمّد ، فلمّا قضى نحبه ويد عليّ تحت حنكه الشريف ففاضت نفسه الشريفة فيها فمسح بها وجهه ووجّهه إلى القبلة وغمّض عينيه ثمّ انسلّ عليه السلام من تحت الثّوب المغطّى به وهو يبكي و قال لمن حضر : أعظم الله اُجوركم في نبيّكم فقد قبضه الله إليه .

قال : فارتفعت أصوات النّاس بالبكاء والنحيب ، ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام استدعى الفضل بن عبّاس وأمره أن يناوله بعد أن عصّب عينيه ثمّ غسّله صلوات الله عليه كما أمره فلمّا فرغ من غسله حنّطه وكفّنه ، واختلف أصحابه وأهل بيته في أفضل البقاع و إنّي لادافنه في البيت الّذي قبض فيه[1] ، ثمّ إنّ العبّاس بن عبد المطلب بعث إلى عبيدة بن الجرّاح وكان يحفر لأهل مكّة القبور و ضرّح وكان ذلك عادة أهل مكّة و بعث عليّ عليه السلام يزيد بن سهل يحفر له لحداً في حجرته ، ثمّ إنّ عليّاً عليه السلام وضع رسول الله على سريره على شفير قبره ، ثمّ إنّه صلّى عليه وحده لم يشرك أحد في الصلاة عليه فكان المسلمون يخوضون فيمن يؤمّهم في الصّلاة عليه وأين يدفن فخرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى من كان في المسجد من بني هاشم والمهاجرين والأنصار ممّن لم يحضر السقيفة وقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله إمامنا حيّاً

(١) كذا . وفى بعض النسخ [انى لادفنه ....] .

ومميتاً فليدخل إليه منكم فوج فوج فيصلّون عليه وإنّ الله تعالى لم يقبض نبيّاً من أنبيائه في مكان إلّا ارتضاه لرمسه فيه و إنّي لدافنه في حجرته الّتي قبض فيها فأطاعه القوم و رضوا بقوله ، ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام نزل القبر هو و العبّاس ابن عبد المطّلب والفضل بن عبّاس فنادت الأنصار من وراء البيت : يا عليّ إنّا نذكّرك الله وحقّنا اليوم من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يذهب أدخل منّا رجلاً يكون لنا حظّ في مواراة رسول الله فقال عليه السلام : ليدخل اُويس بن خولي وكان بدريّاً فاضلاً من الخزرج ، فلمّا دخل قال له عليّ عليه السلام : انزل القبر فنزل فوضع أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله على يديه و دلاه في حفرته فلمّا حصل في الأرض قال له : اُخرج يا اُويس فخرج ونزل عليّ عليه السلام القبر و كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ووضع خدّه الأيمن على الأرض موجّهاً إلى القبلة ، ثمّ وضع عليه اللّبن وأهال عليه التراب .

و كان وفاته صلى الله عليه وآله يوم الأثنين لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستّين سنة . وفات أكثر الناس الصّلاة عليه ولم يحضروا دفنه واشتغلوا بأمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة واغتنم أبو بكر الفرصة لعلمه أنّه لو توانى عن طلب الخلافة حتّى يفرغ أمير المؤمنين من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يحكموا أمرهم لم يستتمّ لهم ما يريدون فسبقوا إلى ولاية الأمر وذلك لاختلاف الأنصار فيما بينهم وكراهية الطلقاء والمنافقين والمؤلّفة قلوبهم لأمير المؤمنين عليه السلام وعلموا إنّ تأخّر الأمر حتّى يفرغ بنو هاشم من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله استقرّ الأمر مقرّه ويتولّى الأمر أمير المؤمنين عليه السلام فيخيبوا ممّا أمّلوه ولذلك سابقوا إلى طلب الخلافة ـ القصّة بطولها أخذنا منها موضع الحاجة ممّا يتعلّق بوفاته صلى الله عليه وآله دون ما يتعلّق بأمر الخلافة فإنّه ليس هنا محلّ ذكر ذلك .

✿ (الباب الخامس) ✿

✿ (في كلام المحتضرين من الصّالحين) ✿

أقول : وقد ذكر أبو حامد في هذا الباب أقاويل الصحابة والتّابعين وطائفة من الصوفيّة عند موتهم وبكاء بعضهم حينئذ وضحك بعضهم ونسب إلى بعضهم الطرب

والاستبشار والسرور عند موته مع أنّه ذكر في باب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه اشتدّ في النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغيّر لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتّى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدّة حاله من شاهد منظره، ولم يمهله ملك الموت ساعة وذكر في الحكايات السابقة أنّ ملك الموت أمهل رجلاً حتّى توضّأ وصلّى ركعتين وذكر في شأن الخليل والكليم في باب سكرات الموت ما سمعت وهذا من أعجب العجائب ولنطو ما ذكره في هذا الباب طيّاً فإنّ بعضه كلمات لاطائل تحتها وبعضه رعونات ودعاوي، ينادي أكثرها بالإعجاب.

قال في آخر الباب: فهذه أقاويلهم وإنّما اختلف بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرّجاء وعلى بعضهم الشوق والحبّ فتكلّم كلّ واحد من مقتضى حاله والكلّ صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

☆ (الباب السادس) ☆

☆ (في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور) ☆

إعلم أنّ الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الفطنة فأمّا أهل الغفلة فإنّه لاتزيدهم مشاهدتها إلاّ قساوة لأنّهم يظنّون أنّهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنّهم لا محالة على الجنائز يُحملون، أو يحسبون ذلك ولكنّهم على القرب لايقدّرون، ولا يتفكّرون أنّ المحمولين على الجنائز كلّهم هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظرنّ عبد إلى جنازة إلّا وينبغي أن يعدّ نفسه محمولاً عليها فإنّه محمولٌ عليها على القرب وكأن قد و لعلّه في غد أو بعد غد فروي عن بعضهم أنّه كان إذا رأى جنازة قال: امض و أنا على الأثر.

ثمّ ذكر أبو حامد مقالات قوم على الجنائز من هذا القبيل، ثمّ قال: فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لاننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلّا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلّمون إلّا في ميراثه وما خلّفه لورثته ولا يتفكّر أقرانه

وأقاربه إلّا في الحيلة الّتي بها يتناول بعض ما خلّفه ، ولا يتفكّر واحد منهم إلّاماشاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حملت عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلّا قساوة القلوب بكثرة المعاصي والذّنوب حتّى نسينا الله واليوم الآخر والأهوال الّتي بين أيدينا فصرنا نلهو و نغفل ونشتغل بما لايعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإنّ أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميّت ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميّت لأنّهم بالبكاء على أنفسهم أحرى من البكاء على الميّت .

فمن آداب حضور الجنائز التفكّر والتنبّه والاستعداد والمشي على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فنّ الفقه ومن آدابه حسن الظنّ بالميّت وإن كان فاسقاً وإساءة الظنّ بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فإنّ الخاتمة مخطرة لايدري حقيقتها ، ولذلك روى عمر بن ذرّ أنّه مات واحد من جيرانه وكان مسرفاً على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلّى عليه فلمّا أدلي في قبره وقف على قبره وقال : رحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفّرت وجهك بالسجود وإن قالوا : مذنب وذو خطايا فمن منّا غير مذنب وغيرذي خطايا ، وحكي أنّ رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذلم يدربه أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمّالين وحملوه إلى المصلّى فما صلّى عليه أحدٌ فحملوه إلى الصحراء للدّفن وكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزّهّاد الكبار فرآه كالمنتظر للجنازة فقصد أن يصلّي عليه فانتشر الخبر في البلد بأنّ الزاهد نزل ليصلّي على فلان فخرج أهل البلد فصلّى الزّاهد وصلّوا عليه وتعجّب الناس من صلاة الزّاهد عليه ، فقال لهم : قيل لي في المنام : انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها إلّا امرأة فصلّ عليه فإنّه مغفورٌ له فزاد تعجّب الناس فاستدعى الزّاهد امرأته وسألها عن حاله وإنّه كيف كانت سيرته ، قالت : كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر ، فقال : انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير ، قالت : نعم ثلاثة أشياء كان كلّ يوم يفيق عن سكره وقت الصبح فيبدّل ثيابه ويتوضّأ ويصلّي الصبح بالجماعة

ثمّ يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق . والثاني أنّه كان أبداً لايخلو بيته عن يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقّد لهم. والثالث أنّه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام اللّيل فيبكي ويقول : يارب أيّ زاوية من زوايا جهنم تريدأن تملأها بهذا الخبيث ويعني به نفسه فانصرف الزّاهد وارتفع إشكاله في أمره .

✿ (بيان أحوال القبر وأقاويلهم على القبور) ✿

قال الضحاك : قال رجل يا رسول الله : « من أزهد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى ، وترك فضل زينة الدّنيا ، وآثر مايبقى على مايفنى ، ولم يعد غداً من أيّامه ، وعدّ نفسه من أهل القبور [1] »

وقيل لعليّ عليه السلام : ماشأنك جاورت المقبرة قال : « إنّي أجدهم خير جيران إنّي لأجدهم جيران صدق يكفّون الألسنة ويذكرون الآخرة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مارأيت منظراً إلاّ والقبر أفظع منه [2] » .

وقال أبو ذرّ : ألا اُخبركم بيوم فقري يوم اوضع في قبري [3] .

و كان أبو الدّرداء يقعد إلى القبور و قيل له في ذلك ، قال : أجلس إلى قوم يذكّرونّي معادي ، وإن قمت لم يغتابوني [4] » .

و قال أبان بن أبي عيّاش التيمي : حضر الحسن مع أصحابه في جنازة النوار بنت أعين بن صبيعة عيّاش النيمي للرّغبة في الخير أو رهبة من لسان الفرزدق فلمّا صلّوا عليها أتوابها فجلس الحسن ناحية وأصحابه والفرزدق ناحية وأصحابه ،فقال الفرزدق للحسن : يا أبا سعيد يزعم الناس أنّه حضر في هذه الجنازة خير الناس وشرّ النّاس ، فقال الحسن : ومن يعنون به يا أبافراس ؟ قال الفرزدق : يعنون أنّي شرّ الناس وأنّك خير النّاس فقال الحسن : كلاّ ما أنا بخير الناس ولا أنت بشرّ

---

(١) رواه ابن ابي الدنيا في القبور مرسلا كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص١٥٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٦٧ من حديث عثمان بن عفا ، .

(٣) و(٤) تقدما في المجلد الثالث ص٤١٨ .

الناس ، ثمّ قال : يا أبا فراس ما قدّمت لهذه الحفرة ؟ قال : شهادة أن لا إله إلّا الله ثمانون سنة ، فقال الحسن : خذوها من غير فقيه ، ثمّ قال : ياأبا فراس هذا العمود فأين الأطناب ؟ يعني هذا القول فأين العمل ؟ ثمّ قال : الفرزدق : يا أبا سعيد أبيات عرضت لي تسمعها فقال : هات فانّك تحسن أن تقول فأنشأ ويقول :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ✫ أشدّ من القبر إلتهاباً و أضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد ✫ عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ✫ إلى النّار مغلول القلادة أزرقا
يقاد إلى نار الجحيم مسربلاً ✫ سرابيل قطران لباساً محرّقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم ✫ يذوبون في حرّ الصديد يمزّقا

قال : فما رجع الناس إلّا باكين من قول الفرزدق حتّى خضبوا لحاهم وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها ✫ من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرّم منكمُ في قعرها ✫ قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أمّا السّكون لذي القبور فواحد ✫ لايستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ✫ تصف الحقائق بعد من حالاتها
أمّا المطيع فنازل في روضة ✫ يفضي إلى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلّب ✫ في حفرة يأوي إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ✫ في شدّة التعذيب من لدغاتها

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد كلمات طائفة من هذا القبيل ثمّ ذكر أبيات وجدت مكتوبة على القبور ، منها :

تناجيك أجداث وهنّ سكوت ✫ وسكّانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدّنيا لغير بلاغة ✫ لمن تجمع الدّنيا و أنت تموت

منها :

إنّ الحبيب من الأحباب مختلس ✫ لايمنع الموت بوّاب ولا حرس

فكيف تفرح بالدّنيا ولذّتها ✿ يا من يعدّ عليه اللّحظ والنفس
أصبحت ياغافلاً في النقص منغمساً ✿ وأنت دهرك في اللّذات منغمس
لاتأمن الموت في طرف ولا نفس ✿ وإن تستّرت بالحجّاب والحرس
لايرحم الموت ذا جهل لغرّته ✿ ولا الّذي كان منه العلم مقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به ✿ عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف ✿ فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ومنها غير ذلك :

قال أبو حامد : فهذه أبيات كتبت على القبور لتقصير سكّانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الّذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعدّ للّحوق بهم ويعلم أنّهم لايبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم وليتحقّق أنّه لو عرض عليهم يوم واحد من أيّام عمره الّذي هو مضيّع له لكان ذلك أحبّ إليهم من الدّنيا بحذافيرها لأنّهم قد عرفوا قدر الأعمار وانكشف لهم حقائق الاُمور وإنّما حسرتهم ليوم من العمر ليتدارك المقصّر فيه تقصيره فيتخلّص عن العقاب ، و ليستزيد الموفّق به رتبته فيتضاعف له الثواب ، فإنّهم إنّما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعهم فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة و لعلّك تقدر على أمثالها ثمّ أنت مضيّع لها ، فوطّن نفسك على التحسّر على تضييعها عند خروج الامر من الاختيار إن لم تأخذ نصيبك من ساعاتك على سبيل الاستبداد فقد قال بعض الصّالحين : « رأيت أخاً لي في الله فيما يرى النائم فقلت : يا فلان عشت حميداً الحمد لله ربّ العالمين قال : لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله ربّ العالمين أحبّ إليّ من الدّنيا ومافيها ، ثمّ قال ، ألم تر حيث كانوا يدفنوني فإنّ فلاناً قد قام فصلّى ركعتين لأن أكون أقدر على أن اُصلّيهما أحبّ إليّ من الدّنيا وما فيها .

✿ (بيان أقاويلهم عند موت الولد) ✿

حقّ على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله بعد تقدّمه عليه في الموت منزلة مّا لو كانا في سفر فسبقه ولده إلى البلد الّذي هو مستقرّه ووطنه فإنّه

لايعظم عليه تأسّفه لعلمه بأنّه لاحق به على القرب و ليس بينهما إلاّ تقدّم وتأخّر، وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخّر ، وإذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه لاسيما و قد ورد في موت الولد من الثواب مايتعزّى به كلّ مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لأن اُقدّم سقطاً أحبّ إليّ من أن اُخلّف مائة فارس كلّهم يقاتل في سبيل الله [١] » وإنّما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلّا فالثواب على قدر محلّ الولد من القلب .

أقول : و عن الصّادق عليه السلام : « ولد يقدّمه الرّجل أفضل من سبعين ولداً يخلّفهم بعده كلّهم قد ركبوا الخيل وجاهدوا في سبيل الله » [٢] .

وعنه عليه السلام « من قدّم من المسلمين ولدين يحتسبهما عند الله حجباه من النار بإذن الله [٣] » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله إذا أحبّ عبداً قبض أحبّ ولده إليه [٤] » .

وقال عليه السلام : « ثواب المؤمن من ولده إذا مات الجنّة ، صبرأولم يصبر [٥] ».

وقال عليه السلام : «إنّ الله ليعجب من الرّجل يموت ولده وهو يحمدالله فيقول : يا ملائكتي عبدي أخذت نفسه وهو يحمدني [٦] » .

قال أبو حامد : و قال : زيد بن أسلم : « توفّي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له : ما كان عدله عندك ؟ قال : ملء الأرض ذهباً قيل له : فإنّ لك من الأجر مثل ذلك . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلّا كانوا له جنّة من النار : فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وآله : أو اثنان قال : أو اثنان [٧] » وليخلّص الوالد الدّعاء لولده عند الموت فإنّه

(١) ما عثرت عليه الاعلى ما أخرجه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ١٦٠٧ هكذا « لسقط اقدمه بين يدى أحب الى من فارس أخلفه خلفى » .

(٢) الكافى ج ٣ ص ٢١٨ تحت رقم ١ .

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) الكافى ج ٣ ص ٢١٩ و٢٢٠ تحت رقم ٦و٥ و٨و٩ .

(٧) أخرجه البخارى ج ٢ ص ٨٨ من حديث ابى سعيد الخدري ورواه عبدالله بن احمد والطبرانى فى الكبيروابويعلى ورجاله ثقات كما فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٨ .

أرجى دعاء وأقربه إلى الاستجابة .

وقف محمّد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللّهمّ إنّي أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقّق رجائي وآمن خوفي . ووقف أبوسنان على قبر ابنه فقال: اللّهمّ إنّي قد غفرت له ما وجب لي عليه من حقّي فاغفر له ما وجب لك عليه فإنّك أجود وأكرم . ووقف أعرابيّ على قبر ابنه فقال : اللّهمّ إنّي وهبت له ما قصر فيه من برّي فهب له ما قصر فيه من طاعتك .

ولمّا مات ذرّ بن عمر بن ذرّ قام أبوه عمر بن ذرّ بعدما وضع في لحده فقال : يا ذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ اللّهمّ إنّ هذا ذرّ متّعتني به ما متّعتني ووفّيته أجله ورزقه ولم تظلمه ، اللّهمّ وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي ، اللّهمّ وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب له عذابه ولا تعذّبه، فأبكى النّاس ثمّ قال عند انصرافه :ماعلينا من بعدك خصاصة يا ذرّ ومابنا إلى إنسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك .

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلّا من قلّة الحزن ، فقالت : يا عبدالله إنّي لفي حزن شديد ما يشركني فيه أحدٌ ، قال : وكيف ؟ قالت : إنّ زوجي ذبح شاة في يوم الأضحى و كان له صبيّان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر: أتريد أن اُريك كيف أبي يذبح الشاة قال : نعم فأخذه وأضجعه ثمّ ذبحه فماشعرنا به إلّا متشحّطاً في دمه[1] فلمّا ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه[2] ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشاً من شدّة الحرّ قالت : فأفردني الدّهر كما ترى . فأمثال هذه المصائب ينبغي أن يتذكّر عند موت الأولاد ليتسلّى به عند شدّة الجزع فما من مصيبة إلّا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كلّ حال فهو الأكثر .

(١) التشحيط الاضطراب في الدم .

(٢) رهقه أي لحقه أودنا منه سواء أخذ أو لم يأخذ .

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به)

إعلم أنّ زيارة القبور مستحبّة على الجملة للتذكّر والاعتبار وزيارة قبور الصّالحين مستحبّة لأجل التبرّك مع الاعتبار ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن زيارة القبور ثمّ أذن فيها (١) .

فقد روى عليّ عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنّ في زيارتها تذكرة للآخرة غير أن لاتقولوا هجراً » (٢).

وزار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبر أمّه في ألف مقنّع فلم ير باكياً أكثر من يومه (٣) »

وقال أبوذرّ - رضي الله عنه - : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « زر القبور تذكّر بها الآخرة و اغسل الموتى فإن في معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة ، وصلّ على الجنائز لعلّ ذلك أن يحزنك فإنّ الحزين في ظلّ الله » (٤) قال ابن أبي مليكة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «زوروا موتاكم فسلّموا عليهم فإنّ لكم فيهم عبرة (٥) ».

وعن جعفر بن محمّد ، عن أبيه عليهما السلام « إنّ فاطمة بنت النبيّ كانت تزور قبر عمّها حمزة في الأيّام فتصلّي وتبكي عنده » .

أقول وفي الفقيه « إنّها عليها السلام تأتي قبور الشهداء كلّ غداة سبت فتأتي قبر حمزة فترحّم عليه وتستغفر له (٦) » .

وروي عن محمّد بن مسلم أنّه قال : «قلت لأبي عبد الله عليه السلام : الموتى نزورهم ؟

---

(١) مسلم ج ٣ ص ٦٥ من حديث بريدة

(٢) رواه احمد وابويعلى دون قوله : « ولاتقولوا هجراً » ورواه بتمامه الطبرانى فى الكبير و الاوسط بهذه الزيادة من حديث ابن عباس كما فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٣٧٥ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ١٧٧ .

(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور مرسلا واسناده حسن . (المغنى)

(٦) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٣٦ .

فقال : نعم ، قلت : فيعلمون بنا إذا أتيناهم ؟ فقال : إي والله إنّهم ليعلمون بكم ويفرحون بكم ويستأنسون إليكم ، قال : فأيّ شيء نقول إذا أتيناهم ؟ قال : قل: «اللّهمّ جاف الأرض عن جنوبهم وصاعد إليك أرواحهم ولقّهم منك رضواناً واسكن إليهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم و تونس به وحشتهم إنّك على كلّ شيء قدير [(١)] » .

وقال الرّضا عليه السلام : « ما من عبد زار قبر مؤمن فقرأ عليه إنّا أنزلناه في ليلة القدر سبع مرّات إلّا غفر الله له ولصاحب القبر [(٢)] » .

قال أبو حامد : و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كلّ جمعة غفر له و كتب عند الله باراً [(٣)] » .

وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الرّجل ليموت والداه وهو عاقّ بهما فيدعو الله لهما من بعد موتهما فيكتبه الله من البارّين [(٤)] » .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي [(٥)] » .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة [(٦)] » .

وقال كعب : ما من فجر يطلع إلاّ وينزل سبعون ألفاً من الملائكة حتّى يحفّوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلّون على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم ذلك فصنعوا مثل ذلك حتّى إذا انشقّت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقّرونه .

---

(١) و(٢) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٣٩ و ٤٠ .

(٣) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

(٤) قال العراقى : رواه ابن ابى الدنيا فى القبور وهو مرسل صحيح الاسناد .

(٥) رواه البزار فى مسنده من حديث عبدالله بن ابراهيم الغفارى كما فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٢.

(٦) روى نحوه الطبرانى من حديث ابن عمر، وصححه ابن السكن . (المغنى) .

أقول : ثمّ ذكر أبو حامد ما يتعلّق بزيارة القبور من الآداب وغيرها ممّا لا نعتمد عليه فلنعرض عنه ونذكر مكانه ما ورد من طريق الخاصّة فعن الصادق عليه السلام « أنّه سئل كيف التسليم على أهل القبور ؟ فقال : نعم تقول : « السلام على أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين أنتم لنا فرط ونحن إن شاء الله بكم لاحقون[(١)] ».

وقد ورد في زيارة الميّت أهله أخبار عن أهل البيت عليهم السلام وهذا ممّا لم يذكره أبو حامد وكأنّه لم يصل إليه منه شيء ففي الفقيه « سأل إسحاق بن عمّار أبا الحسن الأوّل عليه السلام عن المؤمن يزور أهله ؟ فقال : نعم ، قال : في كم ؟ قال : على قدر فضائلهم منهم من يزور في كلّ يوم ، و منهم من يزور في كلّ يومين ، ومنهم من يزور في كلّ ثلاثة أيّام قال : رأيت في مجرى كلامه أنّه يقول : أدناهم جمعة فقال له في أيّ ساعة ؟ قال : عند زوال الشمس أو قبيل ذلك فيبعث الله معه ملكاً يريه مايسرّ به ويستر عنه ما يكرهه فيرى سروراً ويرجع إلى قرّة عين[(٢)] ».

وروى حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام « أنّ الكافر يزور أهله فيرى ما يكرهه ويستر عنه ما يحبّ[(٣)] ».

قال أبو حامد : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « ما الميّت في قبره إلّا كالغريق المتغوّث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدّنيا وما فيها وإنّ هدايا الأحياء للأموات الدّعاء والاستغفار[(٤)] ».

وقال بعضهم : مات أخٌ لي فرأيته في المنام فقلت له : ماكان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال : أتاني آت بشهاب من نار فلولا أنّ داعياً دعا لي لرأيت أنّه سيصيبني شيء منه .

أقول : في الفقيه قال عمر بن يزيد : «قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أيصلّى عن الميّت ؟ قال : نعم حتّى أنّه ليكون في ضيق فيوسّع الله عليه ذلك الضيق ثمّ يؤتى

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٢٩ تحت رقم ٥ .

(٢) و(٣) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٤١و٤٢ .

(٤) أخرجه ابو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس (المغني)

فيقال له : خفّف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك قال : فقلت له : فأشرك بين رجلين في ركعتين ؟ قال : نعم ، فقال عليه السلام : إنّ الميّت ليفرح بالترحّم عليه والاستغفار له كما يفرح الحيّ بالهديّة تهدى إليه [(١)] » .

وقال عليه السلام : « من عمل من المسلمين عن ميّت عملاً صالحاً أضعف له ونفع الله به الميّت [(٢)] » .

قال أبو حامد : وعن هذا يستحبّ تلقين الميّت بعد الدّفن والدّعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي : شهدت أبا أمامة الباهليّ وهو في النزع فقال : يا أبا سعيد : إذا متّ فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « إذا مات أحدكم فسوّيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثمّ يقول : يا فلان بن فلان - وإنّه يسمع ولا يجيب - ثمّ ليقل يا فلان بن فلانة - الثانية - فإنّه يستوي قاعداً ثمّ ليقل : يا فلان ابن فلانة - الثالثة - فإنّه يقول : أرشدنا رحمك الله - ولكن لا تسمعون - فيقول له : اذكر العهد الّذي خرجت عليه من الدّنيا شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله وأنّك رضيت بالله ربّاً ، و بالاسلام ديناً ، و بمحمد نبيّاً ، وبالقرآن إماماً فإنّ منكراً ونكيراً يتأخّر كلّ واحد منهما فيقول : انطلق بنا نقعد عند هذا ولقد لقّن حجّته ويكون الله تعالى حجيجه دونهما ، فقال رجل : يا رسول الله فإن لم يعرف اسم امّه قال : فلينسبه إلى حوّاء »[(٣)] والمقصود من زيارة القبور للزّائرين الاعتبار والمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزّائر عن الدّعاء لنفسه وللميّت ولا عن الاعتبار به وإنّما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر في قلبه الميّت كيف تفرّقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنّه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف ابن أبي بكر الهذلي قال : كانت عجوز في بني عبد قيس متعبّدة فكانت إذا جاء اللّيل تحزّمت[(٤)] ثمّ قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنّها

---

(١) و(٢) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٥٣و٥٥ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير بسند مجهول كما في مجمع الزوائد ج ٣ص ٤٥ .

(٤) تحزم أي شد وسطه بحبل أو شبهه .

عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت : إنّ القلب إذا قسا لم يليّنه إلّا رسوم البلى وإنّي لآتي القبور فكأنّي أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنّي أنظر إلى تلك الوجوه المتعفّرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيّرة ، وإلى تلك الأكفان الدّسمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ، ما أنكل مرارتها للأنفس ، وأشدّ تلفها للأبدان.

ويستحبّ أيضاً الثناء على الميّت وأن لايذكر إلّا بالجميل، قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه [١] » وقال ﷺ : « لاتسبّوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، لاتسبّوا الأموات فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا [٣] » .

وقال ﷺ « لاتذكروا أمواتكم إلّا بخير فإنّهم إن يكونوا من أهل الجنّة تأثموا وإن يكونوا من أهل النّار فحسبهم ما هم فيه [٤] » .

☆ (الباب السابع) ☆

☆ (في حقيقة الموت وما يلقاه الميّت في القبر إلى نفخة الصور)☆

بيان حقيقة الموت إعلم أنّ للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطأوا فيها فظنّ بعضهم أنّ الموت هو العدم وأنّه لاحشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشرّ وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأي الملحدين وكلّ من لايؤمن بالله واليوم الآخر ، وظنّ قوم أنّه ينعدم بالموت ولا يتألّم بعقاب ولا يتنعّم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر ، وقال آخرون : إنّ الرّوح باقية لاتنعدم بالموت وإنّما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد وإنّ

---

(١) اخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٣ من السنن .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ١٥١ وأحمد في مسنده من حديث المغيرة .

(٣) أخرجه البخاري ج ٣ ص ١٢٣ من حديث عائشه وأحمد ج ٦ ص ١٨٠ من مسنده أيضاً .

(٤) قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة و هو عندالنسائي جيد مقتصراً هكذا « لاتذكروا موتاكم الابخير » . و ذكره بالزياه صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني .

الأجساد لاتبعث ولا تحشر أصلاً ، وكلّ هذه الظنون فاسدة و مائلة عن الحقّ ، بل الّذي يشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أنّ الموت معناه تغيّر حال فقطّ وأنّ الرّوح باقية بعد مفارقة الجسد إمّامعذّبة وإمّا منعّمة ، ومعنى مفارقتها للجسدانقطاع تصرّفها عن الجسدبخروج الجسد عن طاعتها فإنّ الأعضاء آلات للروح تستعملها حتّى أنّها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقةالأشياء بالقلب والقلب ههناعبارةعن الرّوح والرّوح تعلم الأشياء بنفسها من دون آلة و كذلك قدتتألّم بنفسها بأنواع الحزن والكمد ، وتتنعّم بأنواع الفرح والسّرور و كلّ ذلك لايتعلّق بالأعضاء فكلّ ما هو وصف للرّوح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطّل بموت الجسد إلى أن تعاد الرّوح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخّر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كلّ عبد من عباده ، وإنّما تعطّل الجسد بالموت يضاهي تعطّل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ولسدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الرّوح فيها فيكون الرّوح العالمة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلّها ، وكلّ الأعضاء آلات للرّوح وهي المستعملة لها وأعني بالرّوح المعنى الّذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذّات الأفراح ومهما بطل تصرّفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا تبطل منها الأفراح والغموم ، ولا يبطل منها قبولها الآلام واللّذّات والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللّذات وذلك لايموت أي لاينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرّفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون له آلة كما أنّ معنى الزّمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة ، فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلّها ، حقيقة الانسان نفسه وروحه هي باقية نعم تغيّر حاله من جهتين إحداهما أنّه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابّه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه

الأشياء فإنّ المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرّجل وتارة بأن يسبى الرّجل عن المال والألم واحد في الحالتين وإنّما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لايناسب هذا العالم فإن كان له في الدّنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويتقيّد بوجوده فيعظم تحسّره عليه بعد الموت ويتضاعف شقاؤه في مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه و عقاره حتّى إلى قميص كان يلبسه مثلاً و يفرح به و إن لم يكن يفرح إلّا بذكر الله ولم يأنس إلّا به عظم نعيمه و تمّت سعادته إذ خلّي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدّنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنّه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفاً له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقّظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وأوّل ما ينكشف له ما يضرّه وينفعه من حسناته وسيّئاته وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سرّ قلبه و كان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدّنيا فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيّئة إلّا ويتحسّر عليها تحسّراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من ألم تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وينكشف كلّ ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدّفن ، و تشتعل فيه نيران الفراق أعني فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدّنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزّاد والبلغة فإنّ من طلب الزّاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزّاد إذ لم يكن يريد الزّاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدّنيا إلّا بقدر الضرورة وكان يودّ أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه فقد حصل له ما كان يودّه واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدّفن ثمّ بعد الدّفن قد تردّ روحه إلى الجسد بأنواع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعّم بالدّنيا المطمئنّ إليها كحال من تنعّم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتماداً على أنّ الملك يتساهل في أمره أو على أنّ الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فأخذه الملك بغتة وعرض عليه

جريدة قد دوّن فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة، والملك قاهر متسلّط وغيور على حُرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفّع إليه في العصاة عليه فانظر إلى حال هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف و الخجلة و الحياء و التحسّر و التندّم، فهذا حال الميّت الفاجر المغترّ بالدّنيا المطمئنّ إليها قبل نزول عذاب القبر به، بل عند موته، نعوذ بالله منه فإنّ الخزي و الافتضاح و هتك الستر أعظم من كلّ عذاب يحلّ بالجسد من الضرب و القطع و غيرهما، فهذه إشارة إلى حال الميّت عند الموت شاهدها اُولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين و شهد لذلك شواهد الكتاب والسنّة، نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة و معرفة حقيقة الحياة بمعرفة حقيقة الرّوح في نفسها و إدراك ماهيّة ذاتها و لم يؤذن الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يتكلّم فيها ولا أن يزيد على أن يقول «الرّوح من أمر ربّي» فليس لأحد من علماء الدّين أن يكشف عن سرّ الرّوح و إن اطّلع عليه و إنّما المأذون فيه ذكر حال الرّوح بعد الموت، و يدلّ على أنّ الموت ليس عبارة عن انعدام الرّوح و انعدام إدراكها آيات و أخبار كثيرة أمّا الآيات فما ورد في الشهداء قال تعالى: «ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون فرحين (١)» و لما قتل صناديد العرب يوم بدر ناداهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: «يا فلان يا فلان قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً؟ فقيل: يا رسول الله أتناديهم و هم أموات؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: و الّذي نفسي بيده إنّهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلّا أنّهم لا يقدرون على الجواب (٢)» فهذا نصّ في بقاء روح الشقيّ و بقاء إدراكها ومعرفتها و الآية نصّ في بقاء أرواح الشّهداء، ولا يخلوا الميّت عن سعادة أو شقاوة و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «القبر إمّا حفرة من حفر النّيران أو روضة من رياض الجنّة (٣)» و هذا نصّ صريح في أنّ الموت معناه تغيّر حال فقط

(١) آل عمران: ١٦٩.
(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٦ من حديث عمر بن الخطاب.
(٣) أخرجه الترمذي وغيره وتقدم في الخوف والرجاء.

و أنّ ما سيكون من شقاوة الميّت وسعادته يتعجّل عند الموت من غير تأخّر وإنّما يتأخّر بعض أنواع العذاب و الثواب دون أصله .

و روى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : « الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته [١] » وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشيّة إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة و إن كان من أهل النّار فمن النّار يقال : هذا مقعدك حتّى يبعثك الله إليه يوم القيامة [٢] » و ليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب و نعيم في الحال .

و قال عليّ عليه السلام : « حرام على كلّ نفس أن تخرج من الدّنيا حتّى تعلم من أهل الجنّة هي أم من أهل النّار [٣] » و لهذا قيل : إنّما مثل المؤمن حين تخرج نفسه و روحه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه فهو يتفسّح في الأرض و يتقلّب فيها و هذا الّذي ذكره حال من تجافى عن الدّنيا و تبرّم بها و لم يكن له اُنس إلّا بذكر الله وكانت شواغل الدّنيا تحبسه عن محبوبه و مقاساة الشهوات تؤذية فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات و انفراده بمحبوبه الّذي كان به اُنسه من غير عائق و لا دافع ، وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللّذات و أكمل اللّذات للشهداء الّذين قتلوا في سبيل الله لأنّهم ما أقدموا على القتال إلّا قاطعين التفاتهم عن علائق الدّنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فإن نظر إلى الدّنيا فقد باعها طوعاً بالآخرة و البايع لا يلتفت قلبه إلى المبيع و إن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها و تشوّق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه و ما أقلّ التفاته إلى ما باعه إذا فارقه ، و تجرّد القلب لحبّ الله قد يتّفق في بعض الأحوال و لكن لا يدركه الموت عليه فيتغيّر و القتال سبب الموت فكان سبباً لإدراك الموت

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف . (المغنى)
(٢) أخرجه البخارى ج ٢ ص ١١٨ .
(٣) لم أجده وتقدم ص ٢٦٠ نحوه عن النبى صلى الله عليه وآله و راجع المجلد الثالث من بحار الانوار باب مابين المؤمن والكافر عند الموت .

على مثل هذه الحالة فلهذا أعظم فيه التّعيم إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده و قال الله تعالى : « و لهم ما يشتهون [١] » فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذّات الجنّة و أعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال تعالى : « وحيل بينهم و بين ما يشتهون [٢] » فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنّم وهذا التّعيم يدركه الشهيد عند انقطاع نفسه من غير تأخير ، و هذا الأمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين ، و إن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدلّ عليه وكلّ حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أُخرى فقد روي أنّ رسول الله ﷺ قال لجابر : ألا اُبشّرك ياجابر ؟ وكان قد استشهد أبوه يوم اُحد قال : بلى يا رسول الله بشّرك الله بالخير ، قال : إنّ الله أحيا أباك فأقعده بين يديه فقال تمنّ عليّ عبدي ماشئت اُعطيكه ، قال : يا ربّ ما عبدتك حقّ عبادتك أتمنّي عليك أن تردّني إلى الدّنيا فاُقاتل مع نبيّك في سبيلك فاُقتل فيك مرّة اُخرى قال له : إنّه قد سبق منّي أنك إليها لاترجع [٣] » .

و اعلم أنّ المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما يكون الدّنيا بالإضافة إليه كالسجن و المضيق و يكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لايبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار و الأزهار و الطيور و الثمار فلايشتهي العود الى السجن المظلم وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلا فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلاً عن الدّنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضي فلايسرّه أن يرجع إلى الدّنيا كما لايسرّ أحدكم إن يرجع إلى بطن اُمّه [٤] » فعرفك بهذا أنّ نسبة سعة الآخرة إلى الدّنيا كنسبة سعة الدّنيا إلى ظلمة الرّحم .

---

(١) النحل : ١٦ . (٢) سبأ : ٥٤ .

(٣) رواه الجزري في اسد الغابة وابن أبي الدنيا في الموت . ونحوه ابن ماجه في السنن تحت رقم ٢٨٠٠ .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث عمرو بن دينار مرسلا و رجاله ثقات كما في المغني .

و قال ﷺ أيضاً : «إنّ مثل المؤمن في الدّنيا كمثل الجنين في بطن اُمّه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتّى إذا رأى الضوء لم يحبّ أن يرجع إلى بطن امّه فكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربّه لم يحبّ أن يرجع إلى الدّنيا كما لا يحبّ الجنين أن يرجع إلى مكانه»[1] و قيل لرسول الله ﷺ : «إنّ فلاناً قد مات فقال : مستريح أو مستراح منه[2]» أشار بالمستريح إلى المؤمن و بالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدّنيا منه .

و قال النبيّ ﷺ : «لا تفضحوا أمواتكم بسيّئات أعمالكم فإنّها تعرض على أوليائكم من أهل القبور[3]» .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده ، عن الصادق عليه السلام قال : «تعرض الأعمال على رسول الله ﷺ أعمال العباد كلّ صباح أبرارها و فجّارها فاحذروها و هو قول الله : «اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله[4]» و سكت[5]» .

و عنه عليه السلام قال : «مالكم تسوؤن رسول الله ﷺ ؟ فقال رجل : كيف نسوؤه فقال : أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه ، فإذا رأى فيه معصية ساءه ذلك فلا تسوؤا رسول الله و سرّوه[6]» .

و باسناده عن عبدالله بن أبان الزّيات و كان مكيناً عند الرضا عليه السلام قال : قلت للرّضا عليه السلام : «ادع الله لي و لأهل بيتي فقال : أو لست أفعل ؟ و الله إنّ أعمالكم لتعرض عليّ كلّ يوم و ليلة ؟ قال : فاستعظمت ذلك فقال لي : أما تقرأ كتاب الله «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» قال : هو والله عليّ ابن أبي طالب عليه السلام[7]» .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الموت كما في المغني .

(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٥٤ بلفظة مر عليه بجنازة فقال ذلك .

(٣) ابن أبي الدنيا والمحاملي باسناد ضعيف كما في المغني .

(٤) التوبة : ١٠٦ .

(٥) و (٦) و (٧) المصدر ج ١ ص ٢١٩ تحت رقم ١ و ٣ و ٤ .

قال أبو حامد قال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إنّ الميّت ليعرف من يغسّله و من يحمله و من يدفنه و من يدليه في قبره [(١)] » .

و قال صالح المرى : بلغني أنّ الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للرّوح الّتي تخرج إليهم : كيف كان مأواك في أيّ الجسدين كنت في طيّب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يتوكّفون [(٢)] الأخبار فإذا أتاهم الميّت قالوا : ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون : لا فيقول : إنّا لله و إنّا إليه راجعون سُلك به غير سبيلنا .

و عن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرّجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب .

و قال مجاهدان : الرّجل ليسرّ بصلاح ولده في قبره .

و روى أبو أيّوب الأنصاري عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « إنّ نفس المؤمن إذا قبضت تلقّاها أهل الرّحمة من عند الله كما يتلقّى البشير في الدّنيا يقولون انظروا أخاكم حتّى يستريح فإنّه كان في كرب شديد و يسألونه ماذا فعل فلان ؟ و ماذا فعلت فلانة ، و هل تزوّج فلان فإذا سألوه عن رجل مات قبله و قال : مات قبلي قالوا : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ذهب به إلى أُمّه الهاوية [(٣)] » .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده الصحيح عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له : « جعلت فداك يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال : لا المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير و لكن في أبدان كأبدانهم [(٤)] » وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام « فإذا قبضه الله صيّر تلك الرّوح في قالب كقالبه في الدّنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه

---

(١) رواه أحمد فى مسنده من حديث رجل عن أبى سعيد بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير

(٢) توكف - بتشديد الكاف - : توقع يقال : مازلت أتوكفه حتى لقيته .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت و الطبرانى فى مسند الشاميين باسناد ضعيف و رواه ابن المبارك فى الزهد موقوفاً على أبى أيوب باسناد جيد ، كما فى المغنى .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٤ تحت رقم ١ .

بتلك الصّورة الّتي كانت في الدّنيا [١] » وفي لفظ آخر « إنّهم في الجنّة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان [٢] » .

و في خبر آخر « إنّ الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنّة يتعارف و يتساءل فاذا قدمت الرّوح على الأرواح تقول : دعوها فانّها قد أفلتت من هول عظيم ثمّ يسألونها مافعل فلان وما فعل فلان ؟ فان قالت لهم : تركته حيّاً ارتجوه، و إن قالت لهم : قد هلك ؟ قالوا : قد هوى هوى [٣] » .

(بيان كلام القبر للميت)

و كلام الموتى إمّا بلسان المقال أو بلسان الحال الّتي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يقول القبر للميّت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرّك بي ألم تعلم أنّي بيت الفتنة و بيت الظلمة و بيت الوحدة و بيت الدّود ما غرّك بي إذ كنت تمرّ بي فدّاداً فان كان مصلحاً أجاب عنه مجيب للقبر فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فيقول القبر : إنّي إذاً أتحوّل عليه خضراً و يعود جسده نوراً و تصعد روحه إلى الله ، و الفدّاد هو الّذي يقدم رجلاً و يؤخّر اُخرى كذلك فسّره الرّاوي [٤] » .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « إنّ للقبر كلاماً في كلّ يوم يقول : أنا بيت الغربة أنا بيت الوحشة أنا بيت الدّود أنا القبر أنا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيّران [٥] » و فيه حديث آخر طويل .

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٤٥ تحت رقم ٦ .

(٢) روى نحوه البرقي في المحاسن ص ١٧٧ .

(٣) الكافي ج ٣ ص ٢٤٤ تحت رقم ٣ .

(٤) أخرجه أبويعلى والطبراني في الكبير باسناد فيه ضعيف كما في مجمع الزوائد ج٣ ص ٤٦ وأماالفدّاد فقال في النهاية الاثيرية : «ان الارض تقول للميت ربما مشيت عليّ فدادا » قيل أراد ذا أمل كثير وخيلاء وسعي دائم .

(٥) المصدر ج ٣ ص ٢٤٢ تحت رقم ٢ .

✿(بيان عذاب القبر)✿

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ على جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكّساً رأسه ثمّ قال : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً ثمّ قال : إنّ المؤمن إذا كان في قُبُل من الآخرة بعث الله إليه ملائكة كأنّ وجوههم الشمس معهم حنوطه و كفنه فيجلسون مدّ بصره فإذا خرجت روحه صلّى عليه كلّ ملك بين السماء و الأرض و كلّ ملك في السّماء ، و فتحت أبواب السّماء فليس منها باب إلّا يحبّ أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل : اي ربّ عبدك فلان فيقول : ارجعوه فأرُوه ما أعددت له من الكرامة فإنّي وعدته « منها خلقناكم و فيها نعيدكم - الآية » و إنّه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتّى يقال : يا هذا من ربّك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيّك ؟ فيقول ربّي الله و ديني الإسلام ونبيّي محمّد ﷺ ، قال: فينتهرانه انتهاراً شديداً[1] وهي آخر فتنة تعرض على الميّت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت ، وهو معنى قوله تعالى : « يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدّنيا و في الآخرة [2] » ثمّ يأتيه آت حسن الوجه طيّب الرّيح حسن الثياب فيقول : أبشر برحمة من ربّك وجنّات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشّرك الله بخير ، من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصّالح و الله ما علمت ان كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً ، قال : ثمّ ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنّة و افتحوا له باباً إلى الجنّة فيفرش له فرش من الجنّة و يفتح له بابٌ إلى الجنّة فيقول : اللّهمّ عجّل قيام الساعة حتّى أرجع إلى أهلي و مالي ، قال : و أمّا الكافر فإنّه إذا كان في قُبُل من الآخرة و انقطاع من الدّنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد ومعهم ثياب من نار و سرابيل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كلّ ملك بين السماء والأرض و كلّ ملك في السماء و غلقت أبواب السماء فليس منها باب إلّا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نبذ و قيل : اي ربّ عبدك فلان لم يقبله سماء ولاأرض

(١) نهر الرجل : زجره كانتهره .　　(٢) ابراهيم : ٢٦ .

فيقول الله : ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشرّ إنّي وعدته « منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية » فانّه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتّى يقال له : ياهذا من ربّك ؟ و ما دينك ؟ و من نبيّك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقال : لادريت ثمّ يأتيه آت قبيح الوجه منتن الرّيح قبيح الثّياب فيقول : أبشر لسخط من الله و بعذاب أليم مقيم ، فيقول : بشّرك الله بشرّ من أنت فيقول : أنا عملك الخبيث و الله إن كنت لسريعاً في معصية الله بطيئاً عن طاعة الله فجزاك الله شرّاً ، فيقول : فأنت فجزاك الله شرّاً ، ثمّ يقيّض له أصمّ أعمى أبكم ، معه مرزبّة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلّوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار تراباً فيضربه بها ضربة فيصير تراباً ، ثمّ تعود فيه الرّوح فيضربه بها عنقه ضربة يسمعها من على الأرض غير الثّقلين ، قال : ثمّ ينادي مناد أن افرشوا له لوحين من نار ، و افتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار و يفتح له باب إلى النّار » (١).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال : « إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيّام الدّنيا و أوّل يوم من أيّام الآخرة مثّل له ماله و ولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول : و الله إنّي كنت عليك حريصاً شحيحاً ، فما لي عندك ؟ فيقول : خذمنّي كفنك ، قال : فيلتفت إلى ولده فيقول : والله إنّي كنت لكم محبّاً وإنّي كنت لكم محامياً فما لي عندكم ؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك فنواريك فيها ، قال : فيلتفت إلى عمله فيقول : و الله إنّي كنت فيك لزاهداً و إن كنت عليّ لثقيلاً فماذا عندك ؟ فيقول : أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتّى اُعرض أنا وأنت على ربّك قال : فان كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً و أحسنهم منظراً و أحسنهم رياشاً (٢) فقال : أبشر بروح و ريحان و جنّة نعيم و مقدمك خير مقدم ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصّالح المرتحل من الدّنيا

(١) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ٥٤٠ مع اختلاف والحاكم فى المستدرك وقال صحيح وراجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٦٧ أورده باختلاف كثير .

(٢) الرياش - بكسر الراء المهملة - : اللباس الفاخر .

إلى الجنّة . وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله فإذا اُدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما و يخدّان الأرض بأقدامهما ، أصواتهما كالرّعد القاصف و أبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له : من ربّك ؟ ومادينك ؟ و من نبيّك ؟ فيقول الله ربّي و ديني الإسلام ونبيّي محمّد فيقولان له : ثبّتك الله فيما تحبّ و ترضى وهو قول الله عزّ وجلّ : « يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثّابت في الحيوة الدّنيا وفي الآخرة»(١) ثمّ يفسحان له في قبره مدّ بصره ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّة ، ثمّ يقولان له : نم قرير العين نوم الشّاب النّاعم فإنّ الله يقول : « أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّاً و أحسن مقيلاً (٢) » قال : و إذا كان لربّه عدوّاً فإنّه يأتيه أقبح من خلق الله زيّاً و رؤياً و أنتنه ريحاً فيقول له : أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم(٣) وأنّه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا اُدخل القبر، أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثمّ يقولان له من ربّك ؟ و ما دينك ؟ ومن نبيّك ؟ فيقول : لاأدري فيقولان: لادريت و لاهديت ، فيضربان يافوخه(٤) بمرزبّة ، معهما ضربة ما خلق الله من دابّة إلّا وتذعر لها ما خلا الثّقلين(٥) ثمّ يفتحان له باباً إلى النّار يقولان له : نم بشرّ حال ، فيه من الضيق مثل ما فيه القنا من الزّجّ(٦) حتّى أنّ دماغه ليخرج من بين

(١) ابراهيم : ٢٦ .

(٢) الفرقان : ٢٦ . و قوله : « مستقراً » أى مكاناً يستقر فيه . و قوله : «مقيلا» من القيلولة و هى عند العرب الاستراحة نصف النهار .

(٣) النزل : ما يعد للضيف النازل على الانسان من الطعام والشراب والحميم ما يسقى منه أهل النار . والتصلية : التلويح على النار ، وفى مجمع البيان وتصلية جحيم ادخال نار عظيم .

(٤) « يافوخه » ـ بالياء المثناة التحتانية وآخره خاء معجمة ـ : الموضع الذى يتحرك من رأس الطفل اذا كان قريب العهد من الولادة . والمرزبة ـ بتشديد الباء وتخفيفها ـ: عصا كبيرة من حديد تتخذ لتكسير المدر و قد تقدم .

(٥) تذعر أى تفزع . والثقلين : الجن والانس .

(٦) القنا ـ بفتح القاف ـ : جمع القناة و هى الرمح . والزج : الحديدة التى فى أسفل الرمح .

ظفره و لحمه ، ويسلّط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها وهو امّها فتنهشه حتّى يبعثه الله من قبره [١]» .

قال أبو حامد : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « للمؤمن في قبره روضة خضراء ويرحّب له في قبره سبعين ذراعاً و يضيء حتّى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما ذا اُنزلت « فإنّ له معيشة ضنكاً»؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : عذاب الكافر في قبره يسلّط عليه تسعة وتسعون تنّيناً ، هل تدرون ما التنّين تسع وتسعون حيّة لكلّ حيّة سبعة رؤوس يخدشونه و يلحسونه و ينفخون في جسمه إلى يوم القيامة [٢] » .

و لا ينبغي أن يتعجّب من هذا العدد على الخصوص فإنّ أعداد هذه الحيّات و العقارب بقدر أعداد الأخلاق المذمومة من الكبر و الرّياء و الحسد و الغلّ و الحقد و ساير الصّفات فإنّ لها اُصولاً معدودة ، ثمّ تنشعب منها فروع معدودة ، ثمّ تنقسم فروعها بأقسام و تلك الصّفات بأعيانها هي المهلكات و هي بأعيانها تنقلب عقارب و حيّات فالقويّ منها يلدغ لدغ التنّين والضعيف تلدغ لدغ العقرب ، و ما بينهما يؤذي إيذاء الحيّة ، و أرباب القلوب و البصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات و انشعاب فروعها إلّا أنّ مقدار عددها لا يوقف عليه إلّا بنور النبوّة فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة و أسرار خفيّة و لكنّها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقلّ درجات الإيمان التّصديق والتّسليم ، فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ، فاعلم أنّ لك ثلاثة مقامات في التصديق بأمثال هذا أحدها و هو الأظهر و الأوضح و الأسلم أن تصدّق بأنّها موجودة و أنّها تلدغ الميّت و لكنّك لا تشاهد ذلك فإنّ هذه العين لا تصلح لمشاهدة الاُمور الملكوتيّة و كلّ ما يتعلّق بالآخرة فهو من عالم الملكوت أما ترى الصّحابة كيف كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل و ما كانوا يشاهدونه ، و يؤمنون بأنّه عليه السلام

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٣١ تحت رقم ١ .

(٢) أخرجه أبو يعلى و فيه دراج وحديثه حسن كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٥٥ .

يشاهده فإن كنت لاتؤمن بهذا فتصحيح أصل الايمان بالملائكة و الوحي ، أهمّ عليك و إن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي صلى الله عليه وآله ما لاتشاهده الأمّة فكيف لاتجوّز هذا في الميّت ، وكما أنّ الملك لا يشبه الآدميين و الحيوانات فالحيّات و العقارب الّتي تلدغ في القبر ليست من جنس حيّات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسّة اُخرى . المقام الثاني أن تتذكّر أمر النائم وأنّه قد يرى في نومه حيّة تلدغه و هو يتألّم بذلك حتّى تراه في نومه يصيح و يعرق جبينه و قد ينزعج من مكانه كلّ ذلك يدركه من نفسه و يتأذّى به كما يتأذّى اليقظان و هو يشاهده و أنت ترى ظاهره ساكناً و لا ترى باطنه ولاترى حواليه حيّة و لاعقرباً و الحيّة موجودة في حقّه و العذاب حاصل به و لكنّه في حقّك غير مشاهد و إذا كان العذاب في ألم اللّدغ فلا فرق بين حيّة تتخيّل أو تشاهد . المقام الثالث أنّك تعلم أنّ الحيّة بنفسها لا تؤلم بل الّذي يلقاك منها و هو السمّ ثمّ السمّ ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الّذي يحصل فيك من السمّ فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سمّ لكان العذاب قد نزل و لكن لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلّا بأن يضاف إلى السّبب الّذي يفضي إليه في العادة فإنّه لوخلق في الإنسان لذّة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلّا بإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسّبب وتكون ثمرة السبب حاصلاً و إن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته و هذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النّفس عند الموت فتكون آلامها كالآم لدغ الحيّات من غير وجود حيّات و انقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق فإنّه كان لذيذاً فطرأت حالة صار اللّذيذ بنفسه مؤلماً حتّى نزل بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنّى معه أنّه ليته لم يكن قد تنعّم بالعشق و الوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميّت فإنّه قد سلّط العشق في الدّنيا على نفسه فصار يعشق ماله و عقاره و جاهه و ولده وأقاربه و معارفه ، و لو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه و يشتدّ عذابه ، و يتمنّى و يقول : ليته لم يكن لي

مال قطّ ولا جاه قطّ فكنت لا أتأذّى بفراقه ، فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدّنياويّة كلّها دفعة واحدة .

ما حال من كان له واحد ✿ غيّب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلّا بالدّنيا فتؤخذ منه الدّنيا و تسلّم إلى أعدائه ، ثمّ ينضاف إلى هذا العذاب تحسّره على مافاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله فإنّ حبّ غير الله يحجب عن لقاء الله والتنعّم به فيتوالى عليه ألم الفراق لجميع محبوباته وحسرته على مافاته من نعيم الآخرة أبد الآباد و ذلّ الرّدّ والحجاب عن الله تعالى و ذلك هو الّذي يعذّب به إذ لا يتبع نار الفراق إلّا نار جهنّم كما قال تعالى: «كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ✿ ثمّ إنّهم لصالوا الجحيم»(١) وأمّا من لم يأنس بالدّنيا ولم يحبّ إلّا الله وكان مشتاقاً إلى لقاء الله فقد تخلّص من سجن الدّنيا و مقاساة الشهوات فيها ، و قدم على محبوبه و انقطعت عنه العوائق والصّوارف ، وتوفّر عليه النعيم مع الأمن من الزّوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، والمقصود أنّ الرّجل قد يحبّ فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه و بين أن يلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ عقرب و حبّه للفرس هو الّذي يلدغه إذا اُخذ منه فرسه فليستعدّ لهذه اللّدغات فإنّ الموت يأخذ منه فرسه ومركبه و داره و عقاره و أهله و ولده و أحبّاءه ومعارفه و يأخذ منه جاهه و قبوله بل يأخذ منه سمعه و بصره و أعضاءه و ييئس عن رجوع جميع ذلك إليه فإذا لم يحبّ سواه و قد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيّات و كما لو اُخذ ذلك منه و هو حيّ فيعظم عقابه ، فكذلك إذا مات لأنّا قد بيّنا أنّ المعنى الّذي هو المدرك للآلام و اللّذّات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشدّ لأنّه في الحياة يتسلّى عنها بأسباب يشتغل بها حواسّه من مجالسة و محادثة و يتسلّى برجاء العود إليه و يتسلّى برجاء العوض منه ، و لا سلوة بعد الموت إذ قد انسدّ عليه طرق التسلّي و حصل اليأس ، فإذاً كلّ قميص له ومنديل وغيره ممّا كان قد أحبّه بحيث كان يشقّ

(١) المطففين : ١٥ و ١٦ .

عليه لو أُخذ منه فإنّه يبقى متأسّفاً عليه و معذّباً به ، فإن كان مخفّفاً في الدّنيا سلم و هو المعنى بقولهم « نجا المخفّون » و إن كان مثقّلاً عظم عذابه ، و كما أنّ حال من سرق منه دينارٌ أخفّ من حال من سرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدّرهم أخفّ من حال صاحب الدّرهمين ، وهو المعنى بقوله صلّى الله عليه وآله : « صاحب الدّرهم أخفّ حساباً من صاحب الدّرهمين » (١) و ما من شيء من الدّنيا يتخلّف عنك عند الموت إلّا و هو حسرة عليك بعد الموت فإن شئت فاستكثر و إن شئت فاستقلل ، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلّا من الحسرة و إن استقللت فلست تخفّف إلّا ظهرك و إنّما تكثر الحيّات و العقارب في قبور الأغنياء الّذين استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنّوا إليها . فهذه مقامات الإيمان في حيّات القبر و عقاربه وفي سائر أنواع عذابه ، رأى أبوسعيد الخدري ابناً له قد مات في المنام فقال له : يا بنيّ عظني قال : لا تخالف الله تعالى فيما يريد ، قال : يا بنيّ زدني قال : يا أبه لا تطيق ، قال : بلى ، قال : لاتجعل بينك وبين الله قميصاً ، قال : فما لبس قميصاً ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاثة ؟ فاعلم أنّ في الناس من لم يثبت إلّا الأوّل و أنكر ما بعده ، و منهم من أنكر الأوّل و أثبت الثاني ، و منهم من لم يثبت إلّا الثالث ، و إنّما الحقّ الّذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أنّ كلّ ذلك في حيّز الإمكان و أنّ من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتّساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله مالم يأنس به و لم يألفه وذلك جهلٌ و قصورٌ بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب و ربّ عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع وربّ عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب القبر قليله و كثيره هذا هو الحقّ فصدّق به تقليداً ، فيعزّ على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً ، والّذي اُوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيف ماكان ، فإن

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذه سلطان و حبسه ليقطع يده و يجدع أنفه فأخذ طول اللّيل يتفكّر في أنّه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى، و أهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه و هذا غاية الجهل، فقد علم على القطع أنّ العبد بعد الموت لا تخلو عن عذاب عظيم أو عن نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له، فأمّا البحث عن تفصيل العقاب و الثواب ففضول محض و تضييع زمان.

✿(بيان سؤال منكر و نكير و صورتهما و ضغطة القبر و بقية)✿
✿(القول في عذاب القبر)✿

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر و للآخر نكير فيقولان له: ما كنت تقول في النبيّ؟ فإن كان مؤمناً قال: هو عبد الله و رسوله أشهد أن لا إله إلّا الله، و أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فيقولان: إنّا كنّا لنعلم أنّك تقول ذلك، ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً و ينوّر له في قبره، ثمّ يقال له: نم فيقول: دعوني أرجع إلى أهلي فأُخبرهم، فيقال له: نم فينام كنومة العروس الّذي لا يوقظه إلّا أحبّ أهله إليه حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك و إن كان منافقاً فقال: لاأدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً و كنت أقوله، فيقولان: إنّا كنّا لنعلم أنّك تقول ذلك، ثمّ يقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه حتّى تختلف فيها أضلاعه فلايزال معذّباً حتّى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك (١) ».

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام و قد مرّ ذكره و فيه عن الصّادق عليه السلام قال: « يجيىء الملكان منكر و نكير إلى الميّت

(١) أخرجه الترمذى ج٤ ص ٢٩٣. وقوله « تختلف أضلاعه » أى يقرب كل جانب من القبر الى الجانب الاخر فيضمه و يعصره. وقال الزبيدى فى الترغيب: العروس يطلق على الرجل وعلى المرأة مادامافى أعراسهما.

حين يدفن أصواتهما كالرّعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يخطّان الأرض[١] بأنيابهما و يطئان[٢] في شعورهما فيسألان عن الميّت مَن ربّك ؟ و ما دينك ؟ قال : فاذا كان مؤمناً قال : الله ربّي و ديني الإسلام فيقولان له : ما تقول في هذا الرّجل الّذي خرج بين ظهرانيكم[٣] ؟ فيقول : أعن محمّد رسول الله تسألاني ؟ فيقولان له : تشهد أنّه رسول الله ؟ فيقول : أشهد أنّه رسول الله ، فيقولان له : نم نومة لا حلم فيها و يفسح له في قبره تسعة أذرع و يفتح له باب إلى الجنّة و يرى مقعده فيها ، و إذا كان الرّجل كافراً دخلا عليه و أُقيم الشيطان بين يديه عيناه من نحاس فيقولان له : من ربّك ؟ وما دينك ؟ وما تقول في هذا الرّجل الّذي قد خرج من بين ظهرانيكم فيقول : لا أدري ، فيخلّيان بينه وبين الشيطان . ويسلّط عليه في قبره تسعة وتسعين تنّيناً لو أنّ تنّيناً[٤] واحداً منها نفخ على الأرض ما أنبت شجرة أبداً ، و يفتح له باب إلى النّار و يري مقعده فيها[٥] » .

و عنه عليه السلام « لا يسأل في القبر إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً و الآخرون يلهون عنهم[٦] » .

قال أبو حامد : وعن عطاء بن يسار قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وآله لعمر بن الخطاب

(١) في بعض نسخ المصدر [يخدان] أي يشقان الارض .

(٢) في بعض نسخ المصدر [يطثان] من الوطث ـ كالرعد ـ يعني يضربان أرجلهما على الارض ضرباً شديداً .

(٣) ظهران ـ بفتح المعجمة وآخره النون ـ وفي حديث الائمة « نتقلب في الارض بين أظهركم » أي في أوساطكم ومثله أقاموا بين ظهرانيهم و بين أظهرهم أي بينهم على سبيل الاستظهار والاستناد اليهم . (مجمع البحرين)

(٤) التنين ـ كسكين ـ : حية عظيمة .

(٥) المصدر ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٧.

(٦) « محض الايمان » على صيغة الفعل أي أخلص الايمان ويحتمل أن يكون بصيغة المصدر أي لا يسأل الا من الايمان والكفر ولعل الاول أظهر ؛ و الخبر في الكافي ج ٣ ص ٢٣٥ تحت رقم ١ .

«يا عمر كيف بك إذا أنت متّ فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع و شبر ثمّ رجعوا إليك فغسّلوك و كفّنوك وحنّطوك ، ثمّ احتملوك حتّى يضعوك فيه ثمّ يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر منكر ونكير، أصواتهما كالرّعد القاصف و أبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما و يبحثان التراب بأنيابهما فتلتلاك وترتراك[1] كيف بك عند ذلك يا عمر؟ فقال : ويكون معي مثل عقلي الآن ؟ قال : نعم . قال : إذاً أكفيكهما [2] » و هذا نصّ صريح في أنّ العقل لايتغيّر بالموت إنّما يتغيّر البدن و الأعضاء فيكون الميّت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام و اللّذّات كما كان في حياته لا يتغيّر من عقله شيء ، و ليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولاعرض بل الّذي لاينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء ، و لو تناثرت أعضاء الإنسان كلّها و لم يبق إلّا الجزء المدرك الّذي لايتجزّء و لا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائماً باقياً و هو كذلك بعد الموت فإنّ ذلك الجزء لا يحلّه الموت و لايطرء عليه العدم .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد أخباراً في ضغطة القبر واكتناف الأعمال الصّالحة بالمؤمن في قبره و إعانتها له ونسبهما إلى من لايوثق بروايته و نحن نطوي ماذكره و نرويهما من طريق الخاصّة .

ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « يسئل و هو مضغوط [3] » .

و سئل عليه السلام « أيفلت [4] من ضغطة القبر أحد؟ قال : نعوذ بالله منها ما أقلّ من يفلت من ضغطة القبر إنّ رقيّة لمّا قتلها عثمان وقف رسول الله صلى الله عليه وآله على قبرها فرفع رأسه إلى السماء فدمعت عيناه و قال للنّاس : إنّي ذكرت هذه و ما لقيت فرقّقت لها فاستوهبتها من ضمّة القبر قال : فقال : اللّهمّ هب لي رقيّة من ضمّة

(١) التلتلة والترترة: التحريك .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات (المغنى) .

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٥ .

(٤) من الافلات أى يخلص .

القبر فوهبها الله له ، قال : و إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في جنازة سعد و قدشيّعه سبعون ألف ملك فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله رأسه إلى السّماء ، ثمّ قال : مثل سعديضمّ قال الرّاوي قلت : جعلت فداك إنّا نحدّث أنّه كان يستخفّ بالبول فقال معاذالله إنّما كان من زعارة (١) في خلقه على أهله (٢) » .

و روى عمر بن يزيدقال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : «إنّي سمعتك وأنت تقول كلّ شيعتنافي الجنّة على ما كان فيهم ؟ قال : صدقتك كلّهم والله في الجنّة ، قال : قلت : جعلت فداك إنّ الذّنوب كثيرة كبار ؟ فقال أمّا في القيامة فكلّكم في الجنّة بشفاعة النبيّ المطاع أووصيّ النبيّ ولكنّي والله أتخوّف عليكم في البرزخ ، قلت: و ما البرزخ ؟ قال : القبر منذحين موته إلى يوم القيامة (٣) » .

و عن الباقر عليه السلام « إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه و الزكاة عن يساره و البرّ يظلّ عليه ويتنحّى الصّبر ناحية و إذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مسائلته قال الصبر للصلاه و الزكاة : دونكما صاحبكما فإن عجزتما عنه فأنا دونه (٤) » .

✿ (الباب الثامن) ✿

(فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

إعلم أنّ أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله و سنّة رسوله و من مناهج الاعتبار تعرّفنا أحوال الموتى على الجملة و انقسامهم إلى سعداء و أشقياء و لكن حال زيد و عمرو بعينه فلا ينكشف به أصلاً فإنّا إن عوّلنا على إيمان زيد و عمرو فلاندري على ماذا مات و كيف ختم له ، و إن عوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محلّه القلب و هو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره

(١) الزعارة- بتشديد الراء وتخفيفها- شراسة الخلق. والرجل شرس أى سيىء الخلق.

(٢) الكافى ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٦ .

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٤٢ تحت رقم ٣.

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٠ تحت رقم ١٣ ، رواه عن الصادق عليه السلام .

فلا حكم لظاهر الصّلاح دون التقوى الباطن ، قال الله تعالى : « إنّما يتقبّل الله من المتّقين [١] » فلا يمكن معرفة حكم زيد و عمرو إلّا بمشاهدته و مشاهدة ما يجري عليه ، و إذا مات فقد تحوّل من عالم الملك و الشهادة إلى عالم الغيب و الملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة و إنّما يرى بعين اُخرى خلقت تلك العين في قلب كلّ إنسان و لكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته و أشغاله الدّنياويّة فصار لايبصر بها ولايتصوّر أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه ولمّا كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلاجرم نظروا إلى عالم الملكوت و شاهدوا عجائبه و الموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم و أخبروا عنهم ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضغطة القبر في حقّ سعد بن معاذ و في حقّ زينب ابنته [٢] وكذلك حال أبي جابر لمّا استشهد إذ أخبر أنّ الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر و مثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء و الأولياء الّذين تقرب درجتهم منهم و إنّما الممكن من أمثالنا مشاهدة اخرى ضعيفة إلّا أنّها أيضاً مشاهدة نبويّة و أعني بها المشاهدة في المنام و هو أنوار النبوّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الرّؤيا الصالحة جزء من ستّة و أربعين جزءاً من النبوّة [٣] » و هو أيضاً انكشاف لا يحصل إلّا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلّا برؤيا الرّجل الصّالح الصادق و من كثر كذبه لم تصدق رؤياه و من كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام و لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً و هو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل و طهارة الظاهر بمنزلة التتمّة و التكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكّة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم حتّى نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ [٤] » و قلّ ما يخلو الانسان عن منامات دلّت على

(١) المائدة : ٣٠ . (٢) كذا .

(٣) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٥٤ وابن ماجه تحت رقم ٣٨٩٥ .

(٤) الفتح : ٢٧ .

اُمور فوجدها صحيحة ، و الرّؤيا و معرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى و بدائع فطرة الآدمي و هو من أوضح الأدلّة على عالم الملكوت و الخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب و عجائب العالم الملكوتي و القول في حقيقة الرّؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة و لكن القدر الّذي يمكن ذكره ههنا مثالٌ يفهمك المقصود ، و هو أن تعلم أنّ القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور و حقايق الاُمور وأنّ كلّ ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور و مثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبّر عنه تارة باللّوح و تارة بالكتاب المبين و تارة بإمام مبين كما ورد في القرآن فجميع ماجري في العالم و ما سيجري مكتوب فيه و منقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين ، و لا تظنّنّ أنّ ذلك اللّوح من خشب أو حديد أو عظم و أنّ الكتاب من كاغذ أو ورق بل ينبغي أن تفهم قطعاً أنّ لوح الله لا يشبه لوح الخلق و كتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أنّ ذاته و صفاته لا تشبه ذات الخلق و صفاتهم ، بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك، فاعلم أنّ ثبوت المقادير في اللّوح المحفوظ يضاهي ثبوت كلمات القرآن و حروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فإنّه مسطور فيه حتّى كأنّه حيث يقرأ ينظر إليه و لو فتّشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخطّ حرفاً و إن كان ليس هناك خطّ يشاهد ولا حرف ينظر ، فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللّوح منقوشاً بجميع ماقدّره الله تعالى و قضاه . و اللّوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصّور فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة اُخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلّا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلوم و اللّوح مرآة رسوم العلوم كلّها و العلوم كلّها موجودة فيه و اشتغال القلب بشهواته و مقتضى حواسّه حجاب مرسل بينه و بين مطالعة اللّوح الّذي هو من عالم الملكوت فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب و رفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، و قد يثبت و يدوم و قد لايدوم و هو الغالب و مادام متيقّظا فهو مشغول بما تورده الحواسّ عليه من عالم الملك

والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، و معنى النوم أن تركد الحواسّ عليه فلا تورد على القلب فإذا تخلّص منه ومن الخيال وكان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه و بين اللّوح المحفوظ فوقع في قلبه شيء ممّا في اللّوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أُخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلّا أنّ النّوم مانع لسائر الحواسّ عن العمل و ليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحرّكه فما يقع في القلب يتبدّره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا انتبه لم يتذكّر إلّا الخيال فيحتاج المعبّر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة الّتي بين المتخيّل و المعاني ، و أمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير ويكفيك في ذلك مثال واحد وهو أنّ رجلاً قال لابن سيرين : رأيت كأنّ بيدي خاتماً أختم به أفواه الرّجال و فروج النساء ؟ فقال : أنت مؤذّن تؤذّن قبل الصّبح في رمضان فقال : صدقت ، فانظر أنّ روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم و إنّما ينكشف للقلب حال الشخص من اللّوح المحفوظ كما هو عليه و هو كونه مانعاً للناس من الأكل و الشرب و لكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثّله بالصّورة الخياليّة الّتي تتضمّن روح المعنى و لا يبقى في الحفظ إلّا الصورة الخياليّة . فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الّتي لا تنحصر عجائبه و كيف لا و هو أخو الموت ، و إنّما الموت هو عجب من العجائب و هذا لأنّه يشبهه من وجه ضعيف في أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتّى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الّذي يخرق الحجاب و يكشف الغطاء بالكلّيّة حتّى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إمّا محفوفة بالأنكال و المخازي و الفضائح ـ نعوذ بالله من ذلك ـ و إمّا محفوفة بنعيم مقيم و ملك كبير لا آخر له ، و عند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد [1] » و يقال : « أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنّما تجزون ما كنتم تعملون [2] »

(١) ق : ٢٢ . (٢) الطور : ١٥ و ١٦ .

و إليهم الإشارة بقوله تعالى: «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون[1]».

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قطّ بباله و لا اختلج بضميره، فلو لم يكن للعاقل همّ ولا غمّ إلّا الفكرة في خطر تلك الحال أنّ الحجاب عمّا ذا يرتفع و ماذا الّذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أو سعادة دائمة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر، و العجب من غفلتنا و هذه العظائم بين أيدينا، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا و بأسبابنا و ذرّيّاتنا بل بأعضائنا و سمعنا و بصرنا مع أنّا نعلم مفارقة جميع ذلك يقيناً ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول له ما قال لسيّد النبيّين «أحبب ما أحببت فإنّك مفارقه، و عش ما شئت فإنّك ميّت، واعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به[2]».

فلاجرم لمّا كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدّنيا كعابر سبيل، لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولم يخلّف ديناراً و لا درهماً، و قد قال لاُمّته: «إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله[3]» وإنّما اُمّته من اتّبعه وما اتّبعه إلّا من أعرض عن الدّنيا وأقبل على الآخرة فإنّه مادعا إلّا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلّا عن الدّنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عن الدّنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الّذي سلكه، وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتّبعته، وبقدر ما اتّبعه صرت من اُمّته، وبقدر ما أقبلت على الدّنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته، والتحقت بالّذين قال تعالى فيهم: «وأمّا من طغى و آثر الحيوة الدّنيا فإنّ الجحيم هي المأوى[4]» فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل - و كلّنا ذلك الرّجل - لعلمت أنّك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلّا في الحظوظ العاجلة و لا تتحرّك و لا تسكن إلّا لعاجل الدّنيا ثمّ تطمع في أن تكون غداً من اُمّته و أتباعه، ما أبعد ظنّك و ما أبرد طمعك «أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون» و لنرجع إلى ما كنّا فيه و بصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده و لنذكر

(١) الزمر: ٤٧. (٢) تقدم غير مرة و رواه الصدوق في الفقيه.
(٣) آل عمران: ٣١. (٤) النازعات. ٣٧ و ٣٨ و ٣٩

الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى مايعظم الانتفاع به إذذهبت النبوّة وبقيت المبشّرات و ليس ذلك إلّا المنامات .

✿(بيان منامات تكشف عن احوال الموتى و الاعمال النافعة)✿ ✿(فى الاخرة)✿

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد قال عليه السلام : «من رآني في المنام فقد رآني حقّاً ، فإنّ الشيطان لايتمثّل بي [(١)] » .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد جملة من منامات الناس للموتى منها ما تضمّن بيان أحوالهم في الآخرة أوبيان ما ينتفع بهمن الأعمال فيها ، ومنها ما لم يتضمّن شيئاً منهما بل هو مجرّد قصّة مناميّة أمّا الثاني فلامدخل له فيما هو بصدده أصلاً و أمّا الأوّل فلا وثوق بشيء منه لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إنّما قال : « الرّؤيا الصّالحة جزء من ستّة و أربعين جزءاً من النبوّة [(٢)] » و ليس كلّ رؤيا صالحة فإنّ الرؤيا إنّما تكون بحسب حال الرّائي في اعتقاده و قدر معرفته بما يراه و بحسب خلقه و عمله و غذائه و بقدر صدقه و طهارته ظاهراً و باطناً ، فربما يكون المرائي معتقداً خلاف الحقّ في الله سبحانه أو في شيء من صفاته أو في رسوله أو في أمامه الّذي يجب عليه اتّباعه ، أو يكون صاحب بدعة في الدّين ، أو يكون ممّن يكثر كذبه و فساده و معاصيه و أكله للحرام و غير ذلك ممّا يوجب ظلمة قلبه ، فكان ما يراه أضغاث أحلام كما مرّ في كلام أبي حامد أنّه لاوثوق بمنام من هذا حاله أو كان اعتقاده فيمن يراه في المنام على خلاف ما هو به فيراه بحسب ما يوافق اعتقاده فيه وهذا ممّا يقع كثيراً فلا وثوق بالرّؤيا إلاّ إذا عرف براءة من رآها من جميع ذلك وقد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم « كما تعيشون تنامون و كما تستيقظون تبعثون [(٣)] » ثمّ من نسب أبو حامد إليه الرّؤيا ممّا يناسب ما هو بصدده بين منافق من الصحابة و موال له و لأمثاله و رجال يعرفون بالبدع و الاعتقادات الفاسدة في الدّين و من لايعرف

(١) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٥٤ . (٢) تقدم آنفاً .

(٣) قاله صلى الله عليه وآله في يوم الانذار . وفى اعتقادات صدوق ص ٨٥ نحوه .

حاله و عقيدته و من كان يعتقده فيمن يراه في المنام خلاف ما هو به فلا فائدة في إيراد شيء من ذلك فلنطوها طيّاً، ثمّ ما ذكره من حديث النبيّ ﷺ لتمهيد ما أورده من قوله عليه السلام: «من رآني في المنام فقد رآني» فليس معناه أنّه من رأى صورة إنسان في منامه فوقع في وهمه أو قيل له: إنّه النبيّ ﷺ فقد رأى النبيّ أيّ صورة كانت بل معناه أنّه من رآه بصورته الّتي كان عليها في الدّنيا بحليته المباركة فقد رآه فإنّ الشيطان لا يتمثّل بتلك الهيئة و الحلية فرؤيته ﷺ في المنام إنّما تصحّ لمن رآه في حياته وعرفه بحليته الّتي كان عليها، ثمّ رآه في المنام بتلك الحلية بعينها دون من لم يره و إنّما سمع به، لجواز أن يتمثّل الشيطان بصورة غير صورته ثمّ أوقع في وهم هذا الرّائي أنّه هو، و هذا واضح بحمد الله.

الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميّت من وقت نفخة الصّور إلى آخر الاستقرار في الجنّة أو النار و تفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار و فيه بيان نفخة الصور، وصفة أرض المحشر وأهله، وصفة عرق أهل المحشر، وصفة طول يوم القيامة، و صفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها، وصفة المسائلة عن الذّنوب و صفة الميزان، و صفة الخصماء و ردّ المظالم، و صفة الصّراط، و صفة الشفاعة، و صفة الحوض، و صفة جهنّم و أهوالها و أنكالها، و حيّاتها و عقاربها، و صفة الجنّة، و أصناف نعيمها، و عدد الجنان و أبوابها و غرفها و حيطانها، و أنهارها و أشجارها، ولباس أهلها وفرشهم و سررهم، و صفة طعامهم و شرابهم، و صفة حور العين و الولدان. وباب في سعة رحمة الله به نختم الكتاب إن شاء الله.

✿(صفة نفخ الصور)✿

قد عرفت فيما سبق شدّة أحوال الميّت في سكرات الموت و خطر خوف العاقبة ثمّ مقاساته لظلمة القبر وديدانه ثمّ لمنكر ونكير و سؤالهما ثمّ لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه، و أعظم من ذلك كلّه الأخطار الّتي بين يديه من نفخ الصور و البعث يوم النشور و العرض على الجبّار و السؤال عن القليل و الكثير و النقير و القطمير و نصب الميزان لمعرفة المقادير، ثمّ مجاوزة الصّراط مع رقّته وحدّته، ثمّ

انتظار النداء عند فصل القضاء إمّا بالإسعاد و إمّا بالإشقاء فهذه أحوال و أهوال لابدَّ لك من معرفتها ، ثمَّ الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثمَّ تطويل الفكر فيها لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها و أكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكّن من سويداء أفئدتهم ويدلُّ على ذلك شدَّة تشمّرهم واستعدادهم لحرِّ الصيف وبرد الشتاء و تهاونهم بحرِّ جهنّم و زمهريرها مع ما يكتنفه من المصاعب و الأهوال ، نعم إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثمَّ غفلت عنه قلوبهم و من أخبر بأنَّ ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الّذي أخبره : صدقت ثمَّ مدَّ يده إليه ليتناوله كان مصدقاً بلسانه ومكذِّباً بعمله و تكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللّسان و قد قال النبيُّ صلى الله عليه وآله قال الله تعالى : « شتمني ابن آدم و ما ينبغي له أن يشتمني ، و كذَّبني وما ينبغي له أن يكذِّبني ، أمّا شتمه إيّاي فيقول : إنَّ لي ولداً ، و أمّا تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني[1] » و إنّما فتور البواطن عن قوَّة اليقين و التصديق بالبعث و النشور لقلّة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ، و لو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات و قيل له : إنَّ صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصوّر العاقل المتكلّم المتصرِّف لاشتدَّ نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى : « أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبين[2] ». و قال تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ✿ ألم يك نطفة من منيّ يمنى[3] » ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه و إعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله و حكمته من يشاهد ذلك في صنعه و قدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقوِّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإنَّ الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قويَّ الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار و أكثر فيها التفكّر والاعتبار ليتسلّب عن قلبك الرّاحة والقرار فتشتغل بالتشمّر للعرض على الجبّار ، وتفكّر أوَّلاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدَّة نفخ الصور

(١) أخرجه البخاري ج ٤ ص ١٢٩ من حديث أبي هريرة .

(٢) يس : ٧٧ . (٣) القيامة : ٣٦ و ٣٧ .

فإنّما صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهّم نفسك و قد وثبت متغيّراً وجهك مغبرّاً بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتاً من شدّة الصعقة شاخص العينين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور الّتي طال فيها بلاهم و قد أعجمهم الفزع والرّعب مضافاً إلى ما كان عليهم من الغموم و الهموم و شدّة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال الله تعالى : « و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الأرض إلاّ من شاء الله ثمّ نفخ فيه اُخرى فإذا هم قيام ينظرون[1] » و قال : «فإذا نفخ في الصّور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون[2] » و قال تعالى : « فإذا نقر في النّاقور ✿ فذلك يومئذ يوم عسير [3] » و قال تعالى : « و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ✿ ما ينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم و هم يخصّمون ✿ فلا يستطيعون توصية و لا إلى أهلهم يرجعون ✿ و نفخ في الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون ✿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرّحمن و صدق المرسلون [4] » فلو لم يكن بين يدي الموتى إلّا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتّقى فإنّها نفخة و صيحة يصعق بها من في السموات و الأرض يعني يموتون بها إلّا من شاء الله، و هو بعض الملائكة ، و لذلك قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم ، و صاحب الصّور قد التقم القرن و حنى الجبهة وأصغى بالاُذن ينتظر متى يؤمر فينفخ [5] » قال مقاتل : الصور هو القرن و ذلك أنّ إسرافيل ، و أضعفاه على القرن كهيئة البوق ، و دائرة رأس القرن كعرض السماوات والأرض وهو شاخص ببصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر أن ينفخ النفخة الاُولى « فإذا نفخ صعق من في السّموات والأرض » أي مات كلّ حيوان من شدّة الفزع إلاّ من شاء الله وهم جبرئيل و ميكائيل وإسرافيل و ملك الموت ، ثمّ يأمر ملك

(١) الزمر : ٦٨ . (٢) المؤمنون : ١٠٢ .
(٣) المدثر : ٨ و ٩ . (٤) يس : ٤٨ - الى- ٥٣ .
(٥) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٦١ بأدنى اختلاف ورواه أحمد والطبرانى واللفظ له و رجاله وثقوا على ضعف فيهم . كمافى المجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٠ .

الموت أن يقبض روح جبرئيل ، ثمّ روح ميكائيل ، ثمّ روح إسرافيل ثمّ يأمر ملك الموت فيموت ، ثمّ يلبث الخلق بعد النفخة الاُولى في البرزخ أربعين سنة ثمّ يحيي الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله : « ثمّ نفخ فيه اُخرى فإذا هم قيام ينظرون » أي قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث و قال رسول الله ﷺ « حين نعت أمر صاحب الصور [1]: فأهوى به إلى فيه و قدَّم رجلاً و أخّر اُخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتّقوا النفخة [1] » فتفكّر في الخلائق و ذلّهم و انكسارهم و استكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذه النفخة و انتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحيّر كتحيّرهم بل إن كنت في الدُّنيا من المترفين و الاغنياء المتنعّمين فملوك الأرض في ذلك اليوم هم أذلُّ أهل الجمع و أصغرهم و أحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذَّرّ و عند ذلك يقبل الوحوش من البراري و الجبال منكّسة رؤوسها ، مختلطة بالخلائق بعد توحّشها ، ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنّست بها ولكن حيّرتهم شدَّة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق و التوحّش منهم و ذلك قوله تعالى : « و إذا الوحوش حشرت [2] » ثمّ أقبلت الشياطين المردة بعد تمرُّدها و عتوِّها و أذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى : « فوربّك لنحشرنّهم والشياطين ثمّ لنحضرنّهم حول جهنّم جثيّاً [3] » فتفكّر في حالك و حال قلبك هنالك .

---

(١) في أكثر نسخ الاحياء هكذا « قال صلى الله عليه وآله : حين بعثت بعث الى صاحب الصور فأهوى الخ » و قال العراقي : لم أجده هكذا بل قد ورد أن اسرافيل من حين ابتداء الخلق ، وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ ، و أبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة « ان الله لما فرغ من خلق السماوات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره الى العرش منذ و كل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد اليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان » واسناده جيد .

(٢) التكوير : ٦ .

(٣) مريم : ٦٨ .

﴿ صفة ارض المحشر وأهله ﴾

ثمّ انظر كيف يساقون بعدالبعث والنشور حفاة عراة إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لاترى فيها عوجاً و لاأمتاً و لاترى عليها ربوة [١] يختفي الإنسان وراءها ، ولاوهدة [٢] ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لاتفاوت فيه يساقون إليه زمراً ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالرّاجفة تتبعها الرّادفة ، والرّاجفة هي النفخة الاُولى ، و الرّادفة هي الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة [٣] ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص نقيّ ليس فيها مَعلم لأحد [٤] » قال الرّاوي : العفرة بياض ليس بالناصع ، و النقيّ هو النقيّ عن القشر و النخالة ، و لا مَعلم أي لا بناء يستر و لاتفاوت يردّ البصر و لاتظننّ أن تلك الأرض مثل أرض الدّنيا بل لا تساويها إلّا في الاسم ، قال الله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض و السموات [٥] » قال ابن عباس : يزاد فيها و ينقص وتذهب أشجارها و جبالها و أوديتها و مافيها و تمدّ مدّ الأديم العكاظي [٦] » أرض بيضاء مثل الفضّة ، لم يسفك عليها دمٌ ، و لم يعمل عليها خطيئة فالسماوات تذهب بشمسها و قمرها و نجومها ، فانظر يا مسكين في هول القيامة و شدّته فإنّه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس القمر و الشمس وأظلمت الأرض لخمود سراجها فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق

---

(١) القاع : أرض سهلة مطمئنة . والصفصف : المستوى من الارض . و « لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا » أي لاترى فيها انخفاضاً ولاارتفاعاً . والربوة : المرتفع من الارض .

(٢) الوهدة - كالوردة - : المكان المطمئن .

(٣) الواجفة : المضطربة .

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٢٧ . والبخارى ج ٨ ص ١٣٥ .

(٥) ابراهيم : ٤٨ .

(٦) عكاظ اسم سوق للعرب بناحية مكة كانوا يجتمعون بها فى كل سنة فيقيمون شهراً ويتبايعون ويتناشدون الاشعار و يتفاخرون ، و أديم عكاظى منسوب اليها .

رؤوسهم و انشقّت مع غلظها و شدّتها خمسمائة عام و الملائكة قيام على حافّاتها و أرجائها (١) فياهول صوت انشقاقها في سمعك ، و يا هيبة ليوم تنشقّ فيه السماء مع صلابتها وشدّتها ثمّ تنهار وتسيل كالفضّة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدّهان (٢) و صارت السّماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن (٣) و اشتبك النّاس كالفراش المبثوث و هم عراة حفاة مشاة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يبعث الناس حفاة عراة غُرلاً (٤) قد ألجمهم العرق و بلغ شحوم الآذان قالت سودة بنت زمعة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راوية الحديث قلت : يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ قال : قدشغل الناس عن ذلك ، لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه (٥) » .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده عن سيّد العابدين عليه السلام أنّه قال : « حدّثني أبي أنّه سمع أباه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يحدّث الناس قال : إذا كان يوم القيامة بعث الله تعالى الناس من حفرهم عزلاً بُهماً جرداً مرداً في صعيد واحد ، يسوقهم النور و تجمعهم الظلمة (٦) حتّى يقفوا على عقبة المحشر فيركب

(١) حافتا النهر : جانباه والارجاء الاطراف .

(٢) قوله «وردة» أى مثلها محمرة كالدهان أى كالاديم الاحمر على خلاف العهد بها.

(٣) العهن : الصوف المصبوغ .

(٤) في النهاية الغرل - بالغين المعجمة والراء المهملة - جمع الاغرل وهو الاغلف . و سيأتى عنقريب عن الكافى بالعين المهملة والزاى المعجمة كماضبطه جميع شراح الكافى.

(٥) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة كمافى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٣ .

(٦) عزلا : لا سلاح لهم - بضم العين وسكون الزاى - جمع اعزل و كذلك اخواته ، « بهما » أى ليس معهم شىء و قيل : يعنى أصحاء لا آفة بهم ولا عاهة وليس بشىء ، « جرداً » لاثياب لهم ، « مرداً » ليس لهم لحية و هذه كلها كناية عن تجردهم عمايباينهم و يغطيهم ويخفى حقائقهم مماكان معهم فى الدنيا ، « يسوقهم النور » أى نور الايمان والشرع فانه سبب ترقيهم طوراً بعد طور . وفى بعض النسخ [بالنار] أى نار التكاليف فان التكليف بالنسبة الى بعض المكلفين نار وبالاضافة الى آخرين نور ، « يجمعهم الظلمة » أى مايمنعهم ←

بعضهم بعضاً و يزدحمون دونها فيمنعون من المضيّ فتشتدّ أنفاسهم و يكثر عرقهم و تضيق لهم اُمورهم و تشتدّ ضجيجهم (١) و ترتفع أصواتهم قال: و هو أوّل هول من أهوال يوم القيامة. قال: فيشرف الجبّار تعالى عليهم من فوق عرشة في ظلال من الملائكة (٢) فيأمر ملكاً من الملائكة فينادي فيهم يامعشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبّار قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك و تخشع أبصارهم و تضطرب فرائصهم (٣) و تفزع قلوبهم وترفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الدّاع (٤) قال: فعندذلك يقول الكافر: «هذا يوم عسر (٥)» قال: فيشرف الجبّار تعالى ذكره الحكم العدل عليهم فيقول: أنا الله لا إله إلّا أنا الحكم العدل الّذي لايجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي و قسطي لايظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من القويّ بحقّه و لصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات و السيّئات و اُثيب على الهبات (٦) و لايجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم و لأحد عنده مظلمة إلّا مظلمة يهبها صاحبها و اُثيبه عليها وآخذ له بها عند الحساب، و تلازموا أيّها الخلايق واطلبوا مظالمكم عند من ظلمكم بها في الدّنيا وأنا شاهد لكم عليهم و كفى بي شهيداً.

قال: فيتعارفون ويتلازمون فلايبقى أحدٌ له عند أحد مظلمة أوحقّ إلّالزمه

← من تمام النور والايقان فانه سبب تباينهم الموجب لكثرتهم التى يتفرع عليها الجمعية و يحتمل أن يكون المراد «كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا» والمعنيان متقاربان. و هذا كلام المؤلف - رحمه الله - فى الوافى.

(١) أى صياحهم و أصواتهم.

(٢) يمكن أن يكون اشراف الله تعالى كناية عن توجهه الى محاسبتهم فالاشراف فى حقه مجاز وفى الملائكة حقيقة.

(٣) أى أوداج أعناقهم، قال الفيروزآبادى: الفريص: أوداج العنق و الفريصة واحدته واللحمة بين الجنب والكتف التى لا تزال ترعد.

(٤) أى يمدون أعناقهم لسماع صوته. مهطعين أى مسرعين. واهطع ؟ اذا مدعنقه.

(٥) القمر: ٨. (٦) أى هبات المظالم وابراء الذمم.

بها قال : فيمكثون ماشاء الله فيشتدّ حالهم و يكثر عرقهم (١) و يشتدّ غمّهم وترتفع أصواتهم بضجيج شديد فيتمنّون المخلص منه بترك مظالمهم لأهلها ، قال : ويطّلع الله على جهدهم (٢) فينادي مناد من عند الله تعالى يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم يا معشر الخلائق أنصتوا لداعي الله تعالى و اسمعوا أنّ الله تعالى يقول : أنا الوهّاب إن أحببتم أن تواهبوا فتواهبوا و إن لم تواهبوا أخذت لكم بمظالمكم ، قال : فيفرحون بذلك لشدّة جهدهم و ضيق مسلكهم و تزاحمهم ، قال : فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلّصوا ممّا هم فيه ويبقى بعضهم فيقول : ياربِّ مظالمنا أعظم من أن نهبها قال : فينادي مناد من تلقاء العرش أين رضوان خازن الجنان جنان الفردوس قال : فيأمره الله أن يطلع (٣) من الفردوس قصراً من فضّة بما فيه من الأبنية و الخدم ، قال : فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصائف والخدم(٤) قال : فينادي مناد من عند الله تعالى يامعشر الخلائق ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر ، قال : فيرفعون رؤوسهم و كلّهم يتمنّاه ، قال : فينادي مناد من عند الله تعالى يا معشر الخلائق هذا لكلّ من عفا عن مؤمن ، قال : فيعفون كلّهم إلّا القليل ، قال : فيقول الله تعالى : لايجوز إلى جنّتي اليوم ظالم و لا يجوز إلى ناري اليوم ظالم و لأحد من المسلمين عنده مظلمة حتّى يأخذها منه عند الحساب أيّها الخلائق استعدّوا للحساب ، قال : ثمّ يخلّى ، سبيلهم فينطلقون إلى العقبة يكرد بعضهم بعضاً(٥) حتّى ينتهوا إلى العرصة و الجبّار تعالى

(١) لما رأوا من شغل ذممهم بالمظالم وترددهم فى ابراء خصمائهم من مظالمهم أو أخذهم بها لجهلهم .

(٢) يعني انهم يطلعون و قتئذ على اطلاع الله على مشقتهم والا فان الله سبحانه لم يزل مطلعاً على السرائر والعلن .

(٣) من باب الافعال أى يظهره لهم .

(٤) «حفافة القصر» أى جوانبه . والوصائف والخدم من باب عطف أحد المترادفين على الاخر والخدم أعم من الاناث .

(٥) الكرد : الطرد والدفع .

على العرش [١] قد نشرت الدّواوين و نصبت الموازين وأُحضر النبيّون و الشهداء و هم الأئمّة يشهد كلّ إمام على أهل عالمه بأنّه قد قام فيهم بأمر الله تعالى ودعاهم إلى سبيل الله قال(الرّاوي) فقال : لهرجل من قريش ياابن رسول الله إذا كان للرّجل المؤمن عند الرّجل الكافر مظلمة أيّ شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار قال : فقال له عليّ بن الحسين عليهما السلام : يطرح عن المسلم من سيّئاته بقدر ماله على الكافر فيعذّب الكافر بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله من مظلمة ، قال : فقال له القرشيّ فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلم كيف تؤخذ مظلمته من المسلم ؟ قال : يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حقّ المظلوم فتزاد على حسنات المظلوم ، قال : فقال له القرشيّ : فإن لم يكن للظالم حسنات ، قال : إن لم يكن للظالم حسنات فإن كان للمظلوم سيّئات يؤخذ من سيّئات المظلوم فتزاد على سيّئات الظالم » [٢].

قال أبوحامد : فأعظم بيوم يكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك من النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم و وجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبوهريرة : قال صلّى الله عليه وآله : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً و مشاة و على وجوههم ، فقال رجل : يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : الّذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » [٣] وفي طبع الآدميّ إنكار كلّ مالم يأنس به فلو لم يشاهد الإنسان الحيّة و هي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوّر المشي على غير رجل ، والمشي بالرّجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإيّاك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدّنيا فإنّك لولم تكن قدشاهدت عجائب الدّنيا ثمّ عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكاراً لها ، فاحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيّراً مبهوتاً منتظراً لمايجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء و أعظم بهذه الحالة فإنّها عظيمة .

---

(١) أى مستولى على العرش يأتى أمره من قبل العرش .

(٢) الكافى ج ٨ ص ١٠٤ . (٣) رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ٢٠٧ .

(صفة العرق)

ثمّ تفكّر في ازدحام الخلائق و اجتماعهم حين ازدحهم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجنّ وإنس و شيطان ووحش و سبع و طير وقدأشرقت عليهم الشمس وقدتضاعف حرّها[1] وتبدّلت عمّا كانت عليه من خفّة أمرها ، ثمّ أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الأرض ظلّ إلّاظلّ عرش ربّ العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلّاالمقرّبون ، فمن بين مستظلّ بالعرش وبين مضحى لحرّ شمس قدصهرته بحرّها واشتدّ كربه وغمّه من وهجها ثمّ تدافعت الخلائق يدفع بعضها بعضاً لشدّة الزّحام واختلاف الأقدام و انضاف إليه من شدّة الخجلة من الافتضاح والاختزاء عندالعرض على جبّارالسماء فاجتمع وهج الشمس و حرّها وحرّ الأنفاس واحتراق القلوب بنارالحياء والخوف ففاض العرق من أصل كلّ شعرة حتّى سال على صعيد القيامة ، ثمّ ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عندالله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه و بعضهم إلى حقويه وبعضهم إلى شحمة اُذنيه و بعضهم كاديغيب فيه قال ابن عمر: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين حتّى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف اُذنيه »[2].

و قال أبو هريرة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « يعرق الناس يوم القيامة حتّى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً و يلجمهم و يبلغ آذانهم » كذا رواها البخاري و مسلم في الصحيح [3] وفي حديث آخر «قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السّماء

---

(١) هذا لا يلائم قوله تعالى : « اذا الشمس كورت » و قوله تعالى : « و خسف القمر و جمع الشمس والقمر » و قول أبي حامد آنفاً « وطمس القمر والشمس وأظلمت الارض لخمودسراجها .. الخ » نعم ورد في الروايات أن القيامة حرها شديد لكن أحكام القيامة وشرائطها غير شرائط الدنيا ولايقاس حرارة الآخرة ونورها بنورالدنيا وحرارتها و من قاسهما فمن قلة فهمه و عدم تدبره في آيات الله .

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٨ ومسلم ج ٨ ص ١٥٧ وأحمد ج ٢ ص ١٠٧.

(٣) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٣٨ وصحيح مسلم ج ٨ ص ١٥٨ و فيه زيادة .

فيلجمهم العرق من شدّة الكرب »(١) و قال عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ خاصرته ، ومنهم من يبلغ فاه ـ فأشار بيده فألجمها فاه ـ و منهم من يغطّيه عرقه ، وضرب بيده على رأسه هكذا » (٢) .

أقول: وقدمرّ من طريق الخاصّة «أنّه يكثر عرقهم » ويأتي أيضاً « أنّ العرق يلجمهم » .

قال أبوحامد : فتأمّل يا مسكين في عرق أهل المحشر و شدّة كربهم و أنّ فيهم من ينادي و يقول : ربّ أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار فكلّ ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً فإنّك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق ، و اعلم أنّ كلّ عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حجّ و جهاد و صيام و قيام و تردّد في قضاء حاجة مسلم و تحمّل مشقّة في أمر بمعروف ونهي عن منكر فيستخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة و يطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أنّ تعب العرق في تحمّل مصاعب الطاعات أهون أمراً و أقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة فإنّه يوم عظيم شديد طويل مدّته .

(صفة طول يوم القيمة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم متفطّرة قلوبهم ، لا يتكلّمون ولا ينظر في اُمورهم قال كعب و قتادة : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين » (٣) قالا : يقومون مقدار ثلاثمائة عام . و قال عبدالله بن عمر : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية ، ثمّ قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر

(١) أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود . و نحوه ابن أبى الدنيا و الطبرانى عنه أيضاً كما فى الترغيب ج ٤ ص ٣٩١ فى حديث طويل .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٤ ص ١٥٧ من حديث عقبة .

(٣) المطففين : ٦ .

إليكم » (١).

أقول: و من طريق الخاصّة ما روّيناه عن الصّادق عليه السلام في حديث له « فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإنّ للقيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة » ثمّ تلا « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٢).

و عنه عليه السلام « مثل الناس يوم القيامة إذا قاموا لربّ العالمين مثل السهم في القرب ليس له من الأرض إلّا موضع قدمه كالسهم في الكنانة لا يقدر أن يزول ههنا ولا ههنا » (٣).

قال أبوحامد : فتأمّل في طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه حتّى يخفّ عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر ، و اعلم أنّ من طال انتظاره في الدّنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنّه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصّة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا سئل عن طول ذلك اليوم ، فقال : « والّذي نفسي بيده إنّه ليخفّف على المؤمن حتّى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلّيها في الدّنيا » (٤)

فاجتهد أن تكون من اُولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك و الاستعداد بيديك فاعمل في أيّام قصار لأيّام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره و استحقر عمرك لابل عمر الدّنيا و هو سبعة آلاف سنة فإنّك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتتخلّص من يوم واحد مقداره خمسون ألف سنة لكان ربحك كثيراً و تعبك يسيراً .

✿(صفة يوم القيامة ودواهيه واساميه)✿

فاستعدّ يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه القريب

---

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٥٧٢ و قال : صحيح .

(٢) رواه المفيد في أماليه والشيخ في مجالسه ص ٢٢ من رواية حفص بن غياث عن الصادق عليه السلام . و روى مثله الكليني في الروضة ص ١٤٣ .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٨ ص ١٤٣ تحت رقم ١١٠ .

(٤) رواه أحمد و أبو يعلى واسناده حسن من حديث أبي سعيد الخدري كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٧ .

أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، و الكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزّواهر قد انكدرت ، و الشمس قد كوّرت و الجبال قد سيّرت و العشار قد عطّلت [1] و الوحوش قد حشرت ، و البحار قد سجّرت ، و النّفوس قد زوّجت ، و الجحيم قد سعّرت ، و الجنّة قد اُزلفت ، و الجبال قد نسفت ، و الأرض قد مدّت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها و أخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر النّاس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، و انشقّت السّماء فهي يومئذ واهية و الملك على أرجائها ، و يحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير فيه الجبال و ترى الأرض هامدة ، يوم ترجّ فيه الأرض رجّاً ، و تبسّ الجبال بسّاً فكانت هباءً منبثّاً ، يوم يكون النّاس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كلّ مرضعة عمّا أرضعت ، و تضع كلّ ذات حمل حملها ، وترى النّاس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدّل الأرض غير الأرض و السموات و برزوا لله الواحد القهّار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لاترى فيه عوجاً و لاأمتاً ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السّحاب ، يوم تنشقّ فيه السّماء فتكون وردة كالدّهان ، فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولاجان ، يوم يمنع العاصي فيه من الكلام و لا يسئل فيه أحدٌ عن الاحترام ، بل يؤخذ بالنواصي و الأقدام ، يوم تجد كلّ نفس ما علمت من خير محضراً و ما علمت من سوء تودّ لو أنّ بينها و بينه أمداً بعيداً ، يوم يعلم فيه كلّ نفس ما اُحضرت ويشهد ماقدّمت وأخّرت ، يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيّب ذكره سيّد المرسلين إذ قيل له : أراك قدشبت يارسول الله ، فقال : « شيّبتني سورة هود و الواقعة و المرسلات و عمّ يتساءلون و إذا الشمس كوّرت [2] » .

---

(١) العشار النوق اللاتى أتى على حملهن عشرة أشهر ، و عطلت أى فلا يكون من يحلبها .

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم و صححه و قد تقدم .

فيا أيّها القاري، الغافل إنّما حظّك من قراءتك أن تجمع القرآن وتحرّك به اللّسان و لو كنت متفكّراً فيما تقرأه لكنت جديراً بأن تنشقّ مرارتك بما شاب من هوله شعر سيّدالبشر ، و إذا قنعت بحركة اللّسانفقد حُرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه ، و قد وصف الله بعضدواهيها وأكثرمنأساميهاالتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود تكرير الأسامي و الألقاب ، بل الغرض تنبيه اُولى الألباب ، فتحت كلّ اسم من أسماء القيامة سرّ ، و في كلّ نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها و نحن الآن نجمع لك أساميها فهي يوم القيامة ، و يوم الحسرة ، و يوم الندامة ، و يوم المحاسبة ، و يوم المساءلة ، و يوم المسابقة ، و يوم المنافسة ، و يوم المناقشة ، و يوم الزّلزلة ، و يوم الدّمدمة ، و يوم الصاعقة ، و يوم الواقعة ، و يوم القارعة ، و يوم الرّاجفة ، و يوم الرّادفة ، و يوم الغاشية ، و يوم الداهية ، و يوم الآزفة ، و يوم الحاقّة ، ويوم الطّامّة ، ويوم الصّاخّة ، ويوم الطلاق ، و يوم الفراق ، ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب و يوم المآب ، و يوم العذاب ، و يوم الفرار ، و يوم القَرار ، و يوم اللّقاء ، و يوم البقاء ، و يوم القضاء ، و يوم الجزاء ، و يوم البلاء ، و يوم البكاء ، و يوم الحشر ، و يومالوعيد ، و يوم العرض ، و يوم الوزن ، و يوم الحقّ ، و يوم الحكم ، و يوم الفصل ، و يوم الجمع ، و يوم البعث ، و يوم الفتح ، و يوم الخزي ، و يوم عظيم ، ويوم عقيم ، و يوم عسير ، ويوم الدّين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ، ويوم المصير ، و يوم النفخة ، و يوم الصيحة ، و يوم الرّجفة ، و يوم الرّجّة ، و يوم الزجرة ، و يوم السكرة ، و يوم الفزع ، و يوم الجزع ، و يوم المنتهى ، و يوم المأوي ، ويوم الميقات ، و يوم المعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القلق ، ويوم العرق ، و يوم الافتقار ، و يوم الانكدار ، و يوم انتشار ، و يوم الانشقاق ، و يوم الوقوف ، و يوم الخروج ، ويوم الخلود ، و يوم الوعيد ، و يوم التغابن ، و يوم عبوس ، و يوم معلوم ، و يوم موعود ، و يوم مشهود ، و يوم لاريب فيه ، و يوم تبلى السرائر ، و يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، و يومتشخص فيه الأبصار ، ويوم لايغني مولى عنمولىشيئاً ،

و يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً ، و يوم يدعون إلى نار جهنّم دعّاً ، ويوم يسحبون في النّار على وجوههم ، و يوم تقلّب وجوههم في النّار ، و يوم لا يجزي والدٌ عن ولده شيئاً ، و يوم يفرّ المرء من أخيه ، و يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون ، و يوم لامردّ له من الله ، ويوم هم بارزون ، ويوم هم على النّار يفتنون ، و يوم لاينفع مال ولابنون ، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللّعنة ، و لهم سوء الدّار ، يوم تردّ فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر الضمائر ، وتكشف الأستار ، ويوم تخشع فيه الأبصار ، و تسكن الأصوات ، و يقلّ فيه الالتفات ، وتبرز الخفيّات ، وتظهر الخطيئات و الخبيثات ، يوم يساق العباد و معهم الاشهاد و يشيب الصغير و يسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين و نشرت الدّواوين و برّزت الجحيم وأغلى بالحميم و زفرت النّار و يئس الكفّار و سعّرت النيران و تغيّرت الألوان و خرس اللّسان و نطقت جوارح الإنسان ، فيا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم حيث أغلقت الأبواب و أرخيت الستور و استترت عن الخلائق بمقارفة الفجور فماذا تفعل و قد شهدت عليك جوارحك فالويل كلّ الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله تعالى إلينا سيّد المرسلين و ينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدّين ثمّ يعرّفنا غفلتنا ويقول : «اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث إلّا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم»[١] ثمّ يعرّفنا اقرب القيامة و يقول : « اقتربت الساعة وانشقّ القمر »[٢] و يقول : « إنّهم يرونه بعيداً و نراه قريباً»[٣] «و ما يدريك لعلّ الساعة تكون قريباً»[٤] ثمّ يكون أحسن أحوالنا أن نتّخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلانتدبّر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم و أساميه و لا نستعدّ للتخلّص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة فنحن هالكون إن لم يتداركنا الله بواسع الرّحمة .

✿(صفة المسائلة)✿

ثمّ تفكّر يا مسكين بعد هذه الأهوال فيما يتوجّه عليك من السّؤال شفاهاً من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينا أنت في كرب القيامة

(١) الروم : ١ . (٢) القمر : ٢ . (٣) المعارج : ٦ . (٤) الاحزاب : ٦٣.

وعرقها و شدّة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماوات بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أُمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبّار قال رسول الله ﷺ : « إنّ لله عزّ وجلّ ملكاً ما بين شفري عينيه مسيرة خمسمائة عام [1] » فما ظنّك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة اُرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدّة اليوم ، مستشعرين ممّا بدا من غضب الجبّار على عباده و عند نزولهم لايبقى نبيّ و لاصديق و لا صالح إلّا و يخرّون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين ، فهذا حال المقرّبين فما ظنّك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدّة الفزع فيقولون : للملائكة أفيكم ربّنا وذلك لعظم موكبهم و شدّة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون. فيهم فنادوا بأصواتهم منزّهين لمليكهم عمّا توهّمه أهل الأرض و قالوا : سبحان ربّنا ما هوفينا ولكنّه آت من بعد و عند ذلك تقوم الملائكة صفّاً محدقين بالخلائق من الجوانب ، و على جميعهم شعار الذّلّ و الخشوع و هيئة الخوف و المهابة لشدّة اليوم و عند ذلك يصدق الله تعالى قوله : « فلنسألنّ الّذين اُرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين ۞ فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنّا غائبين [2] » « فوربّك لنسألنّهم أجمعين ۞ عمّا كانوا يعملون [3] » فيبدأ بالأنبياء و ذلك قوله تعالى : «يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا اُجبتم قالوا لا علم لنا [4] » فيا لشدّة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدّة الهيبة إذ يقال لهم : ماذا أُجبتم ؟ و قد اُرسلتم إلى الخلائق و كانوا قد علموا ، فتدهش عقولهم فلايدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدّة الهيبة : «لاعلم لنا إنّك أنت علّام الغيوب » وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى فيدعى نوح فيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لاُمّته : هل بلّغكم؟ فيقولون : ماآتانا من نذير. ويؤتى

---

(١) قال العراقي : لم أره بهذا اللفظ .

(٢) الاعراف : ٥ و ٦ . (٣) الحجر : ٩٣ و ٩٤ .

(٤) المائدة : ١٠٩ .

بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له : « أأنت قلت للنّاس اتّخذوني و اُمّي إلهين من دون الله [1] » فيبقى متشحّطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم يقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ، ثمّ تقبل الملائكة فتنادون واحداً واحداً يا فلان بن فلانة هلمّ إلى موقف العرض و عند ذلك ترتعد الفرائص و تضطرب الجوارح و تبهت العقول ، و يتمنّى أقوام أن يذهب بهم إلى النّار و لاتعرض قبائح أعمالهم على الجبّار و لا يكشف سترهم على ملأ الخلائق ، وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش و أشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب ، و أيقن قلب كلّ عبد با قبال الجبّار لمسائلة العباد ، و ظنّ كلّ واحد أنّه المراد دون أحد سواه و أنّه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبّار سبحانه عندذلك : ياجبرئيل ائتني بالنّارفجاءهاجبرئيل و قال لها : يا جهنّم أجيبي خالقك ومليكك ، فيصادفها جبرئيل على تغيّظها و غضبها ، فلم تلبث بعد ندائه أن ثارت و فارت و زفرت إلى الخلائق و شهقت و سمع الخلائق تغيّظها و زفيرها و انتهضت خزنتها متوثّبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره ، فاخطر ببالك و أحضر في قلبك حالة قلوب العباد و قد امتلأت فزعاً و رعباً فتساقطوا جثيّاً على الرّكب و ولّوا مدبرين « يوم ترى كلّ أمّة جاثية » و سقط بعضهم على الوجوه منكّبين و ينادي الظالمون و العصاة بالويل و الثبور ، وينادي الصدّيقون نفسي نفسي ، فبيناهم كذلك إذ زفرت النّارزفرتها الثانية فيضاعف خوفهم و تخاذلت قواهم وظنّوا أنّهم مأخوذون ثمّ زفرت الثالثة فتساقطت الخلائق لوجوههم و شخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خاشع خفيّ ، و انهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت لدى الحناجر كاظمين ، و ذهلت العقول من السعداء و الأشقياء أجمعين ، و بعد ذلك يقبل الله تعالى على الرّسل و يقول : « ماذا أجبتم ».

أقول: و من طريق الخاصّة في هذا الباب ما رواه عليّ بن إبراهيم باسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم [2] »

(١) المائدة : ١١٩ . (٢) المائدة : ١٢٠ .

قال : « إذا كان يوم القيامة و حشر النّاس للحساب فيمرّون بأهوال يوم القيامة فينتهون إلى العرصة ، و يشرف الجبّار عليهم حتّى يجهدوا جهداً شديداً قال : يقفون بفناء العرصة و يشرف الجبّار عليهم و هو على عرشه فأوّل من يدعى بنداء يسمع الخلائق أجمعين أن يهتف باسم محمّد بن عبدالله النبيّ القرشيّ العربيّ قال : فيقدم حتّى يقف على يمين العرش ، قال : ثمّ يدعى بصاحبكم فيقدم حتّى يقف على يسار رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثمّ يدعى بأمّة محمّد صلى الله عليه وآله فيقفون عن يسار عليّ عليه السلام ، ثمّ يدعى بكلّ نبيّ و أمّته معه من أوّل النبيّين إلى آخرهم و أممهم معهم فيقفون عن يسار العرش قال : ثمّ أوّل من يدعى للمساءلة القلم قال : فيتقدّم فيقف بين يدي الله في صورة الآدميّين فيقول الله : هل سطرت في اللّوح ما ألهمتك و أمرتك به من الوحي ؟ فيقول القلم : نعم يا ربّ قد علمت أنّي قد سطرت في اللّوح ما أمرتني و ألهمتني به من وحيك فيقول : الله فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول : يا ربّ هل اطّلع على مكنون سرّك خلق غيرك ؟ ! قال : فيقول له : أفلجت حجّتك ، قال : ثمّ يدعى باللّوح فتقدّم في صورة الآدميّين حتّى يقف مع القلم فيقول له : هل سطر فيك القلم ما ألهمته وأمرته به من وحي ؟ فيقول اللّوح : نعم يا ربّ و بلّغته إسرافيل فيدعى بإسرافيل فيتقدّم مع القلم واللّوح في صورة الآدميّين فيقول الله : هل بلّغك اللّوح ما سطر فيه القلم من وحي ؟ فيقول : نعم يا ربّ و بلّغته جبرئيل ، فيدعى بجبرئيل فتقدّم حتّى يقف مع إسرافيل فيقول الله له : هل بلّغك إسرافيل ما بلّغ ؟ فيقول : نعم يا ربّ و بلّغته جميع أنبيائك و أنفذت إليهم جميع ما انتهى إليّ من أمرك و أدّيت رسالتك إلى نبيّ نبيّ ورسول رسول وبلّغتهم كلّ وحيك وحكمتك وكتبك ، إنّ آخر من بلّغته رسالتك و وحيك و حكمتك و علمك و كتابك و كلامك محمّد بن عبدالله العربيّ القرشيّ الحرمي حبيبك ، قال أبو جعفر عليه السلام : فأوّل من يدعى من ولد آدم للمساءلة محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله فيدنيه الله حتّى لا يكون خلق أقرب إلى الله يومئذ منه فيقول الله : يا محمّد هل بلّغك جبرئيل ما أوحيت إليك و أرسلته به إليك من كتابي و حكمتي و علمي ؟ و هل أوحى ذلك إليك ؟

فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله : نعم يا ربّ قد بلّغني جبرئيل جميع ما أوحيته إليه ، و أرسلته به من كتابك و حكمتك وعلمك و أوحاه إليّ ، فيقول الله لمحمد : هل بلّغت اُمّتك ما بلّغك جبرئيل من كتابي و حكمتي وعلمي ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله : نعم يارب قد بلّغت اُمّتي جميع ما أوحيت إليّ من كتابك و حكمتك و علمك وجاهدت في سبيلك ، فيقول الله لمحمد : فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول محمّد : يا ربّ أنت الشاهد لي بتبليغ الرّسالة و ملائكتك و الأبرار من اُمّتي و كفى بـك شهيداً ، فيدعى بالملائكة فيشهدون لمحمد بتبليغ الرّسالة ، ثمّ يدعى باُمّة محمّد فيسئلون هل بلّغكم محمّد رسالتي و كتابي وحكمتي وعلمي وعلّمكم ذلك ؟ فيشهدون لمحمد بتبليغ الرّسالة و الحكمة و العلم ، فيقول الله لمحمد : فهل استخلفت في اُمّتك من بعدك من يقوم فيهم بحكمتي و علمي و يفسّر لهم كتابي و يبيّن لهم ما يختلفون فيه من بعدك حجّة لي و خليفة في الأرض ؟ فيقول محمّد : نعم يارب قد خلّفت فيهم عليّ بن أبي طالب أخي و وزيري و وصيّي و خير اُمّتي و نصبته لهم علماً في حياتي و دعوتهم إلى طاعته و جعلته خليفتي في اُمّتي إماماً يقتدي به الاُمّة بعدي إلى يوم القيامة ، فيدعى بعليّ بن أبي طالب عليه السلام فيقال له : هل أوصى إليك محمّد و استخلفك في اُمّته ونصبك علماً لاُمّته في حياته ؟ فهل قمت فيهم من بعده مقامه ؟ فيقول له عليّ عليه السلام : نعم يا ربّ قد أوصى إليّ محمّد و خلّفني في اُمّته و نصبني لهم علماً في حياته ؟ فلمّا قبضت محمّداً إليك جحدتني اُمّته و مكروا بي و استضعفوني و كادوا يقتلونني و قدّموا قدّامي من أخّرت وأخّروا من قدّمت ولم يسمعوا منّي ولم يطيعوا أمري ، فقاتلتهم في سبيلك حتى قتلوني ، فيقال لعليّ عليه السلام : هل خلّفت من بعدك في اُمّة محمّد حجّة و خليفة في الأرض يدعو عبادي إلى ديني وإلى سبيلي ؟ فيقول عليّ عليه السلام : نعم يا ربّ قد خلّفت فيهم الحسن ابني و ابن بنت نبيّك ، فيدعى بالحسن بن عليّ فيسأل عمّا سئل عنه عليّ بن أبي طالب ، قال : ثمّ يدعى بإمام إمام و بأهل عالمه فيحتجّون بحجّتهم فقبل الله عذرهم و يجيز حجّتهم ، قال : ثمّ يقول الله : « اليوم

ينفع الصادقين صدقهم » قال : ثمّ انقطع حديث أبي جعفر عليه وعلى آبائه السلام[١]».

قال أبو حامد : فإذا رأوا ما قدا ُقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة ففرّ الوالد من ولده و الأخ من أخيه و الزّوج من زوجته و بقي كلّ واحد منتظراً لأمره ثمّ يؤتى بواحد واحد فيسأله الله شفاهاً عن قليل عمله و كثيره و عن سرّه و علانيته و عن جميع جوارحه و أعضائه .

فتوهّم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك و أنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهاً فيقول لك : ألم اُنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته ؟ ألم أمهل لك في العمر ففيماذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته ، و فيماذا أنفقته ؟ ألم اُكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّد عليك إنعامه و معاصيك و أياديه و مساويك فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك ، قال أنس : كنّا يوماً مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فضحك ، ثمّ قال : «أتدرون ممّ أضحك؟ قلنا الله و رسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربّه يقول : يا ربّ ألم تجزني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهداً منّي، فيقول : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »[٢] و بالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي قال: فتنطق بأعماله ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعداً لكنّ و سحقاً فعنكنّ كنت اُناضل[٣] ». فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء إلّا أنّ الله وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطّلع عليه غيره ، و قد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة[٤] » فهذا إنّما يرجى لعبد مؤمن ستر على النّاس عيوبهم واحتمل في حقّ نفسه تقصيرهم و لم يحرّك لسانه بذكر مساوي النّاس و لم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهو جدير بأن يجازى بمثله في القيامة ، وهب أنّه قد ستره عن غيرك أليس

(١) تفسير على بن ابراهيم القمى ص ١٧٨ الى ١٨٠ . (٢) الاسراء : ١٤ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه وابن أبى الدنيا فى التوبة واللفظ له وابن أبى حاتم و البيهقى فى الاسماء والصفات من حديث أنس . (٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وقد تقدم .

قد قرع سمعك النّداء إلى العرض فيكفيك تلك الرّوعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطربٌ ولبّك طائر وفرائصك مرتعدة و جوارحك مضطربة ولونك متغيّر ، والعالم عليك من شدّة الهول مظلم ، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطّى الرّقاب و تخرق الصفوف و تقاد كما يقاد الفرس المجنوب ، و قد رفعت الخلائق إليك أبصارهم فتوهّم نفسك في أيدي الموكّلين بك على هذه الصفة انتهوا بك إلى عرش الرّحمن فرموك من أيديهم ويناديك الله سبحانه بعظيم كلامه : ياابن آدم أدن منّي فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر، واُعطيت كتابك الّذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها ، فكم لك من خجلة و حيرة ، وكم لك من حصر وعيّ فليت شعري بأيّ قدم تقف بين يديه و بأيّ لسان تجيب و بأيّ قلب تعقل ما تقول ؟ ثمّ تفكّر في عظيم حيائك إذا ذكّرك ذنوبك شفاهاً إذ يقول : يا عبدي أما استحييت منّي فبارزتني بالقبيح ؟ واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل ؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادي استخففت بنظري إليك فلم تكترث و استعظمت نظر غيري ألم اُنعم عليك ؟ فماذا غرّك بي ؟ أظننت أنّي لا أراك و أنّك لاتلقاني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مامنكم من أحد إلّا ويسأله الله ربّ العالمين ليس بينه و بينه حجاب و لا ترجمان [1] » و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليقفنّ أحدكم بين يدي الله عزّ وجلّ ليس بينه و بينه حجاب فيقول له : ألم انعم عليك ؟ ألم اوتك مالاً ؟ فيقول : بلى فيقول : ألم اُرسل عليك رسولاً ؟ فيقول : بلى ، ثمّ ينظر عن يمينه فلا يرى إلّا النّار ثمّ ينظر عن شماله فلا يرى إلّا النّار ، فليتّق أحدكم النّار ولو بشقّ تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيّبة [2] ».

و قال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلّا سيخلو الله عزّ وجلّ به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثمّ يقول : يا ابن آدم ما غرّك بي ؟ يا ابن آدم ما عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ ياابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك

---

(١) و(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٨٦ من حديث عدي بن حاتم بلفظ « الا سيكلمه».

و أنت تنظر بهما إلى مالايحلّ لك ؟ ألم أكن رقيباً على اُذنيك وأنت تسمع بهما ؟ و هكذا حتّى عدّ سائر الأعضاء . و قال مجاهد لاتزول قدما عبد يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ حتّى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه ، و عن عمله ماذا عمل به ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك و بخطرك فإنّك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدّنيا و أنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك و فرحك و يغبطك الأوّلون والآخرون و بين أن يقال للملائكة : خذوا هذا العبد السّوء فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه ، و عند ذلك لو بكت عليك السماوات و الأرض لكان ذلك جديراً بعظيم مصيبتك و شدّة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله و على ما بعتَ آخرتك من دنيا دنيّة لم تبق معك ؟ !.

(صفة الميزان)

ثمّ لا تغفل عن الفكر في الميزان و تطاير الكتب إلى الأيمان و الشمائل ، فإنّ النّاس بعد السؤال ثلاث فرق فرقه ليس لهم حسنة فيخرج من النّار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير الحبّ و ينطوي عليهم ويلقيهم في النّار فتبتلعهم النّار و ينادي عليهم بشقاوة لا سعادة بعدها ، و قسم آخر لاسيّئة لهم فينادي مناد ليقم الحامدون لله على كلّ حال فيقومون و يسرحون إلى الجنّة ، ثمّ يفعل ذلك بأهل قيام اللّيل ، ثمّ بمن لم يشغله تجارة ولابيع عن ذكر الله تعالى وينادي عليهم بسعادة لاشقاوة بعدها ، و يبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله أنّ الغالب حسناتهم أو سيّئاتهم ولكن يأبى الله إلّا أن يعرّفهم حقيقة ذلك ليبيّن فضله عند العفو و عدله عند العقاب ، فتطائر الصحفُ و الكتب منطوية على الحسنات والسيّئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال ، ثمّ إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيّئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في يوم القيامة : « إنّه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول : قم يا آدم فابعث بعث النار ، فيقول :

وكم بعث النّار ؟ فيقول : من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون [في النّار و واحد في الجنّة] فلمّا سمع الصحابة بذلك أبلسوا حتّى ما أوضحوا بضاحكة فلمّا رأى نبيّ الله ﷺ الّذي جهد أصحابه قال : اعملوا و أبشروا فوالّذي نفس محمّد بيده إنّ معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قطّ إلاّ كثرتاه مع من هلك من بني آدم و بني إبليس قالوا : و ماهما يارسول الله قال : يأجوج ومأجوج ، قال : فسرّي عن القوم، فقال : اعملوا و أبشروا فو الّذي نفس محمّد بيده ما أنتم في النّاس يوم القيامة إلّا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدّابّة » (١).

✿(صفة الخصماء ورد المظالم)✿

فقدعرفت هول الميزان وخطره فإنّ الأعين شاخصة إلى لسان الميزان «فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ومن خفّت موازينه فاُمّه هاوية و ما أدريك ماهية نارٌ حامية » و اعلم أنّه لاينجو عن خطر الميزان و الحساب إلّا من حاسب في الدّنيا نفسه و وزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما ورد « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا » وإنّما حسابه لنفسه أن يتوب عن كلّ معصية قبل الموت توبة نصوحاً ، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله . ويردّ المظالم حبّة بعد حبّة و يستحلّ كلّ من تعرّض له بلسانه و يده و سوء ظنّه بقلبه و يطيب قلوبهم حتّى يموت ولم يبق عليه مظلمة و لافريضة فهذا يدخل الجنّة بغير حساب و إن مات قبل ردّ المظالم أحاطت به خصماؤه فهذا يأخذ بيده ، و هذا يقبض على ناصيته ، و هذا يتعلّق بتلبيبه ، هذا يقول ظلمتني و هذا يقول شتمتني ، و هذا يقول : قداستهزأت بي ، و هذا يقول : ذكرتني في الغيبة بما يسوءني ، وهذا يقول : جاورتني فأسات جواري ، و هذا يقول عاملتني فغششتني ، و هذا يقول : بايعتني فغبنتني وأخفيت عنّي عيب سلعتك ، وهذا يقول : كذبت في سعر متاعك ، و هذا يقول رأيتني محتاجاً و كنت غنيّاً فما أطعمتني ، و هذا يقول : وجدتني مظلوماً و كنت قادراً على دفع الظلم عنّي فداهنت الظالم وما راعيتني ، فبينا أنت كذلك و

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٩ من حديث أبى سعيد الخدرى .

قد أنشب الخصماء فيك مخالبهم فأحكموا في تلابيبك أيديهم و أنت مبهوت متحيّر من كثرتهم حتّى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلّا وقداستحقّ عليك مظلمة بغيبة أوخيانة أونظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم و مددت عنق الرّجاء إلى سيّدك و مولاك لعلّه يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبّار «اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت لاظلم اليوم» فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، و توقن نفسك بالبوار و تتذكّر ما أنذرك الله تعالى به على لسان رسوله حيث قال : « و لاتحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون إنّما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ۞ مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتدّ إليهم طرفهم و افئدتهم هواء[1] » فما أشدّ فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض النّاس و تناولك أموالهم ، و ما أشدّ حسرتك في ذلك إذا وقف بك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن تردّ حقّاً أو تظاهر عذراً فعندذلك يؤخذ حسناتك الّتي تعبت فيها عمرك و تنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله :
« هل تدرون من المفلس ؟ قال : المفلس فينا يا رسول الله من لادرهم له و لا متاع ، فقال : المفلس من اُمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة و زكاة و صيام ، و يأتي قد شتم هذا ، و قذف هذا ، و أكل مال هذا ، و سفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته وإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه اُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثمّ طرح في النّار[2] » .

أقول : وقد مرّ في صفة أهل المحشر حديث طويل من طريق الخاصّة في الخصماء و ردّ المظالم و بيان ذلك مفصّلاً .

قال أبو حامد : فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس تسلم لك حسنة من آفات الرّياء و مكائد الشيطان فإن سلمت حسنة واحدة في كلّ مدّة طويلة ابتدرك خصماؤك و أخذوها و لو أنّك حاسبت نفسك و أنت مواظب على صيام النهار

(١) ابراهيم : ٤٢ و ٤٣ .
(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٨ وقد تقدم غير مرة .

وقيام الّليل لعلمت أنّه لا ينقضي عنك يوم إلّا و يجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيّئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات فكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتصّ فيه للجمّاء من القرناء فقد روي عن أبي ذرّ «أنّ النبيّ ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال، يا أباذرّ أتدري فيما ينتطحان؟ قلت: لا قال ولكن ربّك يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة [(١)]» وروي في قوله تعالى: «وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا اُممٌ أمثالكم [(٢)]» أنّه يحشر الخلق يوم القيامة البهائم و الدّوابّ والطير و كلّ شيء فيبلغ من عدل الله عزّ وجلّ أن يأخذ للجمّاء من القرناء، ثمّ يقول كوني تراباً فذلك حين «يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً» فكيف أنت يا مسكين في قوم ترى صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك فتقول: أين حسناتي؟ فيقال لك قد نقلت إلى صحيفة خصمائك و ترى صحيفتك مشحونة بسيّئات طال في الصبر عنها نصبك و اشتدّ بسبب الكفّ عنها عناؤك فتقول: يا ربّ هذه سيّئات ماقارفتها قطّ فيقال هذه سيّئات القوم الّذين اغتبتهم و شتمتهم و قصدتهم بالسّوء و ظلمتهم في المبايعة و المجاورة و المخاطبة و المناظرة والمذاكرة و المدارسة وسائر أصناف المعاملة، قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقّرات و هي الموبقات، فاتّقوا الظلم ما استطعتم فإنّ العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنّها ستنجينّه، فما يزال عبد يجيء فيقول: يا ربّ إنّ فلاناً ظلمني بمظلمة فيقال: امح من حسناته، فما يزال كذلك حتّى ما يبقى له من حسناته شيء، وإنّ مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرّق القوم فاحتطبوا فلم يلبثوا أنّ أوقدوا نارهم وصنعوا ما أرادوا و كذلك الذّنوب [(٣)]».

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ١٦٢.
(٢) الانعام: ٣٨.
(٣) أخرجه أبو يعلى وفيه ابراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ١٨٩.

و من اجتمعت عليه مظالم و قد تاب عنها و عسر عليه استحلال أرباب المظالم فليستكثر من حسناته ليوم القصاص و ليستر ببعض الحسنات بينه و بين الله بكمال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه إلّا الله فعساه يقرّبه ذلك إلى الله فينال بهلطفه الّذي ادّخره لأحبّائه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم .

أقول: ثمّ أورد أبو حامد حديثاً عن أنس يغني عن ذكره ما قدّمناه من طريق الخاصّة ثمّ قال : فتفكّر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطّف بك حتّى عفى عنك و أيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من فصل القضاء و قد خلع عليك خلعة الرّضا و وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء و بنعيم لا يدور بحواشية الفناء ، و عند ذلك طار قلبك سروراً و فرحاً و ابيضّ وجهك و استنار و أشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهّم نفسك يتحرّك بين الخلايق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك ، و نضرة النعيم تعرف في وجهك وبرد الرّضا يتلألأ من جبينك وخلق الأوّلين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك و يغبطونك في حسنك و جمالك و الملائكة يمشون بين يديك و من خلفك و ينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان قد رضي الله عنه و أرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً فترى أنّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة الّتي تنالها في قلوب الخلق في الدّنيا بريائك و مداهنتك و تصنّعك و تزيّنك ، فإن كنت تعلم أنّه خيرٌ منه بل لا نسبة له إليه فتوسّل إلى إدراك هذه الرّتبة بالإخلاص الصّافي و النيّة الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلّا به و إن تكن الاُخرى و العياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هيّنةً وهي عندالله عظيم فمقتك لأجلها وقال : عليك لعنتي يا عبد السّوء لا أتقبّل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلّا و يسودّ وجهك ثمّ تغضب عليك الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون : عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك ينثال إليك الزّبانية و قد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها و زعارتها (١) و صورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ

(١) انثال اليه الناس من كل وجه أى انصبوا . والزعارة : الشراسة وهى سوء الخلق.

الخلائق و هم ينظرون إلى اسوداد وجهك و إلى ظهور خزيك و أنت تنادي بالويل و الثبور و هم يقولون لك : «لا تدع اليوم ثبوراً واحداً وادع ثبوراً كثيراً» و تنادي الملائكة و يقولون : هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه و مخازيه و لعنه بقبائح مساويه ، فشقي شقاوة لايسعد بعدها أبداً ، وربّمايكون ذلك بذنب أذنبته خيفة من عباد الله أو طلباً للمكانة في قلوبهم أو خوفاً من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدّنيا المنقرضة ثمّ لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم مع التعرّض لسخط الله و عقابه الأليم والسياق بأيدي الزّبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك و أنت بعد لم تشعر الخطر الأعظم وهو خطر الصّراط .

✿(صفة الصراط)✿

ثمّ تفكّر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى : «يوم نحشر المتّقين إلى الرحمن وفداً ✿ ونسوق المجرمين إلى جهنّم ورداً(١) » و في قوله تعالى : «فاهدوهم إلى صراط الجحيم ✿ وقفوهم إنّهم مسؤلون (٢) » فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصّراط و هو جسرٌ ممدودٌ على متن جهنّم أحدّ من السيف و أدقّ من الشّعر فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خفّ على صراط الآخرة و نجا ، و من عدل عن الاستقامة في هذا و أثقل ظهره بالأوزار و عصى ، عثر في أوّل قدم من الصّراط و تردى ، فتفكّر الآن فيما يحلّ من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصّراط و دقّته ثمّ وقع بصرك على سواد جهنّم من تحته ثمّ قرع سمعك شهيق النّار و تغيّظها و قد كلفت أن تمشي على الصّراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك و تزلزل قدمك و ثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصّراط فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى قدميك فأحسست بحدّته و اضطررت إلى أن ترفع القدم الثاني والخلايق بين يديك يزلّون ويتعثّرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف و الكلاليب و أنت تنظر إليهم كيف يتنكّسون فيتسفّل إلى جهة النّار رؤوسهم و

---

(١) مريم : ٨٥ و ٨٦ . (٢) الصافات : ٢٣ و ٢٤ .

تعلو أرجلهم ، فياله من منظر ما أفظعه و مرتقى ما أصعبه و مجاز ما أضيقه ، فانظر إلى حالك و أنت تزحف عليه [١] و تصعد إليه و أنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يميناً و شمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون في النّار والرّسول عليه السلام يقول : يا ربّ سلّم سلّم ، و الزعقات[٢] بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنّم لكثرة من يزلّ عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلّت قدمك ولم ينفعك ندمك ، فناديت بالويل و قلت : هذا ما كنت أخافه فياليتني قدّمت لحيوتي ، ياليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً ، يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً ، يا ليتني كنت تراباً ، يا ليتني كنت نسياً منسيّاً ، يا ليت أمّي لم تلدني ، وعند ذلك تختطفك النيران ، و العياذ بالله و ينادي المنادي اخسئوا فيها ولا تكلّمون فلا يبقى سبيل إلى الصياح والأنين والتنفّس و الاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك و هذه الأخطار بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفّار في دركات جهنّم ، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً و بالاستعداد له متهاوناً ، فما أعظم جرأتك و طغيانك ، و ماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله بطاعته و ترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلاّ هول الصراط و ارتياع [٣] قلبك من خطرك في الجواز و إن سلمت فناهيك به هولاً و فزعاً و رعباً قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ينصب الصّراط بين ظهراني جهنّم فأكون أوّل من يجيز بأمّته من الرّسل ولا يتكلّم يومئذ إلّا الرّسل و دعوى الرّسل يومئذ اللّهمّ سلّم سلّم ، وفي جهنّم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السّعدان قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنّها مثل شوك السعدان غير أنّه لا يعلم قدر عظمها إلاّ الله تعالى يخطف النّاس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله و منهم من يخردل[٥] ثمّ ينجو[٤] » .

و قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يمرّ النّاس على جسر

---

(١) زحف اليه أى مشى . (٢) الزعقة : الصيحة . (٣) الارتياع : الاضطراب .

(٤) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٤٧ من حديث أبى هريرة فى حديث طويل .

(٥) المخردل : المرمى المصروع .

جهنّم و عليه حسك و كلاليب وخطاطيف يخطف النّاس يميناً و شمالاً و على جنبتيه ملائكة يقولون : اللّهمّ سلّم سلّم ، فمن النّاس من يمرّ عليه كالبرق ، ومنهم من يمرّ كالرّيح ، ومنهم من يمرّ كالفرس المجري ، ومنهم من يسعى سعياً ، و منهم من يمشي مشياً ، و منهم من يحبو حبواً ، و منهم من يزحف زحفاً ، فأمّا أهل النّار الّذين هم أهلها فلا يموتون و لا يحيون ، و أمّا اُناس يؤخذون بذنوب و خطايا فيحترقون فيكونون فحماً ، ثمّ يؤذن في الشفاعة - و ذكر إلى آخر الحديث - »[1] .

و عن ابن مسعود أنّه ﷺ قال : « يجمع الله الأوّلين و الآخرين في صعيد واحد لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السّماء ينتظرون فصل القضاء - وذكر الحديث إلى ذكر السجود - قال : ثمّ يقول : ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ، و منهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، و منهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتّى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره علي إبهام قدمه فيضيء مرّة ويطفأ مرّة فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا طفيء قام - ثمّ ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم - فمنهم من يمرّ كطرف البصر ، ومنهم من يمرّ كالبرق ، ومنهم من يمرّ كالسحاب ، ومنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب ، و منهم من يمرّ كشدّ الفرس ، و منهم من يمرّ كشدّ الرجل حتّى أنّ الّذي اُعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه و يديه و رجليه يجرّ يداً و يعلّق يداً و يجرّ رجلاً ويعلّق رجلاً ويصيب جوانبه النّار ، قال : فلا يزال كذلك حتّى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثمّ قال : الحمدلله فقد أعطاني الله مالم يعط أحداً إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنّة فيغتسل »[2].

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه الكلينيّ و الصّدوق رحمهما الله عن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٥٨٤ . و رواه مسلم باختلاف في لفظه ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) رواه الحاكم ج ٤ ص ٥٩٠ في حديث طويل .

أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: « لمّا نزلت هذه الآية « وجيء يومئذ بجهنّم [١] » سئل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أخبرني الرّوح الأمين أنّ الله لا إله غيره إذا جمع الأوّلين و الآخرين اُتي بجهنّم تقاد بألف زمام آخذ بكلّ زمام ألف ملك من الغلاظ الشداد لها هدّة وتغيّظ و زفير وأنّها لتزفر الزّفرة فلولا أنّ الله أخّرهم للحساب لأهلكت الجميع ثمّ يخرج منها عنق يحيط بالخلائق البرّ منهم و الفاجر فما خلق الله عبداً من عباده ملكاً و لا نبيّاً إلّا ينادي يا ربّ نفسي نفسي و أنت تقول: يا ربّ اُمّتي اُمّتي ثمّ يوضع عليها صراط أدقّ من حدّ السيف عليه ثلاث قناطر أمّا واحدة فعليها الأمانة و الرّحم و أمّا الاُخرى فعليها الصلاة و أمّا الثالثة، فعليها عدل ربّ العالمين لا إله غيره فيكلّفون الممرّ عليه فيحبسهم الرّحم و الأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصلاة و إن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين عزّ و جلّ و هو قوله تبارك و تعالى: « إنّ ربّك لبا لمرصاد [٢] » و النّاس على الصّراط فمتعلّق و قدم تستمسك و قدمٌ تزلّ، و الملائكة حولهم ينادون: يا حليم اغفر واصفح وعد بفضلك و سلّم سلّم، و النّاس يتهافتون فيها كالفراش فإذا نجا ناج برحمة الله عزّ وجلّ نظر إليها فقال: الحمد لله الّذي نجاني منك بعد إياس بمنّه و فضله إنّ ربّنا لغفور شكور [٣] ».

و روى الصدوق عن الصّادق عليه السلام قال: « النّاس يمرّون على الصّراط طبقات و الصّراط أدقّ من الشعر و أحدّ من السيف، فمنهم من يمرّ مثل البرق، و منهم من يمرّ مثل عدو الفرس، ومنهم من يمرّ حبواً، ومنهم من يمرّ مشياً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النّار منه شيئاً و تترك شيئاً [٤] ».

وبإسناده عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال لعليّ عليه السلام: « يا عليّ إذا كان يوم القيامة أقعد أنا و أنت و جبرئيل على الصّراط فلا يجوز على الصّراط إلّا من كانت معه براءة بولايتك [٥] ».

---

(١) الفجر: ٢٣. (٢) الفجر: ١٤.
(٣) الصدوق في أماليه وعلي بن ابراهيم في تفسيره ص ٧٢٤. (٤) أمالي الصدوق ص ١٠٧. (٥) معاني الاخبار ص ٣٥ تحت رقم ٦ وفي المصدر فلم يجز.

قال أبو حامد : فهذه أهوال الصراط وعظائمه و طوّل فيه فكرك فإنّ أسلم النّاس من أهوال القيامة من طال فكره فيها في الدّنيا فإنّ الله لا يجمع على عبد خوفين ، فمن خاف هذه الأهوال في الدّنيا أمنها في الآخرة و لست أعني بالخوف رقّة كرقّة النساء تدمع عينك و يرقّ قلبك حال السماع ، ثمّ تنساه على القرب و تعود إلى لهوك و لعبك ، فماذلك من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه و من رجاشيئاً طلبه ، فلاينجيك إلّا خوف يمنعك عن معاصي الله و يحثّك على طاعته و أبعد من رقّة النساء خوف الحمقى الّذين إذا سمعوا الأهوال سبق ألسنتهم إلى الاستعاذة فقال أحدهم : أستعيذ بالله ، نعوذبالله سلّم سلّم ، وهم مع ذلك مصرّون على المعاصي الّتي هي سبب هلاكهم ، فإنّ الشيطان يضحك من استعاذتهم كما تضحك أنت على من يقصده سبع ضار في صحراء و وراءه حصن حصين فإذا رأى أنياب السبع و صولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين و أستعيذ بشدّة بنيانه و إحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه و هو قاعد في مكانه ، فأنّى يغني ذلك عن السبع؟! و كذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلّا قول لا إله إلّا الله صادقاً ، و معنى صدقه أن لايكون لك مقصود سوى الله و لامعبود سواه و من اتّخذ إلهه هواه فهو بعيدٌ عن الصّدق في توحيده و أمره مخطرٌ في نفسه ، فإن عجزت عن ذلك كلّه فكن محبّاً لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حريصاً على تعظيم سنّته و متشوّقاً إلى مراعاة قلوب الصّالحين من اُمّته ومتبرّكاً بأدعيتهم ، فعساك تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

✿(صفة الشفاعة)✿

إعلم أنّه إذا حقّ دخول النار على طوائف من المؤمنين فإنّ الله تعالى بفضله يقبل منهم شفاعة الأنبياء و الصدّيقين بل شفاعة العلماء و الصّالحين و كلّ من له عند الله تعالى جاه بحسن معاملته فإنّ له شفاعة في أهله و قرابته و أصدقائه ومعارفه فكن حريصاً على أن تكسب لنفسك عند الله رتبة الشفاعة و ذلك بأن لاتحقر آدميّاً أصلاً فإنّ الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعلّ الّذي تزدريه عينك هو ولي الله

و لاتستصغر معصية أصلاً فإنّ الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعلّ مقت الله فيه و لاتستحقر طاعة أصلاً فإنّ الله تعالى خبأ رضاه في طاعاته فلعلّ رضا الله فيها ولو الكلمة الطيّبة أو اللّقمة أو النيّة الحسنة أو ما يجري مجراها ، و شواهد الشفاعة في القرآن و الأخبار كثيرة قال الله تعالى : « و لسوف يعطيك ربّك فترضى (١) » روى عمرو بن العاص أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تلا قول إبراهيم عليه السلام : « ربّ إنّهنّ أضللن كثيراً من النّاس فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم (٢) » وقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « إن تعذّبهم فإنّهم عبادك (٣) » ثمّ رفع يديه وقال : اُمّتي اُمّتي ثمّ بكى فقال الله عزّ وجلّ : يا جبرئيل إذهب إلى محمّد فسله ما يبكيك ، فأتاه فسأله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال : يا جبرئيل اذهب إلى محمّد فقل له : إنّا سنرضيك في اُمّتك و لانسوؤك فيهم (٤) ».

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحدٌ قبلي نصرت بالرّعب مسيرة شهر واُحلّت لي الغنائم و لم تحلّ لأحد قبلي و جعلت لي الأرض مسجداً و ترابها طهوراً فأيّما رجل من اُمّتي أدركته الصلوة فليصلّ واُعطيت الشفاعة ، و كلّ نبيّ بعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى النّاس عامّة (٥) » .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النّبيّين و خطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر (٦) » .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أنا سيّد ولد آدم و لا فخر ، و أنا أوّل من تنشقّ الأرض عنه ، و أنا أوّل شافع و أنا أوّل مشفّع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه (٧) » .

---

(١) الضحى : ٥ . (٢) ابراهيم : ٣٦ .

(٣) المائدة : ١١٨ .

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٢ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، و لعله سقط من النسخ ذكر عبدالله .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من حديث جابر بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣١٤ من حديث ابي بن كعب عن أبيه .

(٧) أخرجه أحمد في المسند ج ٣ ص ١٤٤ من حديث أنس .

و قال صلّى الله عليه وآله: «لكلّ نبيّ دعوة مستجابة فاُريد أن أختبي دعوتي شفاعة لاُمّتي يوم القيامة [(١)]».

وقال ابن عبّاس - رضي الله عنه - قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها و يبقى منبري لا أجلس عليه فإنّما أنا بين يدي ربّي متنصباً مخافة أن يبعث بي إلى الجنّة وتبقى اُمّتي بعدي فأقول: يا ربّ اُمّتي، فيقول الله تعالى: يا محمّد و ماذا تريد أن أصنع باُمّتك فأقول: يا ربّ عجّل حسابهم، فما أزال أشفع حتّى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم إلى النّار، و حتّى إنّ مالكاً خازن النّار يقول: يا محمّد ما تركت للنّار لغضب ربّك في اُمّتك من بقية [(٢)]».

و قال صلّى الله عليه وآله: «إنّي لأشفع يوم القيامة لأكثر ممّا على وجه الأرض من حجر و مدر [(٣)]».

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد حديث الشفاعة بطوله عن أبي هريرة بما فيه ممّا فيه و نحن نذكر بدله ما ورد من طريق الخاصّة و هو ما رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره بسند موثّق عن الصّادق عليه السلام: «إنّه سئل عن شفاعة النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم القيامة قال: يلجم النّاس يوم القيامة العرق فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا عند ربّك فيقول: إنّ لي ذنباً و خطيئة فعليكم بنوح فيردّهم إلى من يليه و يردّهم كلّ نبيّ إلى من يليه حتّى ينتهون إلى عيسى فيقول: عليكم بمحمّد رسول الله صلّى الله عليه وآله فيعرضون أنفسهم عليه و يسألونه فيقول: انطلقوا فينطلق بهم إلى باب الجنّة و يستقبل باب الرّحمن و يخرّ ساجداً فيمكث ماشاء الله فيقول: ارفع رأسك و اشفع تشفع وسل تعط، ذلك قوله عزّ وجلّ: «عسى أن يبعثك

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٣ من حديث أنس.

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط وفي اسناده محمد بن ثابت البناني و هو ضعيف كما في المغني.

(٣) أخرجه الطبراني في الاوسط وفيه أحمد بن عمرو صاحب علي المدني ويعرف بالقلوري مجهول كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٧٩.

ربّك مقاماً محموداً(١) » .

و روى الصّدوق بإسناده عن الرّضا عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله شفاعتي ، ثمّ قال : إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من اُمّتي فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل (٢) » .

قال أبو حامد : فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله و لآحاد اُمّته من العلماء و الصّالحين شفاعة أيضاً حتّى قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يدخل الجنّة بشفاعة رجل من اُمّتي أكثر من ربيعة و مضر (٣) » .

و قال صلى الله عليه وآله : « يقال للرّجل : قم يا فلان فاشفع فيقوم الرّجل فيشفع للقبيلة و لأهل بيت و للرّجل وللرّجلين على قدر عمله (٤) » .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد في شفاعة المؤمنين حديثاً عن أنس و نحن نذكر من طريق الخاصّة و هو ما روّيناه عن الصّادق عليه السلام قال : « يؤتى بعبد يوم القيامة ليست له حسنة فيقال له أذكر وتذكّر هل لك حسنة ؟ قال : فيتذكّر فيقول : يا ربّ مالي حسنة إلّا أنّ عبدك فلاناً المؤمن مرّ بي فطلب منّي ماء يتوضّأ به فيصلّي به فأعطيته قال : فيدعى ذلك العبد المؤمن فيذكر ذلك فيقول : نعم يا ربّ مررت به فطلبت منه ماء فأعطاني و توضّأت و صلّيت قال : فيقول الله : ادخلوا عبدي الجنّة (٥) » .

(صفة الحوض)

إعلم أنّ الحوض مكرمة عظيمة خصّ الله بها نبيّنا صلى الله عليه وآله و قد اشتملت الأخبار

(١) المصدر ٣٨٧ ، والآية في سورة الاسراء : ٧٩ .
(٢) العيون ص ٧٨ والامالي ص ٥ .
(٣) أخرجه أحمد و رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٨١ و رواه الشيخ الطوسي في أماليه ص ٦٣ بنحوه .
(٤) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٨١ .
(٥) رواه الحسين بن سعيد الاهوازي في كتابه كما في البحار كتاب العدل والمعاد .

على وصفه و نحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدّنيا علمه و في الآخرة ذوقه فإنّ من صفاته أنّ من شرب منه لم يظمأ أبداً قيل : لمّا نزلت سورة الكوثر قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : إنّه نهر و عدنيه ربّي عزّ وجلّ في الجنّة عليه خيرٌ كثير ، عليه حوض ، ترد اُمّتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم [1] » .

وقيل : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « مابين لابتي حوضي مثل مابين المدينة و صنعاء أو مثل ما بين المدينة و عمّان [2] » .

و روي أنّه لمّا نزل قوله تعالى : « إنّا أعطيناك الكوثر [3] » قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « هو نهر في الجنّة حافّتاه من ذهب شرابه أشدُّ بياضاً من اللّبن و أحلى من العسل و أطيب ريحاً من المسك يجري على جنادل اللّؤلؤ و المرجان [4] » .

و قال ثوبان مولى رسول الله صلّى الله عليه وآله : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إنّ حوضي مابين عدن إلى عمّان البلقاء ماؤه أشدُّ بياضاً من اللّبن و أحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً أوّل النّاس وروداً عليه فقراء المهاجرين »[5] و في رواية أبي ذرّ «أنّه يسكب فيه ميزابان من الجنّة [6]» .

أقول: و من طريق الخاصّة عن أهل البيت عليهم السلام « إنّ الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يسقي منه أولياءه و يذود عنه أعداءه » [7] .
ومن طريق العامّة ممّا رووه في صحاحهم عن النبيّ صلّى الله عليه وآله إنّه قال : «ليردنّ النّاس من أصحابي عليّ الحوض حتّى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول أصحابي أصحابي - وفي رواية اُصيحابي اُصيحابي - فيقال : إنّك لاتدري ماأحدثوا بعدك » وزاد في اُخرى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم و أبو داود والنسائي وابن جرير وابن منذر وابن مردوية والبيهقي في سننه من حديث أنس كما في الدرالمنثور ج ٦ ص ٤٠١ .
(٢) أخرجه مسلم ج ٦ ص ٧١ . (٣) الكوثر : ١ .
(٤) أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر بنحوه .
(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٧٠ و ٢٧٣ . (٦) مسلم ج ٧ ص ٦٩.
(٧) أمالي الصدوق ص ١٦٨ .

« و ارتدّوا على أدبارهم القهقرى [(١)] » .

« و سئل الصّادق عليه السلام عن قول الرّجل للرّجل جزاك الله خيراً ما يعني به؟ فقال عليه السلام : « إنّ خيراً نهر في الجنّة مخرجه من الكوثر و الكوثر مخرجه من ساق العرش عليه منازل الأوصياء و شيعتهم ، على حافتي النهر جواري نابتات كلّما قلعت واحدة نبتت اُخرى سمّي بذلك النهر ، و ذلك قوله عزّ وجلّ : « فيهنّ خيراتٌ حسان [(٢)] » فإذا قال الرّجل لصاحبه : «جزاك الله خيراً» فإنّما يعني بذلك تلك المنازل الّتي قد أعدّها الله تعالى لصفوته و خيرته من خلقه [(٣)] » .

قال أبو حامد : و عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ لكلّ نبي حوضاً و إنّهم ليتباهون أيّهم أكثر واردة و إنّي لأرجو أن أكون أكثرهم واردة [(٤)] » .

فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فليرج كلّ عبد أن يكون في جملة الواردين و ليحذر بأن يكون متمنّياً و مغترّاً و هو يظنّ أنّه راج فإنّ الرّاجي للحصاد من قد بثّ البذر و نقّى الأرض و سقاها الماء ثمّ جلس يرجو فضل الله بالإنبات و دفع الصواعق إلى أوان الحصاد ، فأمّا من ترك الحراثة و الزّراعة و تنقية الأرض و سقيها و أخذ يرجو من فضل الله تعالى أن ينبت له الحبّ و الفاكهة فهذا مغترّ و متمنّ و ليس من الرّاجين في شيء و هكذا رجاء أكثر الخلق و هو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور و الغفلة فإنّ الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدّنيا قال الله تعالى : « فلا تغرّنّكم الحيوة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور [(٥)] » .

✡(القول في صفة جهنم و أهوالها و أنكالها)✡

أيّها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدّنيا المشرفة على

---

(١) راجع صحيح مسلم ج ٦ ص ٦٨ و صحيح البخاري ج ٩ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) الرحمن : ٧٠ .

(٣) معاني الاخبار للصدوق ص ١٨٢ .

(٤) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٧٠ و قال : غريب و قد روى الاشعث بن عبدالملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه و آله مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح .

(٥) لقمان : ٣٣ .

الانقضاء و الزّوال دع التفكّر فيما أنت مرتحلٌ عنه و اصرف الفكر إلى موردك فانّك أخبرت بأنّ النّار مورد للجميع إذ قيل : «و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً * ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا و نذر الظالمين فيها جثيّاً[1]» فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شكّ فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه بالتشمّر لأعمالها ، وتأمّل في حال الخلائق و قد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فبيناهم في كربها وأهوالها واقفين ينتظرون حقيقة إنبائها و تشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات الشعب و أظلّت عليهم نار ذات لهب و سمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الرّكب حتّى أشفق البرآء من سوء المنقلب ، و خرج المنادي من الزّبانية قائلاً : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدّنيا بطول الأمل المضيّع عمره في سوء العمل ، فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد و يسوقونه إلى العذاب الشديد و ينكّسونه في قعر الجحيم و يقولون : له ذق إنّك أنت العزيز الكريم ، فاُسكنوا داراً ضيّقة الأرجاء : مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ، ويؤبّد فيها السعير ، فشرابهم فيها الحميم ، و مستقرّهم الجحيم ، الزّبانية تقمعهم ، و الهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، و ما لهم منها فكاك ، قد شدّت أقدامهم إلى النواصي ، و اسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ، و يصيحون في نواحيها و أطرافها ، يا مالك قد حقّ علينا الوعيد ، يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منّا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنّا لا نعود ، و تقول الزّبانية : هيهات لات حين أمان ، ولا خروج لكم من دار الهوان ، فاخسئوا فيها و لا تكلّمون ، ولو اُخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه عائدون ، فعند ذلك يقنطون ، و على ما فرّطوا في جنب الله يتأسّفون ، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبّون على وجوههم مغلولين ، النّار من فوقهم ، والنّار من تحتهم ، والنّار عن أيمانهم ، و النّار عن شمائلهم ، فهم غرقى في النّار ، طعامهم نار ، و شرابهم نار ، و

(١) مريم : ٧١ و ٧٢ .

لباسهم نار ، و مهادهم نار ، فهم بين مقطّعات النيران و سرابيل القطران ، و ضرب المقامع ، و ثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضائقها ، ويتحطّمون في دركاتها ، و يضطربون بين غواشيها ، تغلي بهم النّار كغلي القدور ، و يهتفون بالويل و العويل و الثبور ، و مهما دعوا بالثبور صبّ من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به مافي بطونهم و الجلود ، و لهم مقامع من حديد ، تهشم بهاهامّهم ، فيتفجّر الصديد من أفواههم ، و تتقطّع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ، و يسقط من الوجنات لحومها ، و يمتعط من الأطراف شعورها[١] بل جلودها و كلّما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها ، قد عريت من اللّحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنشّ في لفح تلك النيران[٢] وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلايموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقداسودّت وجوههم أشدّ سواداً من الحمم[٣] وأعميت أبصارهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، و كسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزّقت جلودهم ، و غلّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم و أقدامهم ، وهم يمشون على النّار بوجوههم ويطئون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النّار سار في بواطن أجزائهم ، و حيّات الهاوية و عقاربها متشبّثة بظواهر أعضائهم ، هذه جملة أحوالهم فانظر الآن في تفصيل أهوالهم و تفكّر أوّلاً في أودية جهنّم و شعابها ، فقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ في جهنّم سبعين ألف واد ، في كلّ واد سبعون ألف شعب ، في كلّ شعب سبعون ألف ثعبان ، و سبعون ألف عقرب ، لا ينتهي الكافر و المنافق حتّى يـواقع ذلك كلّه[٤] » .

و قال عليّ عليه السلام : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « تعوّذوا بالله من جبّ الحزن أو وادي الحزن ، قيل : يارسول الله : و ما وادي الحزن أوجبّ الحزن ؟ قال : واد

---

(١) تمعط وامتعط شعره أى تساقط من داء ونحوه .

(٢) النشيش : صوت الماء اذا غلى ولفح النار : احراقها .

(٣) الحمم : الفحم ويقال له بالفارسية (ذغال) .

(٤) قال العراقى : لم أجده هكذا بجملته .

في جهنّم تتعوّذ منه جهنّم كلّ يوم سبعون مرّة أعدّه الله تعالى للقرّاء المرائين [(١)] » فهذه سعة جهنّم وانشعاب أوديتها ، وهي بحسب أودية الدّنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة الّتي بها يعصي العبد ، بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنّم ، ثمّ سقر ، ثمّ لظى ، ثمّ الحطمة ، ثمّ السعير ، ثمّ الجحيم ، ثمّ الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنّه لاحدّ لعمقها كما لاحدّ لعمق شهوات الدّنيا ، فكما لا ينتهي أرب من الدّنيا إلّا إلى أرب أعظم منه فلاتنتهي هاوية من جهنّم إلّا إلى هاوية أعمق منها .

قيل : « كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتدرون ماهذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : هذا حجر اُرسل في جهنّم منذ سبعين عاماً الآن حين انتهى إلى قعرها [(٢)] » ثمّ انظر إلى تفاوت الدّركات فإنّ الآخرة أكبر درجات و أكبر تفصيلاً فكما أنّ إكباب النّاس على الدّنيا متفاوت فمن منهمك مستكبر كالغريق فيها و من خائض فيها إلى حدّ محدود فكذلك تناول النّار لهم متفاوت فإنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة فلا تترادف أنواع العذاب على كلّ من في النّار كيفما كان بل لكلّ واحد منهم حدّ معلوم على قدر عصيانه و ذنبه إلّا أنّ أقلّهم عذاباً لو عرضت عليه الدّنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدّة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنّ أدنى أهل النّار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه [(٣)] » فانظر الآن إلى من خفّف عليه واعتبر به من شدّد عليه ، و مهما شككت في شدّة عذاب النّار فقرّب أصبعك من النّار و قس بذلك ،

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٥٦ وابن عدى من حديث أبى هريرة ورواه البيهقى باسناد حسن كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٦٨ .

(٢) روى نحوه مسلم ج ٨ ص ١٥٠ و راجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٧٠ .

(٣) ورواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ٢٢٢ من حديث أبى هريرة بأدنى اختلاف فى اللفظ و رواه أحمد والبزار ورواته رواة الصحيح كمافى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٨٧ . وأخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٥٨١ و قال صحيح ، ورواه مسلم ج ١ ص ١٣٥ واللفظ له .

ثمّ اعلم أنّك أخطأت في القياس فإنّ نار الدّنيا لا تناسب نار جهنّم و لكن لمّا كان أشدّ عذاب في الدّنيا عذاب هذه النّار عرف عذاب جهنّم بها ، و هيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النّار لخاضوها طائعين هرباً ممّا هم فيه و عن هذا عبّر في بعض الأخبار حيث قيل : «إنّ نار الدّنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرّحمة سبعين مرّة حتّى أطاقها أهل الدّنيا»[1] بل صرّح رسول الله صلّى الله عليه و آله بصفة نار جهنّم فقال : «أمر الله تعالى أن اُوقد على النّار ألف عام حتّى احمرّت ، ثمّ اُوقد عليها ألف عام حتّى ابيضّت ، ثمّ اُوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت فهي سوداء مظلمة[2] » و قال صلّى الله عليه و آله : « اشتكت النّار إلى ربّها فقالت : يا ربّ أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء و نفس في الصيف فأشدّ ما تجدونه في الصّيف من حرّها و أشدّ ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها[3] » ، ثمّ انظر بعد هذا في نتن الصديد الّذي يسيل من أبدانهم حتّى يغرقوا فيه فهو الغسّاق .

قال أبو سعيد الخدريّ : قال رسول الله صلّى الله عليه و آله : « لو أنّ دلواً من غسّاق جهنّم اُلقي في الدّنيا لأنتن أهل الأرض[4] » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرّعه و لا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كلّ مكان و ما هو بميّت «و إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقاً » ثمّ انظر إلى طعامهم و هو الزّقّوم كما قال الله تعالى : « ثمّ إنّكم أيّها الضالّون المكذّبون ✿ لآكلون من شجر من زقّوم ✿ فمالئون منها البطون ✿ فشاربون عليه من الحميم ✿ فشاربون شرب الهيم[5] » .

---

(١) سيأتى عنقريب من طريق الخاصة تمام الحديث .

(٢) رواه الترمذى ج ١٠ ص ٥٨ والبيهقى والاصفهانى وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٣) رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ٢٢٢ من حديث أبى هريرة والترمذى ج ١٠ ص ٦٠ من حديثه أيضاً .

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٥٣ وقال : انما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه مقال .

(٥) الواقعة : ٥١ الى ٥٥ .

و قال تعالى : « إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم ✿ طلعها كأنّه رؤس الشياطين ✿ فإنّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ✿ ثمّ إنّ لهم عليها لشوباً من حميم [١] » وقال تعالى : « تصلى ناراً حامية ✿ تسقى من عين آنية [٢] » و قال تعالى : « إنّ لدنيا أنكالاً وجحيماً ✿ و طعاماً ذا غصّة وعذاباً أليماً [٣] » و قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « لو أنّ قطرة من الزّقّوم قطرت في بحار الدّنيا لأفسدت على أهل الدّنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك [٤] » .

قال أنس : قال رسول الله ﷺ : « ارغبوا فيما رغّبكم الله ، و احذروا ممّا حذّركم الله ، و خافوا ما خوّفكم الله به من عذابه و عقابه و من جهنّم ، فإنّه لو كانت قطرة من الجنّة معكم في دنياكم الّتي أنتم فيها لطيّبتها لكم ، و لو كانت قطرة من النّار معكم في دنياكم الّتي أنتم فيها لخبّثتها عليكم [٥] » .

و قال أبو الدّرداء : قال رسول الله ﷺ : « يلقى على أهل النّار الجوع حتّى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن و لا يغني من جوع و يستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصّة فيذكرون أنّهم كانوا يسغون الغصص في الدّنيا فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون : ادعوا خزنة جهنّم فيدعون خزنة جهنّم [٦] أن ادعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب فيقولون : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا : بلى قالوا : فادعوا و ما دعاء الكافرين إلّا في ضلال قال : فيقولون : ادعوا مالكاً فيدعون فيقولون : يا مالك ليقض علينا ربّك قال فيجيبهم أنّكم ماكثون » . قال الأعمش : نبّئت أنّ بين دعائهم و بين إجابة مالك إيّاهم ألف عام ، قال : فيقول :

---

(١) الصافات : ٦٤ الى ٦٨ .

(٢) الغاشية : ٤ و ٥ . (٣) المزمل : ١٢ و ١٣ .

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٥٤ و قال : صحيح .

(٥) رواه البيهقى كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٥٣ . (٦) كذا .

بعضهم لبعض ادعوا ربّكم فلا أحدٌ خيرٌ من ربّكم فيقولون : « ربّنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين ، ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون » قال : فيجيبهم « اخسئوا فيها ولا تكلّمون » قال : فعند ذلك يئسوا من كلّ خير وعند ذلك أخذوا في الزّفير والحسرة والويل (١) » .

وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله (٢): في قوله : « ويسقى من ماء صديد ☆ يتجرّعه ولا يكاد يسيغه » قال : « يقرّب إليه فيتكرّهه : فإذا ادني منه شوى وجهه ووقعت فروةُ رأسه ، فإذا شربه قطّع أمعاءه حتّى يخرج من دبره ، يقول الله تعالى : « وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم (٣) » وقال تعالى : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه (٤) » .

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن إلى حيّات جهنّم وعقاربها وإلى شدّة سمومها وعظم أشخاصها وفظاعة منظرها وقد سلّطت على أهلها واغريت بهم فهي لا تفترُ عن النهش واللّدغ ساعة واحدة .

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله « من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثمّ يأخذ بلهازمه يعني أشداقه فيقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثمّ تلا قوله تعالى : « ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتيهم الله من فضله هو خيراً لهم - الآية (٥) » .

وقال الرّسول صلّى الله عليه وآله : « إنّ في النّار لحيّاتٌ مثل أعناق البخت يلسعن اللّسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً ، وإنّ فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللّسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً ، وهذه العقارب والحيّات إنّما تسلّط على من

---

(١) رواه الترمذي ج ١٠ ص ٥٥ .

(٢) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ٥١ ، والحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط مسلم . والاية في سورة ابراهيم : ١٦ و ١٧ .

(٣) محمد : ١٥ . (٤) الكهف : ٢٩.

(٥) آل عمران : ١٨٠ والخبر رواه البخاري ج ٢ ص ١٢٦ من حديث أبي هريرة .

سلّط عليه في الدّنيا البخل و سوء الخلق و إيذاء النّاس و من وقى ذلك وقي هذه الحيّات فلم تمثّل له (١)» ثمّ تفكّر بعد هذا كلّه في تعظيم أجسام أهل النّار فإنّ الله يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتّى يتزايد عقابهم بسببه فيحسّون بلفح النّار و لدغ العقارب و الحيّات من جميع أجزائهم دفعة واحدة على التوالي ، و عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم « ضرس الكافر في النّار مثل أُحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٢)» . و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطّت وجهه (٣) ». و قال عليه السلام : « إنّ الكافر ليجرّ لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه النّاس (٤) » و مع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النّار مرّات فيجدّد جلودهم و لحومهم ، و قيل في قوله : « كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها » قال : تأكلهم النّار في كلّ يوم سبعين ألف مرّة كلّما أكلتهم قيل لهم : عودوا فيعودون كما كانوا .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه الصدوق رحمه الله بإسناده عن الباقر عليه السلام قال : « إنّ أهل النّار يتعاوون كما يتعاوى الكلاب و الذّئاب ممّا يلقون من أليم العذاب ما ظنّك بقوم لا يقضي عليهم فيموتوا و لا يخفّف عنهم من عذابها عطاش فيها ، جياع ، كليلة أبصارهم ، صمّ بكمٌ عميٌ مسودّة وجوههم خاسئين فيها نادمين مغضوب عليهم فلا يرحمون و من العذاب لا يخفّف عنهم و في النّار يسجرون . و من الحميم يشربون ، ومن الزّقّوم يأكلون ، و بكلاليب النّار يحطمون ، و بالمقامع يضربون و الملائكة الغلاظ الشداد لا يرحمون ، فهم في النّار يسحبون على وجوههم ومع الشياطين يقرنون و في الأنكال و الأغلال يصفّدون ، إن دعوا لم يستجب لهم ، و إن سألوا حاجة لم يقض لهم هذه حال من دخل النّار (٥) » .

---

(١) رواه أحمد والطبرانى من طريق أبى لهيعة عن دراج عن عبدالله بن الحارث بن جزء ، ورواه ابن حبان فى صحيحه و أيضاً الحاكم . وقال : صحيح الاسناد .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٤ من حديث أبى هريرة .

(٣) روى نحوه الترمذى .

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص٤٩ وفيه « ليسحب لسانه فرسخ أو فرسخين ».

(٥) الامالى ص ٣٢٢ و ٣٢٣ .

و بإسناده عن الصّادق عليه السلام قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قاعداً إذ جاء جبرئيل عليه السلام و هو كئيبٌ حزين متغيّر اللّون فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل مالي أراك باكياً حزيناً فقال: يا محمّد فكيف لا أكون كذلك، و إنّما وضعت منافيخ جهنّم اليوم فقال رسول الله: و ما منافيخ جهنّم يا جبرئيل فقال: إنّ الله تعالى أمر بالنّار فاوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت ثمّ أمر بها فاوقد عليها ألف عام حتّى ابيضّت ثمّ أمر بها فاوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت و هي سوداء مظلمة، فلو أنّ حلقة من السلسلة الّتي لها سبعون ذراعاً وضعت على الدّنيا لذابت الدّنيا من حرّها و لو أنّ قطرة من الزّقّوم و الضريع قطرت في شراب أهل الدّنيا مات أهل الدّنيا من نتنها، قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله و بكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكاً فقال: إنّ ربّكما يقرئكما السلام و يقول: قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً فأعذّبكما عليه [1]».

و عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله «إنّ ناركم هذه لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم ولقد اطفئت سبعين مرّة بالماء ولو لاذلك لما استطاع آدميّ أن يطفئها إذا التهبت و أنّه ليؤتى بها يوم القيامة حتّى توضع على النّار، ما يبقى ملك مقرّب و لا نبيّ مرسلٌ إلّا جثى بر كبتيه فزعاً من صرخها [2]».

و عن الصّادق عليه السلام قال: «إنّ في جهنّم لواد للمتكبّرين يقال له سقر شكا إلى الله شدّة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفّس فأذن له فتنفّس فأحرق جهنّم [3]».

و عنه عليه السلام «إنّ في النّار لحيّات مثل أعناق البخت - الحديث [4]» كما ذكره أبو حامد.

---

(١) رواه أيضاً علي بن ابراهيم في تفسيره ص ٤٣٧، ورواه الطبراني في الاوسط.

(٢) كتاب الحسين بن سعيد الاهوازي كما في البحار ج ٣ ص ٣٧٦ و رواه علي بن ابراهيم في تفسيره عن الصادق بنحوه.

(٣) ثواب الاعمال ص ٢١٥.

(٤) نبوي أخرجه أحمد في مسنده ج ٤ ص ١٩١ من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء.

قال : ثمّ تفكّر الآن في بكاء أهل النّار وشهيقهم ودعائهم بالويل و الثبور فإنّ ذلك يسلّط عليهم في أوّل لقائهم النّار .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يؤتى بجهنّم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك [(١)] » .

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله « يرسل على أهل النّار البكاء فيبكون حتّى تنقطع الدّموع ثمّ يبكون الدّم حتّى ترى في وجوههم كهيئة الاُخدود ، لو ارسلت فيها السفن لجرت [(٢)] » و مادام يؤذن لهم في البكاء و الشهيق و الزّفير والدّعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح و لكنّهم يمنعون أيضاً من ذلك .

قال محمّد بن كعب القرظي : لأهل النّار خمس دعوات يجيبهم الله عزّ وجلّ في أربع فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبداً يقولون « ربّنا امتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » فيقول الله تعالى مجيباً لهم « ذلكم بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم و أن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العليّ الكبير [(٣)] » ثمّ يقولون : « ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحاً [(٤)] » فيجيبهم الله تعالى : « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال [(٥)] » فيقولون : « ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل [(٦)] » فيجيبهم الله تعالى « أو لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر و جاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير [(٧)] » ثمّ يقولون : « ربّنا غلبت علينا شقوتنا و كنّا قوماً ضالّين ✿ ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون [(٨)] » فيجيبهم الله تعالى « اخسئوا فيها ولا تكلّمون [(٩)] » فلا يتكلّمون

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٩ عن النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٢٤ من حديث أنس وفي تفسير علي بن ابراهيم ٣٤٤.

(٣) المؤمن : ١٢ . (٤) السجدة : ١٢ .

(٥) ابراهيم : ٤٤ . (٦) فاطر : ٣٧ .

(٧) فاطر : ٣٨ . (٨) المؤمنون : ١٠٧ و ١٠٨ .

(٩) المؤمنون : ١٠٩ .

بعدها أبداً و ذلك غاية شدّة العذاب .

قال مالك بن أنس : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص[1] » قال : صبروا مائة سنة ، ثمّ جزعوا مائة سنة اُخرى ثمّ قالوا : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ».

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنّه كبش أملح فيذبح بين الجنّة والنار فيقال : يا أهل الجنّة خلودٌ بلاموت ويا أهل النّار خلودٌ بلا موت[2] ».

فهذه أصناف عذاب جهنّم على الجملة و تفصيل غمومها و أحزانها و محنها و حسراتها لانهاية له ، فأعظم الاُمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة فوت نعيم الجنّة وفوت لقاء الله و فوت رضاه مع علمهم بأنّهم باعوا كلّ ذلك بثمن بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلّا بشهوات حقيرة في الدّنيا أيّاماً قصيرة و كانت غير صافية بل كانت مكدّرة منغّصة فيقولون في أنفسهم : واحسرتا كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربّنا و كيف لم نكلّف أنفسنا بالصّبر أيّاماً قلائل و لو صبرنا لكانت قد انقضت عنّا أيّامه و بقينا الآن في جوار الرّحمن متنعّمين بالرّضا و الرّضوان ، فيالحسرة هؤلاء و قد فاتهم مافاتهم و بلوا بمابلوا به و لم يبق معهم شيء من نعيم الدّنيا ولذّاتها ثمّ إنّهم لولم يشاهدوا نعيم الجنّة لم تعظم حسرتهم و لكنّها تعرض عليهم فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « يؤتى يوم القيامة بناس من النّار إلى الجنّة حتّى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ماأعدّ الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأوّلون و الآخرون بمثلها فيقولون : يا ربّنا لو أدخلتنا النّار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وماأعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول تعالى : ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم ، وإذا لقيتم النّاس لقيتموهم مخبتين تراؤون النّاس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم النّاس و لم تهابوني وأجللتم النّاس ولم تجلّوني

(١) ابراهيم : ٢١ .
(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٢ من حديث أبي سعيد .

و تركتم للنّاس و لم تتركوا لي فاليوم اُذيقكم العذاب الأليم مع ما حرّمتكم من الثواب المقيم [١] » .

و قال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح و وجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النّار يصيح ، فانظر يا مسكين في هذه الأهوال و اعلم أنّ الله تعالى خلق النّار بأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وأنّ هذا أمر قد قضي وفرغ منه ، قال الله تعالى : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة [٢] » ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة و لكن ما قضي الأمر يوم القيامة بل في أزل الآزال و لكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك و تلهو و تشتغل بمحقّرات الدّنيا و لست تدري أنّ القضاء بماذا سبق في حقّك ، فإن قلت : ليت شعري ماذا موردي و إلى ماذا مآلي و مرجعي ، و بما الّذي سبق به القضاء في حقّي ؟

فلك علامة تستأنس بها و تصدق رجاؤك بسببها و هي أن تنظر إلى أحوالك و أعمالك فإنّ كلّاً ميسّر لما خلق له ، فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر فإنّك مبعدٌ عن النّار و إن كنت لا تقصد خيراً إلّا و تحيط بك العوائق فتدفعه و لا تقصد شرّاً إلّا ويتيسّر لك أسبابه فاعلم أنّك مقضيٌّ عليك ، فإنّ دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات و دلالة الدّخان على النّار فقد قال الله تعالى : « إنّ الأبرار لفي نعيم ✿ و إنّ الفجّار لفي جحيم [٣] » فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرّك من الدّارين .

✿(القول في صفة الجنة و أصناف نعيمها)✿

اعلم أنّ تلك الدّار الّتي عرفت غمومها وهمومها و شرورها يقابلها دار اُخرى فتأمّل نعيمها و سرورها فإنّ من بعُد من احديهما استقرّ لامحالة في الاُخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم ، و استثر الرّجاء بطول الفكر في

(١) قال العراقي : رويناه في الاربعين لابي هدبة عن أنس ، وأبو هدبة ابراهيم بن هدبة هالك .

(٢) مريم : ٣٩ . (٣) الانفطار . ١٣ و ١٤ .

النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، و سق نفسك بسوط الخوف و قُدها بزمام الرّجاء إلى الصّراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم و تسلم من العذاب الأليم ، فتفكّر في أهل الجنّة و في وجوههم نضرة النّعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك ، جالسين على منابر من الياقوت الأحمر في خيام اللّؤلؤ الرّطب الأبيض ، فيها بسط من العبقري الأخضر ، متّكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطّردة بالخمر و العسل ، محفوفة بالغلمان و الولدان ، مزيّنة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنّهن الياقوت والمرجان لم يطمثهنّ قبلهم إنس و لاجان ، يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهنّ في مشيتها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتحيّر فيه الأبصار مكلّلات بالتيجان المرصّعة باللّؤلؤ و المرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم و البؤس ، مقصورات في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثمّ يطاف عليهم و عليهنّ بأكواب و أباريق و كأس من معين ، بيضاء لذّة للشاربين ، و يطوف عليهم خدّام و ولدان كأمثال اللّؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعلمون ، في مقام أمين و جنّات و عيون ، في جنّات و نهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيه إلى وجه الملك الكريم ، و قد أشرقت في وجوههم نضرة النّعيم ، لا يرهقهم قتر و لا ذلّة بل عبادٌ مكرمون ، و بأنواع التحف من ربّهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها و لا يحزنون ، و هم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعّمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً ، في أنهار أراضيها فضّة و حصباؤها مرجان ، و على أرض ترابها مسك أذفر و نباتها زعفران ، و يمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين ، على كثبان الكافور ، و يؤتون بأكواب وأيّ أكواب من فضّة مرصّعة بالدّرّ والياقوت والمرجان ، كوبٌ فيه من الرّحيق المختوم و ممزوجٌ بماء السلسبيل العذب ، كوبٌ يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه لرقّته وصفائه لم يصنعه آدميٌّ فيقصر في تسوية صنعته و تحسين صياغته ، في كفّ خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن

من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته و حسن أصداغه وطرّته و ملاحة أحداقه ، فياعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها و يوقن بأنّه لابدّ ذاهب إليها ولايموت أهلها و لا تحلّ الفجائع بمن نزل بفنائها و لا ينظر الأحداث بعين التعيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها و يتهنّأ بعيش دونها ، والله لو لم يكن فيها إلّا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت و الجوع والعطش و سائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر الدّنيا بسببها و أن لا يؤثر عليها ماالتصرّم و التنغيص من ضرورته و كيف و أهلها ملوك آمنون في أنواع السرور ممتّعون ، لهم فيها كلّ ما يشتهون و هم في كلّ يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون و ينالون بالنظر من اللّذة ما لا يلتفتون معه إلى سائر نعيم الجنان و لا ينظرون إليه و هم على الدّوام بين أصناف هذه النّعيم يتردّدون و هم من زوالها آمنون قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ينادي مناد يا أهل الجنّة إنّ لكم فيها أن تصحّوافلاتسقموا أبداً ، و إنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، و إنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنّ لكم أن تنعّموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عزّ و جلّ « و نودوا أن تلكم الجنّة اُورثتموها بما كنتم تعملون [1] » و مهما أردت أن تعرف صفةالجنّة فاقرءالقرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان و أقرء من قوله تعالى : « و لمن خاف مقام ربّه جنّتان [2] » إلى آخرسورة الرّحمن . و اقرء سورة الواقعة و غيرها من السّور ، و إن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمّل الآن تفصيلها بعد أن اطّلعت على جملتها و تأمّل أوّلاً عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله : « و لمن خاف مقام ربّه جنّتان » قال : «جنّتان من فضّة آنيتهما و ما فيهما ، و جنّتان من ذهب آنيتهما و ما فيهما ، و ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن [3] » .

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٨ من حديث أبي سعيد الخدري . والاية في سورة الاعراف : ٤٢ . (٢) الرحمن : ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦ ص ١٨١ من حديث عبدالله بن قيس عن أبيه .

ثمّ انظر إلى **أبواب الجنة** فإنّها كثيرة بحسب اُصول الطّاعات كما أنّ أبواب النّار كثيرة بحسب اُصول المعاصي ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنّة كلّها و للجنّة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصّلاة دعي من باب الصّلاة ، ومن كان من أهل الصّيام دعي من باب الصّيام وهو الرّيان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدّقة ، و من كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد[١] » .

و عن عاصم بن ضمرة ، عن عليّ عليه السلام أنّه ذكر النّار فعظّم أمرها و ذكر شيئاً لا أحفظه ثمّ قال : « و سيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً حتّى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة تخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحديهما كما اُمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ، ثمّ عمدوا إلى الاُخرى فتطهّروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يتغيّر أشعارهم بعدها أبداً ، ولا تشعث رؤوسهم كأنّما دهنوا بالدّهان ، ثمّ انتهوا إلى الجنّة فقيل لهم : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، ثمّ يلقاهم الولدان : يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدّنيا بالحبيب ، يقدم عليهم من غيبة يقولون له : أبشر بما أعدّ الله لك من الكرامة ، كذا قال : فينطلق غلام من اُولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان باسمه الّذي كان يدعى به في الدّنيا فتقول : و أنت رأيته ؟ فيقول : أنا رأيته و هو بأثري فيستخفّها الفرح حتّى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذاً جندل اللّؤلؤ فوقه صرح أخضر و أحمر و أصفر من كلّ لون ، ثمّ يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذاً مثل البرق ، ولولا أنّ الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره ثمّ يطأطىء رأسه فاذاً أزواجه و أكواب موضوعة و نمارق مصفوفة و زرابيّ مبثوثة ، ثمّ اتّكأ فقال : « الحمد لله الّذي هدانا لهذا و ما كنّا لنهتدي لولا أن هدينا الله » ثمّ ينادي مناد يا أهل الجنّة تحيون

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٩١ .

و لاتموتون أبداً و تقيمون فلاتظعنون أبداً ، وتصحّون فلاتمرضون أبداً »[1]. فقال رسول الله ﷺ : « آتي يوم القيامة باب الجنّة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول محمّد ، فيقول : بك اُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك [2] ».

ثمّ تأمّل الآن في **غرف الجنة** و اختلاف درجات العلوّ فيها ، فإنّ الآخرة أكبر درجات و أكبر تفصيلاً ، و كما أنّ بين النّاس في الطّاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدّرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحدٌ بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة و المسارعة والمنافسة فيها فقال : « و سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها كعرض السّماء والأرض[3] »وقال : «سارعوا إلى مغفرة من ربّكم[4] » وقال : «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[5]» و العجب أنّه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلوّ بناء ثقل ذلك عليك و ضاق به ذرعك و تنغّص بسبب الحسد عيشك ، و أحسن أحوالك أن تستقرّ في الجنّة و أنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لاتوازيها الدّنيا بحذافيرها فقد قال أبوسعيد الخدريّ : قال رسول الله ﷺ : «إنّ أهل الجنّة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الغابر في الاُفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم ؟ قال : بلى و الّذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله و صدّقوا المرسلين [6] » و قال أيضاً : « إنّ أهل الدّرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النّجم الطالع في أفق من آفاق السّماء [7] ».

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد وعبدالرزاق وابن أبي شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبيهقي في البعث والضياء المقدسي في المختارة كما في الدرالمنثور ج ٥ ص ٣٤٣ . وفيه قوله : « فلم يتغير أشعارهم » « فلن تغير أبشارهم » .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٣٠ من حديث أنس .
(٣) الحديد : ٢١ . (٤) آل عمران : ١٣٣ .
(٥) المطففين : ٢٦ . (٦) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٥ .
(٧) أخرجه الترمذي وحسّنه وابن ماجه تحت رقم ٩٦ من حديث أبي سعيد .

و قال : جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال لنا رسول الله ﷺ : « إلاّ أُحدّثكم بغرف الجنّة ؟ قال : قلت : بلى يا رسول الله بأبينا أنت واُمّنا ، قال : إنّ في الجنّة غرفاً من أصناف الجوهر كلّه ، يرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها وفيها من النّعيم واللّذات والسرور ما لا عين رأت ولا اُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال : قلت : يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال : لمن أفشا السلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصّيام ، وصلّى باللّيل و النّاس نيام ، قال : قلنا : يا رسول الله و من يطيق ذلك قال : اُمّتي تطيق ذلك وساُخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلّم عليه أوردّ عليه فقد أفشا السلام ومن أطعم أهله و عياله من الطّعام حتّى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، و من صام شهر رمضان و من كلّ شهر ثلاثة أيّام فقد أدام الصّيام ، و من صلّى العشاء الآخرة و صلّى الغداة في جماعة فقد صلّى بـاللّيل و النّاس نيام - يعني اليهود و النصارى و المجوس - (١) » .

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : « ومساكن طيّبة في جنّات عدن (٢) » قال : قصور من لؤلؤ في كلّ قصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، في كلّ دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر ، في كلّ بيت سرير ، على كلّ سرير سبعون فراشاً من كلّ لون ، على كلّ فراش زوجة من الحور العين ، في كلّ بيت سبعون مائدة ، على كلّ مائدة سبعون لوناً مع الطعام ، في كلّ بيت سبعون و صيفة (٣) ، ويعطى المؤمن في كلّ غداة - يعني من القوّة - ما يأتي على ذلك أجمع (٤) » .

✡(صفة حائط الجنة وأرضها و أنهارها و أشجارها)✡

تأمّل في صورة الجنّة ، و تفكّر في غبطة سكّانها بها و في حسرة من حرمها لقناعته بالدّنيا عوضاً عنها فعن رسول الله ﷺ « إنّ حائط الجنّة لبنة من ذهب

(١) رواه البيهقي كما في الترغيب ج ٤ ص ٥١١ .

(٢) الصف : ١٢ . (٣) الوصيفة : الخادمة .

(٤) أخرجه الطبراني ورواه البيهقي بنحوه كما في الترغيب والترهيب ج٤ ص٥١٧.

و لبنة من فضّة ترابها زعفران و طينها مسك [١] ».

و سئل صلى الله عليه وآله عن تربة الجنّة فقال: « در مكة بيضاء مسك خالص [٢] » و عن رسول الله صلى الله عليه وآله « من سرّه أن يسقيه الله عزّ وجلّ الخمر في الآخرة فليتركها في الدّنيا، و من سرّه أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدّنيا [٣] » « أنهار الجنّة تتفجّر من تحت تلال أو تحت جبال المسك [٤] » « و لو كان أدنى أهل الجنّة حلية عدلت بحلية أهل الدّنيا جميعاً لكان ما يحلّيه الله عزّ و جلّ به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدّنيا جميعاً [٥] ».

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله « إنّ في الجنّة شجرة يسير الرّاكب في ظلّها مائة عام لايقطعها [٦] » اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: « وظلّ ممدود [٧] ».

و قال أبو أمامة: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون: « إنّ الله عزّ وجلّ ينفعنا بالأعراب في مسائلهم « أقبل أعرابيّ فقال: يارسول الله قدذكر الله في القرآن شجرة مؤذية و ما كنت أدري أنّ في الجنّة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ماهي؟ قال: هي السدر فإنّ لها شوكاً فقال له: قال الله تعالى: « وسدر

(١) رواه البزار من حديث أبي سعيد الخدرى. وابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة موقوفاً كما في المغني والترغيب.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فذكره. و رواه أحمد من حديث جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لليهود: «انى سائلهم عن تربة الجنة وهى درمكة بيضاء فسألهم فقال: خبزة ياأبا القاسم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الخبز من الدرمك» ورجاله رجال الصحيح غير مجالد و وثقه غير واحد. والدرمك هو الدقيق الحوارى ويقال: الدر مكة.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الاوسط باسناد حسن كما فى المغنى.

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه كما فى الترغيب ج ٤ ص ٥١٧ من حديث أبى هريرة.

(٥) أخرجه الطبرانى فى الاوسط من حديث أبى هريرة باسناد حسن كما فى المغنى.

(٦) الى هنا أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٤ من حديث أبى هريرة.

(٧) الواقعة: ٢٨. وتمام الخبر رواه البخارى، والترمذى ج ١٠ ص ٣ من حديث أبى سعيد.

مخضود» ويخضدالله شوكه فجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، ثمّ تنفتق الثمرة منها عن اثنتين و سبعين لوناً من الطعام ما منهالون يشبهالآخر [١]».

قال جرير بن عبدالله: نزلناالصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قدكادت الشمس أن تبلغه فقلت للغلام: انطلق بهذا النطع [٢] فأظلّه به فانطلق فأظلّه، فلمّا استيقظ إذا هو سلمان فأتيته اُسلّم عليه فقال: يا جرير تواضع لله فإنّه من تواضع لله في الدّنيا رفعه الله يوم القيامة. هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري، قال: ظلم الناس بينهم، ثمّ أخذ عويداً لاأكاد أراه من صغره، فقال: يا جرير لو طلبت في الجنّة مثل هذالم تجده، قلت: يا أبا عبدالله فأين النّخل والشّجر؟ قال: اُصولها اللّؤلؤ و الذّهب و أعلاها التمر [٣].

✿(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم و أرائكهم و خيامهم)✿

قال الله تعالى: «يحلّون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً و لباسهم فيها حرير [٤]». والآيات في تفصيل ذلك كثيرة: وأمّا تفصيله في الأخبار فقد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من يدخل الجنّة ينعّم لايبؤس لاتبلى ثيابه ولايفنى شبابه. في الجنّة مالا عين رأت و لااُذن سمعت و لاخطر على قلب بشر [٥]».

و قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنّة أخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و ضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ممّ تضحكون من جاهل سأل عالماً ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بل ينشقّ عنها ثمر الجنّة مرّتين [٦]».

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إنّ أوّل زمرة تلج الجنّة صورتهم على صورة القمر

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في البعث أيضاً كما في الدر المنثور ج٦ ص١٥٦.

(٢) هو المتخذ من الاديم، أي الجلد. أي قربه له ليستظل به من الشمس فيكون كالظلة.

(٣) رواه البيهقي باسناد حسن كما في الترغيب والترهيب ج٤ ص٥٢٢.

(٤) الحج: ٢٣.

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٤ و ١٤٨ والبخاري في حديثين من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٠٣ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون و لا يتغوّطون ، آنيتهم وأمشاطهم من الذّهب و الفضّة ، و رشحهم المسك و لكلّ واحد منهم زوجتان مخّ ساقيهما يرى من وراء اللّحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم و لا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبّحون الله بكرة و عشياً [1] » و في رواية « على كلّ زوجة سبعون حلّة [2] » .

و قال ﷺ : في قوله تعالى : « يحلّون فيها من أساور من ذهب [3] » قال : إنّ عليهم التيجان إنّ أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق و المغرب [4] » .

و قال ﷺ : « الخيمة درّة مجوّفة طولها في السّماء ستّون ميلاً ، للمؤمن في كلّ زاوية منها أهل لا يراه الآخرون [5] » رواه البخاري في الصحيح .

قال ابن عبّاس : الخيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

و قال أبو سعيد الخدريّ : قال رسول الله في قوله تعالى : « وفرش مرفوعة [6] » قال : ما بين الفراشين كما بين السّماء و الأرض [7] » .

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنّة مذكور في القرآن من الفواكه و الطيور السمان و المنّ و السلوى و العسل و اللّبن و أصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى : « كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الّذي رُزقنا من قبل و اُتوا به متشابهاً [8] »

---

(١) أخرجه مسلم ج٨ ص١٤٧ . ورواه البخاري ج٤ ص١٤٢ والترمذي وابن ماجه .
(٢) أخرجه الترمذي ج١٠ ص ٩ من حديث أبي سعيد الخدري .
(٣) الفاطر : ٣٣ .
(٤) رواه أحمد والطبراني واسنادهما حسن كما في مجمع الزوائد ج١٠ ص ٤١٩ .
(٥) الصحيح ج٤ ص١٤٢ ورواه مسلم ج٨ ص١٤٨ من حديث موسى بن قيس عن أبيه .
(٦) الواقعة : ٣٤ .
(٧) أخرجه الترمذي ج ١٠ص ١١ وابن أبي الدنيا كما في الترغيب .
(٨) البقرة : ٢٥ .

و ذكر الله تعالى شراب أهل الجنّة في مواضع كثيرة و قد قال ثوبان مولى رسول الله ﷺ: «كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فذكر أسولة إلى أن قال: فمن أوّل النّاس إجازة؟ - يعني على الصّراط - فقال: فقراء المهاجرين قال اليهوديّ: فما تحفتهم حين يدخلون الجنّة؟ فقال: زيادة كبد الحوت، قال: فما غذاؤهم على أثرها قال: ينحر لهم ثور الجنّة الّذي كان يأكل في أطرافها، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها تسمّى سلسبيلاً، فقال: صدقت [(١)]».

و قال زيد بن أرقم: «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ و قال: يا أبا القاسم ألست تزعم أنّ أهل الجنّة يأكلون فيها ويشربون؟ و قال لأصحابه: إن أقرّ لي بهذا خصمته فقال ﷺ: بلى و الّذي نفسي بيده إنّ أحدهم ليعطى قوّة مائة رجل في المطعم والمشرب و الجماع، فقال اليهوديّ فانّ الّذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، فقال رسول الله ﷺ: حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمر [(٢)]».

و قال ابن مسعود: «قال رسول الله ﷺ: إنّك لتنظر إلى الطير في الجنّة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويّاً [(٣)]».

و قال حذيفة قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنّة طيراً أمثال البخت[(٤)]».

✿(صفة الحور العين والولدان)✿

قد تكرّر في القرآن أوصافهم و وردت الأخبار بزيادة شرح فيه روى أنّ رسول الله ﷺ قال: «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدّنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها، ولو أنّ امرأة من

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٧٣ من حديث ثوبان بزيادة في أوله وزيادة في آخره.
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى باسناد صحيح ورواه أحمد في مسنده ج ٤ ص ٣٦٧.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا والبزار والبيهقي كما في الترغيب ج ٤ ص ٥٢٧.
(٤) قال العراقي. غريب من حديث حذيفة ولاحمد من حديث أنس « ان طير الجنة كامثال البخت ترعى في شجر الجنة الحديث » المسند ج ٣ ص ٢٢١.

نساء أهل الجنّة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما رائحة. ولنصيفها على رأسها خيرٌ من الدّنيا بما فيها » (١) يعني الخمار.

و قال أبو سعيد الخدريّ: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: في قوله تعالى: « كأنّهنّ الياقوت و المرجان (٢) » قال: ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة، و إنّ أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق و المغرب، و إنّه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتّى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك (٣) ».

و قال مجاهد في قوله تعالى: « أزواجٌ مطهّرة (٤) » قال: يعني من الحيض و الغائط و البول و البزاق و النخامة و النجاسة و المنّي و الولد.

و قال الأوزاعيّ: « في شغل فاكهون (٥) » قال: شغلهم افتضاض الأبكار.

و قيل: يا رسول الله: « أيباضع أهل الجنّة؟ قال: يعطى الرّجل منهم من القوّة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم (٦) » و قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إنّ الرّجل من أهل الجنّة ليتزوّج خمسمائة حوراء، و أربعة آلاف بكر، و ثمانية آلاف ثيّب، يعانق كلّ واحدة منهنّ مقدار عمره في الدّنيا (٧) ».

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله: « إنّ في الجنّة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلّا الصور من

---

(١) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٢٠ من حديث أنس. والنصيف: الخمار.

(٢) الرحمن: ٥٨.

(٣) رواه احمد وابن حبان فى صحيحه بنحوه والبيهقى باسناد ابن حبان واللفظ له كما فى الترغيب ج ١٠ ص ٥٣٤.

(٤) البقرة: ٢٥.

(٥) يس: ٥٥.

(٦) قال العراقى: رواه الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس هكذا « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل أو يطيق ذلك قال: يعطى قوة مائة ». انتهى وروى البزار من حديث أنس « قال صلى الله عليه وآله: « يزوج العبد فى الجنة سبعين زوجة فقيل يا رسول الله: أيطيقها؟ قال: يعطى قوة مائة. مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤١٧.

(٧) قال العراقى: رواه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين وكتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى الا أنه قال: مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن واسناده ضعيف.

الرّجال والنساء ، فإذا اشتهى الرّجل صورة دخل فيها [(١)] » .

و إنّ فيها لمجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ، و نحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الرّاضيات فلا نسخط ، فطوبى لمن كان لنا و كنّا له [(٢)] » .

و قال أبو أمامة الباهليّ : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من عبد يدخل الجنّة إلّا و يجلس عند رأسه و عند رجليه ثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت يسمعه الإنس و الجنّ ، و ليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله و تقديسه [(٣)] » .

✿(بيان جمل متفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار)✿

روى اُسامة بن زيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه : « ألا هل مشمّر للجنّة ؟ إنّ الجنّة لاخطر لها ، هي و ربّ الكعبة نورٌ يتلألأ ، وريحانة تهتزّ ، وقصرٌ مشيدٌ و نهر مطّرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة في حبرة ، ونعمة في مقام آمين أبداً ، ونضرة في دار عالية بهيّة سليمة ، قالوا : نحن المشمّرون لها يا رسول الله ، قال : قولوا : إن شاء الله تعالى ، ثمّ ذكر الجهاد وحضّ عليه [(٤)] » .

وجاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « هل في الجنّة خيل فإنّها تعجبني ، قال : إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فيطير بك في الجنّة حيث شئت و قال له رجل آخر: إنّ الإبل يعجبني فهل في الجنّة من إبل ؟ فقال : يا عبد الله إن أدخلت الجنّة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عيناك [(٥)] » .

و عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الرّجل من أهل

---

(١) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٨ .

(٢) رواه الترمذى ج ١٠ ص ٣٧ وقال : غريب . ورواه البيهقى أيضاً .

(٣) رواه الطبرانى والبيهقى كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٥٣٧ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٣٢ بأدنى اختلاف .

(٥) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٣ بنحوه ورواه ابن المبارك فى الزهد بلفظ المصنف كما فى المغنى وقال الترمذى : و هذا أصح .

الجنّة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة (١) » .

وقال ﷺ : « إذا استقرّ أهل الجنّة في الجنّة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان فيتحدّثان ما كان بينهما في دار الدُّنيا فيقول : ياأخي أتذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عزّ وجلّ فغفر لنا (٢) » .

و قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنّة جردٌ مردٌ بيضٌ جعادٌ مكحّلون أبناء ثلاث و ثلاثين . على خلق آدم طولهم ستّون ذراعاً في عرض سبعة أذرع (٣) » .

و قال رسول الله ﷺ : « إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة الّذي له ثمانون ألف خادم و ثنتان و سبعون زوجة ، وينصب له قبّة من لؤلؤ و زبرجد و ياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء » . « و إنّ عليهم التيجان و إنّ أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق و المغرب (٤) » .

و قال ﷺ : « نظرت إلى الجنّة فإذا الرُّمّانة من رمّانها كخلف البعير المقتّب وإذاً طيرها كالبخت ، و إذاً فيها جارية فقلت : يا جارية لمن أنت ؟ فقالت : لزيد بن حارثة . و إذاً في الجنّة ما لاعين رأت و لا أُذن سمعت و لا خطر قلب بشر (٥) » . و قال كعب الأحبار : خلق الله تعالى آدم بيده ، و كتب التوراة بيده ، و غرس أشجار الجنّة بيده ، ثمّ قال لها : تكلّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون .

فهذه صفات الجنّة ذكرناها جملة ، ثمّ نقلناها تفصيلاً ، وقال يحيى بن معاذ :

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٣٨ والترمذى ج ١٠ ص ٣٥ بنحوه .

(٢) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤٢١ .

(٣) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٤ من حديث معاذ دون قوله « بيض جعاد » ودون قوله « على خلق آدم - الى آخره - » وفى صحيح مسلم ج ٨ ص ١٤١ من حديث أبى هريرة « فكل من يدخل الجنة على صورة آدم و طوله ستون ذراعاً » .

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٣٥ من حديث أبى سعيد الخدرى فى حديثين .

(٥) رواه الثعلبى فى تفسيره من رواية أبى هارون العبدى عن أبى سعيد وروى نحوه على بن ابراهيم فى تفسيره ص ٣٧٤ .

ترك الدّنيا شديد و فوت الجنّة أشدّ و ترك الدّنيا مهر الآخرة . و قال أيضاً : في طلب الدّنيا ذلّ النّفوس وفي طلب الجنّة عزّ النّفوس فياعجبا لمن يختار المذلّة في طلب مايفنى و يترك العزّ في طلب ما يبقى .

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه شيخنا الصّدوق - رحمه الله - بإسناده عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « إنّ للجنّة لبنة من ذهب ولبنة من فضّة ولبنة من ياقوت و ملاطها المسك الأذفر ، و شرفها الياقوت الأحمر والأخضر و الأصفر ، و أبوابها مختلفة باب الرّحمة من ياقوته حمراء ، و أمّا الصبر فباب صغير مصراع واحد من ياقوتة حمراء لاحلق له ، و أمّا باب الشكر فإنّه من ياقوتة بيضاء لها مصراعان مسيرة ما بينهما خمسمائة عام ، له ضجيج وحنين يقول : اللّهمّ جئني بأهل ينطقه ذوالجلال و الإكرام ، و أمّا باب البلاء من ياقوتة صفراء مصراع واحد ما أقلّ من يدخل منه ، فأمّا الباب الأعظم فيدخل منه العباد الصّالحون ، وهم أهل الزّهد و الورع الرّاغبون إلى الله عزّ وجلّ المستأنسون به ، فإذا دخلوا الجنّة يسرون على نهرين في مصاف في سفن الياقوت مجاذيفها اللّؤلؤ (١) فيها ملائكة من نور عليهم ثياب خضر شديد الخضرة يسرون على حافتي ذلك النهر واسم ذلك النهر جنّة عدن هي وسط الجنان وسورها ياقوت أحمر حصباؤها اللّؤلؤ (٢) » .

و بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « إنّ للجنّة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيّون و الصدّيقون و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون و خمسة أبواب يدخل منها شيعتنا و محبّونا فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو و أقول : ربّ سلّم شيعتي و محبّي و أنصاري و من تولّاني في دار الدّنيا فإذا النّداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك و شفّعت في شيعتك ، و يشفع كلّ رجل من شيعتي و من تولّاني

---

(١) المجذاف : مايجذف به السفينة ، وفي بعض النسخ من المصدر - بالدال المهملة - وهو خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين تسير بهما القوارب .

(٢) رواه الصدوق في الفقيه باب الاذان والاقامه وفي الامالي ص ١٢٨ في حديث طويل لخصه شيخنا الفيض ههنا .

و نصرني و حارب من حاربني بفعل أو قول ، في سبعين ألفاً من جيرانه و أقربائه ، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلاّ الله و لم يكن في قلبه مثقال ذرّة من بغضنا أهل البيت (١) » .

وعن مولانا الباقر عليه السلام : « أحسنوا الظنّ بالله و اعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب عرض كلّ باب منها مسيرة أربعمائة سنة (٢) » .

و روى ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب ـ رحمه الله ـ في الكافي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن قول الله عزّ وجلّ : « يوم نحشر المتّقين إلى الرّحمن وفداً (٣) » فقال : يا عليّ إنّ الوفد لا يكونون إلّا ركباناً اُولئك رجال اتّقوا الله فأحبّهم الله تعالى و اختصّهم ورضي أعمالهم فسمّاهم المتّقين ثمّ قال له : يا عليّ أما والّذي فلق الحبّة و برأ النسمة إنّهم ليخرجون من قبورهم و أنّ الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الغرّ عليها رحال الذّهب مكلّلة بالدّرّ و الياقوت و جلالها الاستبرق و السندس ، و خطمها جدل الأرجوان ، تطير بهم إلى المحشر مع كلّ رجل منهم ألف ملك من قدّامه و عن يمينه و عن شماله يزفّونه زفّاً حتّى ينتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم ، و على باب الجنّة شجرة إنّ الورقة منها يستظلّ تحتها ألف رجل من النّاس ، و عن يمين الشجرة عين مطهّرة مزكّية فيسقون منها شربة فيطهّر الله بها قلوبهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشعر ، و ذلك قول الله تعالى : « و سقيهم ربّهم شراباً طهوراً (٤) » من تلك العين المطهّرة ، قال : ثمّ ينصرفون إلى عين اُخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون فيها و هي عين الحيوة فلا يموتون أبداً ، قال : ثمّ يوقف بهم قدّام العرش و قد سلموا من الآفات و الأسقام و الحرّ وا لبرد أبداً ، قال : فيقول الجبّار جلّ ذكره للملائكة الّذين معهم : احشروا أوليائي إلى الجنّة و لا توقفوهم مع الخلائق ، فقد سبق رضائي عنهم ، و وجبت رحمتي لهم ، و كيف اُريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيّئات

(١) و (٢) الخصال ج ٢ ص ٢٩ .
(٣) مريم : ٨٥ .
(٤) الانسان : ٢١ .

قال : فتسوقهم الملائكة إلى الجنّة فإذا انتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم ضرب الملائكة الحلقة ضربة فتصرّ صريراً يبلغ صوت صريرها كلّ حوراء أعدّها الله تعالى لأوليائه في الجنان ، فيتباشرون بهم إذا سمعوا صرير الحلقة فيقول بعضهم لبعض : قد جاءنا أولياء الله فيفتح لهم الباب فيدخلون الجنّة ، و يشرف عليهم أزواجهم من الحور العين و الآدميّين فيقلن مرحباً بكم فما كان أشدّ شوقنا إليكم و يقول : لهنّ أولياء الله مثل ذلك ، فقال عليّ عليه السلام : يا رسول الله أخبرنا عن قول الله تعالى : « غرف من فوقها غرف مبنيّة[1] » بماذا بنيت يا رسول الله ؟ فقال : يا عليّ تلك غرف بناها الله تعالى لأوليائه بالدّرّ والياقوت والزّبرجد ، سقوفها الذّهب محبوكة بالفضّة ، لكلّ غرفة منها ألف باب من ذهب على كلّ باب منها ملك موكّل به فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير و الدّيباج بألوان مختلفة ، و حشوها المسك و الكافور و العنبر ، وذلك قول الله تعالى : « وفرش مرفوعة [2] » إذا اُدخل المؤمن إلى منازله في الجنّة و وضع على رأسه تاج الملك و الكرامة اُلبس حلل الذّهب و الفضّة و الياقوت و الدّرّ منظوم في الإكليل تحت التاج ، قال : واُلبس سبعين حلّة حرير بألوان مختلفة و ضروب مختلفة منسوجة بالذهب و الفضّة واللّؤلؤ و الياقوت الأحمر فذلك قوله تعالى : « يحلّون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً و لباسهم فيها حرير [3] » فإذا جلس المؤمن على سريره اهتزّ سريره فرحاً ، فإذا استقرّ لوليّ الله منازله في الجنان استأذن عليه الملك الموكّل بجنانه ليهنّئه بكرامة الله تعالى إيّاه فيقول له : خدّام المؤمن من الوصفاء و الوصائف : مكانك فإنّ وليّ الله قد اتّكأ على أريكته وزوجته الحوراء تهيّىء له فاصبر لوليّ الله ، قال : فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمة لها تمشي مقبلة و حولها وصائفها ، و عليها سبعون حلّة منسوجة بالياقوت و اللّؤلؤ و الزّبرجد و هي من مسك و عنبر و على رأسها تاج الكرامة وعليها نعلان من ذهب مكلّلتان بالياقوت واللّؤلؤ ، شراكها ياقوت أحمر ،

---

(١) الزمر : ٢٠.
(٢) الواقعة : ٣٤ .
(٣) الحج : ٢٣.

فإذا دنت من وليّ الله فهمّ أن يقوم إليها شوقاً فتقول له: يا وليّ الله ليس هذا يوم تعب و لا نصب فلاتقم أنا لك وأنت لي قال: فيعتنقان مقدار خمسمائة عام من أعوام الدّنيا لايملّها و لا تملّه، قال: فإذا فتر بعض الفتور من غير ملالة نظر إلى عنقها فإذاً عليها قلائد من قصب من ياقوت أحمر وسطها لوح صفحته درّة مكتوب فيها أنت يا وليّ الله حبيبي و أنا الحوراء حبيبتك إليك تناهت نفسي و إليّ تناهت نفسك ثمّ يبعث الله إليه ألف ملك يهنّئونه بالجنّة و يزوّجونه بالحوراء، قال: فينتهون إلى أوّل باب من جنانه فيقولون للملك الموكّل بأبواب جنانه: استأذن لنا على وليّ الله فإنّ الله بعثنا إليه نهنّئه فيقول لهم الملك: حتّى أقول للحاجب فيعلمه بمكانكم، قال: فيدخل الملك إلى الحاجب وبينهم و بين الحاجب ثلاث جنان حتّى ينتهي إلى أوّل باب فيقول للحاجب: إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العالمين ليهنّئوا وليّ الله و قد سألوني أن آذن لهم عليه فيقول الحاجب: إنّه ليعظم عليّ أن أستأذن لأحد على وليّ الله و هو مع زوجته الحوراء، قال: و بين الحاجب و بين وليّ الله جنّتان قال: فيدخل الحاجب إلى القيّم فيقول له: إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العزّة يهنّئون وليّ الله فاستأذن لهم فيتقدّم القيّم إلى الخدّام فيقول لهم: إنّ رسل الجبّار على باب العرصة و هم ألف ملك أرسلهم يهنّئون ولي الله فأعلموه بمكانهم قال: فيعلمونه فيؤذن للملائكة فيدخلون على وليّ الله و هو في الغرفة و لها ألف باب و على كلّ باب من أبوابها ملك موكّل به، فإذا أذن للملائكة بالدّخول على وليّ الله فتح كلّ ملك بابه الموكّل به قال: فيدخل القيّم كلّ ملك من باب من أبواب الغرفة قال: فيبلّغونه رسالة الجبّار جلّ وعزّ وذلك قول الله تعالى: «و الملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب - (من أبواب الغرفة) - سلام عليكم - إلى آخر الآية (١)» قال: و ذلك قوله تعالى: «و إذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً و ملكاً كبيراً (٢)» يعني بذلك وليّ الله و ما هو فيه من الكرامة و النّعيم والملك العظيم الكبير، إنّ الملائكة من رسل الله تعالى يستأذنون عليه فلا -

(١) الرعد: ٢٥ و ٢٦. (٢) الانسان: ٢٠.

يدخلون عليه إلّا بإذنه فذلك الملك العظيم قال : و الأنهار تجري من تحت مساكنهم وذلك قول الله تعالى : «تجري من تحتهم الأنهار[١]» و الثمار دانية منهم و هو قوله عزّ وجلّ : « ودانية عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلاً »[٢] من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الّذي يشتهيه من الثمار بفيه و هو متّكىء وإنّ الأنواع من الفاكهة ليقلن لوليّ الله : يا وليّ الله كلني قبل أن تأكل هذا قبلي قال : وليس من مؤمن في الجنّة إلّا و له جنان كثيرة معروشات و غير معروشات و أنهار من خمر و أنهار من ماء و أنهار من لبن و أنهار من عسل ، فإذا دعا وليّ الله بغذائه اُتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمّي شهوته قال : ثمّ تتخلّى مع إخوانه و يزور بعضهم بعضاً و يتنعّمون في جنّاتهم في ظلّ ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وأطيب من ذلك لكلّ مؤمن سبعون زوجة حوراء وأربع نسوة من الآدميّين و المؤمن ساعة مع الحوراء و ساعة مع الآدميّة و ساعة يخلو بنفسه على الأرائك متّكئاً ينظر بعضهم إلى بعض و إنّ المؤمن ليغشاه شعاع نور و هو على أريكته و يقول لخدّامه : ما هذا الشعاع اللامع لعلّ الجبّار لحظني فيقول له خدّامه : قدّوس قدّوس جلّ جلال الله ، بل هذه حوراء من نسائك ممّن لم تدخل بها بعد ، قد أشرفت عليك من خيمتها شوقاً إليك و قد تعرّضت لك و أحبّت لقاءك ، فلمّا أن رأتك متّكئاً على سريرتك تبسّمت نحوك شوقاً إليك فالشعاع الّذي رأيت و النور الّذي غشيك هو من بياض ثغرها و صفائه و نقائه و رقّته ، قال : فيقول وليّ الله : ائذنوا لها فتنزل إليّ فيبتدر إليها ألف و صيف وألف وصيفة يبشّرونها بذلك فتنزل إليه من خيمتها و عليها سبعون حلّة منسوجة بالذّهب و الفضّة مكلّلة بالدّرّ و الياقوت و الزّبرجد صبغهنّ المسك والعنبر ، بألوان مختلفة يرى مخّ ساقها من وراء سبعين حلّة طولها سبعون ذراعاً ، و عرض ما بين منكبيها عشرة أذرع فإذا دنت من وليّ الله أقبلت الخدّام بصحائف الذّهب والفضّة فيها الدّرّ والياقوت و الزّبرجد فينثرونه عليها ثمّ يعانقها و تعانقه فلا يملّ و لا تملّ .

---

(١) الاعراف : ٤٣ . (٢) الانسان : ١٤ .

قال الرّاوي : ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : « أمّا الجنان المذكورة في الكتاب فانّهنّ جنّة عدن و جنّة الفردوس و جنّة نعيم وجنّة المأوى قال : و إنّ لله تعالى جناناً محفوفة بهذه الجنان و إنّ المؤمن ليكون له من الجنان ما أحبّ و اشتهى يتنعّم فيهنّ كيف يشاء و إذا أراد المؤمن شيئاً أو اشتهى إنّما دعواه به إذا أرادأن يقول : سبحانك اللّهمّ ، فاذا قالها : تبادرت إليه الخدّام بما اشتهى من غيرأن يكون طلبه منهم ، أو أمر به و ذلك قول الله عزّ و جلّ : « دعويهم فيها سبحانك اللّهمّ و تحيّتهم فيها سلام [1] » يعني الخدّام قال : « و آخر دعويهم أن الحمد لله ربّ العالمين [2] » يعني بذلك عند ما يقضون من لذّاتهم من الجماع و الطعام و الشراب يحمدون الله تعالى عند فراغهم ، و أمّا قوله : «أولئك لهم رزق معلوم [3] » قال : يعلمه الخدّام فيأتون به أولياء الله قبل أن يسألوهم إيّاه ، وأمّا قوله تعالى : « فواكه وهم مكرمون [4] » قال : فانّهم لايشتهون شيئاً في الجنّة إلّا أكرموا به [5] ».

وروى الصّدوق رحمه الله عن الصّادق عليه السلام : « أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : « لهم فيها أزواج مطهّرة [6] » قال : الأزواج المطهّرة اللّاتي لايحضن ولايحدثن [7] » .

و باسناده عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام طوبى شجرة في الجنّة أصلها في دار رسول الله صلى الله عليه وآله فليس من مؤمن إلّا و في داره غصن من أغصانها لاينوي في قلبه شيئاً إلّا أتاه ذلك الغصن به ، ولوأنّ راكباً مجدّاً سار في ظلّها مائة عام لم يخرج منها ، ولو أنّ غراباً طار من أصلها ما بلغ أعلاها حتّى يبياضّ هرماً [8] » .

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : تسنيم أشرف شراب أهل الجنّة يشربه محمّد وآل محمّد صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنّة [9] » .

---

(١) و (٢) يونس : ١٠ . (٣) الصافات : ٤١ .
(٤) الصافات : ٤٢ . (٥) الروضة ص ٩٥ الى ١٠٠.
(٦) النساء : ٥٧ . (٧) رواه الصدوق فى الفقيه .
(٨) رواه الصدوق فى الامالى ص١٣٣ وفى الخصال ج ٢ ص ٨٢ ورواه أيضاً العياشى فى تفسيره .
(٩) رواه القمى فى تفسيره سورة التطفيف قوله تعالى : «عيناً يشرب بها المقربون» وقوله تعالى : « ومزاجه من تسنيم » .

(باب في سعة رحمة الله)

نختم به الكتاب على سبيل التفأل بذلك فقد كان رسول الله ﷺ يحبّ الفال [١] و ليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله ﷺ في التفأل و نرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدّنيا و الآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله فقد قال الله تعالى : « إنّ الله لايغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء [٢] » .

و قال تعالى : « قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرّحيم [٣] » .

و قال تعالى : « و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً [٤] » و نحن نستغفر الله تعالى من كلّ ما زلّ به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا و في سائر كتبنا و نستغفره من أقوالنا الّتي لاتوافقها أعمالنا ، ونستغفره ممّا ادّعيناه و أظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كلّ علم و عمل قصدنا به وجهه الكريم ثمّ خالطه غيره ، و نستغفره من كلّ وعد وعدناه به من أنفسنا ، ثمّ قصرنا في الوفاء به ، و نستغفره من كلّ نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، ونستغفره من كلّ تصريح و تعريض بنقصان ناقص و تقصير مقصّر كنّا متّصفين به ، و نستغفره من كلّ خطرة دعتنا إلى تصنّع و تكلّف تزيّنّا للنّاس في كتاب سطرناه أو كلام نظمنا ، أوعلم أفدناه أواستفدناه ، و نرجع بعد الاستغفار من جميع ذلك كلّه لنا و لمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن يكرمنا الله بالمغفرة والرّحمة و التجاوز عن جميع السيّئات ظاهراً و باطناً فإنّ الكرم عميمٌ و الرّحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عزّ وجلّ لاوسيلة لنا إليه إلّا فضله و كرمه ، فقد قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه مسلم ج ٧ ص ٣٣ من حديث أنس .

(٢) النساء : ٤٨ . (٣) الزمر : ٥٣ .

(٤) النساء : ١١٠ .

« إنّ لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجنّ و الأنس و الطّير و البهائم و الهوامّ فبها يتعاطفون و بها يتراحمون و آخر تسعاً و تسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة [1] ».

و روي : « أنّه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه إنّ رحمتي سبقت غضبي و أنا أرحم الرّاحمين فيخرج من النّار مثلا أهل الجنّة[2] ».

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يتجلّى الله تعالى لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول : أبشروا يا معشر المسلمين فإنّه ليس منكم أحد إلّا وقد جعلت مكانه في النّار يهوديّاً أو نصرانيّاً [3] ».

و قد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذرّيّته في مائة ألف ألف و عشرة آلاف ألف [4] ».

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم . « إنّ الله عزّوجلّ يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربّنا ، فيقول : لم ؟ فيقولون : رجونا عفوك و مغفرتك ، فيقول : قد أوجبت لكم مغفرتي [5] ».

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «يقول الله يوم القيامة : أخرجوا من النّار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام [6] ».

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٦ من حديث سلمان وأبى هريرة ، ورواه الطبرانى من حديث عبادة بن صامت .

(٢) رواه البخارى و مسلم ج ٨ ص ٩٥ دون قوله « وأنا أرحم الراحمين الخ» حديث يوم القيامة .

(٣) أخرج مسلم ج ٨ ص ١٠٥ ذيله و روى صدره الطبرانى فى حديث آخر من حديث أبى موسى .

(٤) رواه الطبرانى فى الاوسط من حديث أنس و فيه يزيد الرقاشي و هو ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٨١ .

(٥) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٢٣٨ من حديث معاذ بن جبل . والطبرانى بسندين أحدهما حسن كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٥٨ .

(٦) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٦١ من حديث أنس و قال حسن صحيح .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا اجتمع أهل النّار في النّار و من شاء الله معهم من أهل القبلة ، قال الكفّار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى فيقولون : ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النّار ؟ فيقولون : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عزّ وجلّ ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النّار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفّار قالوا : يا ليتنا كنّا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثمّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ربّما يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين [1] » .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : «لله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها[2]» .

و قال جابر بن عبدالله : من زادت حسناته على سيّئاته يوم القيامة فذلك الّذي يدخل الجنّة بغير حساب ، و من استوت حسناته و سيّئاته يوم القيامة فذلك الّذي يحاسب حساباً يسيراً ، ثمّ يدخل الجنّة و إنّما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن أوبق نفسه و أثقل ظهره .

وروي أنّ الله عزّ وجلّ قال لموسى على نبيّنا وآله و عليه السلام : يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه و عزّتي و جلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه .

و قال سعد بن بلال يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النّار فيقول الله تبارك وتعالى لهما : « ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلاّم للعبيد» و يأمر بصرفهما إلى النّار فيعدو أحدهما في سلاسله حتّى يقتحمها و يتلكّأ الآخر فيؤمر بردّهما و يسألهما عن فعلهما ، فيقول الّذي عدا إلى النّار : قد ذقت من وبال المعصية ما لم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية ، و يقول الّذي تلكّأ : حسن ظنّي بك كان يشعرني أن لا تردّني إليها بعد ما أخرجتني منها ، فيأمر بهما إلى الجنّة .

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى البعث و النشور ، عن أبى موسى الاشعرى كما فى الدر المنثور ج ٤ ص ٩٢ . والآية فى سورة الحجر : ٢ .

(٢) متفق عليه و رواه الطبرانى من حديث عبدالله بن أبى أوفى كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٣ .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا اُمّة محمّد أمّا ما كان لي قبلكم فقد و هبته لكم و بقيت التبعات فتواهبوها و ادخلوا الجنّة برحمتي »[(١)].

و يروى أنّ أعرابيّاً سمع ابن عبّاس يقرأ « و كنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها » فقال الأعرابي : والله ما أنقذكم منها و هو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عبّاس : خذوها من غير فقيه .

و قال الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت و هو في مرض موته فبكيت ؟ فقال : مهلاً لم تبكي فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكم فيه خير إلّا حدّثتكموه إلّا حديثاً واحداً و سوف اُحدّثكموه اليوم وقد اُحيط بنفسي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول : من شهد أن لا إله إلّا الله و أنّ محمّداً رسول الله حرّمه الله على النّار[(٢)] » .

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الله سيخلص رجلاً من اُمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة و تسعين سجلّاً لكلّ سجلّ منها مثل مدّ البصر ، ثمّ يقول له : أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك ملائكتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا ربّ فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يا ربّ فيقول : بلي إنّ لك عندنا حسنة فإنّه لا ظلم عليكم اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلّا الله و أشهد أنّ محمّداً رسول الله ، فيقول : يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلّات ؟ فيقال : إنّك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلّات في كفّة والبطاقة في كفّة ، وطاشت السجلّات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع الله شيء[(٣)] » .

---

(١) قال العراقي : رويناه في سباعيات أبي الاسعد القشيري من حديث أنس و فيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب : ليس بثقة . أقول راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٥٥.

(٢) رواه مسلم ج ١ ص ٤٢ من حديث عبادة بن صامت وأيضاً برواية الصنابحي بغير هذا اللفظ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٠٠ « دون قوله فلا يثقل مع الله شيء ».

و قال ﷺ : في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة و الصراط : « إنّ الله تعالى يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النّار قال : فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثمّ يقولون : ياربّنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به . ثمّ يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثمّ يقولون : ياربّنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به ، ثمّ يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثمّ يقولون : ياربّنا لم نذر فيها خيراً (فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدّقوني بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم«إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً») قال : فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيّون و شفع المؤمنون و لم يبق إلاّ أرحم الرّاحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ قد عادوا حُمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنّة يقال له : نهر الحياة فيخرجون منه كما تخرج الحبّة في حميل السيل ألاترونها تكون ممّا يلي الحجر و الشجر ما يكون إلى الشّمس أصفر و أخضر و ما يكون منها إلى الظلّ أبيض قالوا : يا رسول الله كأنّك كنت ترعى بالبادية قال : فيخرجون كاللّؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنّة يقولون : هؤلاء عتقاء الرّحمن الّذين أدخلهم الله الجنّة بغير عمل عملوه و لاخير قدّموه ، ثمّ يقول : ادخلوا الجنّة فما رأيتم فيها فهو لكم فيقولون : ربّنا أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين فيقول الله تعالى : إنّ لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربّنا أيّ شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً . رواه البخاري و مسلم في صحيحيها [1].

و روى البخاريّ أيضاً عن ابن عبّاس قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : عرضت على الاُمم يمرّ النبيّ معه الرّجل والنبيّ معه الرّجلان والنبيّ ليس معه أحدٌ و النبيّ معه الرّهط فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن يكون اُمّتي فقيل لي هذا موسى وقومه ، ثمّ قيل : انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سدّ الاُفق فقيل

(١) مسلم ج ١ ص ١١٥ ، البخارى ج ٩ ص ١٥٩ من حديث أبى سعيد الخدرى .

لي: اُنظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً فقيل لي: هؤلاء اُمّتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب، فتفرّق النّاس و لم يبيّن لهم رسول الله ﷺ فتذاكر ذلك أصحابه فقالوا: أمّا نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنّا بالله و رسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: الّذين لا يكتوون ولا يسترقون و لا يتطيّرون و على ربّهم يتوكّلون، فقام عكّاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال: أنت منهم، ثمّ قام آخر فقال: مثل قول عكّاشة، فقال النبيّ ﷺ: سبقك بها عكّاشة»(١).

و عن عمرو بن حزم الأنصاري قال: تغيّب عنّا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلينا إلّا للصّلاة المكتوبة، ثمّ يرجع، فلمّا كان اليوم الرّابع خرج إلينا فقلنا: يا رسول الله قد احتبست عنّا حتّى ظننّا أنّه قد حدث حدث، قال: لم يحدث إلّا خير، إنّ ربّي عزّ و جلّ وعدني أن يدخل من اُمّتي الجنّة سبعين ألفاً لا حساب عليهم و إنّي سألت ربّي في هذه الثلاثة الأيّام المزيد فوجدت ربّي واجداً ماجداً كريماً فأعطاني مع كلّ واحد من سبعين ألفاً سبعين ألفاً، قال: قلت: يا ربّ وتبلغ اُمّتي هذا قال: أكمل لك العدد من الأعراب(٢)».

و قال أبوذرّ: قال رسول الله ﷺ: «عرض لي جبرئيل في جانب الحرّة فقال: بشّر اُمّتك أنّه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة، فقلت: يا جبرئيل وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن سرق و إن زنى، قلت: و إن سرق و إن زنى؟ قال: و إن سرق و إن زنى و إن شرب الخمر(٣)».

قال ابو الدّرداء: قرأ رسول الله ﷺ يوماً «و لمن خاف مقام ربّه جنّتان(٤)» فقلت: و إن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «و لمن خاف مقام ربّه جنّتان» فقلت: و إن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «و لمن خاف مقام ربّه جنّتان»

---

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ١٤٠.

(٢) أخرجه البيهقى فى البعث والنشور (المغنى).

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٥، ورواه أيضاً البخارى فى الصحيح.

(٤) الرحمن:

فقلت : و إن زنى و إن سرق و إن رغم أنف أبي الدّرداء [١] » .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : إذا كان يوم القيامة دفع إلى كلّ مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له : هذا فداؤك من النّار » [٢] .

و روى مسلم في الصحيح عن أبي بردة أنّه حدّث عمر بن عبدالعزيز عن أبيه ، عن أبي موسى ، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : لا يموت رجل مسلم إلّا أدخل الله تعالى مكانه النّار يهوديّاً أو نصرانيّاً فاستحلفه عمر بن عبدالعزيز بالله الّذي لا إله إلّا هو ثلاث مرّات أنّ أباه حدّثه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فحلف له [٣] » .

و روي أنّه وقف صبيّ في بعض المغازي يصاح عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحرّ و أبصرته امرأة في خبأ القوم فأقبلت تشتدّ و أقبل أصحابها خلفها حتّى أخذت الصبيّ و ألصقته إلى بطنها ، ثمّ ألقت ظهرها على حرّ البطحاء و جعلته على بطنها لتقيه الحرّ وقالت : ابني ابني ، فبكى النّاس وتركوا ماهم فيه ، فأقبل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسرّ برحمتهم ، ثمّ بشّرهم فقال : أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا : نعم ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : فإنّ الله تعالى أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها ، فتفرّق المسلمون على أفضل السرور و أعظم البشارة [٤] » .

فهذه الأحاديث و ما أوردناه في كتاب الرّجاء تبشّرنا بسعة رحمة الله تعالى فنرجو الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقّه وأن يتفضّل علينا كما هو أهله بمنّه وسعة جوده و رحمته .

تمّ كتاب ذكر الموت و ما بعده من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و هو الكتاب العاشر من الرّبع الرّابع الّذي في المنجيات و بتمامه تمّ كتاب المحجّة بكتبه الأربعين جميعاً و الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الاصول والنسائي والبزار وأبويعلى وابن جرير وابن حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٤٦ . (٢) رواه مسلم ج ٨ ص ١٠٤ نحوه من حديث أبي موسى و قد تقدم .

(٣) الصحيح ج ٨ ص ١٠٥ .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٩ بنحوه ومسلم ج ٨ ص ٩٧ وقد تقدم .

فهرست ما فى هذا المجلد

الصفحة	الموضوع
	كتاب المحبة و الشوق والرضا والانس
٤	شواهد الشرع في حبّ العبد لله تعالى .
٨	حقيقة المحبّة و أسبابها و تحقيق محبّة العبد لله تعالى .
١٦	بيان أنّ المستحقّ للمحبّة هو الله تعالى وحده .
٢٧	بيان أنّ أجلّ اللّذات و أعلاها معرفة الله تعالى و النظر إلى وجهه الكريم و أنّه لا يتصوّر أن يؤثر عليها لذّة أُخرى إلّا من حرم هذه اللّذة .
٣٤	السبب في زيادة لذّة النظر في الآخرة على المعرفة في الدّنيا .
٤٣	الأسباب المقوّية لحبّ الله تعالى .
٥٠	السبب في تفاوت النّاس في الحبّ .
٥١	السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله عزّ و جلّ .
٥٥	معنى الشوق إلى الله عزّ و جلّ .
٦٣	محبّة الله عزّ وجلّ للعبد و معناها .
٦٨	القول في علامات محبّة العبد لله عزّ وجلّ .
٧٩	معنى الأُنس بالله عزّ وجلّ .
٨١	معنى الانبساط و الإدلال الّذي تثمره غلبة الانس .
٨٦	القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وماورد في فضيلته .
٨٦	بيان فضيلة الرضا .

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٢٥١	صفة الحوض .
٣٥٣	القول في صفة جهنّم و أهوالها و أنكالها .
٣٦٤	القول في صفة الجنّة و أصناف نعيمها .
٣٦٧	أبواب الجنّة .
٣٦٨	غرف الجنّة .
٣٦٩	صفة حائط الجنّة و أرضها .
٣٧١	صفة لباس أهل الجنّة و فرشهم وسررهم و أرائكهم و خيامهم .
٣٧٢	صفة طعام أهل الجنّة .
٣٧٣	صفة الحور العين والولدان .
٣٧٥	بيان جمل متفرّقة من أوصاف أهل الجنّة وردت بها الأخبار .
٣٨٣	باب في سعة رحمة الله .

﴿ مصادر التعليق والتصحيح ﴾

١ ـ الاتقان للسيوطي .
٢ ـ الاحتجاج للطبرسي .
٣ ـ احياء علوم الدين للغزالي .
٤ ـ الاختصاص للشيخ المفيد الطبعة الاولى .
٥ ـ الارشاد « ط ١٣٧٧ .
٦ ـ آداب المتعلمين للمحقق الطوسي .
٧ ـ الاستبصار للشيخ الطوسي ط النجف .
٨ ـ الاستغاثة لاحمد بن موسى القمي .
٩ ـ الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة .
١٠ ـ اسد الغابة لابن أثير الجزري .
١١ ـ أسرار الصلاة للشهيد الثاني .
١٢ ـ الاصابة لابن حجر العسقلاني ط ١٣٥٩
١٣ ـ اعتقادات الصدوق هامش باب حاديعشر .
١٤ ـ اعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ط ١٣٧٩ .
١٥ ـ الامالي للشيخ الصدوق .
١٦ ـ الامالي للشيخ الطوسي .
١٧ ـ الامالي للشيخ المفيد .
١٨ ـ الامامة والسياسة لابن قتيبة ط ١٣٧٧ .
١٩ ـ الانساب للبلاذري .
٢٠ ـ بحار الانوار للمجلسي .
٢١ ـ بصائر الدرجات للصفار الطبع الحجري
٢٢ ـ البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني ط الحلب .
٢٣ ـ التاج الجامع الاصول .
٢٤ ـ تاريخ الخطيب طبع مصر .
٢٥ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي .
٢٦ ـ تاريخ الامم والملوك للطبري .
٢٧ ـ تاريخ الذهبي .
٢٨ ـ تحف العقول لابن شعبة ط ١٣٧٦ .
٢٩ ـ التذكرة لسبط ابن جوزي الطبع الحجري
٣٠ ـ الترغيب والترهيب للمنذري ط ١٣٧٣
٣١ ـ تفسير علي بن ابراهيم القمي ط ١٣١٣ .
٣٢ ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي .
٣٣ ـ التوحيد للصدوق ط ١٣٢١ .
٣٤ ـ تفسير الانوار للبيضاوي .
٣٥ ـ التهذيب للشيخ الطوسي ط ١٣١٧ .
٣٦ ـ تيسير الوصول لابن الديبع الدمشقي .
٣٧ ـ ثواب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
٣٨ ـ جامع الاخبار .
٣٩ ـ جامع الرواة للاردبيلي .
٤٠ ـ الجامع الصغير للسيوطي .
٤١ ـ الجعفريات والاشعثيات الطبع الحجري .
٤٢ ـ حلية الاولياء لابي نعيم .
٤٣ ـ الخصال للصدوق الطبعة الاولى .
٤٤ ـ الخصائص للنسائي طبع النجف .
٤٥ ـ الخرائج والجرائح .
٤٦ ـ الدر المنثور للسيوطي .

٤٧ ـ دلائل النبوة لابي نعيم.

٤٨ ـ رجال النجاشي .

٤٩ ـ الرجال للكشي .

٥٠ ـ الرسالة المعراجية لابن سينا .

٥١ ـ روضات الجنات للخوانساري الطبعة الثانية .

٥٢ ـ روضة الواعظين للفتال النيشابوري .

٥٣ ـ السرائر لابن ادريس .

٥٤ ـ سر العالمين .

٥٥ ـ سفينة البحار للمحدث القمي .

٥٦ ـ السنن الكبرى لابي بكر أحمد بن الحسين البيهقي .

٥٧ ـ السنن لابي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي .

٥٨ ـ السنن لابي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني .

٥٩ ـ السنن لابي محمد عبدالله بن عبدالرحمن ابن الدارمي .

٦٠ ـ السنن لسليمان بن الاشعث السجستاني.

٦١ ـ السيرة النبوية لابن هشام .

٦٢ ـ الشافي للسيد الشريف المرتضى .

٦٣ ـ شرح احياء العلوم للزبيدي .

٦٤ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد .

٦٥ ـ شرح النهج لابن ميثم البحراني .

٦٦ ـ الشمائل للترمذي .

٦٧ ـ الصحاح للجوهري .

٦٧ ـ الصحيح لابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري .

٦٩ ـ الصحيح لابن عيسى محمد بن عيسى الترمذي الطبعة الاولى .

٧٠ ـ الصحيح لمحمد بن اسماعيل البخاري طبع محمد علي صبيح .

٧١ ـ صحيفة الرضا عليه السلام .

٧٢ ـ الصواعق المحرقة للهيتمي .

٧٣ ـ طبقات لابن سعد طبع ليدن .

٧٤ ـ الطرائف لابن طاؤوس .

٧٥ ـ عدة الداعي لابن فهد الحلي .

٧٦ ـ عقاب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .

٧٧ ـ علل الشرائع للصدوق ط ١٣١١.

٧٨ ـ علم اليقين للمؤلف (الفيض).

٧٩ ـ عيون اخبار الرضا عليه السلام للصدوق .

٨٠ ـ عيون الاخبار لابن قتيبة .

٨١ ـ الغدير للعلامة الاميني طبع طهران .

٨٢ ـ الغيبة للنعماني .

٨٣ ـ الفقيه (من لا يحضره الفقيه) ط ١٣٧٦.

٨٤ ـ الفهرست للشيخ الطوسي .

٨٥ ـ قاموس المحيط للفيروزآبادي .

٨٦ ـ قرب الاسناد للحميري الطبع الحجري.

٨٧ ـ الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه للسيد جواد المصطفوي .

٨٨ ـ الكافي للكليني (ره) الطبع الحروفي الحديث الذي عليه تعاليقنا .

٨٩ ـ الكافي الشاف للعسقلاني بهامش تفسير الكشاف .

٩٠ ـ الكشاف للزمخشري .

٩١ ـ كشف المحجة لابن طاؤوس .

٩٢ ـ كشف الغمة لعلى بن عيسى الاربلى .
٩٣ ـ كمال الدين للشيخ الصدوق .
٩٤ ـ كنز العمال لعلى متقى .
٩٥ ـ كنز الفوائد للكراجكى .
٩٦ ـ كنوز الحقائق لعبد الرؤوف المناوى .
٩٧ ـ الكنى والالقاب للمحدث القمى .
٩٨ ـ المجازات النبوية للشريف الرضى .
٩٩ ـ مجمع البيان للطبرسى .
١٠٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى .
١٠١ ـ المحاسن لاحمد بن محمد بن خالد البرقى .
١٠٢ ـ المحلى لابن حزم .
١٠٣ ـ المختصر (مختصر بيان العلم) لاحمد عمر المحمصانى البيروتى طبع مصر .
١٠٤ ـ مرآة العقول للمجلسى .
١٠٥ ـ مراصد الاطلاع لعبد المؤمن البغدادى .
١٠٦ ـ مروج الذهب للمسعودى الطبعة الثالثة .
١٠٧ ـ المستدرك لابن البيع الحاكم النيشابورى .
١٠٨ ـ مستدرك الوسائل للنورى .
١٠٩ ـ المسند لابى عوانة .
١٠١ ـ المسند لابى عبدالله أحمد بن حنبل .
١١١ ـ المسند لابى داود الطيالسى .
١١٢ ـ مشكاة المصابيح لولى الدين محمد ابن عبدالله الخطيب التبريزى .
١١٣ ـ مصابيح السنة لابى محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوى .
١١٤ ـ مصباح الشريعة .
١١٥ ـ مصباح المنير للفيومى .
١١٦ ـ مطالب السؤول لابن طلحة .
١١٧ ـ معالم التنزيل للبغوى .
١١٨ ـ معانى الاخبار للصدوق ط ١٣٧٩ .
١١٩ ـ المعارف للدينورى .
١٢٠ ـ المغنى عن الاسفار للعراقى برمز (م) .
١٢١ ـ مفتاح الفلاح للشيخ البهائى طبع مصر .
١٢٢ ـ مفردات القرآن للراغب .
١٢٣ ـ مقاييس اللغة لاحمد بن فارس .
١٢٤ ـ مكارم الاخلاق للطبرسى ط ١٣٧٦ .
١٢٥ ـ المناقب للخوارزمى .
١٢٦ ـ منتخب كنز العمال بهامش المسند .
١٢٧ ـ منية المريد للشهيد الثانى .
١٢٨ ـ المواهب اللدنية للقسطلانى .
١٢٩ ـ الموضوعات لمولى على القارى .
١٣٠ ـ النوادر فى جمع الاحاديث للفيض .
١٣١ ـ النهاية لابن الاثير الجزرى .
١٣٢ ـ نهج البلاغة .
١٣٣ ـ نيل الاوطار للشوكانى .
١٣٤ ـ نظم درالسمطين للزرندى .
١٣٥ ـ وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملى .
١٣٦ ـ الوافى لمولانا الفيض .
١٣٧ ـ الهداية للصدوق .

هذه المصادر هي الّتي نقلت عنها بلا واسطة وبقي غيرها من المصادر المنقولة عنها مع الواسطة و هي كثيرة كما هو المشاهد في الكتاب .

شكر جميل

الحمدلله الّذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر ، نشكره ونحمده على عظيم إحسانه ، و نيّر برهانه ، و نوامي فضله وامتنانه .

أمّا بعد فقد أبرأ الله تعالى ذمّتي و عهدتي عن هذا الخطب الفادح مع كثرة أشغالي ، وخفّف كاهلي عن أعباء هذا الحمل الّذي بهظني و ملك أعنّة نفسي أربع سنين فآدني وقطع مطاي ، وذلك أمر أوجبت على نفسي في مهمّة تحقيق الكتاب ، و ركبت الصعب باختيار منّي دون أيّ قهر أو جبر ، ولات حين مناص .

فله الحمد على ما يسّر لي اُهبته ، وأتاح لي الفرصة حتّى جئت على آخره و رضت في هذا السفر الطويل شعابه وأوديته ، وخضت غماره ، و اقتحمت عقباته ، و استخرجت كنوز أخباره ، و أشرت إلى مصادره و مآخذه ، و أوضحت ما شقّ على الذّهن من عباراته ، و أفصحت عمّا دقّ من إشاراته ، ولم أرُم الإكثار و الإطناب فيما علّقت عليه إلاّ ما دعت ضرورة البيان إليه ، راجياً من المولى سبحانه القبول فإنّه خير منعم و مسئول .

وفي الختام نمدُّ كفّ الضراعة بذلّ وخشوع إلى من يجيب دعوة المضطرّين أن يفرّج عنّا غمرات الكروب ، وما أصبحنا فيه من الفتن والهنابث والكوارث الّتي قلب المؤمن فيها يذوب ، فإلى الله المشتكى وعليه المعوّل في الشدّة والرّخاء .

علي اكبر الغفاري ١٣٨٣ ـ هـ